

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

عصر أبي فراس الحمداني

الحمداني

الدكتور يوسف بكار

تصـديـر

إذا كانت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في الدورات السابقة قد اتجهت إلى العصر الحديث واختارت أربعة من أعلام الشعر فيه، ليكون القارىء على إلمام بالتضاريس الأساسية في خريطة الشعر المعاصر، فإنها في هذه الدورة تتّجه من الحاضر إلى التراث الشعري، وهي في هذه الانتقالة لا تنفصل عن الحاضر إنما ترجع إلى جذوره، فالتراث الشعري هو الفضاء الذي تتحرك فيه كل إبداعاتنا الراهنة، وهو السجل الأمين لتجليات الروح العربية خلال العصور.

وعندما بحثت المؤسسة عن اسم شاعر من التراث ليكون بطل هذه الدورة، وقع الاختيار على أبي فراس الحمداني، ولم يكن هذا الاختيار عشوائياً، فهناك شعراء أكثر بروزاً في حقل التراث، ولكن أبا فراس شاعر له طابع خاص قد لا يتوافر في غيره من الشعراء.

يتميز أبو فراس بمعلمين بارزين: الأول يتعلق بدوره في الحياة، والثاني بموقفه من الشعر، كان دوره الذي اختاره في الحياة هو دور الفارس، فقد ولد أبو فراس في قرن مضطرب، وفي دولة ثغور، وعلى بعد أميال من عدو تاريخي، في ساحة اختلطت فيها الصراعات المذهبية والقومية والقبلية والدينية فشكّلت لوحة ملتبسة، وفي ظرف كانت السيوف لا الأقلام هي التي تكتب التاريخ، فقد كان اختيار الشاعر للفروسية منهجاً في الحياة على الرغم من موهبته الشعرية هو الاختيار الصائب، وبقي الشعر لديه هواية وليس عملاً، ورديفاً وليس أساساً.

ولكن السيف الذي شق به طريقه في الحياة لم يكن كباقي السيوف، ففي حين أصبح الكثير من الفرسان تجار حرب يؤجرون قوتهم لمن يدفع، وحول البعض سيوفهم

إلى الحصن الواحد يقتطعون منه بعض أحجاره ممالك لهم ولو على حساب تخريب الحصن، أدرك أبو فراس بفطرة نقية الاتجاه الصحيح للصراع وهو الصراع مع العدو الخارجي «الروم»، فكرس حياته لهذا الهدف النبيل، ودفع من دمه ومن حريته ثمناً لهذه الحرب المقدسة، وكانت حياته القصيرة معركة متصلة مع هذا الخصم الذي أراد أن يعيد العرب إلى ذلّ الهيمنة.

والسمة الثانية لأبي فراس ليست في شاعريته بل في توجيه هذه الشاعرية، فإذا كان الشعر موهبة فطرية فإن توجيه هذه الموهبة خيار ذاتي، وأبو فراس لم يُرِد لشعره أن يكون أوسمة تعلق على صدره بحثاً عن مكانة اجتماعية لم يكن يفتقدها، فقد أودع قصائده عند أستاذه ابن خالويه، ككنز مخبأ للأجيال وحظر نشره، ونأى بشعره أن يكون – كما فعل الكثيرون باباً للرزق يستعيره الآخرون لتلميع صورهم أو لتشويه خصومهم مما أوقف الشعر على حافة سقوط استمر قروناً.

غدا الشعر من خلال أبي فراس تعبيراً عن أعماق نفس الشاعر بكل ما تجيش به من أحزان وأفراح وآمال وخيبة، الشعر أولاً هو حديث النفس المرهفة مع ذاتها، وهذا الحوار الداخلي الذي يستكنه أعماق النفس، هو جوهر الشعر، والحديث مع الذات الناضجة ليس انعزالاً بل هو حديث عن كل ذات، وبذلك أدرك أبو فراس مسار الشعر الصحيح، ونأى به عن المسارب المنحرفة التي بدأت تنظر إلى الشعر كقدرة لغوية تسخّر لرغبات الآخرين، وعندما يبتعد الشعر عن جذره (ذات الشاعر) يصبح نبتة اصطناعية ميتة، ولا يعبر عن أي ذات.

كان العصر العباسي يغصّ بالفرسان وبالشعراء، ولكن أبو فراس من بين قلة استطاع ان يعيد الفروسية إلى وضعها الأصيل كدفاع عن المجموع ضد العدو الخارجي، وتمكن أن يعيد الشعر إلى جوهره: التعبير عن أعماق نفس الشاعر، وجه سيفه إلى الخارج ووجه شعره إلى داخل نفسه، وبذلك حقق المعادلة الصحيحة

بين الكلمة والفعل .

إن أبا فراس بهاتين الميزتين يدخل عصرنا لا كضيف زائر بل كأحد مقوّمي الخلل في البنية العربية ، لقد جمع بين السيف والقلم ، وعرف بذكاء ومهارة كيف يرتب هذا الثنائي من حيث الأهمية في لحظة تاريخية خطيرة ، وعرف كيف يوجه سيفه إلى العدو الحقيقي ، وكيف يوجه قلمه إلى النبع الثرّ ، وبذلك يكتسب أبو فراس أهمية بالغة في عصرنا كضمير تاريخي يحرس الثوابت القومية والفنية التي نحتاجها في كل عصر لحماية أمتنا وازدهار أدبنا ، وفي عصرنا الراهن حيث فقدت بعض السيوف اتزانها ، فعاثت في اللحمة القومية تمزيقاً ، وانحرفت بعض الأقلام عن مسارها الصحيح بحثاً عن مجد مدنّس ، من حقنا وواجبنا أن نستدعي أبا فراس إلى مشهدنا الراهن ليكون حَكَماً ومعلّماً ، ولهذا السبب نحن نحتفل بهذا المقاتل وبهذا الشاعر في مفتتح الألفية الثالثة ، وبعد مرور أكثر من ألف عام على وفاته فإن أبا فراس لا يفقد حضوره معنا ، وهذا طابع الشخصيات العظيمة .

واني اذ أقدم هذا الكتاب ضمن إصدارات دورة أبي فراس الحمداني فإني اتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور يوسف بكار الذي أنجزه في فترة قياسية ليكون بين أيديكم .

ومـن اللــه التوفيــق ، ،

عبدالعزيز سعود البابطين

أغســطــس ٢٠٠٠

هذا الكتــــــاب

فحين كرّمتني مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري الزاهرة وكلّفتني تأليف هذا الكتاب عن عصر أبي فراس الحمداني لدورتها السابعة " دورة أبي فراس الحمداني " رحبت بالتكليف شاكراً لها ثقتها الكريمة وأنا أعي تماماً جسامة المسؤولية ووعورة هذا المركب الصعب . فالوقت قليل وضيق لعصر هو القرن الرابع الهجري بأكمله ، والمصادر كثيرة ولا تقل المراجع التي كتبت عنه وعن الحمدانيين وعن أبي فراس عنها عدداً . بيد أنّني قبلت التكريم التحدي إيماناً مني باختلاف المناهج وطرائق التناول وزوايا الرؤية والقراءات العلمية ، وانطلاقاً من تجربة وخبرة سابقتين لي مع القرن الثاني الهجري تمخضتا عن كتابي «اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري» ، وإدراكاً لما جدّ من مصادر وموادّ قد تسعف بشيء أو أشياء من الجدّة والاجتهاد .

لقد رسمت لنفسي منهجاً ينهض على التكثيف العلمي في إبراز السمات الكُبر والمهمة بإيراد المُثُل الكافية الشاملة لكل موضوع أو مبحث عرضت له في إطار ما طلب إليّ التركيز عليه والاعتناء به أكثر من غيره في حدود الأطر الثلاثة الأهم : السياسي والاجتماعي والعلمي والأدبي ، وهي الأطر التي ينهد بها الكتاب الذي يتألف من مدخل ، وفصول ثلاثة . ولم يفتني أن أركّز بأمانة ، في كل فصل ، على أدوار الحمدانيين ومواقعهم أياً كان نوعها ولبوسها ما دام الكتاب موقوفاً على عصر شاعرهم الفارس .

تعمدت أن يكون المدخل مكثّفاً جداً عن بني حمدان بدءاً بالسلف الأول الأدنى منذ عهد جدّهـــم " حمدان " وانتهاء بالخلف الضعيف سعد الدولة بن سيف الدولة

وحفيده سعيدالدولة، ومروراً بما بين الأول والآخر من رجالاتهم وشؤونهم.

فأمّا الفصل الأول فانعقد للعصر السياسي وعُني بصواه الأبرز وأحداثه السياسية الكبرى والأهم لا سيما ضعف الخلافة العباسية والنيل منها، وانقسام أرض الإسلام إلى دول وإمارات شتّى متباينة الأعراق والمذاهب تتنازع بينها في الداخل وتتصارع مع غيرهـا في الخارج؛ ووقف الوقفة التي اقتضاها الموقف والموقع عند أحداث الدولة الحمدانية الداخلية في صراعها مع القبائل والقادة والغلمان وأهل المدن والقرامطة والبويهيين والإخشيديين والفاطميين. أما الوقفة الأطول فكانت مع الأحداث الخارجية ومحاربة الروم تحديداً، ولم يكن ليفوته أن يظهر موقع أبي فراس الحمداني في الدولة الحمدانية وأحداثها.

وأمّا الفصل الثاني فموقوف على العصر الاجتماعي بسكانه من حيث الأعراق والأديان والمذاهب، وبأكبر ظاهرتين فيه الثراء والفقر من حيث الأسباب والمظاهر والمخرجات المختلفة في كلّ منهما، وهي كثيرة. ولم يخل من أن يكون للمرأة مكان فيه لما كان لها هي في العصر ذاته من مواقف وأدوار شتّى.

وأمّا الفصل الأخير، فأفردته للعصر العلمي والأدبي الذي كان حظّه، لأسباب عدّة من الازدهار والتقدم، كبيراً بنحو مفارق لما كان عليه العصر السياسي من تردّ وتمزّق وفوضى، والعصر الاجتماعي من تخلخل وتفاوت ومفارقات عجيبة. ولقد تجلت مظاهر ازدهاره في استمرار حركة الترجمة، وما كان ثمة من مجالس للعلم والأدب ودور للكتب ومعاهد للعلم، وفي الاهتمام بالعلوم النقلية والعقلية والتأليف فيها كما يتبدّى في مباحث التفسير والحديث والفقه، وعلوم اللغة بكل ضروبها، والبلاغة والنقد، والتاريخ والجغرافية، والفلسفة، والطب، والكيمياء والصيدلة، والرياضيات والفلك والنجوم، والإبداع الأدبي بجنسيه الكبيرين النثر والشعر. وأنهيت الفصل، وفقاً للمنهج العام للكتاب، بموقع الحمدانيين في هذا العصر العلمي والأدبي وحظّ دولتهم منه.

ولست أملك في الختام سوى الشكر الجزيل أزجيه خالصاً لمؤسسة البابطين والقائمين على إدارتها، فلولاهم جميعاً لما كان هذا الكتاب. أمّا الأخ الكريم والصديق العزيـــز الوفيّ الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبد المهدي الأستاذ بالجامعة الأردنية بعمّان وصاحب كتاب "أبوفراس الحمداني : حياته وشعره"، فقد غمرني، كعادته، بما تفضّل عليّ به من مصادر ومراجع؛ فله مني كل الشكر والعرفان كفاء ما قدّم ويقدم، وجزاه الله عني خير الجزاء. وأمّا السيدة الفاضلة لطيفة تفّال، فهي قمينة بكل تقدير وشكر جزاء ما كابدته وتحملته من مشاق وصرفته من وقت وجهد في طباعة أصول الكتاب ومعاودتها المرة تلو المرّة.

واللّه أسأل دائماً السّداد والتوفيق، فهو المولى والملجأ ونعم المعين، وإليه ترجع الأمور جميعاً.

يوسف بكّـــــار

إربـــد / الأردن
٢٠٠٠/٦/٢٠

****

مدخل مكثف

بنو حمدان

فيرتد أصل الحمدانيين إلى قبيلة تغلب المشهورة على مرّ الأعصر. يقول أبوفراس[1]

لنا أوّلٌ في المكرمات، وآخرُ
وباطن مجدٍ تغلبيّ، وظاهرُ

بيد أن ثمة عبارة لافتة للانتباه للدكتور طه حسين كتبها في الهامش، هي: " يشك بعض المؤرخين في عربية بني حمدان"[2]، دون أن يذكر مصدرها أو واحداً من أولئك المؤرخين حتى قال أحد الباحثين[3]: «ولا أدري مصدر ذلك».

ربما يكون مصدر طه حسين ما عثر عليه الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي عند الهمداني صاحب " صفة جزيرة العرب " وعند ابن خلدون. فالأول عدّ "آل حمدان بن حمدون " – جد الحمدانيين الأول - من موالي " تغلب "[4]، والآخر عزا إلى ابن حزم الأندلسي أنه لم يشر إلى " آل حمدان " في " الجمهرة " وأنه عدهم موالي بني أسد.

وفي الأمرين معاً، يقول الدكتور عبدالجليل[5]: " أمّا ما ذكره الهمداني، فلا يعتد به، لأن عداوة حدثت بينه وبين النزارية والمتنزرة بسبب كتابة " القصيدة[6] الدامغة النونيّة " على معدّ والفرس، كما نسب إليه أنه هجا النبي(ص) فسجن، وكان يخاف العلويين[7]. أمّا ابن حزم، فقد رجعت إلى جمهرته فلم أجد حديثاً ينص على أن بني

حمدان من موالي بني أسد " .

ينتسب الحمدانيون إلى جدّهم الأول الأدنى حمدان بن حمدون[٨] (أبو العبّاس) صاحب قلعة " ماردين" بالقرب من الموصل ، الذي أعلن استقلاله فيها عام ٢٧٤هـ ، وقد برز اسمه أول مرة عام ٢٥٤هـ حين ضمّه الحسن بن أيوب بن أحمد التغلبي إلى عسكره لمحاربة مساور بن عبد الحميد الذي استولى على أعمال الموصل ، ثم جعل اسمه يتردد لمشاركته في بعض الحروب في محيطه . وقد وصف بأنه " كان يحارب بالطريقة التي تروقه ، ويغزو في الجبهة التي يستشعر من ورائها فائدة محقّقة ، وكان يعدّ نفسه لزعامة خطيرة لقوة شخصيته وجرأتها . . . ، ولكثرة أبنائه وشجاعتهم وفروسيتهم . . . ، ولاضطراب الأمور العامة في دولة الخلافة وتمزقها . . . "[٩] .

وجاز في حروبه محيطه إلى حرب الروم ، فقيل إنه وصل إلى " ملطية " وبنى لها سوراً كتب اسمه عليه ، وقد وجده سيف الدولة في المرتين اللتين دخل ملطية فيهما : الأولى عام ٣١٣ (أو ٣١٨هـ) مع ابن عمه أبي العلاء ، والأخرى بعد عشرين سنة وكان أبوفراس معه . يُروى عن أبي فراس عن سيف الدولة[١٠] : " دخلت ملطية أنا وعمي أبو العلاء سنة ثلاثمائة وثلاث عشرة (أو ثماني عشرة) ، فقرأت اسم جدي على سورها " . وقال أبوفراس : «ودخلتها أنا مع سيف الدولة ، بعد فتحها بعشرين سنة ، وقد اجتزنا بها في بعض غزواته وقصدنا موضع الاسم ، فوجدناه مكتوباً " . وفي هذا قال أبوفراس شعراً[١١] :

أسا داء ثغرٍ كان أعيا دواؤُهُ
وفي قلب مَلْك الروم داءٌ مخامرُ
بنى ثغرها الباقي على الدهر ذكرُهُ
نتائج فيها السابقات الضّوامرُ

ووصل حمدان إلى أوج مجده السياسي في الدولة العباسية إثر تحالفه مع هارون

الشاري الخارجي ودخولهما الموصل فاتحين عام ٢٧٢هـ، وقد دام تحالفهما عشر سنوات خاضا فيها عدداً من الحروب قد يكون أهمها الحرب مع بني شيبان التي انتصر فيها الحليفان، لكن لمّا دعا هارون الخارجي لنفسه بالموصل وسار إليها عام ٢٨١هـ هرب حمدان من قلعته (ماردين) مخلفاً عليها ابنه "الحسين" الذي سلّمها دون مقاومة، أما أبوه فقد قبض عليه بعد عام من هروبه وزجّ به في السجن ببغداد.

ولمّا أحس الخليفة المعتضد بخطر الشاري ورغب في التصدي له والقضاء عليه ندب إلى مقارعته ابن حليفه السابق الحسين بن حمدان الذي عاد به أسيراً بعد قتال قصير معه مما سرّ المعتضد كثيراً وحمله على مكافأة الحسين بأن أطلق سراح أبيه، وأزال الإتاوة عن بني تغلب، وضم خمسمائة فارس منهم إليه[١٢]. وفي هذا يقول أبوفراس[١٣]:

وأقبل "بالشاري" يُقاد أمامَهُ
وللقيد في كلتا يديه ضفائرُ

وكان للحسين بن حمدان، كذلك، دور في مجاهدة القرامطة إذ حاربهم، بعد أن استفحل أمرهم في الشام عام ٢٩٠هـ، غير مرة في الشام والأردن وانتصر عليهم عامي ٢٩٣ و٢٩٤هـ وهو الذي أسر "صاحب الشامة" الذي دخل دمشق وأخذ منها الخراج ثم تحوّل إلى حمص وخطب على منابرها وسمّى نفسه "المهدي أمير المؤمنين". وفي أسر صاحب الشامة يقول أبوفراس[١٤]:

وشنّ على "ذي الخال" خيلاً تناهبتْ
"سماوة كلب" بينها و"عُراعرُ
أضقنَ عليه البيد، وهي فَضافضٌ
وأضللنَه عن سُبْله، وهو خابرُ

ومهما يكن الأمر، فإن الخوارج، بموت هارون الشاري، ضعف أمرهم، لكنهم

ظلّوا يقلقون الفاطميين في المغرب حتى خلافة المنصور الفاطمي (٣٣٤ - ٣٤١هـ) فهو الذي قبض على زعيمهم مخلّد بن كيدار وسيق إلى المهدية حيث مات عام ٣٣٦هـ، ويقلقون العباسيين لا سيما في اليمن وعمان إلى منتصف القرن الخامس الهجري[١٥].

والحسين بن حمدان هو نفسه الذي حارب الطولونيين بمصر ومعه أخواه : داود بن حمدان ولقبه "المزرفن"[١٦] وأبو الوليد ولقبه " الحرون"، فانتصر عليهم وحكم مصر، بيد أنه كرهها فتركها وعاد الى بغداد بغنائم كثيرة. وفي هذا يقول أبوفراس[١٧] :

وأجـلـتْ لـه عن فـتـح " مـصـرَ " سـحـائبٌ
من الـطـعن سُـقـيـاهـا المـنـايـا الـحـواضـرُ
تَـخـالَط فـيـهـا الجـحـفلان كلاهـمـا
فـغِـبنَ الـقـنـا عـنـهـا ونُـبْنَ الـبـواتـرُ

والحسين بن حمدان هو الذي فتح بلاد فارس أيضاً، وشارك عدداً من القادة في خلع الخليفة المقتدر عام ٢٩٦هـ وتنصيب ابن المعتز الخليفة التعس الذي لم يحكم سوى ليلة واحدة عاد المقتدر بعدها إلى سدة الخلافة، وأرسل في طلب الحسين بن حمدان الذي كان قد هرب إلى الموصل، فبعث الخليفة إلى أخيه أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان ليقبض عليه، فاقتتل الأخوان مرتين دون أن يتمكن أبو الهيجاء من القبض عليه. غير أن الخليفة قبل شفاعة الوزير ابن الفرات فيه فعاد إلى بغداد، ووُلّي قم وقاشان في بلاد الفرس، وربما تشفع الخليفه له لشجاعته وسابق فضله في نصرته. وكان الحسين وإخوته شجعاناً مغاوير، وقد تغنّى بعض الشعراء بشجاعتهم[١٨]. واللافت حقّاً أن يشترك أبوالهيجاء في خلع المقتدر مرة ثانية عام ٣١٧هـ غير أنه يفشل فيقتل.

وكان لحمدان من الأبناء غير الحسين (أبي العشائر)، إبراهيم (أبو إسحق)، وداود المزرفن (أبو سليمان) وعبدالله (أبوالهيجاء)، ونصر (أبو السرايا)، وقد كان لهم شأن وحول في الدوله العباسية إذ تقلدوا مناصب وإمارات فيها.

فالحسين (الذي توفي عام ٣٠٦هـ وقيل قتل) تولى، فضلاً عما سلف، ديار بكر

وربيعة مدة من الزمان، وسعيد تولى نهاوند عام ٣١٢هـ والموصل من عام ٣١٧ حتى ٣١٩هـ، وداود تولى ديار ربيعة عام ٣٠٩هـ، وأبو الهيجاء تولى الموصل منذ عام ٢٩٣هـ حتى قتل عـام ٣١٧هـ، ثم وليها ابنه الحسن (ناصر الدولة) الذي ضم إليها بلاد ربيعة وتمكن من أن يؤسس فيها نواة دولة بني حمدان.

ومهما يكن أمر أبي الهيجاء، فقد كانت له أعمال جليلة، إذ حمى الحج من فتن القبائل، وقضى على ثورة " يوسف بن الديوداذ أبي ساج" وقتله، وفي هذا وغيره يقـول أبوفراس[١٩] :

وعَمّي الذي سُلَّتْ بنجدٍ سيوفُهُ
فروّع بالغَوْرين مَن هو غائرُ
تناصرتِ الأحياء من كلّ وجهةٍ
وليس له إلاّ مِن اللّه ناصرُ
وساق إلى ابن " الدِّيْوَداذ " كتيبةً
لها لجبٌ، من دونها، وزماجرُ

ولقد وصف رجال الحمدانيين هؤلاء بأنهم " كانوا على جانب كبير من الذكاء والكياسة وحسن الفهم لسياسة الدولة، فكانوا يبسطون سلطانهم على الخليفة بسطاً تاماً، فإذا لاحظوا خطراً يحدق بهم بدأوا يتراجعون. ولقد دخلوا السجن مرات كثيرة، بل كثيراً ما دخلوا دفعة واحدة كما حدث سنة ٣٠٣هـ لخروج كل من الحسين وأبي الهيجاء على الخلافة ومحاربة جيوشها، وقد ظلوا في السجن هذه المرة عامين كاملين "[٢٠].

والحسن هذا هو الذي قَتل عام ٣٢٣هـ عمّه سعيداً (أبا العلاء) والد أبي فراس لأنه ضمن الموصل وديار ربيعة سراً، وقد كان بها ناصر الدولة، فأنكر الخليفة الراضي عليه ذلك، ووجّه إليه ابن مقلة فرحل ناصر الدولة عن الموصل، بيد أنه عاد إليها بنحو ما وطلب الصفح من الخليفة فأجيب إلى طلبته[٢١]. وهو نفسه، الذي هرب إليه واحتمى به الخليفة المتقي ومعه أمير الأمراء ابن رائق من " البريديين "[٢٢].

بيد أنه، طمعاً في أن يلقب بأمير الأمراء، أوعز بقتل ابن رائق (عام ٣٣٠هـ) وهو

ضيفه، فرضي الخليفة عنه وخلع عليه لقب " ناصر الدولة " وجعله أمير الأمراء، كما لقب أخاه الأصغر علياً " سيف الدولة "[٢٣].

يرى آدم متز[٢٤] أن عام ٣٣٠هـ الذي فرّ فيه الخليفة إلى الموصل كان بدء عهد الفساد الحقيقي ببغداد، ففيه فتح البريديّ المدينة، وظلم الناس ظلماً بشعاً[٢٥].

هكذا واتت الفرصة لأن يكون للحمدانيين الدور الذي عملوا من أجله وانتظروه، فتوجه الحسن (ناصر الدولة) ومعه أخوه سيف الدولة والخليفة عام ٣٣٠هـ بجيش كبير إلى بغداد وطردوا البريديين منها ولاحقوهم حتى واسط والبصرة، ثم جعل ناصر الدولة يمارس سلطته في بغداد، فاستوزر أبا العباس بن عبدالله الأصفهاني، وضيق على الخليفة في النفقات وغصب ضياعه وضياع أمه، واهتم بالعمارة، وضرب دنانير جديدة وتصدى للصيارفة في مسألة أخذ " الربا "[٢٦]. لكن إمرة الحمدانيين ببغداد لم تعمر أكثر من ثلاثة عشر شهراً لاضطراب الأمور فيها، وخلافات سيف الدولة مع الجنود الأتراك، فقرر ناصر الدولة أن يعود إلى الموصل حيث بسط سلطانه على البلدان المجاورة لها.

وبعد أن دخل القائد التركي(توزون) بغداد وجعله الخليفة المتقي أمير الأمراء ثم اختلفا، استنجد الخليفة بالحمدانيين وذهب إليهم في الموصل عام ٣٣٢هـ، ونشبت حرب بينهم وبين توزون فهزمهم، لكنهم أبرموا صلحاً يقضي بأن تكون الأعمال من الموصل إلى آخر أعمال الشام لناصر الدولة، وأعمال السِّن (مدينة فوق تكريت آنئذ)[٢٧] حتى البصرة لتوزون دون أن يتعرض أحدهما للآخر[٢٨].

ولمّا سيطر البويهيون على بغداد عام ٣٣٤هـ في عهد المستكفي، طلب معز الدولة البويهي إلى ناصر الدولة الحمداني أن يحمل إليه الأموال التي يدفعها عما في يده من البلدان فرفض، فسار إليه معز الدولة وتحاربا فانهزم ناصر الدولة لكنهما تصالحا بآخرة عام ٣٣٥هـ[٢٩] وتكرر الأمر حتى إن ناصر الدولة استنجد بأخيه سيف الدولة عام ٣٤٧هـ فتكفل بالأموال وانتهى الموضوع[٣٠].

وتفاقم الخلاف بين الحمدانيين، فقبض أبو تغلب بن ناصر الدولة[٣١] على أبيه عام ٣٥٦هـ وحبسه في قلعة "كواشي" (شرقي الموصل) إلى أن مات عام ٣٥٨ هـ، فضلاً عن اختلاف أبنائه أنفسهم إلى حد الاقتتال، إذ قتل حمدان أخاه أبا البركات. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إنما وصل التفرق بهم إلى أن يلاطف أبو تغلب طاغية الروم ويهادنه ويقدم إليه الميرة، ويدخل بعضهم في طاعة البويهيين، وآخرون في طاعة عزيز مصر، ومنهم من دخل في طاعة عمهم شريف (أبي المعالي) في حلب[٣٢]. وهكذا انتهت دولة الحمدانيين في الموصل عام ٣٦٨ هـ تقريباً.

وصفوة الرأي أن "الحمدانيين نشأوا في ديار بني ربيعة، وملكوا الموصل وما جاورها سبعين سنة ونيفاً، ولكن هذه الديار لم تكن خلال هذه السنوات تحت سيطرتهم الفعلية فقد جلوا عنها وعادوا إليها، وكانت مرتبطة ببغداد مقر الخلافة.

وقد حاول الحمدانيون أن يعطوها شبه استقلال مركزي فوفقوا مرة وخذلوا مرات، وكانت المطامع توقظ حماسة غيرهم من المتغلبين، وكانت الدسائس تلعب دورها والحروب العنيفة تقوم بقوة، وكانت الثورات تعلن في وجه الخليفة الضعيف. ومع أنّ هذه المآسي قد تكررت أكثر من مرة على مسرح الموصل فكان همّ أكثر الأمراء الحمدانيين الاستئثار بخيرات هذه الديار دون أن يلتفتوا إلى مفهوم الدولة وعزّة الملك بمعناه الواسع الذي فهمه حفيدهم الأمير سيف الدولة"[٣٣].

أمّا سيف الدولة، ففتح حلب وأنشأ فيها ملكاً وسلطاناً عام ٣٣٣هـ، إذ انتزعها من يد أبي الفتح عثمان بن سعيد الكلابي[٣٤] والي الإخشيد عليها، وإن كان أول من ولي حلب من الحمدانيين الحسين بن سعيد أخا أبي فراس عام ٣٣٢ هـ، وكان سيف الدولة، قبل ذلك، على واسط ونواحيها. ولما تقلبت به الأحوال انتقل إلى الشام، وملك دمشق وكثيراً من الشام والجزيرة. وحين توفي عام ٣٥٦ هـ قبل أبي فراس بعام واحد، ملك بعده ابنه سعد الدولة[٣٥] (أبو المعالي شريف بن سيف الدولة) حتى وفاته عام ٣٨١هـ، فخلفه ولده أبو الفضائل (سعيد الدولة) الذي انقرض بموته مسموماً عام ٣٩٢ هـ ملك بني سيف الدولة وحكمهم الحقيقي في حلب[٣٦].

وعلى الرغم من أن ابن سيف الدولة وحفيده لم يكونا مثله، فقد كان البون شاسعاً بين سعد وابنه. فأما الأب فقد استطاع عام ٣٦٣هـ أن يستعيد ملكه الذي غصبه عام ٣٥٨ هـ "قرغويه" غلام والده، وأن يقيم الدعوة فيها للعزيز الفاطمي، فاصبحت حلب ولاية فاطمية بعد أن كانت عباسيّة؛ وهو الذي أضاف عام ٣٦٧ هـ إلى الأذان "حيّ على خير العمل، محمد وعلي خير البشر". وقد أثبت جدارته في حروبه الداخلية مع "قرغويه" و"بكجور" القائد، وهزم الروم غير مرة. ومات عام ٣٨١ هـ بالرقة(٣٧).

أمّا الابن (سعيد الدولة)، فكان رأسه المدبر صاحب جيشه وحماه (من بعد) الأمير أبا محمد لؤلؤ الكبير السيفي. وفي عهده حدثت مناوشات بينه وبين الفاطميين جعلته يستعين عليهم بالروم الذين أنجدوه غير مرة، لعل أهمها تلك التي خرج فيها "باسيل" الملك نفسه، فهزم الفاطميين وتسامح مع سعيد الدولة كثيراً(٣٨).

واستخلص آدم متز من مجمل تاريخ بني حمدان وما تناقله الرواة والمؤرخون عنهم ما يأتي(٣٩):

١ - أنهم "أسوأ من يمثل خصال البدو"، لأن ابن رائق قال لعلي بن حمدان في مجلس شراب: "وأي شيء تسْوون أنتم، وأي مكان كان لكم، وهل أنتم إلاّ أعراب؟".

٢ - نهبهم أموال الرعية وأملاكهم، وجورهم على الزراع، وعداوتهم للعمارة والأشجار، وتخريبهم، ونقضهم الدائم للعهود، وقتل ناصر الدولة ابن رائق وهو ضيفه، كما سلف.

٣ - استشراء النزاع وعدم رعاية حقوق الطاعة بينهم لا سيما فرعهم في الجزيرة كالذي كان يحدث بين ناصر الدولة وأولاده. وكذلك الحال في فرعهم بالشام إذ قتل - كما في إحدى الروايات - أبو المعالي بن سيف الدولة أبا فراس بعد استئمانه، وأخذ رأسه وترك جثته في البريّة(٤٠). وكان قد قُتِل سعيد والد أبي فراس عام ٣٢٣هـ على

يد ابن أخيه ناصر الدولة[٤١].

بيد أن المستشرق يستثني سيف الدولة، ناسياً أبا فراس، ويقول عن الأول: " ولم يظهر أحد من الحمدانيين بشيء من الفروسية والأعمال العظيمة إلاّ سيف الدولة"، لكنه يستدرك " على أننا نلاحظ أنه كان في حربه مع الروم يقع دائماً في نفس الفخ " ويستشهد بقول أبي الفداء " وكان سيف الدولة معجباً بنفسه، يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً، لئلا يقال عنه أنه أصاب برأي غيره "[٤٢].

أحسب أن جلّ هذه الأمور طبيعية في حياة الناس وذوي السلطان حتى لو كانوا ذوي قربى، وليست مقصورة على الحمدانيين وحدهم، وقد وصفهم الثعالبي عامة وسيف الدولة خاصة، فقال[٤٣]: " كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم. كان. . . غرّة الزمان، وعماد الإسلام، ومن به سداد الثغور، وسداد الأمور، وكانت وقائعه في عصاة العرب تكفّ بأسها. . .، وتفلّ أنيابها، وتذل صعابها، وتكفي الرعية سوء آدابها. وغزواته تدرك من طاغية الروم الثأر، وتحسم شرّهم المثار، وتحسن في الإسلام الآثار". كما وصف أبا فراس بقوله[٤٤]: " كان فرد دهره، وشمس عصره: أدباً وفضلاً، وكرماً ونبلاً، ومجداً وبلاغة وبراعة. . . ". مهما يكن الأمر، فقد كان الحمدانيون في الجزيرة والشام النفوذ العربي الوحيد إزاء النفوذ التركي والنفوذ الفارسي في القرن الرابع الهجري. وعظم نفوذهم بالموصل وحلب، ورغبوا في الاستيلاء على بغداد، وطرد ذينك النفوذين، واستخلاص الخليفة لهم.

وكانت حياتهم " مظهراً من مظاهر الحياة البدوية المتحضرة: حبّ للحرب، واستبداد السادة بالرعية، وكرم ومروءة، وشهامة ونجدة، وعصبية للعربية ضد الفرس والترك، وعصبية للقبيلة ضد بني كلاب وبني عُقيل، وعصبية للإسلام ضد الروم "[٤٥].

وعلى أية حال، فإن لأبي فراس رائية طويلة عدّتها (٢٢٥) بيتاً، مطلعها[٤٦]:

لعلّ خيال العامريّة زائرُ
فيُسْعدَ مهجور، ويُسْعدَ هاجرُ

وقد ذكر فيها، كما يقول ابن خالويه[٤٧] : " أيام أسلافه، وآبائه، وأعمامه، وأهله، والأقربين، في الإسلام دون الجاهلية، لأن فضل الخلف ما زاد على توارث السلف ".

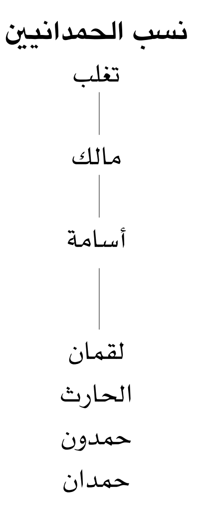
ويذكر ابن خالويه، كذلك، أن أبا فراس قال له : " أيام أسلافي، ومفاخر آبائي، وأجدادي، أكثر من أن يجمعها شعري. فقد اضطررت إلى ذكر الوقائع المشهورة، والعساكر الجامعة، فلم أذكر من الوقائع إلاّ ما كان بقبائل بأسرها، فلو عدّدت ما عدّدت العرب أمثاله . . . لعدّدت ما لا تسعه الكتب، فاقتصرت على ما ذكرت والفضلَ مشترك ".

وقد ختم القصيدة بقوله :

نطقتُ بفضلي، وامتدحتُ عشيرتي
وما أنا مدّاح، ولا أنا شاعرُ !

وشرح ابن خالويه[٤٨] القصيدة مركّزاً في الوقائع المشهورة التي اهتم بها أبوفراس نفسه.

****



عبدالله	إبراهيم	داود	نصر	سعيد	الحسين
(أبوالهيجاء)	تغلب (أبو وائل)		مهلهل	أبوفراس	علي
المتوفي سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م					أبوالعشائر

الحسن الملقب بناصر الدولة	خولة	(علي الملقب بسيف الدولة)	(فاطمة)
رأس الفرع	المتوفاة سنة	رأس الفرع	المتوفاة سنة
الحاكم في الموصل	٣٥٣هـ/٩٦٤م	الأكبر الحاكم في حلب	٣٤٤هـ/٩٥٥م

أبوالهيجاء	أبوالمعالي	أبوالمكارم
المتوفي سنة	أبوالفضائل	وأخوه أبوالمعالي ولدا إحدى
٣٣٨/٩٤٩م		أخوات أبي فراس

للاطلاع على شجرة نسب الحمدانين التامة راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ١٤٠/١، وستنفلد (الأنساب وتاريخ الأحداث في تاريخ الإسلام بالفرنسية هانوفر ١٩٢٧م) فريتاخ زامبور Freytag Zambaur (موجز في مجلة الجمعية الألمانية لبلاد الشرق) Z.D.M.G ٤٤٠/١٠

حاشية: إن الأشخاص الموضوعة أسماؤهم بين قوسين هم الذين مدحهم المتنبي)

الفصل الأول

العصر السياسي

أولاً : السمات الكبُر

عصر أبي فراس السياسي هو القرن الرابع الهجري ، القرن الذي ازداد فيه ضعف الدولة العباسية وتبعثرت في أطرافها الدول والإمارات التي انفصلت عنها أو انشقت عنها بدءاً من منتصف القرن الثالث الهجري إذ " دبت إلى الخلافة في بغداد عناصر الفوضى ، واستحكمت أسباب الفساد ، فمالت مع القرن إلى الانحدار ، وأصبح للأتراك الصولة والدولة . وكانت الأطراف الواسعة ترقب بغداد ، فلما عرفت عجز الخلافة ، استقلت عن الحاضرة الأم ، فولدت حواضر جديدة في مشارق المملكة الإسلامية ومغاربها : استقل القرامطة بالبحرين ، والسامانية بخراسان ، والعلوية بإفريقية ، والناصر بالأندلس .

وولد مع هذه الدول الجديدة والفوضى الضاربة ، والخطوب الناشبة ، شيع تفتّ في عضد الخلافة ، وطوائف تقتل الوحدة وتدفن الأمن . أما الروم فقد تفاقم شرّهم ، وتتابع غزوهم ، وهم كذلك يترقبون الفرصة لاسترداد البلاد المغصوبة والمدن المسلوبة .

وهكذا أتى القرن الثالث على هذا الملك الواسع وعفّى على الأطراف ، إلاّ الجزيرة وما بين النهرين ، فقد كان الحمدانيون فيها يدينون بالولاء للخلافة ، وهؤلاء بقية العرب من نزار قطنوا هذه الديار قبل الإسلام ، وعمروا هذه الأصقاع ، وتفرقوا في حواضرها ، وأفادوا من جوار الفرس والروم ، ولبثوا في عزٍ ومنعة ، لا يخضعون لظلم الأتراك ببغداد ، ولا يقرون لهم بالحكم .

وكان على الخلافة أن تستنجد بشجاعتهم ضد الخوارج والقرامطة ، وأن تستفيد من كثرتهم في إخماد الثورات والعصاة ، فاتصل تاريخهم بتاريخ الخلافة ، وتغلغلوا في الحكم ، فأفادوا مناصب عالية ومنحاً جليلة وإقطاعات واسعة ، وسايروا السياسة المتقلبة ، فداروا مع الخليفة أو الوزير في الرضا والغضب ، ووقفوا مع الأحزاب المتباينة ، فلربما كان حمداني في جانب ، وحمداني آخر في جانب ، فأصبح رؤوس الأسرة الحمدانية صورة للانقسام في الدولة ، يستغلون الضعف ، ويستأثرون بالحكم ، ويستقلون بالإقطاعات "(٤٩).

كان من أبرز أحداث هذه الحقبة ، مثلاً ، ثورة " الزنج " بالبصرة بزعامة البرقعي "علي بن محمد " ومعاونه " رشيد القرمطي " . فقد ثار الأول عام ٢٥٥هـ ، العام الذي قتل فيه "المعتز بالله " ، وقبل عام من خلافة " المعتمد "(٢٥٦ – ٢٧٩ هـ) ، وظل للزنج السيطرة والاتساع إلى أن قضى عليهم المعتضد(٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) أخو المعتمد نهائياً عام ٢٧٠ هـ بعد أن هدم مدينتهم " المختارة " .

وكان منها ، كذلك ، حركة القرامطة التي انطلقت بزعامة " حمدان قرمط " ، من جنوبي العراق عام ٢٧٧هـ وانتشرت في بادية الشام والبحرين والأحساء ، واشتد عودها وكثر فسادها في الثلث الأول من القرن الرابع بظهور أبي طاهر سليمان(٣٠١- ٣٣٣هـ) ، الذي قطع طريق الحج وانتزع الحجر الأسود من الكعبة وحمله إلى الأحساء حيث ظل إلى أن أعاده إلى مكانه ابنه سابور عام ٣٣٩ هـ في خلافة" المطيع "(٥٠).

ثمة عدد من الدول غير العربية التي انفصلت عن جسم الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري واستقلت عنها لكنها ظلت تعترف للعباسيين بالسلطة الدينية ، ومنها ما امتد عمرها إلى القرن الرابع والقرن الخامس . فالدول الفارسية ، هي :

(١) الطاهريّة في خراسان (٢٠٥ – ٢٥٩ هـ)، ومؤسسها طاهر بن الحسين.

(٢) الصفاريّة في فارس(٢٥٤ – ٢٩٠ هـ)، ومؤسسها يعقوب بن الليث الصفّار.

(٣) السامانيّة فيما وراء النهر(٢٦١ – ٣٨٩ هـ)، ومؤسسها نصر بن أحمد الساماني.

(٤) الساجيّة في أذربيجان(٢٦٦ – ٣١٨ هـ)، ومؤسسها يوسف بن أبي الساج. وثمة دولة تركية واحدة، هي الدولة الطولونية بمصر(٢٥٤ – ٢٩٢ هـ) ومؤسسها أحمد بن طولون.

أمّا الدول العربية التي أنشئت قبل القرن الثالث واستمرت فيه وبعضها امتد إلى القرن الرابع، فهي:

(١) الإدريسية بمراكش(١٧٢ – ٣٧٥ هـ)، ومؤسسها إدريس بن عبدالله.

(٢) الأغلبيّة بتونس وغيرها(١٨٤ – ٢٨٩ هـ)، ومؤسسها إبراهيم بن الأغلب.

(٣) الدّلفيّة بكردستان(٢١٠ ـ ٢٨٥ هـ)، ومؤسسها أبو دلف العجلي.

(٤) العلوية بطبرستان(٢٥٠ – ٣١٦ هـ)، ومؤسسها الحسن بن زيد.

وليس ثمة من حاجة إلى ذكر خلفاء بني العباس في هذه الحقبة التي تسلط عليهم الأتراك فيها ولم يكن لهم حول ولا قوة[٥١].

بدأ القرن الرابع والخليفة هو المقتدر بالله (أبو الفضل جعفر بن المعتضد) الذي بويع عام ٢٩٥ هـ، والدولة العباسية في أوج اضطرابها من جرّاء نفوذ الأتراك الشديد وتدخلهم السافر في شؤون الدولة كافة، والذي دامت خلافته خمسة وعشرين عاماً وإن خلع ليوم واحد ولّي فيه عبدالله بن المعتز بتوطئة من الأتراك وأبي علي الحسين بن حمدان عمّ سيف الدولة وأبي فراس بعد أن قتلوا وزيره الحسن بن أيوب الجرجرائي. وقد قتل المقتدر عام ٣٢٠هـ العام الذي ولد فيه أبو فراس، إثر حرب بينه وبين حاجبه

مؤنس المظفر الذي كان المقتدر قد جعله " أمير الأمراء " بعد أن أعاده إلى الخلافة .

وهكذا حكم هذا الخليفة خمسة وعشرين عاماً ، وقد نُصِّب وهو في الثالثة عشرة ، لأنه " صبيّ لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن يصرف من المكتب " ، بيد أن أمه ، وهي أم ولد رومية ، كانت هي الحاكم الفعلي حتى قيل : إن خلافة المقتدر كانت «تحت جناحـــي أمه»[٥٢] .

المهم أن أبا فراس عاصر خمسة من خلفاء بني العباس ، هم :

(١) القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ).

(٢) الراضي(٣٢٢ - ٣٢٩ هـ).

(٣) المتقي (٣٢٩ - ٣٣٣هـ).

(٤) المستكفي (٣٣٣ - ٣٣٨هـ)

(٥) المطيع (٣٣٨ - ٣٦٣هـ).

حسبنا المطيع مثالاً على ضعف خلفاء هذا العصر ، وتحكم الأتراك وغيرهم من أصحاب لقب "أمير الأمراء" ، ناهيك عن الوزراء . فلما أغار الروم عام ٣٦١هـ على ديار الجزيرة وعاثوا فيها نهباً وفساداً ، هرع أعيان بغداد إلى " بختيار " ، وهو يتصيد بنواحي الكوفة ، منكرين عليه انشغاله بالصيد وقتال عمران بن شاهين وهو مسلم ، وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الإسلام ، لّما فعلوا هذا استجاب لهم ووعدهم بالتجهز للغزاة ، وأنفذ إلى المطيع يطلب إليه مالاً لهذا الأمر ، فقال المطيع : " إن الغزاة والنفقة عليها ، وغيرها من مصالح المسلمين ، تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبى إليّ الأموال ، وأمّا إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك ؛ وإنما يلزم من البلاد في يده ، وليس لي إلاّ الخطبة ؛ فإن شئتم أن أعتزل فعلت"[٥٣] .

أما الخلفاء المتأخرون بعد المطيع ، في القرن الرابع ، من مثل ابنه " الطائع "(٣٦٣ -

٣٨١ هـ)، و " القادر "(٣٨١ – ٤٢٢هـ) فيوصفون بأنهم " لم يكن لهم عمل في إدارة الدولة، فطال لذلك حكمهم "[٥٤].

وأمّا الدول والإمارات التي نشأت في القرن الرابع الهجري من غير التي استمرت فيه، كالدولة العلوية، فكانت متعددة وعددها لم يكن قليلاً، وبعضها امتدت بها الأيام إلى ما بعد القرن الرابع. فمن الدول الفارسية كانت الدول الآتية:

(١) الدولة الزياريّة في جرجان (٣١٦ ـ ٤٣٤هـ)، ومؤسسها مرداويج بن زيّار.

(٢) الدولة البويهية(٣٢٠ – ٤٤٧هـ)، ومؤسسها علي بن بويه الذي كان يلقب "عماد الدولة"، وقد ساعده أخواه حسن (ركن الدولة) وأحمد (معز الدولة). وكانت البداية أن استولى علي عام ٣٢٠هـ (عام ولادة أبي فراس الحمداني) على أصفهان، ثم اتسعت رقعة هذه الدولة حتى شملت بغداد.

ومن الدول التركية، كانت هذه الدول:

(١) الأيكيّة في تركستان(٣٢٠ – ٥٦٠ هـ)، ومؤسسها عبدالكريم ستق.

(٢) الإخشيدية في مصر (٣٢٣ – ٣٥٨ هـ)، ومؤسسها محمد الإخشيدي(٢٦٨ – ٣٣٤ أو ٣٣٥هـ). والإخشيد لقب خلعه الخليفة الراضي على (محمد بن طغج) حين ولاّه أمر مصر، غير أنه لما قويت شوكته استقل بأمر الخلافة، واحتل فلسطين والحجاز وسورية. ولما مات كان له ولدان ضعيفان نُصِّب كافور أبو المسك، الذي كان الإخشيد قد اشتراه، وصيّاً عليهما فتولى الحكم في ظل الخليفة العباسي واستطاع أن يدافع عن مصر والشام وينازع الدولة الحمدانية[٥٥]

(٣) الغزنويّة في أفغانستان والهند(٣٥١ – ٥٨٢ هـ)، ومؤسسها سبكتكين، وكان السلطان محمود الغزنوي أعظم ملوكها.

وربما كانت الدولة الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) أهم دولة عربية في القرن الرابع الهجري[٥٦].

لقد أصيب العالم الإسلامي، في نحو عام ٣٢٤هـ(٩٣٥م) بانقسام كبير، حتى كأنه عقد انفرط، أو صخرة تفتّتتْ. صحيح أنه كان قد انفصل عنه قبل ذلك خراسان والمغرب، لكن لم يتمزق هذا التمزق إلا في نحو هذا العام " فصارت فارس والريّ وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه، وكرمان في يد محمد بن إلياس، والموصل وديار بني ربيعة وديار بكر وديار مضر في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن محمد بن طغج الإخشيد، والمغرب وأفريقيا في يد الفاطميين، والأندلس في يد عبدالرحمن الناصر، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريديّين، واليمامة والبحرين في يد القرامطة، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، ولم يبق للخلافة العباسية إلا بغداد. ولكن ما أسسه أبو جعفر المنصور والمهدي من خلق وسائل تحمل الناس على تقديس الخلافة العباسية جعل كثيراً من ولاة هذه الأقطار المستقلة يطلبون مسالمة الخليفة العباسي، والطاعة الاسمية له مع أنهم أقدر منه"[٥٧].

خلاصة الرأي، أن العصر السياسي الذي وجد أبو فراس الحمداني نفسه فيه، كانت له سمات يكاد المؤرخون والدارسون يجمعون عليها، وهي تتمثل في: " غروب شمس الدولة العباسية، وما كان من ضعف الخلفاء، واستبداد العمال، وتغلب النزعات الأعجمية على الروح العربية الصميمة، وانبثاق دويلات في أطراف المملكة الإسلامية كان همّ رجالها أن يستأثروا بخيرات هذه الممالك وتوطيد نفوذهم الشخصي، وإرهاق الشعب بضروب من العسف "[٥٨].

ورافق هذا كثرة الدسائس والاضطرابات والفوضى[٥٩]، " وكانت المملكة الإسلامية تغلي غلياناً في جحيم الاضطرابات والدسائس. كانوا ينهش بعضهم لحوم

بعـــــض، ويحفرون مقبرة الإمبراطورية الكبرى بهذا التفكك الذي أطمع البيزنطيين أن يعيدوا الكرّة على بلاد الإسلام . . . وكانت البلاد تواجه خطرين : خطر الانقسامات الداخلية، وخطر هجمات الإفرنج الخارجية . . . "[٦٠].

ولقد شبّه بلاشير حال الإسلام في الشرق في بداية القرن الرابع الهجري بحال النصرانية في الغرب في الحقبة نفسها . ففي حين كانت الحروب الداخلية تجتاح جرمانية، وكان شارل البسيط في فرنسا وبيرانجية في إيطاليا يحاولان عبثاً إعادة تأليف الوحدة "الكارولنجية"؛ كانت الخلافة في بغداد تسير نحو تفكك تام ونهائي . وكان «لتلاشي سلطة الخليفة، وشيوع الفوضى في الإدارة المركزية، والاضطرابات التي أوجدتها مؤامرات الجند، ارتداد على جميع أنحاء المملكة، ولا ريب أن . . . النزعة الانفصالية في الولايات . . . اتسعت اتساعاً لم يسمع بمثله . . . ».

يضاف إلى تلك الأسباب استمرار حركة القرامطة التي ولدت في أواخر القرن الثاني الهجري[٦١].

فمع إطلالة القرن الرابع الهجري قَتل أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنّابيّ كبير القرامطة عام ٣٠١هـ أحدُ خدمه الصقالبة في الحمام، وقتل معه أربعة من رؤسائهم كذلك . وكان أبو سعيد قد استولى على هجر والأحساء والقطيف والطائف، وسائر بلاد البحرين، وخلفه ابنه الأصغر أبو طاهر سليمان الذي غلب أخاه الأكبر سعيداً، بعد أن عهد إليه أبوه بالأمر، لعجزه وضعفه[٦٢].

وفي عام ٣١١هـ قصد أبو طاهر هذا البصرة، وكان عليها سُبُك المُفلحيّ، ووضع السيف في أهلها وقتل خلقاً كثيراً، وأقام فيها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة[٦٣].

ودخل أبو طاهر نفسه في السنة التالية الكوفة ، بعد أن طلب من المقتدر البصرة والأهواز فلم يجبه ، وأقام ستة أيام بظاهرها ، وحمل منها ما قدر عليه من الأموال وغيرها ، ثم عاد إلى هجر[٦٤] .

وفي عام ٣١٥هـ توغل القرامطة ، بزعامة أبي طاهر ، في العراق ، فدخلوا الكوفة التي سيّر المقتدر إليها يوسف بن أبي الساج لقتالهم ، فاشتبك معهم بدءاً ، وقتلوه بآخرة ، ثم استولوا على الأنبار ، وقصدوا " هيت " التي جوبهوا فيها بشدة فعادوا عنها[٦٥] .

وسار أبو طاهر ، كذلك ، عام ٣١٦هـ إلى " الدالية " و " الرحبة " و " الجزيرة " والرقة ، وغيرها ، فقتل ونهب وعاث فساداً[٦٦] . وظهر في العام ذاته عدد من القرامطة في سواد العراق ، فنهبوا وسبوا ، وقتلوا ، وجبوا الخراج[٦٧] .

وواصل أبو طاهر القرمطي حملاته ، إذ دخل مكة عام ٣١٧هـ ، واعتدى على الحجّاج ، ونهب أموالهم ، وقلع الحجر الأسود وأخذه إلى هجر[٦٨] ، ولم يعده إلى مكة إلاّ عام ٣٣٩ هـ[٦٩] . لكنه لم يكف عن مداهمة الحجيج ، فقد اعترضهم عام ٣٢٣هـ في القادسية ، وسأله جماعة من العلويين بالكوفة أن يكفّ عنهم ، ففعل بعد أن طلب إليهم أن يعودوا إلى بغداد ، فعادوا ، ولم يحج في هذه السنة من العراق أحد[٧٠] ، وكان قد اعترض في العام ذاته الحجّاج في القادسية ومنعهم من الحج أيضاً[٧١] . بيد أن أمور القرامطة اختلت وقتل بعضهم بعضاً عام ٣٢٦هـ ، ممّا جعلهم يتمسكون بهجر لا يحيدون عنها ، ويتركون البلدان الأخرى وشأنها ويريحونها من إفسادهم[٧٢] ، ويقال ، كذلك ، إن سابور بن أبي طاهر القرمطي طلب عام ٣٥٨هـ إلى أعمامه أن يسلموا الأمر إليه والجيش ، وذكر أن أباه عهد إليه بذلك ، فأبوا وحبسوه في داره إلى أن مات[٧٣] .

ووسع القرامطة دائرتهم ، إذ وصلوا عام ٣٦٠ هـ بزعامة الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطي إلى دمشق وملكوها ، وقتلوا جعفر بن فلاح ، لأنهم خافوا أن يفوّت

عليهم، بعد أن استولى عليها، (٣٠٠) ألف دينار سنوياً اتفقوا عليها مع ابن طغج. ثم ساروا إلى الرملة بعد أن أمنوا أهل دمشق، ومن الرملة ساروا إلى مصر لكنهم عادوا إلى الشام بعد نصر تارة وهزيمة طوراً. ثمّ حصروا يافا حصراً شديداً، فأرسل جوهر من مصر نجدة إلى أصحابه المحصورين فيها، غير أن الظفر كان للقرامطة[٧٤].

وساروا عام ٣٦٣هـ بقيادة الحسن بن أحمد من الأحساء إلى مصر دون أن يأبه الحسن لاسترضاء المعز لدين الله له، ولما وصلوا إلى عين شمس عاثوا قتلاً ونهباً، فأتاهم من العرب خلق كثير فيهم حسّان بن الجرّاح الطائي أمير العرب بالشام ومعه جمع غفير. لقد هال هذا المعز، فنُصح بأن يستميل ابن الجرّاح بالمال لينشق عن القرامطة، فكان له ذلك. إذ ذاك حمل المعزّ بعسكره على القرامطة، وتظاهر ابن الجرّاح بالهزيمة، فانهزم القرامطة ونزلوا أذرعات (درعا اليوم)، ومنها إلى الأحساء[٧٥].

ثانياً: أحداث الدولة الحمدانية

صحيح أن عهد سيف الدولة كان عهد الحمدانيين الذهبي، بيد أن دولتهم في الموصل وحلب لم تكن بمعزل عما كان يسود العصر كلّه في الخلافة العباسية، وهو كثير، أهمه[٧٦]، فضلاً عمّا تقدم وتأكيداً له:

(١) خلع الخلفاء وتعذيبهم وقتلهم، وسمل عيونهم كالذي حدث للخليفة المتقي[٧٧] عام ٣٣٣هـ، وللخليفة المستكفي عام ٣٣٤هـ، فقد قيل فيه: "وما زال مغلوباً على أمره مع توزون وابن شيرزاد. ولمّا بويع المطيع للّه سُلّم إليه المستكفي، فسمله وأعماه، وبقي محبوساً إلى أن مات"[٧٨].

(٢) التناحر والتقاتل داخل الحكم الواحد، إذ تناوب في عهد(المقتدر)، مثلاً،

ثلاثة عشر وزيراً انتهى حكم أكثرهم قتلاً.

(٣) الصراع بين الفرس والترك.

(٤) سعي بعض الدول التي انسلخت عن جسم الخلافة، كالبويهيين، مثلاً، إلى إسقاط الخلافة العباسية وتسلم الحكم.

(٥) توسيع بعض الدول المستقلة، كالدولة الغزنوية، من رقعتها ونفوذها معاً. ناهيك عمّا كان بين الحمدانيين أنفسهم من تنافس ودسائس وتصارع على السلطة والحكم، كالذي سلفت الإشارة إليه، وكالذي كان بين عبدالله بن حمدان(أبي الهيجاء) وأخيه الحسين، وبين ناصر الدولة وعمّه أبي العلاء سعيد والد أبي فراس، وبين أبي فراس وأبي المعالي والحاجب قرغويه.

الأهم أن ثمة أحداثاً داخلية وأخرى خارجية جابهت الحمدانيين لا مناص من التذكير بها والكلام عنها بإيجاز، لكثرة ما كتب عنها وقيل فيها.

١ ـ الأحداث الداخلية:

قال المتنبي لسيف الدولة[٧٩] :

وسوى الروم خلف ظهركَ رومٌ
فعلى أيّ جانبيكَ تميلُ
قعد الناس كلّهم عن مساعيـ
ـكَ وقامتْ بها القنا والنصولُ[٨٠]

وهكذا كان، فقد عرض للحمدانيين عامة ولسيف الدولة خاصة عدد من الأحداث الداخلية التي اضطرته إلى أن يتصدّى لها في حين أنه كان يحسب ألف

حساب للروم وخطرهم المتفاقم.

أ - مع القبائل :

في عام ٣١٤هـ أفسد الأكراد والعرب بالموصل وطريق خراسان التي كان يتولاها جميعاً عبدالله بن حمدان وهو ببغداد، فتصدى لهم هو وابنه ناصر الدولة، ونكّل بهم، فكفوا عن الفساد والشر وانقادوا إليه(٨١).

واتفقت القبائل النزارية واليمانيّة عام ٣٤٣هـ على مقابلة سيف الدولة ومناجزته وأوقعت بعامله "الصّبّاح المحارقيّ" على "قنسرين"، فنهض إليهم ومعه أبو فراس حتى أوقع بهم وهزمهم، وقتل وجوههم وسراتهم واتّبع فلهم ثم انكفأ إلى "بني نمير" فأخضعهم ونزلوا على حكمه، فصفح عنهم وأحلهم "بالجزيرة". وقد ذكر أبو فراس هذا كله في البائية التي مطلعها(٨٢) :

أَبتْ عبراته إلاّ انسكابا
ونار ضلوعه إلاّ التهابا

فقال :

لنا الجبل المطلّ على "نزارٍ"
حللنا النجد منه والهضابا
وقد علمتْ "ربيعة" بل "نزارٌ"
بأنّا الرأس والناس الذُّنابى
فلما أنْ طغتْ سفهاء "كعبٍ"
فتحنا، بيننا، للحرب بابا
وقاد "نَدِي بن جعفرٍ"(٨٣) من «عُقيلٍ»
شُعوباً، قد أسلنَ به الشِّعابا
فما كانوا لنا إلاّ أسارى
وما كانتْ لنا إلاّ نِهابا

وشـــدّوا رأيـــهم "بــبـــني قُـــرَيعٍ"[٨٤]
فــخــابــوا - لا أبــا لــهم - وخــابــا..
ومِــلْــنــا بــالخــيــول إلى «نُــمــيْــرٍ»
تُــجَــاذبــنــا أعــنّــتــهــا جِــذابــا

وفي عهده أسرت " بنو كلاب " سيد بني " قَطَن " راعي الإبل " عيسى بن عبّاد " فخرج إليهم حتى انتزعه منهم قسراً، وقال[٨٥] :

رددتُ عــلى بــني " قَــطَنٍ " بــســيــفي
أســيــراً، غــيــر مــرجــوّ الإيــــــابِ
سَــرَرتُ بــفــكّه حَــيَّيْ " نُــمــيــــرٍ "
وسُــؤتُ بــني " ربــيــعــة " و " الــضِّــبــابِ "
فــهل مُــثْنٍ عــليَّ فــتى " نُــمــيــــرٍ "
بــحَــلّي عــنه قِــدّ بــني " كــــلابِ "

وكان " بنو كلاب " من أكثر القبائل عصياناً في عهد سيف الدولة الذي كان لا يبالي في أن يصفح عنها، ولا يتردد في أن ينهض في طلبها. وقد خرج في طلب بني كلاب ومن انضم إليها من القبائل، فلحق حِلّة " بني نمير " وكان رئيسها " مماغت "، فاحتوى عليها، فخرجت إليه ابنة " مماغت " مسفرة، حافية تتوسل، فصفح لها عن الحلة وأمر برد مـــا أخذ. وفي هذا كله قال أبو فراس بائيته التي أولها[٨٦] :

ومـــا أَنْسَ لا أَنْسَ يـــوم المَـــغَـــارِ
مــحــجّــبــة لــفــظــتْــهــا الحُــجُــبْ

وفي صفح الأمير عن بني كلاب، قال الببغاء مقطوعته " الميميّة " التي مطلعها[٨٧]

إذ اســتــلّكَ الجــانــون أغــمــدكَ الحِــلْمُ
وإن كــفَّكَ الإبــقــاء أنــهــضكَ الــعــزمُ

ولما أحدث بنو كلاب حدثاً بنواحي " بالِس " (بين حلب والرّقة)، سار سيف الدولة خلفهم، والمتنبي معه، فأدركهم وأوقع بهم وملك الحريم فأبقى عليهم. قال أبوالطيب بعد الرجوع من هذه الغزوة بائية طويلة أنشدها سيف الدولة عام ٣٤٣هـ، وقد ذكر تفاصيلهــا، ومطلعها(٨٨) :

بــغــيــرِكَ راعــيــاً عــبَثَ الــذئــابُ

وغــيــرِكَ صــارمــاً ثَــلمَ الــضِّــرابُ

وهذا الحدث هو الذي أراده أبو فراس في هذا البيت(٨٩) :

كـمـا أهـلـكتْ " كـلـبـاً" غـواة جـنـاتـهـا

وعمَّ " كلابــاً" مــا جــنــتْه " الجــعــافــرُ"

وشرح تفاصيله ابن خالويه في شرحه القصيدة التي هو فيها(٩٠).

ب - مع القادة والغلمان :

لما آنس بعض عمال سيف الدولة وقادته في نفوسهم قوة ومنعة، لا سيما في أخريات عهده، أظهروا عصيانهم وتمردهم وخرجوا عليه. ففي عام ٣٥٢هـ حاول هبة الله بن ناصر الدولة التمرد في " حرّان " (قصبة ديار مضر)، فتوجه إليه " نجا " غلام سيف الدولة، فهرب إلى أبيه في الموصل(٩١).

واللافت أن " نجا " هذا توجه من " حرّان " إلى " ميافارقين " وأعلن عصيانه ثمة، ثم راسل معز الدولة البويهي يعرض عليه أن يساعده على الحمدانيين، فتوجه إليه سيف الدولة فهرب؛ لكن الأمير عفا عنه وأعاده، بيد أن غلمان سيف الدولة قتلوه عام ٣٥٤هـ (٩٢).

ويدخل في عداد هذا عصيان قرغويه لسعد الدولة، بتقربه إلى أهل حلب بالإعمار فيها، فاستولى عليها. وكذلك الأمر مع الغلام " بكجور " الذي شارك قرغويه

في الأمر حتى إنه " دُعي لهما على المنابر . . . وكتب اسم بكجور على السكّة ، وكان يخاطب قرغويه بالحاجب ، وغلامه بكجور بالأمير " . وقد دارت بين أنصار سعد الدولة وذينك الغلامين عام ٣٥٨هـ حروب يطول ذكرها كما يقول ابن العديم[٩٣] ، حتى إن سعد الدولة استعان بالروم ، واستعان بكجور بالفاطميين ، فكان لهما الغرم وللروم والفاطميين الغنم[٩٤] .

ويدخل فيه ، كذلك ، وقوع سعيد الدولة بن سعد الدولة في شرك لؤلؤ الذي آلت إليه الوصاية عليه ، فطمع في ولايته وقتله هو وزوجه ابنة لؤلؤ نفسه[٩٥] .

ج - مع أهل المدن :

في عام ٣٥٢هـ امتنع أهل " حرّان " على واليها هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان ، الذي كان والياً على ديار مضر كذلك ، وعصوه لتعسف نوابه وظلمهم ، وكان حينئذ بحلب عند عمّه . ولما سمع هبة الله بالخبر عاد إليهم وحاربهم أكثر من شهرين وقتلٍ خلقاً كثيراً ، لكن سيف الدولة راسلهم وأجابهم إلى ما طلبوه لمّا أوجس منهم شراً فاستجابوا له وصالحوه ، فهرب العيارون خوفاً من هبة الله[٩٦] .

وفي عام ٣٥٤ هـ عصى أهل أنطاكية سيف الدولة بتأليبٍ من رشيق النسيمي ومساعدة ابن الأهوازي له منتهزين وجود سيف الدولة في ميافارقين وعجزه عن العودة إلى الشام . ولم يكتف رشيق بأنطاكية ، إنما سار إلى حلب ، فنشب بينه وبين " قرغويه " النائب عن سيف الدولة حروب كثيرة ، ولما تحصن قرغويه في قلعة حلب أمدّه سيف الدولة بعسكر مع خادمه " بشارة " . ولما علم رشيق بهذا انهزم عن حلب ، وسقط عن فرسه ، فقتله أحدهم وحمل رأسه إليهما . لكن ابن الأهوازي عاد إلى أنطاكية وعاث فيها ظلماً ، فسار إليه قرغويه وهزمه بدءاً لكنه انهزم بآخرة وعاد إلى حلب . وأخمد سيف الدولة ، بعد أن عاد إلى ميافارقين ، الفتنة بأسر ابن الأهوازي ، ثم قتله[٩٧] .

وفي عام ٣٥٩ هـ تمرد أهل حرّان على ناصر الدولة بن حمدان فنازلهم وحاصرهم، لكنهم جنحوا إلى الصلح أخيراً، وعاد هو إلى الموصل ليتصدى لبني نمير الذين عاثوا فيها[٩٨].

د - مع القرامطة:

يرتد أمر الحمدانيين مع القرامطة إلى الحسين بن حمدان الذي أبلى فيهم بلاء حسناً، كما سلف، حتى قيل فيه: "كان السيف الذي دوّخ القرامطة، وطاردهم في كل مكان"[٩٩].

ففي عام ٣١٧هـ ظهر خارجيّان في نصيبين: ابن مطر وقد قاتله ناصر الدولة بن حمدان وأسره، ومحمد بن صالح بالبوازيج الذي أسره أبو السرايا نصر بن حمدان[١٠٠].

أمّا سيف الدولة، فظهر في عهده "المبرقع" الذي دعا الناس إلى نفسه والتفّت عليه القبائل، وافتتح مدائن من أطراف الشام، وأسر أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان عامل سيف الدولة على حمص، وألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل وجملة من المال. ولما بلغ سيف الدولة هذا أسرع إليه من حلب حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق، فأوقع به وقتله، ووضع السيف في أصحابه فلم ينج منهم إلاّ من سبق فرسه. وعاد سيف الدولة إلى حلب ومعه أبو وائل وبين يديه رأس "المبرقع" على رمح[١٠١]. وقد ذكر أبو فراس هذا، فقال[١٠٢].

وأنقذَ مِن مسّ الحديد وثِقْلِهِ
"أبا وائل" والدهر أجدع صاغرُ
وآب ورأس القرمطيّ أمامَهُ
له جسدٌ من أكْعُبِ الرّمح ضامرُ

كما ذكر المتنبي فكاك أبي وائل، فقال من قصيدة في مدح سيف الدولة[١٠٣] :

ولــو كــنتَ في أســر غــيــر الــهــوى

ضــمــنــتَ ضــمــان أبـي وائلِ

وفي عام ٣٥٤هـ لما توجه سيف الدولة إلى الفداء مخلفاً على حلب غلامه وحاجبه "قرغويه"، خرج مروان العقيلي، وكان مستأمنة القرامطة، ودخل حلب، وجعل يظلم الناس ويصادر أموالهم، لكن مدته لم تطل إذ قتل بضربة من «بدر» أحد غلمان سيف الدولة[١٠٤] :

هـ - مع البويهيين :

البويهيون يرتفع نسبهم من بويه إلى واحد من ملوك الفرس، وليسوا من الديلم، وإنّما سمّوا بالديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم[١٠٥]. وهم من ولد أبي شجاع بويه[١٠٦]. أقدمهم "علي" الذي ولاّه مرداويج، الذي حكم طبرستان بعد الدولة العلوية، على «كرج». ولقد استبد بعليّ طموح الحكم والاستبداد، فاستولى عام ٣٢٠هـ (عام ولادة أبي فراس) على أصفهان وأرّجان، ثم على شيراز عام ٣٢٢هـ.

لّما اغتال مرداويجَ جندُه الأتراك عام ٣٢٣هـ لأنه كان كثير الإساءة للأتراك، نهد البويهيون لأخذ دورهم وتحقيق طموحاتهم في الحكم، فثبّت علي حكمه على أصفهان وشيراز، واستولى أخوه الحسن على فارس، وأخوه أحمد على كرمان[١٠٧].

بعد عشر سنوات من حكمهم اشرأبت أعناقهم إلى دار الخلافة ببغداد مستغلين ما كان يتجاذبها من اضطرابات وفتن وضعف الخلفاء لا سيما في عهد المستكفي، فاتجه الحسن بن بويه من الأهواز، التي كان قد استولى عليها، إلى بغداد بجيش لجب من الديالمة، ودخلها مبايعاً الخليفة باسم البويهيين ممثلين بالإخوة الثلاثة. وقبل الخليفة هذا

الولاء المبطن بالتهديد، وأقرهم على ما في أيديهم من ولايات، ولقب عليّاً عماد الدولة، والحسن معزّ الدولة، وأحمد ركن الدولة.

وما كان من معز الدولة إلاّ أن دخل بغداد وملكها عام ٣٣٤هـ، وخلع في منتصفه المستكفي وولّى مكانه أبا القاسم الفضل بن الخليفة المقتدر وسمّاه " المطيع "، وسلبه كلّ مقاليد الحكم، ولم يبق لوزيره إلاّ مهمة الإشراف على أراضيه ونفقات بيته[١٠٨] يقول ابن الأثير: [١٠٩] " وازداد أمر الخلافة إدباراً، ولم يبق لهم (الخلفاء) من الأمر شيء البتّة، وقد كانوا يُراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل، والحرمة قائمة بعض الشيء. فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث إن الخليفة لم يبق له وزير، إنّما كان له كاتب يدبّر إقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد... وتسلم معز الدولة العراق بأسره، ولم يبق بيد الخليفة منه شيء البتة، إلاّ ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته". لقد كانت دولة البويهيين، إذاً، تسيطر على أربعة أقاليم: الأهواز، وإقليم الجبل، وفارس، والعراق. بيد أن نفوذهم " كان يمتد في بعض الأحيان إلى ما وراء هذه الحدود تبعاً لقوة جيوشهم وضعف أعدائهم من السامانيين في خراسان، والزّياريين في طبرستان، والحمدانيين في الموصل والجزيرة الفراتية، ولا سيما في عهد أعظم ملوكهم عضد الدولة"[١١٠].

ففي السنة نفسها(٣٣٤هـ) التي دخل فيها معز الدولة بغداد عزم على محاربة ناصر الدولة بن حمدان، ووقعت الحرب بينهم ببغداد، وبعد أخذ ورد كانت الغلبة لمعز الدولة على خصمه، فاستقر هو في بغداد وخصمه بعكبرا. وبعدً أن عاد ناصر الدولة إلى الموصل تاركاً الأتراك التوزونية لأنهم أرادوا أن يقتلوه، عقد صلحاً مع معز الدولة عام ٣٣٥هـ[١١١].

غير أنّ معز الدولة سار عام ٣٣٧هـ إلى الموصل قاصداً ناصر الدولة، فلما سمع هذا بقدومه تركها إلى نصيبين مما يسّر لمعز الدولة أن يملكها ويأخذ الأموال ويظلم

الناس، وكان يعتزم امتلاك ولاية ناصر الدولة لولا أن أخاه ركن الدولة طلب إليه المدد لصدّ عساكر خراسان التي قصدت الريّ وجرجان(١١٢)، مما حمله على مصالحة ناصر الدولة من جديد والعودة إلى بغداد. وكان الصلح مشروطاً بأن يؤدي ناصر الدولة ثمانية آلاف درهم سنوياً عن الموصل والجزيرة كلها والشام، وأن يخطب في بلاده لأبناء بويه الثلاثة(١١٣).

وحين أخّر ناصر الدولة عام ٣٤٧هـ حمل المال، ، الذي اتفق عليه في صلح عام ٣٣٧هـ، تجهّز معز الدولة إلى الموصل وسار نحوها، ففارقها ناصر الدولة، واستولى عليها معز الدولة، بيد أنّه تركها، لضيق الأقوات، إلى نصيبين مخلفاً عليها سبكتكين الحاجب الكبير، وفي الطريق نهب عسكره ما كان في معسكر أبناء ناصر الدولة بسنجار. وواصل معز الدولة السير إلى نصيبين، ففارقها ناصر الدولة إلى ميّافارقين ومنها إلى حلب عند أخيه سيف الدولة، لأن أصحابه فارقوه وعادوا إلى معز الدولة مستأمنين.

راسل سيف الدولة معز الدولة في الصلح، فقبل بعد أن ضمن سيف الدولة البلاد منه بـ(٢,٩٠٠) ألف درهم، على أن يطلق معز الدولة من أسر من أصحابه بسنجار وغيرها. وتم الصلح عام ٣٤٨هـ، وكان من أهم أسباب قبول معز الدولة له، بعد تمكنه من البلاد، أن ضاقت عليه الأموال وتقاعد الناس في حمل الخراج. وعاد إلى بغداد من جديد، ورجع ناصر الدولة إلى الموصل(١١٤).

ظل معز الدولة مشغوفاً بالموصل، واهتبل عام ٣٥٣هـ فرصة عدم استجابة ناصر الدولة، الذي تصالح معه على مبلغ سنوي يحمل إليه، ليكون اليمين لابن معز الدولة أبي تغلب فضل الله الغضنفر معه، اهتبلها فرصة وتجهز وتوجه إلى الموصل، ولما قاربها تركها ناصر الدين إلى نصيبين. وبعد أن دخلها وملكها سار يطلب ناصر الدولة تاركاً عليها صاعد بن ثابت (أبا العلاء) ليجبي الخراج ويحمل الغلات، وبكتوزون وسبكتكين في جيش يحفظها ويحميها، غير أنه لما قارب نصيبين تركها ناصر الدولة.

ولما لم يعرف وجهته وخشي أن يخالفه إلى الموصل عاد إليها وترك في نصيبين من يحفظها، وكان أبو تغلب بن ناصر الدولة قد قصد الموصل وحارب من بها من أصحاب معز الدولة وكانت الدائرة عليه، فانصرف بعد أن أحرق سفن معز الدولة وأصحابه.

وظل معز الدولة يترصد ناصر الدولة ويلاحقه في المدن التي كان يذكر له أنه قصدها في حين أنه كان قد سار هو وأولاده وعساكره إلى الموصل وأوقع بمن فيها من أصحاب معز الدولة، فقتل كثيراً، وأسر كثيراً، وكان في الأسرى أبو العلاء وسبكتكين وبكتوزون.

في إثر هذا، توجه معز الدولة إلى الموصل، فرحل عنها ناصر الدولة إلى سنجار. ولمّا عرف معز الدولة بهذا عاد إلى نصيبين، وسار أبو تغلب بن ناصر الدولة إلى الموصل لكنه لم يتعرض لأحد من أصحاب معز الدولة، وحين عرف معز الدولة بنزول أبي تغلب بالموصل سار إليها، ففارقها أبو تغلب إلى الزّاب وراسل معز الدولة في الصلح، فأجابه وعقد عليه ضمان الموصل وديار ربيعة والرّحبة، وما كان في يد أبيه بمال قرّره، وأن يطلق من عندهم من الأسرى، ثم رحل إلى بغداد وبرفقته سنان بن ثابت بن قرّة(١١٥).

في عام ٣٦٧هـ استولى عضد الدولة على الموصل رافضاً طلب أبي تغلب " أن يضمن البلاد "، وقال له " هذه البلاد أحبّ إليّ من العراق "، فسار أبو تغلب إلى نصيبين، غير أن عضد الدولة ظلّ يلاحقه بنفسه وعماله وحجّابه وعساكره، في كل المدن التي كان يتوجه إليها حتى إن أبا تغلب استعان ببعض الروم لما هرب من بدليس إليهم، لكن دون جدوى، فعاد إلى بلاد الإسلام، ونزل بآمد شهرين إلى أن فتحت ميّافارقين(١١٦).

و - مع الإخشيديين:

يرتد الإخشيديون الذين حكموا في مصر والشام (٣٢٣ -٣٥٨هـ) إلى جدهم الأول"جف" الذي اتصل بثلاثة من الخلفاء العباسيين الأوائل : المعتصم والواثق والمتوكل ، ومات في الليلة التي قتل فيها الأخير .

كان لجف ابن اسمه " طغج" رزق سبعة أولاد أشهرهم محمد الإخشيد الذي اشتهر أمره في الدولة العباسية عام ٣٠٦هـ حين ولاّه " تكين " على طبرية وجبال الشراة لإيقاعه بجماعة من لخم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام وجماعة من أهل العراق . ولما انتصر على جند الفاطميين الذين غزوا مصر(٣٢١ - ٣٢٤هـ) أسبغ عليه الخليفة لقب " الإخشيد " الذي كان يطلق على ملوك فرغانة .

ظل الوفاق بين الدولة العباسية والإخشيد قائماً حتى عام ٣٢٨هـ ، إذ اختلت الأمور بمسير محمد بن رائق إلى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة ، مما حدا بالإخشيد إلى أن يلغي الخطبة للخليفة العباسي ويذكر اسم الخليفة الفاطمي مكانه . وعلى الرغم من هزم الإخشيد لابن رائق وفراره إلى الرملة فقد انعقد بينهما صلح وفقاً لشروط ابن رائق بتقليده ولاية الأراضي الشامية شمالي الرملة ، وبأن يدفع الإخشيد له الجزية مما عُدّ دليلاً على ضعف سياسته . غير أنه عادت إلى الإخشيد ، بعد مقتل ابن رائق ، كل بلاد الشام سلماً ، ودخلت مكة والمدينة في حوزة الإخشيديين ، ولم ينغص عليهم سوى خروج العلويين في مصر ، ومناوأة الحمدانيين(١١٧) .

من المعروف ، تاريخياً ، أن سيف الدولة قد انتزع عام ٣٣٣هـ حلب من أبي الفتح عثمان بن سعيد الكلابي والي الإخشيد عليها مستغلاً ضعفه واختلاف الكلبيين وحسد إخوته له على هذه الولاية . كل هذا بعد أن طلب سيف الدولة من أخيه ناصر الدولة ولاية ، فقال له ناصر : " الشام أمامك ، وما فيه أحد يمنعك منه "(١١٨) .

ثم بدأت المناوشات والحروب بين سيف الدولة والإخشيديين ، فضلاً عن تربص

الروم وتنبه سيف الدولة واستعداده لهم . وأغلب الظن أنه ما كان " ليريد هذه الحروب مع الإخشيديين الذين يرتبطون مع الحمدانيين برباط الإسلام ، بل كان يحاربهم بقلب يقطر دماً لأنه كان يرغب لو أن هذه القوى تضافرت مجتمعة وانضوت تحت لوائه لصد هجمات الغزو الأجنبي ، وليعيد للإمبراطورية الإسلامية لواءهـــا الخفّاق"(١١٩) .

مهما يكن الأمر ، فقد ثقل على الإخشيد الأمر ، وسيّر في السنة نفسها(٣٣٣ هـ) ، التي ملك فيها سيف الدولة حلب ، عسكراً إليها بقيادة كافور ويأنس المؤنسي مفيداً من غزو سيف الدولة لأرض الروم إذ هتك " الصّفصاف " ، و" عربسوس " فغنم كثيراً ورجـــع ، وسار توّاً إلى عسكر الإخشيد وهزمهم في " الرّستن " (بين حماة وحمص) ، فهرب كافور إلى حمص ومنها إلى دمشق وأقام بها ، وكاتبه الإخشيد يلتمس منه الموادعة والاقتصار على ما في يده ، فرفض ؛ لكنه خرج منها إلى الأعراب ولما عاد إليها منعه أهلها من دخولها .

حين عرف الإخشيد بذلك سار خلف سيف الدولة يتعقبه ، فلما وصل إلى طبرية عاد سيف الدولة إلى حلب دون حرب لأن أكثر أصحابه وعسكره استأمنوا إلى الإخشيد . ولما أصر الإخشيد على متابعته التقيا في قنسرين دون أن يظفر أحدهما بالآخر وإن هرب سيف الدولة إلى الجزيرة ودخل الرقّة ، وقيل إنه أراد دخول حلب فمنعه أهلها(١٢٠) .

دخل الإخشيد عام ٣٣٤هـ حلب ، وأفسد أصحابه في جميع النواحي ، وبالغوا في أذى الناس لميلهم إلى سيف الدولة . وبعد أن ترددت الرسل بين سيف الدولة والإخشيد عاد الأخير إلى دمشق ، وأفرج لسيف الدولة عن حلب وحمص وأنطاكية ، وقرّر عن دمشق مالاً يحمله إليه سنويّاً . وعاد سيف الدولة إلى حلب ، ثم تزوج ابنة أخي الإخشيد عبيدالله بن طغج . يقول أبو فراس في هذا(١٢١) :

فلمّا رأى الإخشيد ما قد أظلّهُ

تلافــــاه يــــثْـــني غـــرْبه، ويُـــكــــاشـــرُ
رأى الــصـّــهــر والــرّسْل الــذي هـــو عــاقــدٌ
يُــنــــال به مـــا لا تَــنـــال الـــعـــســـاكـــرُ

ومات الإخشيد ـ الذي كان مولده عام ٢٦٨هـ ببغداد ـ بدمشق عام ٣٣٤هـ وقيل ٣٣٥هـ ، وملك بعده ابنه أبو القاسم أُنُوجور ، فسار كافور بعساكر مولاه إلى مصر حيث آل إليه السلطة والتدبير .

لما خلت دمشق من عساكر الإخشيديين طمع فيها سيف الدولة ، وسار إليها عام ٣٣٥هـ فملكها واستأمن إليه يأنس المؤنسي في قطعة من الجيش . أقام سيف الدولة بدمشق وجبى خراجها ، وقد حدثته نفسه ، وهو يسير يوماً مع الشريف العُقيلي بغوطتها بتملكها كما بدا من قوله للشريف : " ما تصلح هذه الغوطة تكون إلاّ لرجل واحد" . فقال له العقيلي : "هي لأقوام كثيرة " ، وقال سيف الدولة : " لئن أخذتها القوانين(السلطانيّة) ليتبرأن أهلهـــا منها " . فأسرّها الشريف في نفسه ، وأعلم أهل دمشق بها ، فكاتبوا كافوراً يستدعونه ، فخرج في العساكر المصرية ومعه أنوجور ، ونشبت بين الطرفين حرب انهزم فيها سيف الدولة إلى حمص وجمع جمعاً من عدد من القبائل لم يجتمع له مثله قطّ ، وخرج من حمص فخرجت له عساكر الإخشيد ، والتقيا في " مرج عذراء " (تبعد ١٥كم من الشمال الشرقي لدمشق) ، فكانت الوقعة أولاً لسيف الدولة ثم آخرها عليه ، فانهزم وملكوا سواده ، وتقطع أصحابه فهلكوا .

تبع الإخشيديون سيف الدولة إلى حلب ، فعبر إلى الرقة ، ووصل ابن الإخشيد حلب في ذي الحجة عام ٣٣٥هـ فأقام بها وسيف الدولة في الرقّة ، لكن ابن الإخشيد جعل المدينة ليأنس المؤنسي ، الذي انشق عن سيف الدولة وسار إلى أنطاكية ، بعد أن

اتفق معه على أن يقوم في وجه سيف الدولة بحلب؛ ويقال إن الإخشيديين عادوا، لكن يأنس لم يقم بحلب سوى شهر إذ أسرى إليه سيف الدولة عام ٣٣٦هـ فكبسه، وانهزم يأنس إلى" سرميـن " (من أعمال حلب) يريد الإخشيد ، غير أن سيف الدولة أنفذ إليه من لاحقه، فانهزم إلى أخيه بميّافارقين تاركاً كل شيء خلفه حتى أولاده.

وترددت الرسل بين سيف الدولة وابن الإخشيد، وتجدد الصلح بينهما بالشروط التي كانت بينه وبين أبيه دون المال المحمول عن دمشق. واستقرت ولاية سيف الدولة لحلب من عام ٣٣٦هـ ، فعمّر داره / قصره بالحلبة، وقلد أبا فراس " منبج " وما حولها مـــــن القلاع[١٢٢].

ز - مع الفاطميين:

أسس الدولة الفاطمية(٢٩٧ - ٥٦٧هـ) في المغرب أبو محمد عبيدالله المهدي عام ٢٩٧هـ ، ثم انتقل الفاطميون فجأة إلى مصر عام ٣٥٩هـ بعد أن فتحها قائدهم جوهر الصّقلي بعام واحد[١٢٣]، وبعد مقتل أبي فراس الحمداني بثلاث سنوات. وقد وسع سلطانها الحجاز واليمن ومعظم الشام، وكانت في عهد إمامها الخامس أبي منصور نزار العزيز(٣٦٥ - ٣٨٦هـ) أعظم سلطاناً من خلافة بغداد.

لم تثبت للعلويين دولة كما ثبتت هذه الدولة التي عمّرت مئتين وسبعين عاماً على الرغم من أنها كانت تقاوم العباسيين في بغداد، والأمويين في قرطبة، والقرامطة والحمدانيين بالشام، ثم حاربت الصليبيين والأيوبيين إلى أن كانت نهايتها على يد صلاح الدين عام ٥٦٧ هـ[١٢٤].

جعلت أنظار الفاطميين تتجه إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز، التي كانت تابعة لمصر منذ أيام الطولونيين، بعد أن استقروا في مصر وثبّتوا أقدامهم فيها كما يبدو من تسيير جوهر عام ٣٥٨هـ جعفر بن فلاح الكتاميّ إلى الشام، فاستولى على الرملة

وطبرية، ثم قصد دمشق ودخلها وعاث فيها، غير أن أهلها ظلّوا يقاومون حتى عام ٣٦٠هـ، واستنجدوا بالقرامطة والأتراك الذين تفاقم خطرهم في عهد المعز[١٢٥].

وبعد وفاة سيف الدولة وابنه سعد الدولة عزم الفاطميون على دخول حلب في عهد أميرها سعيد الدولة مستصغريه، فأرسلوا إليها عام ٣٨٢هـ أمير الجيوش "منجتوكين "[١٢٦] التركي، الذي كان والياً للعزيز على دمشق، فانصاع للأمر وتوجّه إلى حلب، وفتح حمص وحماة في طريقه، ورفض كلّ عروض سعيد الدولة للرحيل عنها، فاستعان الرجل بالروم، فأعانوه بجيش بقيادة ميخائيل البرجي والي إنطاكية الذي انهزم في مواجهته مع منجتوكين، وظل الفاطميون يتتبعون فلول الروم إلى أنطاكية، ومنها إلى مرعش حيث قتلوا وأسروا، وغنموا، وخرّبوا، وأحرقوا[١٢٧].

وفي عام ٣٨٣هـ خرج منجتوكين من دمشق فنزل هو ومن معه "شيزر" وقاتلوها وفتحوها، وأمنوا واليها سوسن الغلام الحمداني وجميع من كانوا معه، ثم ساروا إلى "أفامية " فتسلموها من نائب سعيد الدولة، ومنها إلى أنطاكية[١٢٨].

وعاد الفاطميون عام ٣٨٤هـ إلى حصار حلب بقيادة منجتوكين والحسين بن المغربـي الكاتب، الذي كان وزيراً لسعد الدولة وفارقه عن وحشة، ولما شدّدوا عليها الحصار استنجد سعيد الدولة وصاحب جيشه لؤلؤ السيفي بالروم، فهبّ البطريق البرجيّ والي أنطاكية بعساكر الروم لمساعدتهم، لكن انهزم الحمدانيون والروم معاً في اللقاء، فتبع الفاطميون الروم، فقتلوا وأسروا وغنموا منهم الكثير الكثير، وعادوا إلى حصار حلب، فبنوا المدينة بإزائها وشتّوا بها، ودام الحصار أحد عشر شهراً.

وبعث سعيد الدولة ولؤلؤ، هذه المرة، إلى باسيل ملك الروم بالقسطنطينية يطلبان عونه، فخرج بنفسه في(١٣) ألفاً، وهزم الفاطميين إلى قنّسرين، فخرج أبو الفضائل بنفسه إلى باسيل وشكره، وقدّم إليه هدية جليلة القدر[١٢٩].

وعصى رباح السيفي عام ٣٨٦هـ بالمعرّة مولاه أبا الفضائل، فخرج إليه مع لؤلؤ، وانحاز السيفي إلى المغاربة / الفاطميين، ولما جاء منجتوكين لنجدته انهزما ودخـــلا حلب[١٣٠].

وفي سنة ٣٨٩ هـ، خرج باسيل، بعد وقعة للروم مع الفاطميين، إلى أفامية فجمع عظام القتلى من الروم وصلّى عليهم ودفنهم، وسار إلى شيزر ففتحها بالأمان من المغاربة، ثم سار إلى " وادي حيران " فسبى منه خلقاً عظيماً من المسلمين، وخرج إليه أبو الفضائل من حلب إلى شيزر، فأكرمه ووهبه حلب و " سطيل ذهب " ، وقال له: "اشرب بهذا " . ومات سعيد الدولة عام ٣٩٢هـ مسموماً[١٣١].

وبعد موت سعيد الدولة مُلّك ولداه علي وشريف، لكن الحكومة الفعلية كانت للؤلؤ السيفي، فسيرهما إلى مصر مع حرم سعد الدولة عام ٣٩٤هـ، واعترف بسيادة الفاطميين على حلب، وظلّ يدفع الجزية إلى الروم[١٣٢].

ولّما توفي لؤلؤ عام ٣٩٩ أو ٤٠٠هـ، خلفه ابنه منصور، فضيَّق على الحمدانيين كثيراً حتى لجأ بعضهم كأبي الهيجاء بن سعد الدولة إلى الروم ومات عندهم. ولّما لم يقو منصور على إخماد ثورة شبّت ضده بحلب، هرب إلى أنطاكية، فأقطعه الروم إقطاعات كبيرة ليظل سلاحاً يهددون به حلب أنّى أرادوا[١٣٣]. ودخلت حلب في حكم الفاطميين عام ٤٠٦هـ.

٢ - الأحداث الخارجية: محاربة الروم

لعل أهم الأحداث الخارجية في عصر أبي فراس حروب الدولة الحمدانية غير القليلة مع الروم الذين استمروا في صراعهم مع العرب بضراوة في العصر العباسي، غير أن الخلفاء الأقوياء من بني العباس تصدوا لهم ودافعوا عن الثغور ببسالة[١٣٤]، لكن

عبء محاربة الروم وحماية الثغور أصبح بعد وفاة المعتصم عام ٢٢٧هـ من مهمات الولاة الذين استطاعوا أن يقوموا بها حتى عهد " المستعين " إذ أخذ الضعف يدب في الثغور " الجزرّية " في حين كانت الثغور " الشامية " أحسن حالاً منها بفضل مدينـــــة "طرسوس" [١٣٥].

ولما أطل القرن الرابع كانت الثغور الجزرّية في غاية الوهن ، حتى إن ملك الروم كتب عام ٣١٣هـ إلى أهل الثغور " يأمرهم بحمل الخراج إليه . . . ، وقال : إنني صح عندي ضعف ولاتكم "[١٣٦]. ولما لم يفعلوا سار إليهم ، وأخرب البلاد ، ودخل ملطية عام ٣١٤هـ وأقام فيها ستة عشر يوماً يعمل التخريب والسبي والنهب ، وقصد أهلُها الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) مستغيثين فلم يغاثوا[١٣٧].

وفي سنة ٣١٥هـ دخلت الروم " سُمَيْساط " ، وغنموا ما فيها من مال وسلاح ، وضربوا في الجامع بالناقوس أوقات الصلوات ، بيد أن المسلمين خرجوا في إثرهم وقاتلوهم ، وغنموا منهم كثيراً[١٣٨].

وفي هذه السنة ، أيضاً ، خرجت سرية من " طرسوس " إلى بلاد الروم بيد أن هؤلاء كانت لهم الغلبة وأسروا من المسلمين(٤٠٠) رجل قتلوا صبراً .

وفيها سار " الدّمستق " في جيش عظيم إلى مدينة " دبيل " وكان عليها نصر السُّبْكي ، فتصدى لهم المسلمون بشجاعة ، وقاتلوهم ، وانتصروا عليهم ، وأخرجوهم من المدينة بعد أن قتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل .

وفيها ، كذلك ، انتصر المسلمون على الروم الذين لقيهم " ثمل " في طريق عودته إلى طرسوس من الغزاة الصائفة سالماً ، وقتلوا منهم كثيراً ، وغنموا ما لا يحصى حتى إنهم ذبحوا من الغنم وحدها(٣٠٠ ألف) رأس سوى ما سلم معهم . كما قتلوا رجلاً

من رؤساء الأكراد كان يعرف بـ " ابن الضحّاك " هو ومن معه ، لأنه ارتد عن الإسلام وصار إلى ملـــك الروم[١٣٩] .

وفي سنة ٣١٦هـ أصبحت الثغور البكريّة بأيدي الروم[١٤٠] . وفي سنـــة ٣١٧هـ ضعفت الثغور الجزريّة عن دفع الروم عنها ، منها : آمد ، وملطية ، وأرزن[١٤١] وميافارقين[١٤٢] ، وعزم أهلها على طاعة ملك الروم ، والتسليم إليه ، لعجز المقتدر عن نصرتهم[١٤٣] .

على الرغم من هذا ، فقد غزا والي طرسوس عام ٣١٩ هـ بلاد الروم فانتصر عليهم وغنم شيئاً كثيراً ، وحاربهم في العام نفسه سعيد بن حمدان وردهم عن سميساط ، وكان المقتدر قد ولاّه الموصل وديار ربيعة ، وشرط عليه غزو الروم[١٤٤] .

في أوان الضعف ذاك ، ظهر سيف الدولة ، فكانت له مع الروم سجالات وأحداث ومعارك حتى قيل قديماً إنه : " غزا الروم أربعين غزوة له وعليه "[١٤٥] ، وقيل حديثاً : "فذاع اسمه في العالم الإسلامي لا على أنه أمير حلب ، بل على أنه بطل الجهاد ضـــد البيزنطيين "[١٤٦] . وقيل حديثاً ، كذلك : " إن الأمير الحمداني كان يرمي في حروبه وغزواته إلى فكرة قومية بحتة لصون حمى الوطن من طغيان الأجنبي ، بينا كان البيزنطيون يثيرونها حرباً دينياً(كذا) لاسترداد بلاد دخلت في حوزة الإسلام . ويستطيع من يبحث " الحروب الصليبية " أن يرد بدء عهدها إلى هذه الحروب لا إلى تلك التي أثارها بطرس الناسك والبابا أربانوس الثاني في القرن الحادي عشر والثانـــي عشر ، والثالث عشر ، أي إلى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي "[١٤٧] .

يعزّز هذا أن " نقفور " ، بعد أن فتح طرسوس عام ٣٥٤هـ ، نصب رمحين جعل على أحدهما مصحفاً ، وعلى الآخر صليباً ، وقال لأهلها : " من اختار بلد الإسلام

فليقف تحت المصحف، ومن اختار بلد النصرانية فليقف تحت الصليب " ، ثم صعد المنبر، وقال لمن حوله: " أين أنا؟ فقالوا : على منبر طرسوس، فقال : لا ، ولكني على منبر بيت المقدس، وهذه كانت تمنعكم من ذلك "[١٤٨].

ونقفور هذا، هو الذي بنى بقيسارية مدينة وأقام بها هو وأهله، والذي عمر طرسوس بعد تخريبها وأراد أن يقيم بها " ليقرب من بلاد الإسلام "[١٤٩].

المعروف، كما تقدم، أن محاربة الحمدانيين للروم قديمة، لعل أقدمها حرب جدهم الكبير حمدان بن حمدون لهم في " ملطية ".

فأمّا سيف الدولة، فقد عرفهم وعرفوه وحاربهم أو شارك في محاربتهم قبل أن يؤسس إمارته في حلب، وهو ما عرف بغزواته الأولى ضدهم.

كانت أولى غزواته عام ٣٢٤هـ، ولم يكتب له نجاح فيها[١٥٠]، وكانت الثانية عام ٣٢٦هـ إذ حاربهم في الأرض الواقعة بين حصني " زياد "[١٥١] و " سُلاَم " ، وانتصر عليهم انتصاراً عظيماً، وأسر منهم(٧٠) بطريقاً، وأخذ سرير الدمستق وكرسيّه[١٥٢]، وكانت غزوة عام ٣٢٨هـ التي خرج فيها يريد مدينة " قالقيلا " التي بنى الروم حذاءها مدينة " هفجيج "، فلما علموا بمقدمه خربوا المدينة وهربوا. وفي هذه الغزوة " تسلم حصوناً كانت ضرراً على المسلمين، وخرب مدينة " موش " وهدم بيعة جليلة القدر عند النصرانية، ودخل إلى بلد الروم فهدم حصوناً كثيرة وفتح قلاعاً منيعة، ووطىء مواطىء لم يطأها أحد من المسلمين قبله "؛ ثم قصد " قلونية " وأحرق رساتيقها وسلب ضياعها، وقتل من الروم مقتلة لا يحصيها إلاّ الله تعالى[١٥٣].

بيد أن الروم استغلوا فرصة غياب سيف الدولة في السنوات ٣٣٠ و ٣٣١

و٣٣٢هـ، وحاربوا العرب وحققوا مكاسب جمّة. ففي عام ٣٣٠هـ وصلوا قرب حلب فخربوا ونهبوا وسبوا حوالي(١٥) ألف شخص؛ وإن دخل الثملي إلى بلادهم من ناحية طرسوس ، فقتل وسبى وغنم، وأسر عدداً من بطارقتهم المشهورين.

وفي عام ٣٣١ هـ دخلت جيوش الروم ديار بكر وسبوا من أهلها جماعة كثيرة، وفتحوا " أرزن " وخربوها، ووصلوا إلى قرب نصيبين وطلبوا إلى أهل الرها أن يعطوهم المنديل الذي في كنيستهم والذي يقال إن المسيح مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه مقابل إطلاق أسرى المسلمين الكثر، فكان لهم ذلك بشروط وهدنة نقضها سيف الدولة عام ٣٣٨هـ، وألزم أهل الرها أن يغزوا معه في سنة غزاة المصيصة. غير أن الروم عادوا إلى ديار بكر عام ٣٣١هـ نفسه وفتحوا مدينة "دارا "، وإلى «رأس عين» عام ٣٣٢ هـ، وأقاموا بها يومين، وسبوا من أهلها زهاء ألف شخص وانصرفوا[١٥٤].

بعد أن أقام سيف الدولة دولته عام ٣٣٣هـ جعلت حروبه مع الروم تترى، وكانت بين مدّ وجزر وانتصار وهزيمة، وهذه هي سنة الحياة، ولا سبيل إلى الخروج عليها، لكنه ليس من شأن هذه الدراسة أن تستقري الأربعين غزوة التي أشار إليها الثعالبي وتتبعها :

(١) فلما ملك سيف الدولة حلب عام ٣٣٣هـ سارت الروم إليه، فخرج إليهم وقاتلهم بالقرب منها، فظفر بهم وقتل منهم[١٥٥].

(٢) وغزا سيف الدولة أرض الروم عام ٣٣٣هـ كذلك، فهتك بلد " الصفصاف " (كورة من ثغور المصيصة)، و " عربسوس " (من ثغور الشام الجزرية)، فغنم ورجع[١٥٦].

(٣) في عام ٣٣٧هـ هزم الروم سيف الدولة، وأخذوا مرعش، وأوقعوا بأهل

طرسوس [١٥٧]، لكنه فتح حصن " برزويه " وسار إلى ميافارقين مخلّفاً محمد بن ناصر الدولة على حلب الذي أوقع به " لاون بن برداس " في " بوقا " وقتل عدداً وأسر آخر ممن كانوا معه عام ٣٣٨ هـ[١٥٨].

وأنشد المتنبي سيف الدولة، بعد أن عاد إلى أنطاكية، قصيدة ميميّة لفتحه حصن «برزويه»، مطلعها[١٥٩] :

وفاؤكما كالرّبع أشجاه طاسمُهْ[١٦٠]

بأن تُسْعِدا والدّمع أشفاه ساجِمُهْ

(٤) دخل سيف الدولة بلاد الروم عام ٣٣٩هـ، وأوغل فيها، وفتح حصوناً كثيرة، وسبى وغنم، بيد أنهم أخذوا عليه المضايق في طريق العودة، فهلك خلق كثير من المسلمين أسراً وقتلاً. واسترد الروم الغنائم والسبي، وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم. وقد نجا سيف الدولة بأعجوبة ومعه عدد يسير. وسميت هذه الغزاة غزاة " المصيبة "[١٦١].

(٥) ندب سيف الدولة[١٦٢] عام ٣٤٠هـ أبا فراس إلى بناء " رعبان " التي خربتها الزلازل، فبناها في(٣٧) يوماً، ووافاه " قسطنطين بن الدّمستق " ليزيله عنها، فردّه أبو فراس بغيظه، فقال أحد الشعراء :

أرضيتَ ربّك وابن عمّك والقنا

وبذلتَ نفساً لم تزل بَذّالَها

وبنيتَ مجداً في ذؤابة "وائلٍ"

لو طاولتْه " بنات نعش " طالَها

ردّ الجيوش، وقد أتَتْكَ ذليلةً

طَعْنٌ ينكّب بينها أبطالَها

وتركت " رَعْباناً " بما أوليتَها

تُثني عليك سهولها وجبالها

أما أبو فراس نفسه، فنظم قصيدة ينكر فيها على "أحمد بن عبد الله التنوخي"، وقد كان جباناً، تأخره عن المسير، منها :

أيا بدرَ السماء بلا مُحاقٍ
ويا بحرَ السّماح بغير شاطي !
أتترك أَنْ تبيتَ قرير عينٍ
لقىً بين الدّساكر والبواطي؟!
وأخرجُ نحو "رعبانٍ" كأنّي
بشوقٍ، قد دُعيت إلى سِماط !

(٦) بنى سيف الدولة "مرعش" عام ٣٤١هـ، وأتاه الدمستق بعساكره ليمنعه، فأوقع به سيف الدولة الوقعة العظيمة المشهورة[١٦٣]. وفي هذا قال المتنبي[١٦٤]:

سرايـاكَ تَتْرى والدمستق هاربُ
وأصحابه قتلى وأمواله نُهبَى
أتى مرْعشاً يستقربُ البُعْد مُقبلاً
وأدبر إذ أقبلتَ يستبعد القُرْبا
كفى عجباً أن يعجبَ الناس أنّهُ
بنى مَرعشاً، تبّاً لآرائهم تَبّا

(٧) دخل سيف الدولة عام ٣٤٢هـ بلاد الروم[١٦٥]، وأغار على "زبطرة" واشتبك مع "قسطنطين بن برزاس"، وقُتل من الفريقين خلق غير قليل، ثم اشتبك سيف الدولة مع الدمستق وراء مرعش فأوقع به، وهزم جيشه، وقتل "لاون" البطريق، وأسر قسطنطين ولد الدمستق الذي ظل ثمة حتى مات. أمّا الدمستق فاستتر وترهّب ولبس المسوح، وفيه قال المتنبي[١٦٦] :

فلو كان يُنجي من "عليٍّ" ترهّبٌ

تـــرهّـــبتِ الأملاكُ مَـــثْـــنى ومَـــوْحَـــدا

وقال أبو العباس النامي :

لـــكـــنّه طـــلب الـــتـــرهّب خِـــيـــفـــــــــةً

مِـــمّن له تـــتـــقـــاصـــر الأعـــمـــــارُ

أمّا أبوفراس، فقال(١٦٧) :

وأُبنَ بـــقـــســـطـــنـــطـــينَ وهـــو مُـــكـــبَّلٌ

تحـفُّ بـــــطـــــــاريـق بـه وزراورُ(١٦٨)

وولّى عـــلـى الـــرسم الـــدمـــســـتق هـــاربـــاً

وفي وجـــهه عـــذر من الـــســـيف عـــاذرُ

(٨) عظم الأمر على الدمستق للذي حدث عام ٣٤٢ هـ، فأراد أن يثأر، وجمع عام ٣٤٣هـ عساكر من الروم والأرمن والروس والصقلب والسّلاف، وقصد الثغور، والتقى مع سيف الدولة عند «الحدث» فكانت معركة شديدة كتب لسيف الدولة أن ينتصر فيها نصراً مؤزراً، وانهزم الروم، وقتل منهم وممّن معهم خلق عظيم، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته، وعاد الدمستق مهزوماً مسلولاً "(١٦٩) . وفي هذا قال أبو فراس(١٧٠) :

وحـسـبي بـهـا يـوم " الأحـيـدب "(١٧١) وقـعـةٌ

عـلى مـثـلـهـا في الـعـز تُـثـنى الخـنـاصـرُ

عدلـنـا بـهـا في قـسمـة الموت بـيـنـهـــم

ولـلـسـيف حـكم في الـكـتـيـبـة جـائـــرُ

وكان أهل ثغر الحدث قد أسلموه إلى الدمستق بالأمان عام ٣٣٧هـ. أما سيف

الدولة، فأكمل بعد المعركة بناءه " ووضع آخر شرافة منها بيده "[١٧٢]، وفي هذه الواقعة وبناء " الحدث " قال المتنبي قصيدته المعروفة[١٧٣].

عــلـى قَــدْرِ أهل الــعــزم تــأتي الــعــزائمُ

وتـــأتي عــلـى قــدر الـــكـــرام المــكـــارمُ

ومنها :

هل "الحـدث " الحـمـراء[١٧٤] تـعـرف لـونَـهـا

وتــعــلـم أيّ الــسـاقــيــين الــغـمــائــمُ

سـقـتـهـا الـغـمـام الـغـرّ قبل نـزولِـــــــهِ

فـلـمّـا دنـا مـنــهـا سـقـتـهـا الجـمـاجمُ

بـنـاهـا فـأعـلى، والـقـنـا تـقـرع الـقـنـــــا

ومـــوج المـــنـــايـــا حـــولـه مـــتـلاطـمُ

وقد حاول الدمستق عام ٣٤٤هـ أن ينقضّ على الحدث من جديد، لكن سيف الدولة كان له بالمرصاد، ولما عرف ذلك عدل عما بيّته وقفل هارباً، بعد أن أوقع السكان ببعض عسكره وأخذوا آلة حربهم[١٧٥]. وفي هذا قال المتنبي قصيدته اللاميّة[١٧٦] :

ذي المــعــالي فــلــيَـعْـلــونْ مَن تَــعــالى

هــــكــــــذا هـــــكـــــــذا وإلاّ فـــــلا لا

حـــال أعـــدائـــنـــا عـــظـــيمٌ وســـيـــفُ

الـدّولــةِ ابنُ الــسـيــوف أعــظم حـــالا

(٩) عام ٣٤٥هـ غزا " سيف الدولة ووطئ من أرض الروم موطئاً لم يطأه المسلمون منذ ثلاثين سنة "، وقصد مدينة " تل بطريق " فأحرقها، وبلغ من الروم مبلغاً عظيماً فقتل منهم حوالي أربعة آلاف وغنم غنائم كثيرة وعاد سالماً إلى " آمد " فدخلها، وأنشد المتنبي فيها " نونيته " المشهورة[١٧٧].

وفي السنة نفسها بلغ سيف الدولة «سمندو» و« حصن زياد » و «خرشنة» و«صارخة» فتح عدة حصون، وسبى وأسر، وأحرق، وأكثر القتل في الروم، وعاد إلى «أذنة » فأقام بها إلى أن جاءه رئيس طرسوس، فخلع عليه، وعاد إلى حلب . ولما سمع الروم بما فعل ساروا إلى ميّافارقين، وأحرقوا سوادها، وخرّبوا، وسبوا ونهبوا[١٧٨] .

(١٠) حاك الروم عام ٣٤٦هـ مع بعض غلمان سيف الدولة ـ بعد أن أغروهم بالمال ـ مؤامرة للقبض عليه، لكنها فشلت بفضل أحد الفرّاشين الذي كشف " لابن كيغلغ " عنها . وفتك سيف الدولة بالغلمان المتآمرين فأعدم (١٨٠) منهم، وعاد إلى حلب وقتل أسرى الروم وكان عددهم نحو(٤٠٠)، وزاد في قيد ابن الدمستق وضيّق عليه، وأحسن إلى الفرّاش، وقلّد ابن كيغلغ أعمالاً[١٧٩] .

وممّا يؤسف له أن الدمستق نزل في هذه السنة على حصن " الحدث " وفتحه صلحاً وآمن أهله فانصرفوا إلى حلب، وخرّب هو الحصن[١٨٠] .

(١١) في عام ٣٤٧هـ سار يأنس بن الشمشقين إلى ناحية آمد وأرزن وميّافارقين ونزل على حصن " اليماني" من أعمال آمد، فسيّر إليه سيف الدولة غلامه "نجا الكاسكي " في عشرة آلاف . ولمّا التقى الطرفان انهزم نجا وقتل الروم نحو نصف عسكره، وأسروا قرابة ثلاثة آلاف .

ثم سار يأنس والباركمومنس ونزلا على " سميساط " وفتحاها، ومنها إلى "رعبان"، وأوقع الروم بسيف الدولة وعسكره، وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً حتى قيل إن يأنس أدخل القسطنطينية(١٧٠٠) فارس من الأسرى وطوّف بهم وهم على خيولهم وبكامل أسلحتهم . كما غارت الروم على " قورس " وسبوا خلقاً من أهلها خلصهم

سيف الدولة نفسه[١٨١] .

(١٢) توجه " لاون بن بردس الفقاس " عام ٣٤٨هـ نحو طرسوس ، وسبى وقتل ، وفتح " الهارونية " ، وسار إلى ديار بكر . وتوجه إليه سيف الدولة ، فرحل الدمستق عائداً إلى الشام ، وقتل من أهله عدداً متوافراً ، وأخرب حصوناً كثيرة من حصون المسلمين ، وأسر محمد بن ناصر الدولة[١٨٢] .

(١٣) غزا سيف الدولة عام ٣٤٩هـ بلاد الروم في جمع كثير ، فأثر فيها آثاراً كثيرة ، وأحرق ، وفتح عدة حصون ، وسبى وغنم وأسر كثيراً ، ووصل إلى خرشنة . ولمّا أراد أن يعود من الدرب الذي دخل منه نُصح بألاّ يفعل لأن الروم أخذوا عليه المضايق وملكوا الدرب ، لكنه أبى وعاد من الدرب نفسها . حينئذ ظهر الروم عليه واشتروا ما كان معه ، ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتـــــلاً وأسراً ، وتخلص هو في(٣٠٠) رجل بعد مشقة ونصب[١٨٣] . ويقال إن أبا فراس كان من بين أسرى هذه المعركة " معركة مغارة الكحل "[١٨٤] .

يرى الدكتور نصرت عبد الرحمن أن هذه الوقعة كانت خاتمة المطاف في حياة سيف الدولة العسكرية ، فقد حطمته الهزيمة حطمة لن تجبرها الأيام ، فانفرط بعدها عقد الثغور دون أن يقوى بطل بني حمدان على أن يفعل شيئاً[١٨٥] .

(١٤) وفي عام ٣٥٠هـ سار جمع من أنطاكية إلى طرسوس ، وصاحب أنطاكية معهم ، فخرج عليهم كمين للروم ، فأخذ من كان فيها من المسلمين ، وقتل كثيرين منهم ، بيد أن صاحب أنطاكية أفلت وبه جراحات .

وفي السنة ذاتها دخل نجا غلام سيف الدولة بلاد الروم من ناحية ميّافارقين غازياً ، فغنم وسبى وأسر ، وخرج سالماً[١٨٦] . ثم سار إلى بلد ابن مسلمة ، وسبى وقتل وانصرف ، فأخذ الروم عليه الدرب ، فقتل كلّ من معه من الأسرى ، وقاتل على

الدرب حتى ملكه، وهزم من عليه وخرج هو ومن معه سالمين. ثم سار إلى قاليقلا، فأسر (٥٠٠) فارس وأخذ من الأبقار والأغنام ما أعجز المسلمين سوقه، ورجع إلى حلب[١٨٧].

(١٥) كانت سنة ٣٥١هـ من السنوات المؤلمة في تاريخ المسلمين عامة وسيف الدولة خاصة. ففيها استولى الروم على "عين زربة" (عين زربى) بعد أن طلب أهلها الأمان من الدّمستق. ولقد وصف المؤرخون سقوط المدينة وصفاً مؤثراً وتحدثوا عما فعله الروم بأهلها. وأقام الدمستق فيها واحداً وعشرين يوماً، وفتح حول المدينة أربعة وخمسين حصناً منها: دلوك، ومرعش، ورعبان؛ بعضها بالسيف وبعضها بالأمان[١٨٨].

وفيها، وهذا هو الأهم، باغت الدمستق أهل حلب وسيف الدولة معاً، واستولى عليها فسقطت سقوطاً ذريعاً إذ قتل كثيرون من القلة الذين استطاع سيف الدولة أن يجمعهم، وقُتل أبناء داود بن حمدان جميعاً، وانهزم سيف الدولة، وظفر الروم بداره "الدارين" ونهبوا كلّ ما فيها وحرقوها، وأحرقوا المسجد الجامع والأسواق وأكثروا الأسارى من الرجال. ولم يعرض الدمستق لسواد حلب والقرى التي حولها، وقال: "هذا البلد قد صار لنا، فلا تقصروا في عمارته، فإنا بعد قليل نعود إليكم"[١٨٩].

(١٦) دخل أهل طرسوس عام ٣٥٢ هـ بلاد الروم غازين، ودخلها، أيضاً، نجا غلام سيف الدولة من درب آخر، ولم يكن سيف الدولة معهم لفالج أصابه قبل سنتين، بل أقام على رأس درب من تلك الدروب. وأوغل أهل طرسوس في غزواتهم حتى وصلوا إلى "قونية" وعادوا، فرجع سيف الدولة إلى حلب[١٩٠].

(١٧) حصر الروم سنة ٣٥٣هـ مع الدمستق "المصيصة"، وقاتلوا أهلها ونقبوا

سورها، واشتد قتال أهلها على النقب حتى دفعوهم عنه بعد قتال عظيم . وأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنة وطرسوس لمساعدتهم أهلها، فقتل من المسلمين(١٥) ألف رجل. أقام الروم ثمة خمسة عشر يوماً لم يقصدهم من يقاتلهم، ثم عادوا لغلاء الأسعار وقلة الأقوات.

وورد إلى حلب في هذه السنة عسكر من خراسان لغزو الروم، فأخذهم سيف الدولة وسار بهم إلى بلاد الروم فوجدوا الروم قد عادوا، وتفرق الخراسانيون في الثغور لشدة الغلاء، وعاد أكثرهم إلى بلادهم عن طريق بغداد.

وقد سوّغ الدمستق لأهل المصيصة وأذنة وطرسوس عودته بقوله: " إني منصرف عنكم لا لعجز، ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء. وأنا عائد إليكم، فمن انتقل منكم فقد نجا، ومن وجدته بعد عودتي قتلته"[١٩١].

وفي السنة عينها نزل ملك الروم على طرسوس وحصرها، ونشبت بينهم وبين أهلها حروب كثيرة سقط الدمستق بن الشمشقين في بعضها أرضاً وكاد يؤسر، وأسر أهل طرسوس بطريقاً كبيراً، لكن الروم غادروها لعدم الأقوات وكثرة الوباء[١٩٢].

(١٨) وفي عام ٣٥٤ هـ عرض أهل المصيصة وطرسوس على نقفور أن يبذلوا له إتاوة، وينفذ إليهم بعض أصحابه يقيمون عندهم، وكاد يوافق لولا أنه أُخبر بضعفهم وعجزهم، وبأن الغلاء قد اشتد عليهم حتى إنهم أكلوا الكلاب الميتة وكثر فيهم الوباء. وكان أن جمع الجيوش، وسار إلى المصيصة بنفسه فحاصرها، فأذعن أهلها بالطاعة، وطلبوا الأمان، فأجابهم إليه، وفتحوا هم البلد، فأمرهم بأن يحملوا ما يطيقون مما لديهم، ففعلوا، وساروا براً وبحراً إلى أنطاكية وقد سيّر معهم من يحميهم.

والمؤسف أكثر أنه جعل المسجد الجامع إصطبلاً، وأحرق المنبر، ثم عمّر طرسوس

وحصّنها، وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار، وعاد إليها كثيرون من أهلها، ودخلوا في طاعته، وتنصّر بعضهم[١٩٣].

(١٩) في عام ٣٥٥هـ أراد سيف الدولة أن يهرب مع الناس من نصيبين خوفاً من الروم الذين اقتربوا منها إذ لم يمكنهم أهل آمد من فتحها، لكن الناس عادوا قبل أن يهرب سيف الدولة فأقام بمكانه[١٩٤].

وفاة سيف الدولة:

مات سيف الدولة مريضاً بحلب يوم الجمعة العاشر من صفر عام ٣٥٦هـ، وحمل إلى ميافارقين ودفن فيها. وكان "قد جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً وعمله لبنة بقدر الكف، وأوصى أن يوضع خدّه عليها في لحده" فنُفّذت وصيته[١٩٥].

لقد ودّع سيف الدولة بموته "حياة ملئت بالجهاد والبطولة. عاش نصف عمره في طرد الروم من حدود آسيا الصغرى. ولم يكن بين الملوك... من هو أغزى منه، وانتهت حياة هذا البطل العربي بهذه الخاتمة المحزنة، كسره البيزنطيون في عاصمة ملكه، وتفرق عنه أنصاره ورجاله، وانتفضت المقاطعات ثائرة، وهدّه المرض وهو في إبّان كهولته...

وبوفاة سيف الدولة تلاشت المملكة الحمدانية، ولم يقو ابنه أبو المعالي شريف على توطيد ما عجز عنه أبوه، فأفسح المجال أمام البيزنطيين ليوغلوا في ديار الشام وفي أراضي العراق بعد أن "كان عبور الفرات في الجهات الواقعة أسفل جبل طوروس مستحيلاً على الإغريق منذ أيام هرقل. ولكن زه ميسكيس استطاع أن يكتسح كثيراً من المدن العريقة في الشهرة، من أمثال: الرها، وديار بكر، وميافارقين، ونصيبين الواقعة عند حدود الإمبراطورية القديمة على نهر دجلة"[١٩٦].

بيد أنه حسب سيف الدولة أن يقول فيه المستشرق "سيشلمبرجر[١٩٧]": "شغل

سيف الدولة أذهان المؤرخين والكتّاب والشعراء في القرن العاشر، فما إن تقرأ صفحة لمؤرخ بيزنطي، أو قطعة لكاتب من كتاب ذلك العصر، أو قصيدة من قصائد شاعر من شعراء العرب أو اليونان حتى يستهويك الوصف والحديث عن هذا العدو الجذّاب الذي حارب الإمبراطورية البيزنطية بفرسان كان نصفهم من شعراء البوادي وكان نصفهم الآخر من أمراء الحواضر"، وأن يقول فيه في بحثه: "حلب تنافس بيزنطة": "كان سيف الدولة عظيماً في انتصاره، كما كان عظيماً في انكساره. وكانت إمبراطورية البيزنطيين . . . التي ملكت العالم القديم تخافه منتصراً وتجلّه منكسراً. . . ". وحسبه، كذلك، أن يقول قيصر الروم لقادته في واحدة من معاركه مع سيف الدولة: "لا أريده قتيلاً، بل أريده أسيراً. فأيكم كانت له القدرة على أسره منحته مقاطعة كاملة"(198).

على الرغم من هذا، فإنه مما يؤخذ على سيف الدولة أنه "على ما كان يتمتع به من دراية في أفانين القتال قد عجز عن تكوين خطّ دفاعي قوي يستطيع أن يرد الروم دون معونته، ولم يبنِ جبهة قوية تقوى على دفعهم، وظل هو وحده يتحمل مسؤولية مقاتلة الروم. فإذا سار الروم إلى بلد في الثغر توجه لردهم بنفسه، وقد استنزفت هذه الطريقة قواه، وأعقبت المصائب التي حلّت بالثغور، وأدّت إلى سلسلة من الهزائم(199).

الروم بعد سيف الدولة:

لقد تخلص الروم من سيف الدولة في حين أن ديار الإسلام لم تتخلص من شرورهم، إنما ظلوا سادرين لتحقيق مآربهم الأبعد والأعمق من حملاتهم على الثغور والمدن. فماذا فعلوا بعد رحيله؟

لقد استولى نقفور عام ٣٥٧ هـ على كفر طاب (بين المعرّة وحلب)، وشيزر، وحماة، وعرقة (غربي ملطية)، وجبلة (قرب اللاذقية)، ومعرّة النعمان، ومعرّة مصرين وتيزين (من أعمال حلب)، وحمص، وطرابلس، واللاذقية، وأنطاكية(200).

وفي عام ٣٥٨هـ استفحل خطرهم، فدخل ملكهم الشام دون أن يمنعه أحد، أو يقاتله. وسار إلى طرابلس وأحرقها، وحصر قلعة عرقة وملكها، ويقال إنه كان يأسر وينهب ويسبي، وإنه " ملك ثمانية عشر منبراً، فأمّا القرى فكثير لا يحصى، وأقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء، ويخرب ما شاء، ولا يمنعه أحد إلاّ أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم، فأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم، فامتنعت العرب من قصدهم، وصار للروم الهيبة العظيمة في قلــوب المسلمين".

كما سيّر ملك الروم سرية كثيرة إلى الجزيرة، فبلغوا كفر توثا، ونهبوا وسبوا وأحرقوا وعادوا دون أن يكون لأبي تغلب بن حمدان في ذلك نكير ولا أثر[٢٠١].

والأنكى أن " قرغويه " غلام سيف الدولة استولى في هذا العام على حلب، وأخرج أبا المعالي شريف بن سيف الدولة، فتوجه الرجل إلى حران، فمنعه أهلها من دخولها في حين سمحوا ، بطلب منه، لأصحابه أن يدخلوها ليتزودوا منها يومين. ثم دخل إلى والدته ـ وهي ابنة سعيد بن حمدان ـ بميّافارقين، وتفرق عنه أكثر أصحابه ومضوا إلى تغلب بن حمدان[٢٠٢].

واستمرأ الروم السيطرة على المدن الشاميّة، إذ استولوا عام ٣٥٩هـ على أنطاكية بمؤامرة حاكوها مع أهل حصن " لوقا "، وقد كانوا نصارى ، ووضعوا في أهلها السيف ولم يستثنوا إلاّ المشايخ والعجائز والأطفال، أمّا سائر السكان فأخذوهم سبايا إلى بلادهم[٢٠٣].

ثم أنفذ الروم جيشاً كثيفاً إلى حلب، وكان يحاصرها شريف بن سيف الدولة وبها قرغويه متغلباً عليها. فلما سمع أبو المعالي بهم تخلّى عن حصار المدينة وتركها. ولما دخلها الروم عقدوا هدنة مع قرغويه على ما يحمله إليهم، وأن لا يمكّن، إذا أرادوا الغزاة، أهل القرايا من الجلاء عنها ليبتاع الروم ما يحتاجون إليه منها. وكان مع حلب:

حماة، وحمص، وكفر طاب، والمعرة، وأفامية، وشيزر، وما بين ذلك من الحصون والقرايا. ولمّا سلم سكان هذه الأماكن رهائن للروم عادوا عن حلب وتركوها للمسلمين[٢٠٤].

وفي عام ٣٦١هـ أغار الروم على الرّها ونواحيها وتوغلوا في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين، فغنموا وسبوا وأحرقوا وخرّبوا، وفعلوا الشيء نفسه في ديار بكر، ولم يبدِ أبو تغلب بن حمدان حراكاً سوى أنه حمل إلى ملك الروم مالاً كفّه به عنه. غير أنّ عـدداً من الناس ساروا إلى بغداد مستنفرين محذرين من خطر الروم، وانضم إليهم أهل بغداد وقصدوا دار الطائع دون جدوى، وتركوه إلى بختيار الذي كان يتصيد بنواحي الكوفة فوعدهم خيراً، وكاد يفعل لولا ما جرى بينه وبين الخليفة المطيع الذي لم يكن يملك المال الذي يجهز به الغزاة[٢٠٥].

رأى الدمستق بعد أن نهب ديار ربيعة وديار بكر أن الطريق ممهدة أمامه للتوسع، فسار عام ٣٦٢هـ إلى آمد وكان عليها "هزارمرد" غلام أبي الهيجاء بن حمدان، فكتب إلى أبي تغلب يستغيثه، فأرسل إليه أخاه أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة، واجتمعا على حرب الدمستق في مضيق لا تجول فيه الخيل وكان الروم على غير أهبة، فانهزموا، وأسر المسلمون الدمستق الذي مرض في حبسه ومات عام ٣٦٣هـ[٢٠٦].

يطول الكلام لو واصلنا تتبع غارات الروم وحملاتهم وأفعالهم في الحقبة الأخيرة من حياة الدولة الحمدانية. حسبنا ما لخصه "كانار" في هذا الصدد: "وماتلا وفاة سيف الدولة من حروب بين المسلمين والبيزنطيين، إنما تتصف بأنها حروب بين الدولة البيزنطية والشرق الإسلامي لا الحمدانيين. فالأمراء الحمدانيون أضحوا، بعد وفاة سيف الدولة، من الضعف ما جعلهم يتعرضون لضغط وخطر البويهيين، الذين تطلعوا إلى الاستيلاء على الموصل، كما تعرضوا أيضاً لخطر الفاطميين الذين أرادوا أن يستولوا على حلب، يضاف إلى ذلك ما وقع بين أفراد الأسرة من الحروب الداخلية.

ولم يكن عسيراً على الدولة البيزنطية أن توطد سلطانها في هذه الجهات لولا انصرافها إلى الحروب في أوروبا والغرب. ولم يكن للأمراء الحمدانيين من الصفات مـــا تحلى بها سيف الدولة، فصاروا يعهدون بقيادة الجيوش إلى قادتهم، بعد أن كان يتولاها سيف الدولة. كما أن روح الجهاد الديني أخذت تخبو عند خلفاء سيف الدولة، الذين لم يجدوا غضاضة في الالتجاء إلى بيزنطة، إذا اقتضت مصالحهم ذلك. أمّا الدولة البيزنطية فاتخذت خطة الهجوم والتوسع، ورأى الأباطرة أن يستردوا ما فقدوه من ممتلكات، بما في ذلك فلسطين والأراضي المقدسة، وسرى في القسطنطينية وقتذاك روح الحروب الصليبية"[٢٠٧].

ثالثاً - موقع أبي فراس في الدولة الحمدانية وأحداثها:

أبو فراس[٢٠٨] الحارث بن سعيد بن حمدان(٣٢٠ ـ ٣٥٧هـ)، ولد قبل ثلاث سنوات من مقتل والده بيد أخيه ناصر الدولة عام ٣٢٣هـ لأن الخليفة العباسي الراضي ولاه على الموصل عام ٣١٨هـ بعد أن عزل ناصر الدولة عنها. بعد مقتل أبيه حضنته أمه " ونقلته في مواطن الحمدانيين : آمد، وميّافارقين، وماردين، والرقّة. ولعلها أقامت بين الموصل والرقة، فتفتحت عين الطفل على جمال الموصل ودجلة، والرقة والفرات "[٢٠٩].

كان لأبي فراس عدد من الإخوة : حرب (أبو الهيجاء)، وأبو الفضل، والحسين (أبوعبدالله) الذي كانت له منزلة عالية في عهد عمه ناصر الدولة إذ قلّده حلب وديار مضر عام ٣٢٣هـ وأعمال المعاون بأذربيجان عام ٣٢٦هـ على الرغم من أنه هو الذي قتل أباه، وأحمد (أبو الأغر). غير أن ما يدعو للتسآل أن أيّاً من أولئك الإخوة لم يتكفل أبا فراس أو يرعه، بل إن سيف الدولة، الذي كان يعمل تحت إمرة أخيه الكبير ناصر الدولة حتى عام ٣٣٠هـ، هو الذي رعاه وربّاه وأخذه هو وأمه معه إلى حلب حين استقل فيها وأسس إمارته عام ٣٣٣هـ. يقول أبو فراس عن نفسه معترفاً بفضل سيف الدولة[٢١٠] :

فـــمِن " ســـعـــيـــد بن حـــمـــدانٍ " ولادتُهُ
ومِن " عــلـيّ بن عـــبـــدالـــلـه " ســـائِـــرُهُ !

لـــقـــد فـــقـــدتُ أبي طـــفلاً، فـــكـــان أبـي
من الـــرجـــال كـــريم الـــعـــود نـــاضـــرُهُ

فـــهـــوَ ابن عـــميَ دنـــيـــا حـــين أنـــســـبُهُ
لـــكـــنّه لي مـــولى لا أُنـــاكـــرُهُ

ويقول[٢١١] :

هـيـهـاتَ لا أجـحـد الـنّـعـمـاء مـنـعـمـهـا
خـلـفتَ " يـا بن أبي الـهـيـجـاء " فيّ أبي

ويقول[٢١٢] :

عـــليّ لـــســـيـف الـــدولـــة المَـــلْك أَنْـــعمٌ
أوانسُ لا يَـــنـــفِـــرن عـــنّي ربـــائـــبُ

أأجـــحـــده إحـــســـانه بيَ إنّـــنـــي
لـــكـــافـــر نُـــعـــمى، إنْ فـــعـــلتُ، مُـــواربُ

ويقول معرّضاً بعمه ناصر الدولة لما استجار عام ٣٤٧هـ بسيف الدولة هارباً من معزّ الدولة[٢١٣] :

هـذي شـيـوخ " بـني حـمـدان " قـاطـبـةً
لاذوا بـدارِكَ، عـنـد الخـوف واعـتـصـمـوا...

شيـخـوخـةٌ سبـقتْ لا فضلَ يـتـبـعـهـا
وليس يَفضُل فينا الفاضلُ الهَـرِمُ

لا تُـنـكـروا، يـا بـنـيه، مـا أقـول فـلنْ
تُـنـسى الـتِّـرات، ولا إنْ حـال شـيـخُكُمُ

بيد أنه ، على الرغم من موقفه هذا وتأخره عن لقاء ناصر الدولة متجاهلاً دعوة

أخيه أبي الهيجاء إلى ذلك، وهو ما ذكره في شعره[٢١٤]، لم يغفل سهمة ناصر الدولة ودوره في دولة بني حمدان وفي حماية الخليفة " المتقي " الذي استجار به وبسيف الدولة فاراً هو وابن رائق والوزير ابن مقلة من " البريديين " بعد أن هزموا محمد بن رائق، وفتحوا بغداد ونهبوا دار الخلافة[٢١٥]، فأجاراه ونصراه وأعاداه إلى ملكه، حينئذٍ أطلق الخليفة على عليّ " سيف الدولة ".

يقول أبو فراس من الرائية الوثيقة التي مضت الإشارة إليها[٢١٦] :

ففينا لدين الله عزّ ومنعةٌ
وفينا لدين الله " سيف " و " ناصرُ "

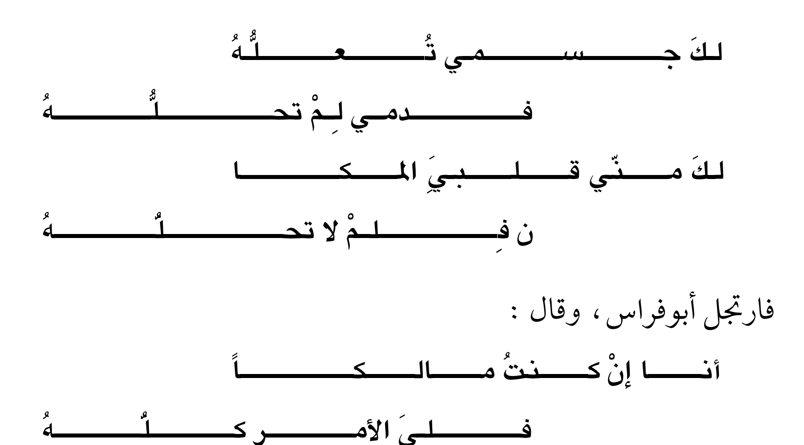
هما، وأمير المؤمنين مشرَّدٌ،
أجاراه لمّا لم يجدْ مَنْ يُجاورُ

وردّاه، حتى ملّكاه سريرَهُ
بعشرين ألفاً، بينها الموت سافرُ

لا عجب، إذاً، أن يقول الثعالبي[٢١٧] (ت ٤٢٩هـ) : " وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس، ويميزه بالإكرام عن سائر قومه، ويصطنعه لنفسه، ويصطحبه في غزواته، ويستخلفه على أعماله، وأبو فراس ينثر الدر الثمين في مكاتباته إيّاه، ويوفيه حق سؤدده، ويجمع بين أدبي السيف والقلم في خدمته".

ولقد عزا المحسّن التنوخي (ت ٣٨٤ هـ) قبل الثعالبي ما عرف عن أبي فراس من مناقب حميدة " لأنه نشأ في تربية سيف الدولة . . . وحجره، وأخذ أخلاقه، وتأدب بآدابه "[٢١٨].

المهم في الأمر أن سيف الدولة اصطحب معه عام ٣٣٣هـ أبا فراس ووالدته إلى حلب. ويقال إن أبا فراس كان يوماً بين يدي سيف الدولة في نفر من ندمائه، فقال لهم سيف الدولة : " أيكم يجيز قولي، وليس إلاّ سيدي (يعني أبا فراس) :



لكَ جســـــمي تُـــــعـــــلُّهُ
فــــــــدمـي لِـمْ تحـــــــلُّــــــهُ
لكَ مـــنّي قـــلـــبيَ المـــكـــا
ن فِـــــلـمْ لا تحــــــلُّــــــهُ

فارتجل أبوفراس، وقال:

أنـــا إنْ كـــنتُ مـــالـــكـــاً
فــــليَ الأمـــر كـــلُّـــــهُ

فاستحسنه، وأعطاه ضيعة بمنبج تغلّ ألفي دينار سنوياً[٢١٩]. ربما تكون هذه هي أول أعطية من هذا النوع يمنحها سيف الدولة لابن عمه قبل أن يوليه عام ٣٣٦هـ "منبج" وما حولها من القلاع[٢٢٠] ملقياً على كاهله مسؤولية الحكم وهو يافع في السادسة عشرة لم يبلغ الحلم بعد، ولولا أن سيف الدولة كان يراه أهلاً لذلك لما أقدم عليه لا سيما أن المنطقة التي وليها أبو فراس كانت قريبة من حدود الروم، وكانت بعض القبائل الثائرة تعيش حواليها[٢٢١]، أليس هذا اصطناعاً له وتمييزاً عن سائر قومه كما يقول الثعالبي، الذي يقول[٢٢٢] عنه، كذلك: "كان فرد دهره، وشمس عصره، أدباً وفضلاً، وكرماً ونبلاً، ومجداً وبلاغة وبراعةً، وفروسية وشجاعة»...

لقد جرّب سيف الدولة أبا فراس وخبره غير مرّة، فقد دخل الرجل مع ابن عمه ملطية عام ٣٣٣هـ بعد فتحها بعشرين سنة كما تقدم، ثم جعلت مشاركاته لابن عمه في الحروب والإعمار تترى إمّا بمبادرة منه وإمّا بتكليف من سيف الدولة نفسه. نُقل عن أبي فراس نفسه أنه غزا عام ٣٣٩هـ مع سيف الدولة، وفتحوا "حصن العيون"، وأوغلوا في بلاد الروم، وفتحوا "حصن الصفصاف"، إذ قال ابن عمّه زهير مهلهل بن نصر في هذه الغزوة:

لــقــد سَـخَـنَتْ عــيــون الــروم لــمّــا

فـتـحـنـا عـنـوةً " حـصن الـعـيـونِ "

و "بـالـصّـفـصـاف " جـرّعـنـا عـلـوجـاً

شـداداً، مـنـهـم، كـأس المـنـونِ

ودوّخـنـا بـلادهـم بـجُـردٍ

ســواهِمَ، شُــزَّبٍ، قبّ الـبـطـونِ[٢٢٣]

وفـي هـذه الغـزاة أحـرقـت مدينـتا خـرشـنة وصـارخة، وهزم الدمستق، وأخذ مـن بطارقته[٢٢٤].

الظاهر أن أبا فراس يعني " غزاة المصيبة " التي انتصر فيها سيف الدولة بدءاً، لكن الروم، كما تقدم، أخذوا عليه المضايق في طريق العودة فهزموه وعاثوا في عسكره، ونجا بأعجوبة. غير أن أبا فراس وشعراء هذه الحقبة ما كانوا ليصوروا إلاّ حالات النصر وحدها، وهو ما فطن إليه نصرت عبدالرحمن، وسوّغه بقوله[٢٢٥]: " لم أعثر على شعر يصوّر المعارك التي هُزم فيها العرب، أو يتحدث عن المآسي التي حلّت بالثغور. ولا أريد أن أتهم الشعراء، فأقول: إن الشعراء كانوا يمدحون في سبيل العطاء، ولا مال يصل إلى أيديهم عندما يتحدثون عن الهزائم ولكنني إخال أن الثقة بالنصر كانت تعمر قلوب الشعراء، وهي ثقة مردّها اتساع رقعة بلاد الإسلام، واليقين بأن الهزيمة لن تحطم أمة كبيرة تمتد رقعة أرضها من الأندلس إلى الصين ".

في عـام ٣٤٠ هـ نـدبـه سـيف الـدولة إلـى بنـاء " رعبـان " التـي خربتها الـزلازل كما تقـدم.

ويذكر أبو فراس أنه سار مع سيف الدولة إلى ديار مضر حين استفحل أمر قبائل "كعب" الذين هربوا لما عبروا الفرات إليهم، حينئذ أمر سيف الدولة أبا فراس بأن يلحق بهم، ويردهم إلى الطاعة، ففعل. ثم ساروا لفتح بلاد الروم، وقد قدّمه سيف الدولة، ففتح حصن «عرقة».

ولما عادوا إلى درب " مَوزار " وجدوا عليه قسطنطين بن الدمستق، ولما كان الخروج صعباً عادوا إلى بلاد الروم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة[٢٢٦].

وفي عام ٣٤٢هـ كان أبو فراس مع سيف الدولة حين اشتبك مع الدمستق وراء «مرعش»[٢٢٧]. وكان معه، كذلك، عام ٣٤٣هـ في قتاله قبائل النزاريّة واليمانية الذي مضى الكلام عنه، وأبو فراس هو الذي هزم قبيلة " كلاب " ببالس بعد أن أوقع بها سيف الدولة وشرّدها، ثم توسط في أمرهم مع سيف الدولة، وقال[٢٢٨] :

سلي عنّا سراة " بني كلابٍ"

بـ " بالسَ " عند مشتجر العوالي

لقيناهم بأسيافٍ قصارٍ

كفينَ مؤونة الأسل الطّوالِ

ولما أغار صباح بن جعفر الكلابي وبنو كلاب على ولاية أبي فراس ركب حتى لحقهم بـ"خُساف "، فقاتلهم صباحاً، وهزمهم جميعاً، وقال[٢٢٩] :

ألا أبلغْ سَراة بني كلابٍ

إذا ندبتْ نوادبهم " صباحا"

جزيتُ سفيههم سوءاً بسوءٍ

فلا حرجاً أتيتُ ولا جُناحا

وقد كان، كابن عمه سيف الدولة، متسامحاً مع القبائل على الرغم من تماديهم وتمردهم، فحين غزا " بني كلاب " ومعه " بنو كلب " وظفر بهم فرحت الأخيرة، عمد إلى أن ردّ على بني كلاب ما أخذه منهم لئلا يشمت بهم الآخرون. ولقد نظم في هذا قصيدة منها الأبيات الآتية شاهداً على حلمه وصفحه وتسامحه[٢٣٠] :

فلّما سمعتُ ضجيج النسا

ءِ ناديتُ "حارِ" ألا فاقصرِ

أ "حارثُ "، مَنْ صافِحٌ غافرٌ

لـــــهنّ، إذا أنتَ لم تـــغـــفــــــرِ؟!

فـــإني أقـــوم بـــحقّ الجــــــوا

رِ ثم أعـــود إلى الــعــــنـــصـــــرِ

وقد كان أبو فراس يكره القعود عن محاربة الروم تحديداً. فقد روى عنه أستاذه ابن خالويه: " عزم سيف الدولة على مغادرة بلد ابن شمشيق، واستخلافي على الشام، فغلظ عليّ القعود، دفعة بعد دفعة، وتفرّده بالوقائع مع نفر من عساكره " فكتب إليه القصيدة التي مطلعها: (٢٣١).

أشـــدّةٌ مـــا أراه مـــنكَ أم كـــرمُ

تجود بالنّفس، والأرواح تُصْطلمُ؟!(٢٣٢)

ومنها:

لا تـشـغـلـنّي بـأمـر الـشـام أحـرسُهُ

إنّ الـشـاَم عـلى مَنْ حَـلَّه حَـرَمُ

لا يـحـرمـنّي سـيفُ الـدين صـحـبـتَهُ

فـهي الحـيـاة الـتي تحـيـا بـهـا الـنّـسمُ

ومـا اعـتـرضتُ عـلـيه في أوامـرهِ

لـكنْ سـألتُ، ومن عـاداته نَـعَمُ

ولّما خرج سيف الدولة في واحدة من غزواته ولم يأذن لأبي فراس أن يسير معـه، قال(٢٣٣):

دعِ الـعـبـرات تـنـهـمـر انـهـمـارا

ونـار الـوجـد تـسـتـعـر اسـتـعـارا

أتُـطـفـأ حـسـرتي وتـقـرُّ عـيـنـي

ولم أوقـد، مع الـغـازين، نـارا؟

رأيتُ الصبر أبعد ما يُرجّى
إذا ما الجيش بالغازين سارا

أسر أبي فراس:

مسألة أسر أبي فراس من المسائل المهمة في حياته وفي الدولة الحمدانية معاً، وهي من المسائل الجدلية التي اختلف فيها القدماء وما زالت كذلك حتى الساعة، واختلاف المحدثين لا يخرج في إطاره العام عن اختلاف القدماء، بل هو امتداد له وانبجاس عنه. قد يكون المرحوم سامي الدهان، الذي تعد نشرته لديوان أبي فراس (بيروت ١٩٤٤م) أحسن النشرات قاطبة إلى الآن، أكثر الدارسين تتبعاً للمسألة من أكثر جوانبها، وظل موقفه منها حتى عام ١٩٥١م العام الذي أصدر فيه الجزء الأول من «زبدة الحلب» على حاله[٢٣٤].

لقد جاء تتبعه وافياً شاملاً لذلك التاريخ، انطلق فيه من روايتي ابن خالويه وابن العديم المختلفتين وجعل يعالج المسألة بحذافيرها دون أن يأبه هو وغيره للفظة "تسع" بعد " قيل " في نص ابن العديم الآتي: [٢٣٥]

قال ابن خالويه[٢٣٦] (٣٠٠ – ٣٧٠هـ): ". . . وما زالت الرسل تتردد إلى أن أُسر أبو فراس سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة(٣٥١هـ) ".

وقال ابن العديم[٢٣٧](٥٨٨ –٦٦٠هـ)، وهو يتكلم عن غزوة " مغارة الكحل " عام ٣٤٩هـ ويعدّد الأسرى: " غزا سيف الدولة في سنة(ثمان) وقيل (تسع وأربعين وثلاثمائة). . . ، وأُسر أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، وتُرك بخرشنة ".

صفوة القول، إن المرحوم الدهّان قسّم القدماء في المسألة قسمين[٢٣٨]:

الأول، يرى أنه أُسر عام ٣٤٨هـ، وسيق إلى خرشنة، وهم: ابن الزرّاد الديلمي، وابن العديم، وابن العماد الحنبلي(١٠٣٢ – ١٠٨٩هـ)، والصلاح

الـصـفـدي[٢٣٩] (٦٩٦ - ٧٦٤هـ) والـشـيـخ المكـين[٢٤٠] (٦٠٢ - ٦٧٢ هـ)، وابن جماعة[٢٤١] (٨٣٣ - ٩٠١هـ).

والآخر، يذكر الأسر في عام ٣٥١هـ، وهم: الذهبي[٢٤٢]، وابن الأثير(٥٥٥-٦٣٠هـ) صاحب الكامل في التاريخ، وابن تغري بردي(٨١٣ - ٨٤٧هـ)، وابن ظافرالأزدي[٢٤٣](٥٦٧ - ٦٢٣هـ)، وأبو الفداء[٢٤٤](٦٧٢ - ٧٣٢هـ) ، وابن الوردي في تاريخه.

فأمّا الدارسون العرب المعاصرون لذلك التاريخ، فيأخذون بالروايتين معاً، أي أنه أُسر مرتين، متأثرين بابن خلّكان (٦٠٨ - ٦٨١هـ) الذي أورد رواية ابن الزرّاد الديلمي[٢٤٥]: " وكانت الروم قد أسرته في بعض وقائعها، وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، ونقلته إلى خرشنة، ثم منها إلى القسطنطينية[٢٤٦]، وذلك في سنة ثمان وأربعين وثلثمائة، وفداه سيف الدولة في سنة خمس وخمسين"، غير أنه قال: "هكذاً قال أبو الحسن علي بن زرّاد الديلمي، وقد نسبوه في ذلك إلى الغلط، وقالوا: أسر أبو فراس مرتين، فالمرة الأولى بمغارة الكحل سنة ثمان وأربعين وثلثمائة، وما تعدّوا به خرشنة. . . ، والمرة الثانية أسره الروم على منبج في شوال سنة إحدى وخمسين، وحملوه إلى قسطنطينية. وأقام في الأسر أربع سنين. . . ".

وهؤلاء الدارسون، هم: فؤاد أفرام البستاني، وبطرس البستاني، وأحمد الزين، وراغب الطبّاخ، والقس سليمان الصائغ.

وتابع المستشرقون، سوى اثنين، رواية ابن خلكان الثانية، وهم: فون كريمر، وهامر يورغشتال، وبروكلمان، وفريتاخ، وبلاشير.

أمّا المستشرقان الآخران، فهما "رودولف دفورجاك" و"ماريوس كانار"، وهما يقطعان أن الأسر كان مرة واحدة عام ٣٥١هـ ليس غير، وأنه لم يزد على أربع سنوات.

وبعد هؤلاء وأولئك، جاءت أجيال من الباحثين لم تخرج عن تينك

الروايتين[٢٤٧]، وليس ثمة من داع لتتبعهم في هذه القضية الغامضة التي لم يمط اللثام عنها على الرغم من المعالجات الكثيرة لها[٢٤٨]. كما أنه ليس من داع كذلك لتناول كيفية الأسر التي لم يخل منها مصدر أو مرجع مما عرض لأبي فراس، والتي اختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة كما عند ابن خلكان مثلاً[٢٤٩].

وعلى الرغم من كل ذلك التفاوت، فإن القدامى أجمعوا، ما عدا ابن العديم[٢٥٠]، على أن الفداء كان عام ٣٥٥هـ، وأن أبا فراس على الرغم من ترجح الروم في معاملته بالحسنى تارة وبالإساءة طوراً لأسباب شتّى لم يغفلها القدماء ولم تفت اجتهادات المعاصرين؛ على الرغم من كل هذا ومما رافق حقبة الأسر من ألم وحسرة وشدّة، ومن تراخي ابن عمه في افتدائه، فإن أبا فراس ظل قوياً لم يذل ولم يتطامن أو ينل أعداؤه منه. يُروى[٢٥١] أنّه أحفظ الدمستق في مناظرة جرت بينهما، إذ قال الدمستق: "إنّما أنتم كتاب أصحاب أقلام، ولستم بأصحاب سيوف، ومن أين تعرفون الحروب؟ فسأله أبو فراس متهكماً: "نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟"، وقال شعراً:

أتـزعم يـا ضـخم اللغاديد أنّنا
ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا؟!
فويلكَ مَنْ للحرب إنْ لم نكن لها؟
ومن ذا الذي يُمسي ويُضحي لها تِربا؟!

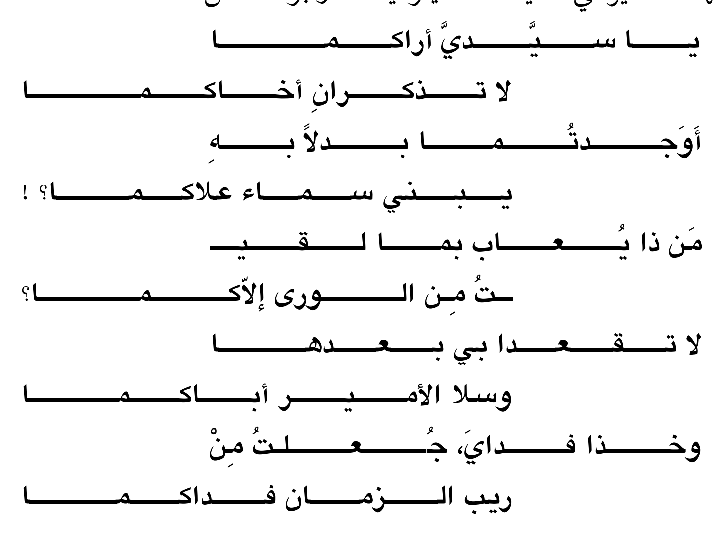
أمّا تراخي سيف الدولة في افتداء ابن عمه، فقد قيل فيه الكثير قديماً وحديثاً، وعُزي إلى غير سبب، كعدم تمكن سيف الدولة من دفع الفدية التي كانت كبيرة، وتخوفه السياسي من منافسة أبي فراس لولي العهد أبي المعالي[٢٥٢]، وشرطه أن يكون الفداء عاماً. ربما يكون تفسير فؤاد أفرام البستاني قبل ثلاثة أرباع القرن[٢٥٣] في الافتداء أقرب التفسيرات إلى الحقيقة التاريخية التي كان يحياها سيف الدولة آنذاك. يقول:[٢٥٤] "بيد أن الحقيقة التاريخية تبرر موقف الملك من ابن عمه. فإن هذه الحقبة لم تكن من العهود الزاهرة في بلاط حلب، وقد قويت شوكة الروم، وتقدم جيشهم الضخم بقيادة الدمستق نقفور، فاكتسح مملكة الحمدانيين في مقاطعاتها الشمالية، وأناخ على حلب حتى سقطت في يده. . . ، فأخرب الدمستق قصر سيف الدولة، بينما كان هذا يتراجع إلى ناحية ميّافارقين ،

وهو على اضطراب في صحته وفي داخلية بلاده . . . ثم تولى قيادة الجيش البيزنطي يانس بن الشمشقين . . . فتتابعت انتصارات الروم، ولم يتنفس سيف الدولة الصعداء إلاّ في سنة ٩٦٦م، فأسرع إلى افتداء أسراه، وفي طليعتهم ابن عمّه . ومن الطبيعي أن هذه الصعوبات التي كان يتخبط بها سيف الدولة لم تكن تبلغ أبا فراس . . " .

أبو فراس بعد الأسر:

وعاد أبو فراس إلى حلب بعد سني الأسر المريرة التي أنجبت قصائد "الروميّات" بمزيد من الخبرة بالناس والحياة حركت مكامن النفس وطموحاتها المكبوتة . ويبدو أن سيف الدولة قد فاجأه حين عينه والياً على حمص التي يكاد نفر من المؤرخين يجمعون على أنه ظلم أهلها وأكثر من التعدي عليهم، وليس يُدرى سرّ هذا سوى ما يقال إنه ربما يعود إلى اشتغاله بالتمكين لنفسه في حمص تحقيقاً لطموحاته وآماله القديمة[٢٥٥] .

ولم تكد تمر سنة على فكاك أسره حتى توفي ابن عمه ومربيه سيف الدولة، وبدأت ألاعيب " قرغويه " حاجب سيف الدولة وغلامه الذي ملك زمام الأمور بعد مولاه متسلطاً على مولاه الجديد أبي المعالي سعد الدولة، ومحاولاته الدس بين أبي فراس وابن أخته، ونجح في خلق " وحشة "بينهما[٢٥٦]، بعد أن كان أبو المعالي وأخوه أبو المكارم ممن طلب إليهما خالهما الأسير في قصيدة أن لا يتوانيا هما وأبوهما عن افتدائه[٢٥٧] :


يا سيّديَّ أراكما
لا تذكرانِ أخاكما
أَوَجدتُما بدلاً بهِ
يبني سماء علاكما؟!
مَن ذا يُعاب بما لقيـ
ـتُ مِن الورى إلاّكما؟
لا تقعدا بي بعدها
وسلا الأمير أباكما
وخذا فدايَ، جُعلتُ مِنْ
ريب الزمان فداكما

الفصـل الثاني

العصر الاجتماعي

فلا مندوحة، بدءاً عن تأكيد أمور أربعة: أولها، تداخل السياسي بالاجتماعي والاقتصادي والأدبي والفكري بحيث لا يمكن الفصل الحديد بينها.

وثانيها، أن العصر الاجتماعي، كصنوه السياسي والأدبي والفكري، موضوع فضفاض ممتدة حدوده واسعة آفاقه في القرن الرابع، وربما في غيره من القرون، وأحسب أن الإحاطة الكاملة به والاستقراء التام له يتسع لمجلدات مما يستوجب التكثيف والاقتصار على الظواهر البارزة والاستشهاد عليها بمثل واضحة الدلالة اكتفاء من القلادة بما أحاط بالعنق.

وثالثها، أن العصر الاجتماعي في كثير من مظاهره لا يمكن أن يبدأ من فراغ. وما القرن الرابع إلاّ استمرار في هذا الكثير النسبي من قضايا الاجتماع للقرون التي سبقته في الامتزاج الحضاري والثقافي الذي ترسخ في الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول الذي عنيت بإبراز أظهر ملامحه في القرن الثاني الهجري الذي يعدّ من أخصب العصور وأغناها بالتحولات التي غذّتها روافد إرهاصات سابقة سياسية واجتماعية وثقافية وعلمية[٢٦٠]. وكذا الشأن في هذا العصر عصر أبي فراس الحمداني.

وآخرها، أن عصر القرن الرابع مثال كبير على الثنائيات المتضادة: انحطاط سياسي وازدهار علمي وأدبي؛ طبقات مترفة وطبقات فقيرة، وهكذا دواليك في شؤون أخرى كثيرة.

كان العرب والفرس أهم عناصر الدولة الإسلامية حتى عهد الخليفة المعتصم في بدايات القرن الثالث الهجري إذ ولّي الخلافة عام ٢١٨هـ، فهو الذي استقـــدم الأتراك عنصراً جديداً في الدولة الإسلامية. ومنذ ذلك التاريخ " دخل في نزاع العصبية عنصر قوي جديد، فقد كان النزاع قبل بين الفرس والعرب، فأصبح بين العرب والفرس والترك؛ وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاعهم مـــــع الفرس، فجاءت قوة الترك ضغثاً على إبّالة[٢٦١]، وتوجهت قوة الترك أولاً لإضعاف شأن هؤلاء الفرس المستبدين بالسلطان، وأخذ التاريخ الإسلامي يصطبغ بالصبغة التركية"[٢٦٢]. وقد ضاق المتوكل بهم ذرعاً، فتخلصوا منه على يد " باغر" قبل أن يتخلص هو منهم، فكان قتله أول حادثة اعتداء على خلفاء بني العباس لأن من قبله من الخلفاء مات حتف أنفه سوى الأمين الذي قتل بعد هزيمته في الحرب، وكان، كذلك، قتلاً لسلطان الخلفاء وحياة للأتراك وسلطانهم الذي تدرجوا فيه من بعد[٢٦٣] حتى أضحت لهم السيادة، وصاروا "خطراً يهدد الخلفاء أنفسهم، حتى إن كثيرين منهم ذهبوا ضحية تآمرهم، وإن أدرك بعضهم خطر هذا العنصر، فاستعانوا، بالمغاربة والفراعنة والأكراد والقرامطة وإن لم يسلموا من شرّ هؤلاء الذين كانوا ينضمون إلى الأمراء تارة وإلى الخلفاء طوراً" [٢٦٤].

ولقد كان الأتراك بدواً بطبعهم أو أشبه بالبدو ولم تكن لهم مدنيّة أو حضارة قديمة كما كان للفرس[٢٦٥]، حتى إن الجاحظ دعاهم " أعراب العجم"[٢٦٦].

وكانوا شرهين في حبهم المال ومطالبة الخلفاء به، ومولعين بمصادرته من الخلفاء والموسرين، وحوك المؤامرات على الخلفاء وغير الخلفاء.

ويعدّ أحمد أمين[٢٦٧] من آثارهم الاجتماعية الحسنة في حياة المسلمين في هذا العصر دخول كثيرين منهم في الإسلام مستشهداً بما ذكره مسكويه في حوادث عام

٣٤٩هـ من أنه أسلم منهم حوالي مئتي " خركاه "[٢٦٨]، ومن آثارهم الاجتماعية كثرة الجواري والغلمان منهم في قصور الخلفاء والعظماء والأغنياء. فقد كان، مثلاً، لعز الدولة البويهي غلام تركي أسر في وقعة له مع عضد الدولة البويهي، فعزّ عليه ذلك جداً، ولما طالب عضد الدولة بردّه صار ضحكة بين الناس، لكنه ردّه إليه في نهاية الأمر. ومن عجب أن كان لمعز الدولة غلام تركي اسمه " تكيز الجامدار "جعله رئيساً لسريّة أرسلها لمحاربة بني حمدان، فدارت الدائرة عليه، وقال فيه الشاعر[٢٦٩]:

ظبيٌ يرقّ الماء في
وجناته ويروق عودُهْ
ويكاد من شبه العذا
رى فيه أَنْ تبدو نهودُهْ
ناطوا بمعقد خصرِهِ
سيفاً ومنطقة تؤودُهْ
جعلوه قائد عسكرٍ
ضاع الرعيل ومَنْ يقودُهْ !

وكان لسيف الدولة الحمداني مملوك تركي اسمه " يماك[٢٧٠] "، ولما مات بحلب عام ٣٤٠هـ حزن عليه حزناً شديداً، ونظم المتنبي بائية يعزيه، مطلعها[٢٧١]:

لا يُحْزن اللّه الأمير فإنّني
سآخذ من حالاته بنصيبِ

ومنها:

لأبقى يماكٌ في حشايَ صبابةً
إلى كلّ تركيّ النّجار جليبِ[٢٧٢]
وما كلّ وجهٍ أبيضٍ بمباركٍ
ولا كلّ جفنٍ ضيّقٍ بنجيبِ

أما الفرس ، فعزّ عليهم أن تؤول الأمور إلى الأتراك بعد أن كانوا فرس الرهان في العصر العباسي الأول ، وظلّوا يتربصون بهم الدوائر للانقضاض عليهم واستعادة مجدهم التليد . فمرداويج الفارسي مؤسس الدولة الزّيارية(٣١٦ - ٤٣٤هـ) ، الذي كان شعاره " أنا أردّ دولة العجم ، وأبطل دولة العرب "[٢٧٣] جعل عسكره صنفين : جيل (سكان جيلان وراء طبرستان) وديلم (سكان القسم الجبلي من جيلان) وكان هؤلاء خواصه وأهل بلده ، وأتراك وأهل خراسان . ولما اختص نفراً من الأتراك وجد الديلم عليه وعاتبوه ، فقال : إنما اتخذت الأتراك لأقيكم بهم ، وأقدّمهم يحاربون بين أيديكم ، وأنتم خاصتي وأنا بكم ولكم . فلمّا عرف الأتراك ذلك أجمعوا على قتله ، فكادوا له وقتلوه ونصّبوا " بجكم " رئيساً ، وكان ذلك عام ٣٢٣هـ[٢٧٤] .

ولقد استطاع الفرس ، كما مضى في الفصل الأول ، أن يقتطعوا أجزاء من دولة الخلافة ويكوّنوا دولاً كان لها وجود في هذا العصر كالسامانيّة(٢٦١ - ٣٨٩هـ) ، والزّيارية(٣١٦ - ٤٣٤هـ) ، والبويهية(٣٢٠ - ٤٤٧هـ) التي استولت على العراق وسيطرت على الخليفة وأبعدت هيمنة الأتراك عليه وحلّت محلهم ، واختلف سلوكهم مع الخلفاء العباسيين عن سلوك أسلافهم مع خلفاء العصر العباسي الأول ، ولا يستدعي الأمر مزيداً من الأمثلة[٢٧٥] .

ومن الشعراء الفرس من تعصب لجنسه كمهيار الديلمي الذي يقول مفتخراً[٢٧٦] :

أُعجِبَتْ بي بين نادي قومها
أمُّ سعدٍ " فمضتْ تسأل بي
سَرَّها ما علمتْ مِنْ خُلُقي
فأرادتْ علمها ما حسبي
لا تخافي نسباً يخفِضني
أنا من يُرضيكِ عند النسبِ

قومِيَ استولوا على الدهر فتىً
ومشوا فوق رؤوس الحقبِ
عمّموا بالشمس هاماتهمُ
وبنَوْا أبياتهم بالشهبِ
وأبي كسرى على إيوانِهِ
أين في الناس أبٌ مثل أبي؟
قد قبستُ المجد مِنْ خيرِ أبٍ
وقبستُ الدين مِنْ خيرِ نبي
وضممتُ الفخر مِنْ أطرافِهِ
سؤدد الفرس ودين العربِ

وعلى أية حال، فقد عادت السيادة إلى العنصر التركي بقضاء محمود الغزنوي يمين الله (٣٨٨ – ٤٢١هـ) على السامانيين[٢٧٧].

أمّا العنصر العربي فلم يكن له نفوذه السابق الذي تقلص إلاّ ما كان من وضع الخلفاء المترجح أكثره ووضع الدولة الحمدانية في الموصل وحلب(٣١٧ – ٣٩٤ هـ) التي كانت، كما تقدم، تناوش وتحارب في غير جبهة داخلية وخارجية، وقد حاولت أن تستولي على بغداد وتطرد الترك والفرس الذين يمثلهم آل بويه لكن عهدهم فيها كان قصيراً(٣٣٠ – ٣٣١ هـ) . وقد أرجع " ميور " هذا إلى أن " العرب لم تعد لديهم القدرة على مناوأة العناصر المتبربرة التي أصبحت لها السيادة في بغداد في ذلك الوقت " وأن " الجند من العرب الذين أُهمل شأنهم وطرح بهم في زوايا النسيان، لم يقووا بعد على التماسك والاحتفاظ بشخصيتهم أمام الأتراك الذين مرنوا على الحرب وألفوا حسن النظام[٢٧٨].

وثمة من يرجع السبب إلى أمور العراق التي كانت مضطربة أشد الاضطراب وأن الحمدانيين فضلوا عدم التورط في مشكلات الخلافة التي أحسوا بعجزهم عن حلّها

وآثروا التفرغ لمهماتهم الثغرّية[٢٧٩] . ومهما كانت الأسباب، وما كان من ردة فعل الناس على أفعال ناصر الدولة وصنيعه مع الخليفة المتقي بالله، وما " كثر به الشاكي له والداعي عليه " ومن غلاء الأسعار والفاقة[٢٨٠]، فإن الناس اجتمعوا إلى ناصر الدولة «وسألوه ألا يباعد إلى الموصل فيضيع البلد»[٢٨١] وإن التجار صعب عليهم خروجه[٢٨٢] .

على الرغم من هذا فكثيراً ما اشتبك الحمدانيون مع الترك[٢٨٣] والبويهيين، ناهيك عن قتالهم الروم أكثر من ستين سنة كما قال أبو فراس الحمداني لملك الروم .

ناهيك عن نزاع هذه العناصر الثلاثة السياسي وأثره الكبير في انقسام الدولة الإسلامية إلى دول شتّى، فإن كل واحد منها كان يطبع البلاد التي يحكمها بطابعه الخاص؛ فطابع الترك كان حب الجندية والفروسية، واستكثار الجند من جنسهم، وكثرة الخلافات بينهم، وتعصب كلّ فريق لقائد ما، واحتقار أهل الأمصار التي يحكمونها، والانتصار لأهل السنة، وعدم الميل إلى الفلسفة والجدل، وتقريب علماء الدين لا سيما علماء التفسير والحديث، وحب الأموال وغصبها ومصادرتها، وقلة العناية بموارد المال والثروة .

أمّا طابع الفرس، الذين كانوا أهل حضارة موروثة، فكان رغد العيش والميل إلى الترف والنعيم واللذائذ، والمقدرة على تنظيم الحكم، وإدارة موارد الثروة، والعناية بالأدب والعلم، وكثرة مذاهبهم في الإسلام .

وأما طابع العرب، فكان في مجمله الميل إلى البداوة، والاعتزاز بالدم والقبيلة، وسرعة التأقلم والتحضر . ولم يكن تعصب الحمدانيين ضد الفرس والترك والديلم والروم فحسب، إنّما تخطاه إلى تعصبهم لقبيلتهم دون غيرها[٢٨٤]، وقد تقدم ما كان من أمرهم مع بعض القبائل كبني كلاب وبني قشير وبني عجلان . قال أبو فراس[٢٨٥] :

وقــد عــلــمتْ " ربــيــعــةُ " بل " نــزارٌ
بــأنّــا الــرأس والــنــاس الــذّنــابــى
فــلــمــا أن طــغتْ ســفــهــاء «كــعــبٍ»
فــتــحــنــا، بــيــنــنــا، لــلــحــرب بــابــا

المهم أنه كثيراً ما كان يتعاقب على القطر الواحد هذه العناصر الثلاثة أو اثنان منها؛ فالعراق تعاقبوا عليه جميعاً، وتعاقب على مصر العرب والترك، فكان لكل قطر مزاج هو نتيجة طبع الأمة مع من تعاقب عليها من عناصر وأجناس[٢٨٦].

والأهم أن ذلك أدى إلى أشياء من عدم التوازن، وإلى التفكك والمنازعات. فأهل السنة في عهد الخلفاء وعهد نفوذ الأتراك وإمرة الأمراء كانوا في أمانٍ وحرية واطمئنان في حين أن الشيعة كانوا على غير هذا، وحدث العكس في ظل البويهيين. ولم يقف الأمر عند هذا، بل جازه إلى النزاع بين السنة والشيعة لا سيما زمن البويهيين. يقول أحمد أمين: «فكانت المملكة الإسلامية مسرحاً للعصبيات الجنسيّة والعصبيات المذهبيّة، وأوضح الأمثلة لذلك حالة العراق في عهد الدولة البويهية. فقد كان مملوءاً بالأتراك والديلم، والأولون سنيّون، والآخرون فرس شيعيون، والحروب والفتن والمصادرات وكبس البيوت لا تنقطع بينهما. وقد ذهب في سبيل ذلك ضحايا كثيرة من الوزراء والكتّاب والعلماء". ويستشهد ببختيار الديلمي، معتمداً على مسكويه في حوادث عام ٣٦٠ هـ، الذي عمد إلى عقد مصاهرات بين رؤساء الأتراك ورؤساء الديلم لتزول العداوات، وكان أن « زال الظاهر ولم يزل الباطن»[٢٨٧] كالذي حدث في عهد الخليفة المطيع، إذ كُتب عام ٣٥١ هـ لعن معاوية على أبواب مساجد بغداد، ومُحي في الليل، فأراد معز الدولة أن يعيده، لكن الوزير المهلبي أشار عليه أن يكتب مكانه" لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم". وفي يوم عاشوراء سنة ٣٥٢هـ ألزم معز الدولة الناس بغلق الأسواق، وعلقوا

عليها المسوح، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن المآتم على الحسين، وهذا أول يوم يناح عليه فيه ببغداد . . . وفي الثاني عشر من ذي الحجة منها عمل عيد غدير خم، وضربت الدبادب[٢٨٨و٢٨٩] . ولم يخل عهد الفاطميين في مصر من هذا كذلك لكنهم كانوا متسامحين إذ لم يمنعوا العامة عام ٣٦٢هـ من أن يحتفلوا بعيد لأهل السنة هو عيد دخول الرسول(ص) مع أبي بكر غار حراء[٢٩٠] .

ليس هذا فحسب، إنما طالت الخلافات أهل السنة أنفسهم، فالحنابلة الذين كانوا قوة كبيرة، حالوا عام ٣١٠هـ دون دفن محمد بن جرير الطبري نهاراً، ودفن ليلاً بداره، لأنه جمع كتاباً في اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد بن حنبل الذي كان يعدّه هـو محدّثاً[٢٩١].

وفي خلافة المقتدر باللّه هاجت عام ٣١٨هـ فتنة كبرى ببغداد بسبب قوله تعالى : «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً»[٢٩٢] ، إذ ذهب الحنابلة إلى أن معناها " يقعده على عرشه "، وزعم غيرهم أنها " الشفاعة" ؛ ودام الخصام واقتتلوا جماعة كثيرة[٢٩٣]. وقد كان للحنابلة دور كبير في النزاع بين المذاهب الفقهية . روى ابن الأثير في حوادث عام ٣٢٣هـ، فقال[٢٩٤] : " وفيها عظم أمر الحنابلة، وقويت شوكتهم، وصاروا يكبسون من دور القوّاد والعامّة، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنّية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، ومشي الرجال مع النساء والصبيان . . .

وزاد شرّهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد، وكانوا إذا مرّ بهم شافعيّ المذهب أغروا به العميان، فيضربونه بعصيّهم حتى يكاد يموت . . . " .

والظاهرة اللافتة للانتباه في هذا العصر اقتتال بعض هذه العناصر العرقية والمذهبية اقتتالاً داخلياً كالذي كان يحدث بين البويهيين أنفسهم، وبين بني حمدان ذاتهم، وبين الأتراك أعينهم، فضلاً عمّا كان يجري، أحياناً، من وقوف عنصر من

هذه العناصر المتضادة إلى جانب عنصر آخر. فالحسين بن حمدان عم سيف الدولة لم يمنعه تشيعه من السعي في البيعة لابن المعتز[٢٩٥].

قد تكون هذه الظاهرة هي التي حدت ببعض الباحثين أن يقول[٢٩٦]: " وأكبر الظن أن النزعة الدينية عند بني حمدان، وعند سائر حكام ذلك العصر جميعاً، كانت في الدرجة الثانية بعد شهوة الملك ونزعة التغلب "، في حين ذهب زكي المحاسني[٢٩٧] إلى أن: «الحرب المذهبية كانت الدافع الأول، وأن خوف الحمدانيين على بلادهم من استيلاء الروم عليها كان السبب الثاني ". غير أنه يستدرك، فيقول: " ولعل الحمدانيين كانوا يجمعون بين الأمرين، فتكون حروبهم تارة لهذا السبب الديني، وآونة لذلك الدنيوي ".

وثمة عناصر أخرى عرقية ودينية كان لها وجودها في هذا العصر، وكان لها أثرها في الحياة الاجتماعية والأدبية والفكرية كذلك.

فالروم الذين ترجع علاقة العرب والمسلمين بهم إلى ما قبل الإسلام، كثرت الحروب، كما تقدم، بينهم وبين المسلمين في هذا العصر، وظلت الثغور الجزريّة والشاميّة في حالة استنفار واستعداد دائمين. وقد أدت تلك الحروب إلى أسر عدد كبير منهم، واسترقاق عدد آخر، وحوى الفصل الأول أمثلة كثيرة لهذا لا سيما بينهم وبين الحمدانيين. ولا بأس، هنا، من ذكر حرب نشبت بين الروم والمسلمين في صقلية عام ٣٥٣هـ، استولى المسلمون بعد سجال وكرّ وفرّ على " رمطة " " عنوة، وقتلوا من فيها، وسبوا الحرم والصغار، وغنموا ما فيها، وكان شيئاً كثيــراً عظيماً"[٢٩٨].

وقد نتج عن هذا وغيره انتشار الروم من جوارٍ وغلمان انتشاراً واسعاً في قصور الخلفاء والموسرين، فالمقتدر الذي يقال إن أمه كانت رومية[٢٩٩] " كان في داره أحد عشر ألف غلام خصيان غير الصقالبة والروم والسود "[٣٠٠]. أمّا سيف الدولة، فيروي ابن

خالويه عن أبي فراس[٣٠١] : "وافى رسول ملك الروم يطلب الهدنة، فأمر سيف الدولة بالركوب بالسلاح فركب من داره ألف غلام مملوك بألف جوشنٍ مذهّب على ألف فرس عتيق، بألف تجفاف"[٣٠٢].

والزنج، الذين كانوا يستقدمون، في الأغلب، من سواحل أفريقيا الشرقية للخدمة والذين كثروا في العراق وهدّدوا الدولة العباسية ما يزيد على أربع عشرة سنة(٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) فيما عرف بثورة الزنج في البصرة[٣٠٣] حتى تغلب عليهم الموفق[٣٠٤] "ت٢٧٨ هـ"(أخو الخليفة المعتمد على الله) وابنه أبو العباس (الخليفة المعتضد بالله بعد ذلك ٢٧٩ - ٢٨٩هـ) الذي لقب بـ" السفّاح الثاني " لأنه جدّد ملك بني العباس[٣٠٥]، إن أولئك الزنج كثروا كثرة ملحوظة في هذا العصر، فغصت بهم قصور الخلفاء والعظماء، حتى إن بيوت الأوساط والفقراء لم تكن لتخلو منهم، إذ كانت الجواري السـود أرخص ثمناً من البيض[٣٠٦]. ويقال، مثلاً، إن أمير الأمراء ابن رائق اشترى جارية مغنية بأربعة عشر ألف دينار[٣٠٧].

وكان لأهل الكتاب من نصارى ويهود انتشارهم في أرجاء الدولة الإسلامية، وقد اعترف آدم متز بأن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وأوروبا، التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى، هو وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين[٣٠٨]. وفي أثناء القرن الرابع الهجري اعترف للمجوس بأنهم أهل ذمة كاليهود والنصارى[٣٠٩].

ويبدو مما أورده المقدسي في " أحسن التقاسيم " أن أعداد اليهود في هذا القرن كانت أكثر من غيرهم لا سيما في العراق وبلاد العجم وجزيرة العرب، ويليهم المجوس في العراق وفارس حيث كان " المجوس أكثر من اليهود، وبه نصارى قليل [٣١٠]. يذكر ابن الأثير في حوادث عام ٣٦٩هـ أن فتنة عظيمة نشبت بين عامة شيراز من المسلمين

والمجوس نُهبت فيها دور المجوس، وضربوا وقتل منهم جماعة، ولما تناهى الخبر إلى مسامع عضد الدولة سيّر إليهم من جمع كلّ من له أثر في ذلك، وضربهم، وبالغ في تأديبهم وزجرهم[٣١١].

على أية حال فإن المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة كانت قليلة، وقد ذكرها آدم متز مما يغني عن ذكرها هنا[٣١٢].

يقول المقدسي عن الشام: " إن أكثر الجهابذة والصياغين والصيارفة والدبّاغين بهذا الإقليم يهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى»[٣١٣] ".

لم يغيب أهل الكتاب في هذا العصر، أن يكون لبعضهم مناصب في الدولة، فقد كان إصطفان بن يعقوب النصراني (ت ٣٢٤هـ) صاحب بيت مال الخاصة لمؤنس الخادم[٣١٤]، واتخذ كل من عضد الدولة البويهي في بغداد والخليفة العزيز في القاهرة وزيراً نصرانياً[٣١٥]. وعامل الفاطميون أهل الكتاب " معاملة تنطوي على العطف والرعاية، فتقلدوا أرقى المناصب في عهد الخليفة العزيز، وشغلوا في عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية في الدولة، بل تقلدوا الوزارة أيضاً". «وقد أدى طمعهم في هذا إلى اعتناق أعداد منهم المذهب الإسماعيلي»[٣١٦].

صفوة القول بعد هذا العرض المكثف، أن " هذه العناصر الجنسية (العرقية) من أتراك وفرس وعرب وروم وزنج وغيرهم، وما تستلزم من عصبيات؛ وهذه العصبيات المذهبيّة والطائفية من تسنن وتشيّع، ومن حنابلة وشافعية وحنفية، ومن مسلمين ويهود ونصارى. . . كانت كلها حركات تموج بها المملكة الإسلامية، تتعاون حيناً، وتتفاعل حيناً، وتؤثر في السياسة وفي الدين وفي العلم، ونشأ عنها المؤامرات السرية أحياناً، والقتال الصريح أحياناً أخرى، وكان لها أثر واضح في كل ناحية من النواحي الاجتماعية: فقد أثّرت في الحياة المالية إمّا مباشرة وإمّا عن طريق الحكم والسياسة،

فعمّرت من ناحية وخرّبت من أخرى، وعدّلت في ناحية وظلمت في أخرى.

وأثرت في المرأة بكثرة الأجناس ذوات الخصائص المختلفة، وقد حملت من هذه الأجناس خصائص الجمال والقبح في المظهر وفي الأخلاق وفي العادات، وغزون البيوت بما كان يعرضه النخاسون منهن في سوق الرقيق، وبما كان يحمله الغزاة معهم في حروبهم مع الروم ومع الترك ومع الفرس ومع الزنج، وما كانوا يوزعونه على الجنود وعلى الأهل والأقارب، وما كانوا يتخلون عنه فيعرضونه في الأسواق.

وأثّرت في الدين من كثرة الجدل بين الفقهاء...، ومن تدخّل السياسة في الأمور الدينية والالتجاء إلى الفقهاء يسألونهم الحلول فيما يعرض لهم من مشاكل سياسية واجتماعية...

وبما كان من الاحتكاك الشديد بين المسلمين واليهود والنصارى، وما كان بينهم من تسامح أحياناً، وخصومة أحياناً أخرى... وأثّرت في العلم بما كان يحمله النصارى واليهود والفرس والهنود من علوم آبائهم...[٣١٧]".

(٢) الثراء والفقر: المظاهر والمخرجات:

الثراء والفقر هذا الثنائي المتضاد في أسبابه ومخرجاته ظاهرة لا يكاد يخلو منها عصر من العصور وإن تتفاوت تفاوتاً نسبياً، وهي في هذا القرن امتداد لما كان عليه الحال في معظم القرون السابقة لا سيما العصر العباسي الأول.

لقد كان الناس، في الغالب، طبقتين متوازيتين متمايزتين: ثرية مترفة تتمثل في أكثر الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة وكل من يلوذ بهم بنحو من الأنحاء وسبب من الأسباب، وطبقة فقيرة من عامة الناس غير المنضوين في كنف الطبقة الأولى.

كانت أهم مصادر أموال الطبقة الأولى الجزية والخراج ينفقون منها، بعد أن

تدخل بيت المال، على أنفسهم ومناحي عيشهم المختلفة، ثم مصادرة أموال الموسرين إذا ما لزم الأمر.

والحقيقة أن الثروة في أصقاع المملكة الإسلامية في هذا العصر لم تكن موزعة توزيعاً عادلاً ولا متقارباً، وأن الحدود بين الطبقات كانت بارزة أشد البروز[٣١٨]، فضلاً عن استغلال الطبقة الأولى للطبقة الأخرى أبشع استغلال وأسوأه.

أ - القصور وترف العيش:

يتحدث التاريخ عن قصور خيالية شادها عدد من أفراد الطبقة الثرية، وعما كان فيها من أثاث وفرش وخدم وغلمان وجوارٍ، وما يدور فيها من مجالس اللهو والطرب والغناء وما إليها.

من أظهر الأمثلة على تلك القصور ماحوى قصر (أو قصور) الخليفة المقتدر بالله الذي فصّل الخطيب البغدادي في وصفه إثر زيارة رسول الروم لصاحبه، ومما قاله[٣١٩]:

" وفتحت الخزائن، والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العرائس، وقد علقت الستور ونظم جوهر الخلافة في قلايات على درج غشيت بالديباج الأسود، ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها، وكانت شجرة من الفضّة وزنها خمسمائة ألف درهم، عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفّر بحركات قد جعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجّبه من جميع ما شاهده...

كان عدد ما علّق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة، المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرد[٣٢٠] والستور الكبار البضائعية[٣٢١] والأرمنية والواسطيّة والبهنسيّة السواذج، والمنقوشة والديبقية المطرزة، ثمانية وثلاثين ألف ستر.

وأُدخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الأعظم إلى الدار المعروفة بخان الخيل، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس في يد شاكري بالبزّة الجميلة. ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرّات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحير قطعان تقرب من الناس، وتتشممهم وتأكل من أيديهم. ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزيّنة بالديباج والوشي، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزرّاقين بالنار، فهال الرسل أمرها. ثم أُخرجوا إلى دار فيها مائة سبع خمسون يمنة وخمسون يسرة، كل سبُع منها في يد سبّاع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد. ثم أخرجوا إلى الجوسق المحدث، وهي دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي(٣٢٢)، حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضّة المجلوّة، طول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً، فيها أربع طيّارات لطاف بمجالس مذهّبة... وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيه نخل وأنّ عدده أربعمائة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع....

ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة، مدوّرة فيها ماء صاف، وللشجرة ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضّضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وبعضها مذهب. وهي تتمايل في أوقات، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحـرّك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر، وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً قد ألبسوا الديباج وغيره، وفي أيديهم مطارد على رماح....

ثم أدخلوا إلى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من الفرش والآلات ما لا

يحصى ولا يحصر كثرة، وفي دهاليز الفردوس عشرة آلاف جوشن مذهبة معلقة. ثم أخرجوا منه إلى ممر طوله ثلاثمائة ذراع، قد علّق من جانبيه نحو من عشرة آلاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وزردية وجعبة محلاة وقسيّ، وقد أقيم نحو ألفي خادم بيض وسود صفّين يمنة ويسرة. ثم أخرجوا ـ بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصراً ـ إلى الصحن التسعيني وفيه الغلمان الحجريّة، بالسلاح الكامل، والبزّة الحسنة، والهيئة الرائعة. . . . وكانت عدة كثير من الخدم والصقالبة في سائر القصور، يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والأشربة ومنهم من كان يطوف مع الرسل، فلطول المشي بهم جلسوا واستراحوا في سبعة مواضع واستسقوا الماء فسقوا، ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في التاج مما يلي دجلة، بعد أن لبّس بالثياب الديبقية المطرزة بالذهب على سرير أبنوس قد فرش بالديبقيّ المطرّز بالذهب، وعلى رأسه الطويلة، ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السُّبح معلقة، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضّوء على ضوء النهار، وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنة واثنان ميسرة، ومثُل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر باللّه. . . ".

والمقتدر، وإن كان جيد العقل صحيح الرأي، لكنه كان " مؤثراً للشهوات والشراب مبذّراً، وكان النساء غلبن عليه، فأخرج عليهن جميع جواهر الخلافة ونفائسها، وأعطى بعض حظاياه الدرّة اليتيمة ووزنها ثلاثة مثاقيل، وأعطى زيدان القهرمان سبحة جوهر لم يُرَ مثلها، وأتلف أموالاً كثيرة. . . "[٣٢٣].

ومن مظاهر إسرافه الأخرى أن النرجس الذي أراد أن يشرب عليه في بستان لطيف سمّد بالمسك بدلاً من السماد، ونهب البستانيون المسك بعد أن قام عنه، وقد خــــرج مال عظيم ثمناً له[٣٢٤]. شبيه بهذا فعل الخليفة الراضي الذي أمر بتغيير مجلس شرابه العادي في أحضان الفاكهة مرتين بحيث فرش في الأولى " ريحاناً ونيلوفر "، وفي الأخرى غيّر الريحان بشيء من الكافور حتى صار " الريحان كالمغطّى

ببياض الكافور، وكأنه ثوب أخضر، قد ندف عليه قطن رقيق، أو روضة سقط عليها ضرائب الثلج "[٣٢٥]. وينسب إليه أيضاً أنه أمر أن توزن كل آجرّة جلس عليها واحد من ندمائه ويدفع إليه وزنها دراهم أو دنانير[٣٢٦].

ومن مظاهر إسراف غير الخلفاء أن أبا القاسم البريدي شرب بالبصرة على ورد بعشرين ألف درهم في يوم واحد[٣٢٧]، وأن الوزير المهلبي اشترى، في ثلاثة أيام متتابعة، ورداً بألف دينار، فطرح في بركة عظيمة كانت له في دار كبيرة تعرف بدار البركة، وشرب عليه، ونهب[٣٢٨].

الأمثلة كثيرة[٣٢٩] على القصور الفخمة والبساتين العريضة والأموال الطائلة كالذي يُروى عن بستان عضد الدولة وقصوره[٣٣٠]، الذي يصفه المقدسي بقوله: [٣٣١] «وبنى بشيراز داراً لم أرَ في شرق ولا غرب مثلهـا... خـرّق فيها الأنهار، ونصب عليها القباب، وأحاطها[٣٣٢] بالبساتين والأشجار، وحفر فيهـا الحياض... وسمعت رئيس الفرّاشين يقول: فيها ثلاثمائة وستون حجرة وداراً كان مجلسه كلّ يوم واحدة إلى الحول... ". وكذلك الأمر بشأن الحيوانات التي كان يربيها الوزير ابن مقلة في قصره، وأموال ابن الفرات وزير المقتدر الذي " كان يملك أموالاً كثيرة تزيد على عشرة آلاف دينار، وكان يستغل من ضياعه في كلّ سنة ألفي ألف دينار ينفقها[٣٣٣] "، وكذلك كان شأن الإخشيديين والفاطميين والأمويين بالأندلس[٣٣٤].

أمّا الحمدانيون فلم يكونوا، على الرغم من انشغالهم بحرب الروم وإخمادهم الفتن الداخلية ومنازعاتهم هم، في منأى عن سمت عصرهم من حيث بناء القصور والترف والانصراف إلى لذات الحياة ومتعها ما واتت الفرصة، وقد عُدّ غرام الحمدانيين ببناء القصور الفخمة " عدوى " سرت إليهم عن العباسيين من خلال إقامتهم ببغداد حقباً " لم يكونوا خلالها بعيدين عن قصور الخلفاء، لقد عرفوها من كثب، واشترك

بعضهم في الهجوم عليها عند عزل خليفة أو مطاردة قائد "[٣٣٥].

وكان أفخم قصور بني حمدان قصر سيف الدولة الذي أقامه بالحلبة شمالي عاصمته حلب وأجرى إليه نهر قويق وأطافه به[٣٣٦] وزينه بأيدي أسرى الروم الذين كان يحتفظ بهم ويحترمهم ويكافئهم أحسن مكافأة، فكان آية من آيات ذلك العصر كما وصفه بعض المستشرقين من مثل " سيشلمبرجر " Schlumberger و "دايفنش " Devens اللذين وصفاه بإعجاب منقطع النظير حتى عُدّ مدينة قائمة بذاتها، ومما قيل فيه نقلاً عن مؤرخين رومانيين: «وعندما فتحت أبواب القصر للمرة الأولى كان ذلك مثار الدهشة والإعجاب، لأن الأبواب كانت من البرونز النحاسي نقشت عليها آلاف التصاوير المستغربة الجميلة، وهي تدور على قواعد من الزجاج حتى لا تأتي بحركة، وإذ تدخل الباب تواجهك قاعات متتابعة ملأى بالأعمدة المرمرية المزركشة والموشاة بالذهب والفضة، وجعل المصورون رسوم الزهور في أواسط القبب العالية حيث حفروا بين جهة وأخرى آيات من كتاب الله الكريم بأحرف كوفية جميلة وأبيات مختارة لأعاظم الشعراء بأحرف فارسية فتّانة».

وقيل كذلك: " وكان للقاعة الكبرى خمس قبب بلون اللازورد يحملها(١٤٢) عموداً من المرمر المزركش بالفضة والذهب، تنيرها ألوف من النوافذ الزجاجية الملونة، وفي وسط كل عمود خرجت زهريات ملأى بالزهور والنباتات النادرة. وفي الوسط إفريز عظيم من خشب الأبنوس الموشّى بالذهب جعل خصيصاً لجلوس الأمير ورجاله الأخصاء، وحفر عليه رسم الأمير منتصراً على الصحراء ".

ناهيك عمّا كان فيه من السجاد الفاخر والدمقس الغالي ومحارق البخور، والبحيرات المتناثرة في حدائقه، والحرم النفيس الذي كان يتسع لسكنى(٣٠٠) امرأة، والحمّامات الرائعة، والمياه البلورية التي كانت تتدفق من فم اثنتي عشرة سمكة من

الذهب، والإصطبلات ذات المعالف الرخامية لألف جواد وأكثر، والموسيقى التي كانت الراقصات تدخل على أنغامها متشحات بالغلالات الشفافة من حرير الموصل، وهنّ يضربن بالدفوف ويتثنين برقصاتهن المثيرة[٣٣٧].

ولقد دعا هذا كلّه غوستاف سيشلمبرجر نفسه إلى أن يقول، كذلك: "ولقد أقسم مؤرخ بيزنطي زار حلب في عصر سيف الدولة أن قصور الخلفاء في بغداد وقصور ملوك الروم في القسطنطينية كانت أقل بهاء من قصور سيف الدولة. وقال هذا المؤرخ: «إن الفنون على تباين أنواعها كانت مضطهدة في عاصمة المسيحية، ولكنها كانت تنعم بتسامح كبير في عاصمة الدولة الحمدانية... وقد كان المصورون والمثّالون من الروم يخرجون من ديارهم على كره منهم، لأن قيصر قد أرادهم على هذا التشريد... فكانت حلب تستقبل جميع هؤلاء، وكان سيف الدولة يكرمهم، ثم يستفيد منهم، ويمتحن عبقرياتهم ثم يستغلها استغلالاً حسناً، ويقبس من تحاسينها وتزاويقها ما يزيد في تحاسين حضارة بلاده...[٣٣٨]".

ذلكم هو القصر الذي هدمه، كما تقدم، "نيقفور فوكاس" عام ٣٥١هـ حين استولى على حلب، ونهب كلّ ما فيه وأحرقه. ولولا ذلك لكان في حلب الشهباء اليوم «أثر فني قلّ أن يكون نظيره في الشرق، ولكانت الألف السنة التي تصرّمت عليه قد زادته روعة وجمالاً وقيمة أثريّة نادرة»[٣٣٩].

كانت قصور سيف الدولة تغص بالجواري من أسرى الروم. يقال كانت له «جارية من بنات ملوك الروم، لا يرى الدنيا إلاّ بها، ويشفق من الريح الهابّة عليها فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلّها منه، وأزمعن إيقاع مكروه بها من سمّ وغيره، وبلغ سيف الدولة ذلك، فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً على روحها، وقال:

راقبتني العيون فيكِ فأشفقـ

ـتُ ولم أخلُ من إشـفـاقِ

ورأيتُ العذول يحسدني فيـ

ـك مُجِدّاً يا أنفسَ الأعلاقِ

فتمنيتُ أن تكوني بعيداً

والذي بيننا من الودّ باقِ

ربّ هجرٍ يكون من خوف هجرٍ

وفراقٍ يكون خوف فراقِ(٣٤٠)

وكان أكثر تلك القصور مسرحاً للهو والشراب والغناء. يذكر أن سيف الدولة – وإن كان قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيوش وملابسة الخطوب وممارسة الحرب –(٣٤١) والوزير المهلبي كانا يتنافسان على مغنّية أديبة مشهورة اسمها «الجيداء» التي كان لها في مجالس سيف الدولة من ارتجال الألحان والأدب البارع ما اشتهر أمره. واشتهر في عهده، كذلك، المغنية المشهورة " بنت يحنا " في أنطاكية(٣٤٢).

ويقال إن إحدى المحسنات من قيان بغداد وافت حلب، فتاقت نفس أبي فراس إلى سماعها، ولم ير أن يبدأ باستدعائها قبل سيف الدولة، فكتب إليه يحثّه على استحضارها، فقال(٣٤٣):

محلّكَ الجوزاء، بل أرفعُ

وصدركَ الدّهناء(٣٤٤)، بل أوسعُ

وقلبكَ الرحب الذي لم يزلْ

للجدّ والهزل به موضعُ

رفِّهْ بقرع العود سمعاً غدا

قرع العوالي جلّ ما يسمعُ

فجودكَ الغامر ما ينقضي

وفضلكَ الباهر لا يُدْفَعُ

وبلغت هذه الأبيات الوزير المهلبي ، فأمر القيان والقوّالين بحفظها وتلحينها ، وصار لا يشرب إلا عليها .

ويقال إنّ " الهنكري " مغني سيف الدولة كان يغني له ـ فيما يغني ـ بعض أشعار ابن الحجّاج (الحسن بن أحمد) الشاعر المعروف بالتهتك والسخف والمجون[٣٤٥]، من مثل :

أمـــيـــري يـــا من نـــدى كـــفِّهِ
يـــزيـــد عـــلـى الـــعـــارض المـــمـــطـــرِ
أرى يـــومـــنـــا يـــوم كـــأس تـــدو
رُ مـن يـــــــد ذي دعـج أَحْـــــــورِ
وأبـــيضَ يـــحـــدوكَ ســـكـــر الـــغـــرامِ
عـــلـى لـــثـم شـــاربـه الأخـــضـــرِ
بـــحـــمـــرة وجـــنـــتـه تـــســـتـــدلُّ
عـــلـى أنّه مـن بـــنـي الأصـــفـــرِ
وشـــعـــر ابن حـــجّـــاج يـــا ســـيّـــدي
يُـــغـــنّي به عـــبـــدكَ الـــهـــنـــكـــري

ومثل :

مَـــلِـكٌ لـــو لـم يـــكنْ من مُـــلـــكِـهِ
غـــيـــر دار وُشِّـــحتْ بـــالـــنِّـــعـمِ
لـــو رمى شـــدّاد فـــيـــهـــا طـــرفَهُ
زهّـــدتْه بـــعـــدهـــا فـي إرمِ

كل هذا جنباً إلى جنب مع ما تتناقله كتب التاريخ عمّا كانت عليه حلب في عهد سيف الدولة من " مجد وزهو وعمران واستباقها المدن المجاورة لاحتضان ثقافة

البيزنطيين وكلّ ما أخذه العباسيون عن حضارة الفرس والإغريق حتى أصبحت بقية العواصم كدمشق وبغداد تحسدها على مركزها المدني الجديد، وتتمنى لو أن لها بعض صوره وألوانه ولكن هذا المركز الأثيل الذي تمتعت به في عهد الحمدانيين لم يطل . . . [٣٤٦] " .

وكان للحمدانيين بالموصل قصورهم أيضاً من مثل قصر ناصر الدولة الذي أسهب السريّ الرفّاء في وصفه ووصف بستانه والدولاب الذي كان فيه، فقال فيما قال[٣٤٧] :

والقصر يبسم في وجه الضحى فترى
وجه الضحى عندما أبدى لنا شحبا
يبيتُ أعلاه بالجوزاء مُنْتطقاً
ويغتدي برداء الغيم مُحتجبا
إذا القصور إلى أربابها انتسبتْ
أضحى إلى القمّة العلياء مُنْتسبا
أنشأتَه منزلاً في قلب دجلةَ لا
تمتاح جنّته الغدران والقُلُبا
صفا الهواء به والماء فاشتبها
كأنّ بينهما من رقّةٍ نَسبا
فمن جنان تُريكَ النّور مُبتسماً
في غير إبّانه والماء مُنسكبا
ومن سواقٍ على خضراءَ تحسبها
مخضرّة البُسط سلّوا فوقها القُضُبا
كأنّ دولابها إذ حنّ مُغْتربٌ
نأى فحنَّ إلى أوطانه طَرَبا

والقصيدة طويلة لا تكاد تترك شيئاً عن القصر ومتعلقاته الجمالية الكثيرة. وبنى أبو فراس، كذلك، المنازل الكبيرة والدور الفخمة بمنبج، تلك التي تذكّرها وحنّ إليها وعرّف بها، وهو في أسر الروم، في الهمزية التي مطلعها(٣٤٨):

قِفْ في رسوم "المستجا ب" وحَيِّ أكنافَ "المُصَلَّى"

ولم تكن القصور في عهد بني حمدان وقفاً عليهم وحدهم، إنما بنى عمالهم قصوراً لهم كذلك، من مثل قصر كاتب سيف الدولة ونديمه أبي محمد عبدالله بن محمد بن الفيّاض في حلب كما يبدو من قصيدة طويلة مدحه فيها السريّ الرّفاء، فقال(٣٤٩):

وبين ملاعبِ الدَّيرينِ مَغْنى غنِيتُ به ودار أخٍ حميمِ

ومن مظاهر الطبقة المترفة الاجتماعية الطعام والشراب، فقد كان في بيوت الكبراء، فضلاً عن الخلفاء عمل "صاحب المطبخ" و "الشرابي" الذي يعنى بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح(٣٥٠). ولقد أسرفوا، بعد عصور الإسلام الذهبية الأولى، في الطعام والشراب ولوازمهما إسرافاً شديداً لا سيما بعد امتزاج الأعراق المختلفة.

واستمرت في هذا العصر أنواع المطعوم والمشروب ورسومها المختلفة بوسائل وأنماط من التفنن والتأنق حتى إنَّ المؤرخ المعروف مسكويه الذي كان خازن كتب عضد الدولة ألّف في الطبيخ كتاباً عنوانه "تركيب الباجات من الأطعمة"، وقد "أحكمه غايات الإحكام، وأتى فيه من أصول علم الطبخ بكل غريب حسن"(٣٥١). ومن رسومهم أنهم كانوا يفصلون وقت المسامرة عن وقت الطعام، وكان لا يبتدىء إلاّ مع أقداح الشراب، وكانت المشهّيات تسمى "النُّقل" - وهي فارسية -، وكان لأهل

التظرّف، نساء ورجالاً تحديداً، رسوم خاصة في هذا وفي أكلهم عامة كما يروي «الوشّاء»[٣٥٢].

وكان الإخشيديون يعنون بالطعام عناية خاصة من حيث تنوعه وقيمته الغذائية حتى إنه كان للإخشيد طبيب خاص لهذا الغرض وربما لغيره كذلك، ويُذكَر شيء من هذا عن سيف الدولة الذي كان يحضر على مائدته، حين يأكل، أربعة وعشرون طبيباً ليدلّوه على ما يوائم مزاجه من الطعام[٣٥٣].

وكان كافور ينفق على مائدته إلى حد التبذير[٣٥٤] ، روى ابن خلكان عن وكيل كافور: " خدمت الأستاذ والجراية التي يطلعها ثلاث عشرة جراية في كلّ يوم، ومات وقد بلغت على يدي ثلاثة عشر ألفاً في كل يوم"[٣٥٥].

ومن العجب ما يروى، مثلاً، عن الوزير المهلبي (الحسن بن محمد) في شدّة تأنقه بلباسه وطعامه حتى إنه كان لا يأكل إلاّ بملاعق الذهب، وما كان يأكل بالملعقة إلاّ لقمة واحدة، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة[٣٥٦]، وهو الذي حدّث عن نفسه أنه كان في أيام حداثته وقِصر حاله يسكن داراً لطيفة[٣٥٧] (صغيرة).

وكثيراً ما كان يجمع على مائدته العلماء والكتاب والندماء، ويكثر الحديث على الطعـــام وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث الأخرى[٣٥٨]. وكان يفعل قريباً من هذا الوزير ابن الفرات في مطالع القرن الرابع الهجري[٣٥٩].

ومن مظاهر ترفه الأخرى ما حدّث به القاضي أبو علي التنوخي، فقال:[٣٦٠] «شاهدت أبا محمد المهلبي قد ابتيع له في ثلاثة أيام ورد بألف دينار فَرش به مجالسه وطَرحه في بركة عظيمة كانت في داره، ولها فوّارات عجيبة يطرح الورد في مائها وتنفضه، وبعد شرابه عليه وبلوغه ما أراده منه أنهبه ".

أمّا الشراب فقد كان، على الرغم من تحريمه دينياً، منتشراً بكثرة، وكان يعاقره الخلفاء والكبراء والعلماء والعامة، وقد كانت له، كالطعام، رسوم وتقاليد خاصة أيضاً[٣٦١].

فالخليفة القاهر بالله (٣٢٠ – ٣٢٢هـ) أمر عام ٣٢١هـ بتحريم الغناء والخمر وسائر الأنبذة، وقبض على المغنين، ونفى المخانيث، وكسر آلات اللهو، وأمر ببيع المغنّيات من الجواري على أنهن سواذج، وكان مع ذلك لا يصحو من السكر، ولا يفتر عن سماع الغناء[٣٦٢].

ويقول الصولي[٣٦٣] عن الخليفة الراضي بالله (٣٢٢ – ٣٢٩هـ): " ولم يزل الراضي نحو سنتين من خلافته، لا يشرب النبيذ ونشربه نحن بين يديه، وربما شرب الجلاب[٣٦٤] وأنا مصوّب له ذلك مساعد عليه حتى أغواه أصحابنا، فقال: إني أعطيت اللّه عهداً أن لا أشربه أبداً. وكتب رقعة بلفظه بيمينه وعرضها على الفقهاء، فوجد رخصة، فوجّه بألف دينار إليّ لأتصدق بها عنه، وشرب". أمّا الخليفة المستكفي باللّه (٣٣٣ – ٣٣٤ هـ) فكان قد ترك النبيذ، وحين أفضت الخلافة إليه دعا به من وقته، ودعا إلى شربه[٣٦٥].

ويحكى عن أبي منصور الأزهري اللغوي المشهور صاحب " تهذيب اللغة " أنه دخل على ابن دريد محمد بن الحسن(٢٢٣ – ٣٢١هـ) صاحب " جمهرة اللغة " «والاشتقاق»، وقد جاز التسعين، فوجده سكران، فلم يعد إليه قط[٣٦٦]. وكان زوّاره يدخلون عليه، فيستحيون مما يرونه من العيدان المعلقة والشراب المصفّى موضوع، وهو في تلك السن[٣٦٧].

والغريب ما يرويه المقدسي عن الشراب في مصر، فيقول:[٣٦٨] «لا يتورع مشايخهم[٣٦٩] عن شرب الخمور... وترى الشيخ سكران».

وكان من مستلزمات الشراب الغناء والرقص والحكايات القصيرة من النوادر وأحاديث اللباقة[٣٧٠]، وربما متع أخرى كما في الحكاية الطويلة التي يرويها التنوخي والتي تجمع كل المتع والملاذ الحسية[٣٧١]. وقد كان للموسيقى شأن في بلاط سيف الدولة كما تدل الرواية الآتية المبنيّة على حوار بين سيف الدولة وأبي نصر الفارابي الفيلسوف (ت ٣٣٩هـ) في أول لقاء بينهما بعد أن خلا المجلس إلاّ منهما " . . . فقال (سيف الدولة) له : هل لك في أن تأكل؟ فقال : لا ، فقال : فهل تشرب ؟ فقال : لا ، فقال : فهل تسمع؟ فقال : نعم . فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي ، فلم يحرك أحد منهم آلته إلاّ عابه أبو نصر ، وقال له : أخطأت . فقال له سيف الدولة : وهل تحسن في هذه الصناعة شيئاً؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيداناً وركّبها ، ثم لعب بها ، فضحك منها كل من في المجلس ، ثم فكّها وركّبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كل من في المجلس ، ثم فكّها وغيّر تركيبها وحرّكها فنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياماً وخرج[٣٧٢] " .

وقد كرر هذه الحادثة في مجلس للصاحب بن عبّاد ، وكتب على " البربط " " قد حضر أبو نصر الفارابي واستهزأتم به فنوّمكم ، وغاب " فلما أفاق الصاحب وندماؤه تعجبوا من حذقه في صناعة الموسيقى ، وتأسفوا على فوات منادمته ، ثم قال الصاحب : أديروا الكؤوس على اسمه لعل الزمان يردّه علينا ، ولما قرأ ما كتب على العود وعرف أنه أبو نصر شقّ جيبه واستغاث ، وجهّز أعوانه في طلبه[٣٧٣] . والفارابي هو واضع آلة " القانون " وأول من ركّبها هذا التركيب[٣٧٤] ، وقد قيل بأنه كان مطرب سيف الدولة[٣٧٥] ، الذي أكرمه إكراماً عظيماً وعظمت منزلته عنده ، وكان له مشيراً ، بيد أنه لم يقبل منه سوى أربعة دراهم يومياً لأنه كان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن ولا بشيء من أمور الدنيا[٣٧٦] . ولما مات صلّى عليه

سيف الدولة في أربعة من خواصه[٣٧٧].

ومن مظاهر الترف غير المسوّغ ما يتصل بالموت، ناهيك عن المقابر الخاصة[٣٧٨]، من حيث تغسيل العظماء والكبراء وتكفينهم، فلما مات سيف الدولة غُسِّل تسع[٣٧٩] مرات بالماء وماء الورد والعطور السائلة، ثم ثلاث مرات بالماء المقطّر، ونشّف بدبيقي[٣٨٠] ثمنه خمسون ديناراً أخذه الغاسل قاضي الكوفة عبدالحميد بن سهل المالكي فضلاً عن أجرته، ثم دهن بالزعفران والكافور، ووضع على خدّيه ورقبته مائة مثقال من الغالية، وفي عينيه وأذنيه ثلاثون مثقالاً من الكافور، وبلغ ثمن كفنه ألف دينار، ثم وضع في تابوته ورشّ عليه الكافور[٣٨١].

ولما مات يعقوب بن كلّس (بكسر الكاف) وزير العزيز صاحب مصر عام ٣٨٠ هـ كُفِّن وحُنِّط بعشرة آلاف دينار، وأمر العزيز أن يدفن في داره أي دار الوزارة بالقاهرة داخل باب النصر في قبة كان قد بناها، وألحده بيده في قبره، وانصرف حزيناً لفقده، وأمر بإغلاق الدواوين أياماً بعده. وابن كلّس هو الذي أوصى في علة وفاته العزيز بـأن «سالم الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانيّة بالدعوة والسكّة". ويقال إن إقطاعه من العزيز كان مائة ألف دينار سنوياً ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، وجوهر بأربعمائة ألف دينار، وبزّ من كل صنف بخمسمائة ألف دينار، وكان، على الرغم من كل هذا، مديناً للتجار بستة عشر ألف دينار قضاها عنه العزيز من بيت المال[٣٨٢].

ب - الألعاب:[٣٨٣]

واستمرت في هذا العصر ضروب التسلي بالألعاب المختلفة الأصيلة والوافدة، وكانت في الأعم الأغلب من ألعاب الكبراء والأثرياء والخواص. فالشطرنج الذي عرفه المسلمون منذ عهد الخليفة الرشيد، كان أبو بكر الصولي (ت ٣٣٥ أو ٣٣٦هـ)، مثلاً،

أوحد وقته فيه إذ أضيف إلى اسمه لقب " الشطرنجي " ، وضرب فيه المثل فقيل : «فلان يلعب الشطرنج مثل الصولي» حتى زُعم خطأ أنه هو الذي " وضع الشطرنج"[٣٨٤] ، وذهب الخليفة الراضي إلى أنّ لعب الصولي بالشطرنج أحسن من بستان مونق وزهر رائق . وكانت اللّعبة سبب تفضيل المكتفي له[٣٨٥] . ومنها النرد والصوالجة (الكرة والصولجان) ، وهما لعبتان فارسيتان . ويقال إن الرشيد كان أول من لعب النرد[٣٨٦] . وكان للشطرنج والنرد آداب خاصة تجب مراعاتها والأخذ بها لا سيما في حال لعب الندمان مع الرؤساء[٣٨٧] .

وسباق الخيل كان من أهم الرياضات ، وكذلك الصيد والقنص بضروبها كافة ، وارتباط الحيوانات كالسباع وصيدها كما كان دأب الخليفة الفاطمي العزيز بالله مثلاً . ولتاج الدولة بن عضد الدولة البويهي قصيدة طرديّة يصف فيها الصيد بالفهود مطلعها : [٣٨٨]

صرنا مع الصباح بالفهودِ
مردفةً فوق متون القُودِ

ولأبي فراس نفسه مزدوجة طردية طويلة تدل على ولوعه وولوع الحمدانيين بالصيد ، مطلعها : [٣٨٩] .

ما العمر ما طالتْ به الدهورُ
العمر ما تمّ به السرورُ

وألف كشاجم الرملي في هذا العصر كتابه " المصايد والمطارد " . وكانت السباحة والمصارعة من أشهر ضروب التسلية في هذا العصر . يقول السيوطي[٣٩٠] عن الخليفة المستكفي بالله / أبي القاسم (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) : " . . . وأغرى المصارعين والسبّاحين ، فانهمك شباب بغداد في تعلم المصارعة والسباحة ، حتى صار السبّاح يسبح وعلى يده كانون وفوقه قدرة ، فيسبح حتى ينضج اللحم" .

ج - الأعياد والمواكب والاحتفالات:

ظل الاحتفال بالأعياد في هذا العصر قائماً كما كان الأمر عليه في العصر الذي قبله، كالأعياد الدينية: الفطر والأضحى ورأس السنة الهجرية عند المسلمين عامة لا سيما في البلاد والمدن التي يكون الشعور الإسلامي فيها قوياً من مثل طرسوس التي كانت قبلة أهل الغزو من المسلمين في الاحتفال بالعيدين اللذين كانا يُعَدّان من محاسن الإســـلام، ولما ضاعت من المسلمين ظلت صقلية معروفة بحسن عيديْها(٣٩١). وكان الفاطميون في مصر يحتفلون بأعياد أخرى غير العيدين الكبيرين ورأس السنة، من مثل: يوم عاشوراء، ومولد الإمام عليّ كرم الله وجهه، ومولد ابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهم(٣٩٢).

وكان الناس يحتفلون، كذلك، بالنوروز والمهرجان والرام التي أصبحت في الأعصر العباسية من الأعياد القومية تُقَدَّم فيها التهنئات والهدايا ويتغنى بها الشعراء والكتّاب. وكان النصارى وغيرهم يحتفلون بأعيادهم. وقد كانت للأعياد كافة تقاليد وعادات ورسوم خاصة(٣٩٣).

وكانوا يعنون كثيراً بالاحتفالات التي تتبدّى فيها مظاهر الأبهة والعظمة، كالذي أُجري عام ٣٠٥ هـ في عهد المقتدر لرسولي ملك الروم إذ أدخلا عليه بعد مراسم خاصة " وقد جلس لهما، واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة"(٣٩٤)، وقد توسع السيوطي في وصف هذا الاحتفال(٣٩٥). وكان من هذا الضرب استقبال الحاكم الفاطمي رسول إمبراطور الروم، واستقبال الحكم المستنصر عام ٣٥١ هـ لأردون ملك الروم فــي قرطبة(٣٩٦).

ومن مظاهر الاحتفالات ضرب السكة كالذي فعله سيف الدولة عام ٣٥٤هـ حين زَوَّج(٣٩٧) ابنته "ست الناس " من أبي تغلب الحمداني، إذ ضرب دنانير خاصة على أحد

وجهيها " محمد رسول الله، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فاطمة الزهراء، الحســـــن والحسين، جبريل "، وعلى الوجه الآخر " أمير المؤمنين المطيع لله، الأميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة، الأميران أبو تغلب وأبو المكارم "[٣٩٨].

أما المواكب التي يراد بها خروج الخليفة أو السلطان أو الأمير أو من لفّ لفهم في عيد أو غير عيد، فكانت معروفة منذ أقدم العصور وعند العرب منذ الجاهلية، وقد كان لكل عصر سماته ومظاهره، وليس من شك في أن تلك السمات والمظاهر قد تطورت في هذا العصر من جرّاء اختلاط العرب في أعصر الحضارة والتمدن بغيرهم من أهل الحضارات القديمة كالفرس والروم، وقد كانت تلك المواكب تختلف وفقاً لأهدافها وناسها ومناسباتها[٣٩٩].

ولقد كانت المواكب في الأعصر العباسية جميعاً – وهذا العصر الذي ندرسه فيها ـ أروع من مواكب الأمويين عموماً، لا سيما في أيام الجمع وفي مواكب الحج. ولم تكن المواكب العباسية – في الأغلب – تخرج عن أنهم " كانوا يخرجون على الخيول أو في القباب، وحولهم الأعوان ركوباً والشرطة مشاة، وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب أو يحملون المقارع أو الطبرزينات[٤٠٠] المحلاة بالذهب، ويقف الناس أو الجند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما. ويختلف طول هذا الموكب باختلاف ما يريدونه من إظهار الأبهة "[٤٠١].

وقلّد الخلفاء الفاطميون العباسيين في مواكبهم، وزادوا عليهم الركوب بالمظلّة والشمسيّة اللتين كانوا يستعملونهما يوم الجمعة إلى الجامع الأزهر بين حوالي(٥٠٠٠) مــاش، وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخلافة حتى يأتي الجامع ويصلّي، فضلاً عن رسوم كثيرة يؤدونها قبل الصلاة وكانت لهم رسوم أخرى في المبايعة أو الاحتفال بفتح[٤٠٢].

أمّا السلاجقة، فكانوا يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر[٤٠٣] على

رؤوسهم[٤٠٤]. ومن الأمثلة على مواكب الحج، أن جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني حجت عام ٣٦٦هـ في موكب من(٤٠٠) جمل، ونشرت في الكعبة عشرة آلاف دينار، وخلعت على الناس خمسين ألف ثوب[٤٠٥].

ويقال إن سيف الدولة كان يركب في خمسة آلاف من الجند وألفين من غلمانه ليزور قبر والدته[٤٠٦].

د - الفقر: الأسباب والمخرجات:

قال الشاعر:

ذريـــني لـــلــغـــنى أســـعى فـــإنّــي
رأيتُ الـــنـــاس شـــرُّهم الـــفـــقـــيـــرُ
وأبـــعـــدهم وأهـــونـــهم عـــلـــيـــهـــمْ
وإن أمـــسى لـه حـــسب وخِـــيْـــرُ[٤٠٧]
ويُـــقـــصـــيه الـــنـــديّ، وتـــزدريهِ
حـــليـــلـــته، ويـــنـــهـــره الـــصـــغـــيـــرُ
وتـــلـــقى ذا الـــغـــنى ولـه جـــلالٌ
يـــكـــاد فـــؤاد صـــاحـــبه يـــطـــيـــرُ
قـــلـــيلٌ ذنـــبه والـــذنب جَـمٌّ
ولـــكنّ الـــغـــنى ربٌّ غـــفـــورُ

وقال آخر:[٤٠٨]

حـــيـــاة بلا مـــال حـــيـــاة ذمـــيـــمـــةٌ
وعـــلـــمٌ بلا جـــاهٍ كلام مُـــضـــيَّعُ

قاتل الله الفقر ما أصعبه! ألم يقل الإمام عليّ، كرّم اللّه وجهه: «لو كان الفقر

رجلاً لقتلته». الفقر ظاهرة عامة لا يكاد يخلو منها عصر أو زمن مهما أوتي من الثراء والبذخ والترف، حتى العصور التي تكاد تستفحل فيها هذه الأمور! إن هذا العصر ليس بدعاً بين الأعصر الخوالي واللواحق، فهو، مثلاً، كالقرن الثاني الهجري[٤٠٩] استشرى فيه الفقر على الرغم من مظاهر الثراء وكثرة الموسرين وتعدّد ضروب اللهو والبذخ وما إليها. ولقد طال الفقر فيه عامة الناس من غير الخلفاء وعمّال الدولة الكبار ومن يلوذ بهم ويعيش في أكنافهم، حتى إنّ بعض الخلفاء، الذين أسقط في أيديهم، لم ينجوا من غوائله، كالخليفة القاهر الذي خُلع عام ٣٣٢هـ، يقال إنه خرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس، فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم[٤١٠]. ويكاد أحمد أمين في عدد من الأقوال يلخص الموضوع تلخيصاً جيداً. يقول[٤١١]: "لقد كان التوازن الاجتماعي في هذا العصر مختلاً في الناحية المالية، فلا تقارب. وما نجده من وصف الإمعان في الحضارة والإسراف في الترف والتفنن في النعيم، إنّما هو وصف فئة قليلة العدد، وهي قد أسرفت في الترف على حساب إمعان السواد الأعظم في البؤس. وفي الناحية الخلقية انحلال بين الأغنياء، وتكبر وتجبر من الساسة وأولي الأمر، وذلة وضعة في الفقراء البائسين؛ وما يروى لنا من عزّة وإباء، وتمسك بالحق وبالفضيلة، فصفات الأقلين النادرين".

ويقول: [٤١٢] "قد كان هناك طبقتان متميزتان كلّ التميز، فالخليفة ورجال دولته وأهلوهم وأتباعهم طبقة الخاصة، وهم عدد قليل بالنسبة إلى مجموع الأمة، وبقية الناس - وهم الأكثر - طبقة العامة من علماء وتجار وصنّاع ومزارعين ورعاع، وأغلب هؤلاء فقراء إلاّ من اتصل منهم بالخلفاء والأمراء".

ويقول: [٤١٣] "كان عصراً أرستقراطياً لا ينعم فيه إلاّ الأرستقراطيون ومن شاء أن يعيش على موائدهم، بل من شاءوا أن يُؤكّلوه من موائدهم... وأمّا من بعدوا عن القصور (من العلماء) فكانوا فقراء غالباً لا يكادون يجدون ما يسدّ رمقهم...".

ويقول:[٤١٤] "... لهذا كلّه كانت كلّ أنظار الناس موجهة إلى الخلفاء والأمراء؛ فالعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه إلاّ في خدمتهم؛ والشعراء إن أرادوا العيش لم يجدوه إلاّ في مديحهم؛ والتُجار إن وقع شيء ثمين في يدهم من جوهر أو جَوارٍ لا يجدون نَفاقاً لها إلاّ في قصورهم؛ والصنّاع إذا أحسنوا صناعة شيء فهم مقصدهم. أمّا سائر الشعب ففقير بائس قلّ أن يجد الكفاف...".

وليس من شك في أن كان لهذا الأمر وغيره من مصادر المال الأخرى في هذا العصر من ضرائب وجزية وجباية وخراج وإقطاع ومصادرة أموال[٤١٥] بعض الخلفاء والأمراء والوزراء وذوي قرباهم بعد أن تدور بهم الدوائر وينقلب السحر على الساحر، فضلاً عن الحروب والمنازعات والفتن بين الطوائف وأصحاب المذاهب والنّحل وإفساد اللصوص وقطّاع الطرق ومن إليهم، ليس من شك في أن أكثرها قد ساعد على خلق الفقر والحياة الاقتصادية المتردية، وأن بعضها ـ والمصادرة تحديداً ـ تسبب في إخفاء الأموال والتظاهر بالفقر، وهرب بعيدي النظر من التقرب من الخلفاء وذويهم، ونشأ في الأدب العربي كثير من الشعر والنثر يحمد الفقر والبعد عن البلاط، كما نشأ شيوع التصوف والميل إليه [٤١٦].

يقول عبدالمجيد الحر: " وهذا الإسراف البعيد عن كل دراسة مالية صحيحة، وتلك اللامبالاة في تصريف شؤون الدولة، وإكثار الإنفاق على ما أعطي ولم ينفّذ في مرافق الدولة وداخل البلاط؛ أدّى إلى حالة إقتصادية متردّية، لقي السكان منها أشدّ العنف والإجهاد والضَّنك. وكان لا بدّ للأسعار من أن ترتفع إزاء تلك الفوضى الضاربة عرض الحائط بحاجات الشعب الفقير المعدم، والمؤدية ـ فيما بعد ـ إلى اضطراب اجتماعي سيّئ العواقب على مركز الخليفة والرعيّة في آن "[٤١٧].

يقال، مثلاً، إنه لما أحصيت ثروة عضد الدولة بعد وفاته كانت: ٢,٨٧٥,٢٨٤

ديناراً و ٧٩٠, ٨٦٠, ١٠٠ درهماً، وشيئاً كثيراً من الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح والمتاع[٤١٨]، رُوي عنه أنّه لما احتضر ما كان لسانه ينطق إلاّ بقولـــه تعالى: [٤١٩] «ما أغنى عني ماليه. هلك عنّي سلطانيه»[٤٢٠].

ويقال إن ابن الفرات وزير المقتدر لثلاث مرّات كان يملك من الأموال ما يزيد على عشرة آلاف ألف دينار، وكان يستغل من ضياعه ألفي ألف دينار سنوياً، وأنه أعطى أبا بكر الصولي ستمائة دينار على قصيدة واحدة مدحه فيها[٤٢١].

أمّا سيف الدولة فقد ضرب، حين زوّج ولديه، دنانير من الذهب[٤٢٢]. فمن مظاهر التردي العام والغلاء، مثلاً، ما يذكره ابن الأثير في حوادث عـــام ٣٣٤ هـ: «وفيها اشتد الغلاء ببغداد حتى أكل الناس الميتة، والكلاب، والسنانير، وأخذ بعضهم ومعه صبيّ قد شواه ليأكله، وأكل الناس خرّوب الشوك فأكثروا منه، وكانوا يسلقون حبّه ويأكلونه، فلحق الناس أمراضٌ وأورام في أحشائهم، وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى، فكانت الكلاب تأكل لحومهم، وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة فمات أكثرهم في الطريق، ومن وصل منهم مات بعد مديدة يسيرة، وبيعت الدور والعقار بالخبز، فلما دخلت الغلات انحلّ السعر»[٤٢٣].

ويذكر أنه في عام ٣٧٣هـ " غلت الأسعار بالعراق وما يجاوره من البلاد، وعدمت الأقوات، فمات كثير من الناس جوعاً "[٤٢٤]، وأنه في عام ٣٧٦ هـ " كان بالعراق غلاء شديد جلا لشدّته أكثر أهله" [٤٢٥].

ويقول في حوادث عام ٣٨٢ هـ: " وفيها غلت الأسعار ببغداد، فبيع رطل الخبز بأربعين درهماً "[٤٢٦]، ويقول في عام ٣٨٣هـ: " كان بالعراق غلاء شديد، فبيعت كارة[٤٢٧] الدقيق بمائتين وستين درهماً، وكرّ[٤٢٨] الحنطة بستة آلاف وستمائة درهم

غياثيّة "[٤٢٩].

أمّا مظاهر فقر العلماء والأدباء وعامة الناس ممن لم تتصل أسبابهم بذوي السلطان والحكم فكثيرة . فالقاضي عبدالوهاب البغدادي المالكي (٣٦٢ – ٤٢٢هـ)، الذي كان فقيهاً أديباً شاعراً وكان ثقة لم يُلقَ من المالكيين أحد أفقه منه، نَبَتْ به بغداد فغادرها إلى مصر وهو يقول لمن شيّعه من أهلها: " لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كلّ غداة وعشيّة ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية "، وقال شعراً:

سلامٌ على بغدادَ في كلّ موطنٍ
وحُقَّ لها منّي سلام مُضاعَفُ
فو اللهِ ما فارقتُها عن قِلىً بها
وإنّي بشطّيْ جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقتْ عليَّ بأسرها
ولم تكن الأرزاق فيها تُساعفُ
وكانتْ كخِلٍّ كنتُ أهوى دنوَّهُ
وأخلاقه تنأى به وتُخالفُ

ويقال إنه مات لأول ما وصل مصر من أكلة اشتهاها فأكلها، وإنه قال، وهو يحتضر: " لا إله إلاّ الله، إذا عشنا متنا !"[٤٣٠].

أمّا جحظة البرمكيّ أبو الحسن أحمد بن جعفر (ت ٣٢٤ أو ٣٢٦هـ)[٤٣١]، فكان يصف بيته بأنه " أفرغ من فؤاد أمّ موسى " وأنه لم يبق فيه سوى " البواري"[٤٣٢].

وكان يصف نفسه بأنه " أفلس من طنبور بلا وتر ". ولما علم جاره " محبرة بن أبي عبّاد" الكاتب بأمره، ودخل بيته قال له: " هذا والله فقر مطيح، هذا ضرٌّ مدقع"، وملأ عليه بيته فرشاً وآنية وطعاماً وشراباً وفاكهة وثياباً، ثم ألف درهم[٤٣٣].

ومن شعر جحظة في فقره، قوله(٤٣٤):

الحـــمـــد لـــلـه لـــيس لي كـــاتـــبْ
ولا عـــلى بـــاب مـــنـــزلي حـــاجـــبْ
ولا حـــــمـــــارٌ إذا عـــزمتُ عـــلـــى
ركـــوبه، قـــيل: جـــحـــظـــة راكـبْ
ولا قـــمـــيص يـــكـــون لي بـــــدلاً
مـــخـــافـــةً من قـــمـــيـــصيَ الـــذاهـــبْ
وأجـــرة الـــبـــيت فـــهي مـــقـــرحـــةٌ
أجـــفـــانَ عـــيـــني بـــالـــوابل الـــســـاكبْ
إنْ زارني صـــــاحبٌ عـــــزمتُ عـــلى
بـــيع كـــتـــابٍ لـــشـــبْـــعَـــةِ الـــصـــاحـــبْ

وقوله(٤٣٥):

وقـــــائلٍ لي: مَـنْ أنـتَ ؟ قـــــلتُ لَـهُ
مـــقـــال ذي حـــكـــمـــةٍ واتَتْ له الحِـــكَمُ
لـــستُ الـــذي تـــعـــرف الـــبـــطـــحـــاء وطـأتَهُ
والـــبـــيت يـــعـــرفه والحِلُّ والحـــــرمُ
أنـــا الـــذي ديـــنُهُ إســـعـــاف ســـائـــلِـــهِ
والـــضُـــرُّ يـــعـــرفه والـــبـــؤس والـــعـــدمُ

ويمثّل أبو حيان التوحيدي، الذي وصف بالفقير الصابر، نموذجاً ناصعاً لفقر العلماء، ويعدّ مصوّراً بارعاً لنماذج فقر كثيرة في هذا العصر إضافة إليه وهو نموذج أكبر. لقد ظلّ الرجل ينتهز الفرص للشكوى المرّة من الفقر الذي تردد من جرّائه على غير وزير من وزراء زمانه ورجالاته ليبعده عنه دون جدوى. فلقد شكا في المدة التي

أقام فيها عند الصاحب بن عبّاد من " شدة العدم والإنفاض وصفر الكفّ عمّا يصان به الوجه"[٤٣٦]، ومن أنه أصبح " ومالي صــديق أتنفّس معـه، . . . . ، ولا غنىً أستمتع بــه [٤٣٧]، ومن أشدّ الشكـوى قوله[٤٣٨]: " . . . ومن أين يظفر بالغداء من كان عاجزاً عن الحاجة ؟ وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية ؟ وكيف يحتال في حصول طِمْرين[٤٣٩] للسّتر لا للتجمّل ؟ وكيف يهرب من الشرّ المقبل ؟ وكيف يهَرْول وراء الخير المدبر؟ وكيف يُستعان بمن لا يعين، ويُشتكى إلى غير رحيم ؟ " .

ليس بمستغرب، إذاً، أن يرجو رفد الوزير ابن سعدان، بعد أن أطنب في مدحه بالكرم والجود بكل نفيس، فيقول: [٤٤٠] " وأرجو، إن شاء الله، ألا أحرم هبّــــــةً من ريحك، ونسيماً من سَحَرك، وخيرةً بنظرك، وآخر ما أقول، أيها الوزير: مرْ بالصّدقات، فإنها مجلبة السلامات والكرامات، مدفعة للمكاره والآفات. . . " .

وليس بمستغرب، كذلك، أن يلتمس الخلاص من الفقر بالتوسل إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس الذي قرّبه من الوزير ابن سعدان، فيقول له[٤٤١]: " . . . فقد كاد وعدك في عنايتك يأتي عليّ، وأنا أسأل الله أن يحفظ عنايتك عليّ، كسابق اهتمامك بأمري، حتى أملك بهما ما وعدتنيه من تكْرِمة هذا الوزير الذي قد أشبع كل جائع، وكسا كلّ عار، وتألّف كلّ شارد، وأحسن إلى كلّ مسيء، ونوّه بكل خامل، ونفّق كلّ هزيل، وأعزّ كلّ ذليل؛ ولم يبقَ في هذه الجماعة على فقره وبؤسه، ومرّه ويأســـه، غيري. . . خلّصني أيها الرجل من التكفّف، أنقذني من لُبس الفقر، أطلعني من قيد الضُّرّ، اشترني بالإحسان، اعتبدني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح، اكفني مؤونة الغداء والعشاء.

إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية، والقميص المرقّع، وباقلّى[٤٤٢] درْب الحاجب، وسذاب[٤٤٣] درب الروّاسين ؟ إلى متى التأدّم بالخبز والزيتون ؟ قد والله بُحّ

الحلْق، وتغيّر الخلْق؛ اللّه اللّه في أمري؛ اجبُرْني فإنني مكسور، اسقني فإنني صدٍ، أغثني فإنّني ملهوف، شهّرني فإنني غُفْل، حلّني فإنني عاطل.

قد أذلّني السفر من بلد إلى بلد، وخذلني الوقوف على باب باب، ونكرني العارف بي، وتباعد عني القريب مني . . .

أيها الكريم، ارحم؛ واللّه ما يكفيني ما يصل إليّ في كلّ شهر من هذا الرزق المقتّر الذي يرْجع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهماً . . . .

أيها السيد، أقصِر تأصيلي، ارعَ ذمام الملح بيني وبينك، وتذكّر العهد في صحبتي، طالب نفسك بما يقطع حجّتي، دعني من التعليل الذي لا مردّ له، والتسويف الذي لا آخرَ معه.

ذكِّر الوزير أمري، وكرّر على أذنه ذكري، وأملِ عليه سورةً من شكري، وابعثه على الإحسان إليّ".

لقد كان أبو حيان واحداً من كثيرين من الطائفة التي وصفها هو للوزير ابن سعدان، فقال: "قد عكفوا في بيوتهم على ما يعينهم من أحوال أنفسهم في تزجية عيشهم، وعمارة آخرتهم؛ وهم مع ذلك من وراء خصاصة مرّة، ومؤن غليظة، وحاجات متوالية؛ ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة، ولو وثقوا بأنهم إذاً عرضوا أنفسهم عليك، وجهّزوا ما معهم من الأدب والفضل إليك حظوا منك، واعتزوا بك، لحضروا بابك، وجشموا المشقة إليك؛ لكن اليأس قد غلب عليهم، وضعُفتْ مُنّتهم، وعكس أملهم، ورأوا أنّ سفّ التراب أخفّ من الوقوف على الأبواب، إذ دنوا منها دفعوا عنها"(٤٤٤).

وعلى الرغم من محاولات التوحيدي جميعها، فإن جهوده ذهبت بدداً، ولم

يكن له، في آخر عمره، مندوحة عن إحراق كتبه ضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، ولأن الناس صاروا " عبيد الدرهم بعد الدرهم"[٤٤٥]. ولما كتب إليه القاضي أبو سهل عليّ بن محمد يعذله على صنيعه، أجابه أبو حيان إجابة فيها كثير من الألم والنقد المرّ لذاك العصر وناسه، ومما قال: [٤٤٦] " وكيف أتركها لأناسٍ جاورتهم عشرين سنة فما صحَّ لي من أحدهم وداد؟ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ. ولقد اضطررت بينهم، بعد الشهرة والمعرفة، في أوقات كثيرة إلى أكل الخُضَر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصّة والعامّة، وإلى بيع الدّين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم. وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدّة تتبعك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صوابٍ ما فعلته وأتيته . . . ".

وكان من طائفة أبي حيّان أيضاً أبو بكر القومسيّ الفيلسوف الذي " كان بحراً عجّاباً، وسراجاً وهّاجاً، وكان من الضرّ والفاقة، ومقاساة الشدّة والإضاقة بمنزلة عظيمة ". ويرفع إليه قوله: " ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغ منّي، إن قصدتُ دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس»[٤٤٧].

أمّا عن تصوير أبي حيان لظاهرة الفقر في هذا العصر وسرده لنماذج كثيرة منها والكلام عن زمر الفقراء من العلماء وغير العلماء، فموضوع طويل متناثر فيما انتهى إلينا من آثاره، وقد وقفت عنده وعند غيره من ظواهر مجتمع القرن الرابع في آثار التوحيدي وداد القاضي[٤٤٨]. بيد أنه لا بأس في إيراد هذا المثال[٤٤٩]. يقول التوحيدي: "شاهدنا في هذه الأيام شيخاً من أهل العلم ساءت حاله، وضاق رزقه، واشتدّ نفور الناس عنه، معارفه له، فلما توالى هذا عليه دخل يوماً منزله، ومدّ حبلاً

إلى سقف البيت واختنق به، وكانت نفسه في ذلك. فلما عرفنا حاله جزعنا وتوجعنا وتناقلنا حديثه وتصرفنا فيه كلّ متصرف، فقال بعض الحاضرين: للّه درّه! لقد عمل عمل الرجال! نعم ما أتاه واختاره! هذا يدل على غزارة النفس وكبر الهمة! لقد خلّص نفسه من شقاء كان طال به، وحال كان ممقوتاً فيه مهجوراً من أجله، مع فاقة شديدة، وإضاقة متصلة، ووجه كلّما أمّه أعرض عنه، وباب كلّما قصده أغلق دونه، وصديق إذا سأله اعتلّ عليه.[٤٥٠].

وفعل فعله ذاك الشيخ، أبو أحمد بن أبي بكر[٤٥١]، الذي كان أبوه وزيراً للسامانيين، والذي "قاسى من فقد رياسته وضيق معاشه قذاة عينه وغصّة صدره" فما كان منه إلاّ أن شرب السمّ فمات. وقد كان يكثر من إنشاد بيتي منصور الفقيه:

قد قلتُ إذ مدحوا الحياة فأسرفوا:
في الموتِ ألف فضيلةٍ لا تُعرفُ
منها أمان لقائه بلقائهِ
وفراق كلّ مُعاشِر لا يُنصِفُ

اللذين قال هو في معناهما:

مَنْ كان يرجو أن يعيش، فإنّني
أصبحتُ أرجو أنْ أموت فأُعتقا
في الموت ألف فضيلة لو أنّها
عُرفتْ لكان سبيله أنْ يُعْشَقا

وكان مواظباً ليل نهار على قراءة الآية الكريمة[٤٥٢] "وإذ قال موسى لقومه: يا قوم، إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم...».

أليس هذا مخرجاً خطيراً من مخارج ظاهرة الفقر وإن يكن محدوداً ومخالفاً

للشرع ؟ وثمة مخرجٌ آخر لا يقل خطورة عنه هو المتمثل في أبيات الشاعر أحمد بن محمد الأفريقي المشهور بالمتيّم : [٤٥٣]

تلوم على ترك الصلاة حليلتي
فقلتُ: اغربي عن ناظري أنتِ طالقُ

فواللهِ لا صلّيْتُ للّهِ مُفلساً
يُصلّي له الشيخ الجليل وفائقُ

لماذا أُصلّي، أين مالي ومنزلي
وأين خيولي والحُلى والمناطقُ؟

وأين عبيدي كالبدور وجوههم
وأين جواريّ الحسان العواتقُ؟

أُصلّي ولا فِتْر من الأرض يحتوي
عليه يميني ؟ إنّني لمنافقُ!

بلى إنْ عليَّ الله وسّع لم أزلْ
أُصلّي له ما لاح في الجو بارقُ

فإنّ صلاة السيّئ الحال كلّها
مخارقُ ليستْ تحتهنَّ حقائقُ !

ومن مخرجات ظاهرة الفقر وشيوع البطالة ، أيضاً ، الظهور بالزهد ، وزيادة عدد المتصوفة الاتكاليين ، مما حدا ببعض الناس في هذا العصر إلى إنكار الزهد جملة محاربة للروح الاتكالية[٤٥٤] .

وكان من أهم مخرجات الفقر والبطالة خلق المناخ المواتي لازدهار حركة الشطّار والعيّارين الحقيقيين ، وليس المندسّين ، من جرّاء الصراع المذهبي والتكتل العرقي والتمزق السياسي حيث ضعفت هيمنة الدولة ، وأضحى جمع الأموال همّاً لمتولي

السلطة على اختلاف مراتبهم وأعراقهم ومذاهبهم. إن تلك الحركة وإن كانت مرفوضة من الناحية القانونية والسلطوية، فقد كانت مقبولة ومرحّباً بها اجتماعياً، لأنه كان ينظر إليها في كنهها وأهدافها الأصلية بأنها ثورة الفقراء على الأغنياء والفقر في آن[٤٥٥].

وليس غريباً في ضوء جملة أوضاع هذا العصر أن تكون ثمة مخرجات كثيرة من جرّاء لجوء الناس، مدفوعين بغريزة حب البقاء، إلى "أن يسلكوا سبلاً وعرة قد لا يبيحها العرف، وقد لا يقبلها الخلق الكريم، وقد تتنافى مع الدين وتتجافى مع العقل، كل ذلك ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع»[٤٥٦]، ناهيك عن مخرج انتشار الدجل والتخريف إذ تعلق كثيرون منهم بالأسباب الموهومة في الحصول على الثروة كالتنجيم والاعتقاد بالطوالع، والانصراف إلى الكيمياء التي تقلب النحاس والقصدير ذهباً، والالتجاء إلى دعوات الأولياء والصالحين، والاعتقاد بالسحر والطلّسمات، والبحوث عن الكنوز المخبوءة، وما إلى ذلك[٤٥٧].

وماذا عن الحمدانيين؟ وماذا كان يحدث في ظلهم مما مضى الكلام عنه من سوء الأحوال الاقتصادية وظاهرة الفقر؟ يقال إنه لما ضيّق ناصر الدولة عام ٣٣١هـ على الخليفة المتّقي لله في نفقاته وعلى أهل داره، وانتزع ضياعه وضياع والدته وضمّها إليه «تحدث الناس عن فعله هذا وصنعه بالخليفة، ما كثر به الشاكي له والداعي عليه، وتمنّى الناس بني البريدي وغيرهم، مع ما نالهم من الضرّ والضرائب والغلاء ونكبات الناس، وأخذ أموالهم[٤٥٨]". وفي هذه السنة نفسها غلت الأسعار غلاءً عظيماً" ومات الناس جوعاً، ووقع فيهم الوباء، فكانوا يبقون على الطريق أياماً لا يدفنون حتى أكلت الكلاب بعضهم "[٤٥٩]، كما "كثر الجراد في هذا الوقت، فصاده الناس، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده، وكان نعمة من نعم اللّه جلّ وعلا»[٤٦٠].

ولمّا وافى رسل صاحب خراسان إلى ناصر الدولة في العام ذاته، قال لهم بعد أن

حجبهم أياماً: «صاحبكم في يده نصف الدنيا، ينال السلطان ما ناله فلا يسعفه بمال ولا ينجده بجيش". وقد "غلت الأسعار، وعزّ كلّ شيء من سائر الأطعمة والملبوس»[٤٦١].

ولقد ندّد بعض الدارسين من مستشرقين وعرب بالحمدانيين اقتصادياً وعزوا إليهم أشياء ما كانت لتحدث لولا قسوتهم وظلمهم واستحواذهم على الأموال بالوسائل التي ترضيهم هم. يقول المستشرق الألماني آدم متز: "... جاروا على الرعيّة جوراً عظيماً...، وكانوا أسوأ جميع حكّام القرن الرابع !. والترك والفرس الذين حكموا في هذا القرن هم جميعاً كالآباء لرعيتهم إذا قورنوا بالحمدانيين"[٤٦٢]. ويستشهد على هذا بنصوص من ابن حوقل ومسكويه، إذ ذهب الأول إلى أن الحمدانيين غصبوا أكثر أرض العراق، واشتروا منها القليل بسهم من أعشار ثمنها[٤٦٣]، وذهب الآخر إلى أن أكثر أعمال الموصل صارت ملكاً لناصر الدولة، وكان يضايق أصحاب الأرض حتى يلجئهم إلى البيع بأوكس الأثمان، وطالت حياته وامتدت أيامه حتّى استولى على الناحية مِلْكاً ومُلْكاً[٤٦٤].

ويذهب درويش الجندي[٤٦٥] إلى أنه "لم تكن الحالة الاقتصادية في ظلّ الحمدانيين بأحسن حالاً مما كانت عليه في ظلّ غيرهم....، فالروايات الكثيرة تدل على أنهم كانوا يبالغون في ظلم رعاياهم واستصفاء أموالهم بغير الحق، وأنهم كانوا قساة في ابتزاز كل ما يستطيعون الحصول عليه مما يملكون، وفي فرض أقسى أنواع المغارم والجبايات عليهم". ويستشهد بعدد من الروايات، فينقل عن ابن حوقل ما حدث لبني حبيب ـ وهم بنو عم الحمدانيين (من بكر بن وائل) – الذين تركوا «نصيبين» ذات الغلات الكثيرة مكرهين وخرجوا منها بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم إلى أرض الروم فتنصّروا جميعاً، لأن الحمدانيين أكبوا عليها "بضروب الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم، وتجديد كلفٍ لم يعرفوها، ورسم نوائب ما عهدوها

إلى المطالبة ببيع الضياع والمسقف من العقار "[٤٦٦].

ويقول عن سيف الدولة: «وكذلك كان سيف الدولة في حلب، ولا سيما أنه كان في حاجة إلى الأموال الطائلة لإنفاقها في حروبه مع الروم، وليستطيع أن يجعل حلب كحاضرة بني العباس في عصرهم الزاهر كعبة العلم والأدب، وقد وافاه الشعراء والأدباء والعلماء من أقطار البلاد المختلفة، إذ كان كريماً مفْضلاً خصوصاً على مُدّاحه: يخرّب قرية ليجيز شاعراً، وقد ضرب دنانير خاصة بالصّلات، عليها اسمه وصورته، وفي كل دينار عشرة مثاقيل» [٤٦٧]، وبعد أن ينقل عدداً من الأخبار والروايات عن ترف سيف الدولة وبذخه وصلاته[٤٦٨]، يقول: " لهذا كلّه كان سيف الدولة يستصفي الأموال، ويصادر الأملاك ويتجوّز في أخذ ما في أيدي الناس، ليستعين به على غزو الروم والإغداق على الشعراء» [٤٦٩]، ويستشهد برواية ابن حوقل[٤٧٠] عن سيف الدولة مع تجار مدينة بالس " . . . بعد انصرافه عن لقاء صاحب مصر، وقد هلك جميع جنده، أنفذ إليها المعروف بأبي حصين القاضي فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر، ولم يطلق لهم النفوذ مع خوف نالهم، فأخرجهم عن أحمال بزّ وأطواف زيت إلى ما عدا ذلك من متاجر الشام في دفعتين بينهما شهور قلائل وأيام يسيرة ألف ألف دينار ". وكان القاضي أبو الحصين الرقي ذاك ظالماً، فكان إذا مات إنسان أخذ تركته لسيف الدولة، وقال:

" كلّ من هلك فلسيف الدولة ما ترك، وعلي أبي حصين الدرك "[٤٧١]، وهو الذي قُتل في معركة " مغارة الكحل " فداسه سيف الدولة بحصانه، وقال: " لا رضي الله عنك، فإنك كنت تفتح لي أبواب الظلم "[٤٧٢].

هـ - المـرأة:

الحديث عن المرأة في هذا العصر، وفي أي عصر، حديث يطول لتعدد جوانبه

وتشعب مناحيه ؛ وأحسب أن الكلام عنها جارية وأمة وقينة ، وهو ما أُلمِح إلى بعضه فيما تقدم ، لا حاجة إليه ، إذ استمر الرقّ وأسواق النخاسة وكثرة الجواري والإماء والمغنيات وبيوت القيان على ما كانت عليه جميعها قديماً ، فذي أمور مرهونة في هذا العصر ، وكل عصر ، بامتزاج الأجناس والثقافات ، وبالحروب ، وروح العصر من حيث التحضر والتمدين وما إليها . وقد أدى كل هذا إلى شيوع عدد من مظاهر الفحش والفسق والملاهي الظاهرة المحظورة دينياً التي كانت في المشرق أشيع منها في المغرب كما يذكر ابن حوقل[٤٧٣] . ومن اللافت ما يذكره المقدسي عن مدينـــــة " السوس "(من قصبة خوزستان) أن دور الزنا كانت ترى ظاهرة عند أبـــــواب الجامع[٤٧٤] ! ، وكانت في شيراز " ظاهرة بقبالات "[٤٧٥] ؛ ومن المستغرب أن يفرض عضد الدولة البويهي على الراقصات وبائعات اللّذة والهوى فيها ضريبة كان يضمّنها . يقول البيروني[٤٧٦] في حديثه عن الهنود القدماء : " . . . ، ولكنهم لا يشدّدون في العقوبة عليه (الزنا) ، والآفة فيه من جهة ملوكهم ، فإن اللواتي تكنّ (كذا) في بيوت الأصنام هنّ للغناء والرقص واللعب لا يرضى (برهمن) ولا سادن بغير ذلك ، ولكن ملوكهم جعلوهنّ زينة للبلاد وفرحاً وتوسعة على العباد ، وغرضهم فيهنّ بيت المال ورجوع ما يخرج منه إلى الجند إليه من الحدود والضرائب ، وهكذا كان عمل عضد الدولة ، وأضاف إليه حماية الرعيّة من عزّاب الجند " ! . يقال إن الفاطميين أخذوا بهذا النظام بفرضهم الرسوم على بيوت الفواحش[٤٧٧] ، ويقال إن عضد الدولة خطب جميلة بنـــت ناصر الدولة(ت ٣٧١ هـ) ، التي لم تتزوج أنفة من أن يتحكم فيها الزوج ، فامتنعت عليه ، ولما أسرها استولى على جميع أموالها ، وقيل إنه فرض عليها مالاً وألزمها إمّا أن تؤديه أو تختلف إلى دار القحاب لتكسب ما تؤديه ، حتى إذا ضاق بها الأمر انتهزت غفلة الموكلة بها وأغرقت نفسها في دجلة[٤٧٨] .

المهم في الموضوع أن المرأة في مطالع هذا العصر(القرن الرابع الهجري) كما

يظهر من قول البسّامي الشاعر[٤٧٩](ت ٣٠٢أو ٣٠٣ هـ) الآتي، رفعت عقيرتها للمشاركة في المهمات الكبرى. يقول: [٤٨٠]

ما للنساء وللكتا
بة والعِمالة والخطابةْ
هذا لنا، ولهنّ منّا
أن يبتنَ على جنابةْ

ولقد كان لها، كما كان لبنات جنسها في العصر العباسي الأول، إسهامها الفاعل في الحياة العامة من شؤون الدولة. فقد كانت تمارس التجارة وتبيع في المحال[٤٨١]. وكما كان لأم الأمين وأم المأمون وأم المعتز(قبيحة) دورهن في العصر السابق كان لبعض نساء هذا العصر دورهن كذلك في إدارة الأمور وتحريكها والتدخل فيها.

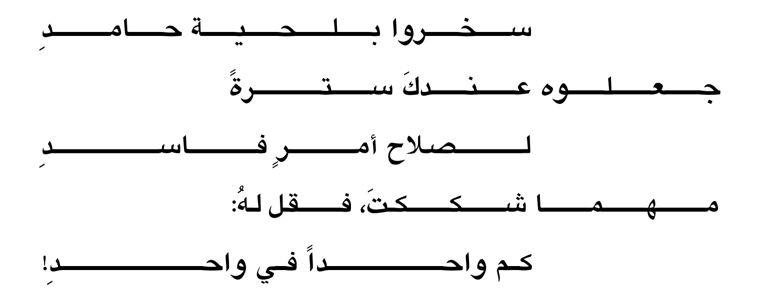
فأم الخليفة المقتدر كانت هي صاحبة الحول والصول في عهده، فقد أمرت «مَثَل» القهرمانة[٤٨٢] أن تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس كل جمعة، فكانت تجلس وتُحضر القضاة والوزراء والأعيان والكتّاب وتبرز التواقيع وعليها خطّها[٤٨٣]. وقد كانت، فضلاً عن هذا، كثيرة الإسراف والتبذير[٤٨٤]، وذات نفوذ كبير في الدولة أقوى من نفوذ الخليفة نفسه كما يبدو من كتاب علي بن عيسى وزير ابنها، الذي يتنصل فيه من التبعات التي ألقتها عليه في إدارة شؤون الدولة المالية. ومن مظاهر نفوذها أن «قهرمانتها» أم موسى ذهبت إلى الوزير علي بن عيسى " لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية التي للدار من الكسوات والنفقات، فوصلت إليه وهو نائم، فقال لهـا حاجبه: إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه، فاجلسي في الدار ساعة حتى يستيقظ، فغضبت من هذا وعادت. واستيقظ علي بن عيسى في الحال، فأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر فلم يُقبل منه، ودخلت على المقتدر، وتخرصت على الوزير عنده وعند أمه، فعزله عن الوزارة، وقبض عليه ثامن ذي القعدة» [٤٨٥]. بيد أن المقتدر قبض عام

٣١٠ هـ على القهرمانة أم موسى لأنها زوجت ابنة أختها من أبي العباس أحمد بن محمد إسحق بن المتوكل على الله، وأكثرت من النثار والدعوات وخسرت أموالاً جليلة، وسعت له في الخلافة وحلّفت القوّاد[٤٨٦].

أمّا الوزير علي بن عيسى، فقد كان من كبار الكتاب، ومن أهل الورع والزهد والتقوى والعدل، وكان يجلس بنفسه للمظالم. لقد ضبط الدواوين ونظّم شؤون الدولة الداخلية وأرسى القواعد وقد شهد له الصولي فقال: «ما أعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبه علي بن عيسى في زهده وعفته، وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وكتابته وحسابه وصدقاته ومبرّاته". وكان دخله من ضياعه، في العام، ثمانون ألف دينار ونيّفاً ينفق نصفها على الفقراء والضعفاء، ونصفها على نفسه وعلى عياله وأصحابه. ولما ولي الوزارة فشت صدقاته ومبرّاته ووقف وقوفاً كثيرة من ضياع السلطان، وأفرد له ديواناً سمّاه ديوان "البرّ" جعل حاصله لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين[٤٨٧]. لكن بقاءه في الحكم لم يدم، لإسراف الخليفة وعزله الوزراء والقبض عليهم وتدخل النساء في شؤون الدولة، مما أدى إلى ضعف الخلافة العباسية عموماً[٤٨٨].

غير أن المقتدر لم يستطع الاستغناء عنه، إذ ولي الوزارة له غير مرة وكان يتناوب عليها مع علي بن الفرات، بعد أن أخرجه من الحبس نائباً لحامد بن العباس، الــذي خلفه في الوزارة مرة والذي كان مقتل الحسين بن منصور الحلاج على يديه، وكـــان حامد ذاك قليل الخبرة بشؤون الوزارة وأعمال الحضرة، فكان علي، لخبرته، هو الأصل وكان اسم الوزارة لحامد وحقيقتها لعليّ، حتى قال بعض الشعراء:

قُلْ لابن عـــيـــسى قـــولـــةً
يـــرضى بـــهـــا ابن مـــجـــاهـــدِ
أنتَ الـــوزيـــر، وإنّـــمـــا



سخروا بلحية حامدِ
جعلوه عندكَ سترةً
لصلاح أمرٍ فاسدِ
مهما شككتَ، فقل لهُ:
كم واحداً في واحدِ!

ويقال إن حامداً كان يلبس السواد ويجلس في دست الوزارة، وعليٌّ يجلس بين يديه نائباً وليس عليه سواد ولا شيء من زيّ الوزارة في حين أنه هو الوزير الحقيقي، فقال أحد الشعراء:

أَعجبُ من كلّ ما رأينا
أنّ وزيرين في بلاد
هذا سوادٌ بلا وزيرٍ
وهذا وزير بلا سواد

ويقال إن المقتدر، كعادته في عزل الوزراء، عزل حامداً واستوزر بعده عليّ بن الفرات وسلّمه إليه، فقتله سرّاً[٤٨٩].

ولم يقف أمر السيدة "شغب" أم المقتدر عند ذاك الحد، إنما امتد إلى تدخلها في تنشئة الأمراء تنشئة علمية صالحة تنهض على الاهتمام بنظم الحكم ومعرفة أحوالها وعلاقاتها بغيرها من الدول. هذا ما يفهم ممّا جرى للصولي، الذي كان يؤدب الراضي ابن المقتدر وهو أمير، إذ أرسلت خدمها وأخذوا جميع ما كان بين يدي الأمير من كتب اللغة والأخبار ومضوا، فوجم الأمير لذلك واغتاظ، ويقال إنه قال لهم: «قولوا لمن أمركم بهذا: قد رأيتم هذه الكتب، وإنما هي حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء، ومن كمّله الله بالنظر في مثلها ينفعه بها، وليست من كتبكم التي تبالغون

فيها، مثل عجائب البحر، وحديث سندباد والسنور والفأر"[٤٩٠].

وعلى الرغم من كل هذا، فإنه يحسب لتلك السيدة أنها بنت مشفى (مارستان)[٤٩١] هو الذي فتحه سنان بن ثابت بسوق يحيى عام ٣٠٦ هـ، وجلس فيه ورتب المتطببين وقبل المرضى، وكانت النفقة عليه ستمائة دينار شهرياً[٤٩٢].

وكان مصير تلك السيدة، بعد مقتل ابنها المقتدر في ٣٠ من شوال عام ٣٢٠ هـ، أنّ القاهر لم يرع لها حرمة، وهي زوج أبيه، بل أحضرها، وسألها عن مالها، فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب، ولم تعترف بشيء من المال والجوهر، فجعل يسيء إليها ويعذبها، إذ " ضربها أشد ما يكون الضرب، وعلقها برجلها، وضرب المواضع الغامضة من بدنها، فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه، وقالت: لو كان عندي مال لما أسلمت ولدي للقتل ". هكذا روى ابن الأثير[٤٩٣]، أمّا القاضي أبو علي التنوخي، فيقول: " فعذّبها صنوف العذاب حتى قيل إنه علّقها بثدييها! يطالبها بالأموال، وحتى علّقها منكسة، فبالت، فكان بولها يجري على وجهها ! فقالت له: يا هذا، لو كانت معنا أموال، ما جرى في أمرنا من الخلل ما يؤدي إلى جلوسك، حتى تعاقبني بهذه العقوبة، وأنا أمك في كتاب الله عزّ وجل، وأنا خلصتك من ابني في الدفعة الأولى، حتى أجلست هذا المجلس»[٤٩٤]. وانتهى الأمر، بآخرة، بتوكيلها في بيع أملاكها[٤٩٥].

ومن النساء اللائي سيطرن على أمور الدولة في عهد المقتدر أيضاً خالته «خاطف» التي كانت تتدخل في تعيين الوزراء، و " ستنبويه " أم ولد المعتضد التي كانت تأخذ الرشى وتُنصّب الوزراء[٤٩٦].

وكان لنساء الدولة الفاطمية في هذا العصر شأن كبير في التدخل في شؤون الدولة مما أدى إلى ثرائهن ونفوذهن وبذخهن، حتى إن " رشيدة" بنت المعز تركت أكثر من مليون ونصف مليون دينار، أمّا أختها " عبدة " فتركت كثيراً من خزائن الحلي

الفصل الأخير

العصر العلمي والأدبي

الازدهار: أسبابه ومظاهره

الأسباب:

فليس الهدف من هذا الفصل، كما هو شأن الفصلين الأولين، التأريخ الدقيق والشامل للحياة العلمية والأدبية في عصر أبي فراس الأكبر والأشمل القرن الرابع الهجري، فذا موضوع طويل كبير ممتد تتسع جلّ موضوعاته لأن يكتب في كلّ واحد منها كتاب أو أكثر، فضلاً عن الدراسات غير القليلة التي خصه المعاصرون بها من مثل: «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» لآدم متز، و«ظهر الإسلام» لأحمد أمين، و«تاريخ الإسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي»، (الجزء الثالث) لحسن إبراهيم حسن، و«النثر الفني في القرن الرابع الهجري»، لزكي مبارك؛ وعن الدراسات التي وقفها أصحابها على أدب دولة من الدول التي استقلت فيه – لا سيما الدولة البويهية ودولة بني حمدان – أو على أديب أو عالم من علمائها وما أكثرهم وأكثر ما كتب فيهم، الهدف، إذاً، هو عرض الملامح الكبر والسمات العامة والمفاصل المركزية والتنبيه عليها دون تفصيل إلا ما يقتضيه الموقع أحياناً.

قد يكون من المفارقة وغير المألوف أن يؤلف العصر السياسي والعصر العلمي والأدبي ثنائية عكسية، وأن يسيرا في خطين متوازيين: انقسام وضعف سياسي، وازدهار علمي. لقد كانت المملكة الإسلامية في هذا العصر «أعلى شأناً في العلم من القرون التي كانت قبلها. ولئن كانت الثمار السياسية قد تساقطت.. فالثمار العلمية قد نضجت[٥٠٠].

إذا ما تحرينا الأسباب نجد أن الانقسام نفسه جعل تلك الدول تتنافس تنافساً كبيراً في العلم والأدب وتشجع عليهما وتستقطب العلماء والأدباء من كل ناحية وصوب تكرمهم وتغدق عليهم وتفاخر بهم، ويفتح أمراؤها وقادتها ووزراؤها لهم أبواب قصورهم لتضمهم مجالسها العلمية والأدبية لا سيما أن عدداً من الخلفاء والأمراء والوزراء وأفراد الأسر الحاكمة كانوا أدباء. فالخليفة الراضي (ت ٣٢٩ هـ)، مثلاً، كان أديباً، شاعراً، فصيحاً، محباً للعلماء، وقد عُدَّ من فضائله أنه آخر خليفة له شعر مدوّن[٥٠١] ونقل عنه قوله: «فما أجد في زماني مياسير من الكتاب والتجار يجمل بمثلهم الملك ويلجأ المهم إليهم»[٥٠٢]

ومن مظاهر التنافس المشوب بالمفاخرة والمباهاة والنقد ما كان يتباهى به ابن سعدان (الحسين بن أحمد) وزير صمصام الدولة البويهي من أن جلساءه من العلماء والأدباء لا يناظرهم أحد ممن كانت تضمهم مجالس الوزير المهلبي والوزير ابن العميد والصاحب بن عباد. يقول: «ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير.. أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحد من هؤلاء؟... أوأن جميع أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون، وهو فيما بينهم يصيح ويقول: قال شيخنا أبو علي وأبو هاشم؟».

وكان التنافس بين وزراء الدولة الواحدة في أقاليمهم سبباً من أسباب ازدهار العلم والأدب ورواجهما، كذاك الذي بين وزراء آل بويه في العراق: الوزير المهلبي وابن سعدان وسابور بن أردشير أنفسهم، والذي كان بين هؤلاء وزملائهم في فارس الصاحب بن عباد وابن العميد، فضلاً عن اختلاف ميولهم ونزعاتهم الفكرية والأدبية.

ففي حين كان ميل ابن سعدان مع الفلسفة، كان هوى ابن العميد مع العلم

والأدب معاً وهوى الصاحب بن عباد والوزير المهلبي مع الأدب فقط، أما سابور بن أردشير فكان شغوفاً بالكتب جداً إذ أنشأ ببغداد عام ٣٨١ هـ مكتبة تحوي أكثر من عشرة آلاف مجلد ظلت قائمة إلى أن احترقت عام ٤٥٠هـ في عهد طغرل بك[٥٠٣]

ومن الأسباب أن انفصال الدول عن جسم الدولة العباسية الكبرى الواحدة أدّى إلى أن تستقل في أموالها لا ترسله إلى بغداد بل تتصرف فيه كما تشاء وتنفقه على شؤونها الخاصة، وقد نال العلم والأدب وأهلوهما فيها أكثر مما كانوا ينالونه تحت راية الدولة الأم الواحدة[٥٠٤]

وكان لا تخاذ بعض الفرق كالمعتزلة والإسماعيلية مثلاً، الثقافة والعلم وسائل لتحقيق أهدافها السياسية والدينية وللجدل الذي احتدم بينها وبين علماء أهل السنة آثار بعيدة كذلك[٥٠٥].

وساعد على الازدهار، أيضاً، رحلات العلماء والأدباء وتنقلاتهم في الأمصار على الرغم من مشاق السفر والرحلة وفقر كثيرين منهم، يستوي في هذا أهل الحديث وعلماء النحو واللغة والشعراء، كأولئك الذين كانوا يقصدون بلاط سيف الدولة مثلاً، والوراقون وتجار الكتب لا سيما من كانوا يحملون كتب المشرق إلى المغرب[٥٠٦].

ومن الطبيعي أن يكون الازدهار نسبياً بين هاتيك الدول ومراكز العلم المختلفة، وإن كان نصيب بعضها من الاهتمام بالعلوم والآداب ونشرهما قليلاً. فدولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ) بالمغرب الذين كانت عاصمتهم فاس، ثم «البصرة» بأقصى المغرب التي قضت حوالي نصف عمرها في هذا العصر ولم تتح لحكامها فرصة توجيه الجهود لنشر العلوم والفنون والأخذ بأسباب الحضارة، لأنه لم يكتب لها الاستقرار الذي يمكنها من ذلك[٥٠٧]. ولو وازنا بين هذا وشيء مما كان في الدولة الأموية بالأندلس

(١٣٨-٣٩٧هـ) لوجدنا أن الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) الذي خلف أباه عبدالرحمن الناصر، قد نعم بالهدوء والاستقرار من جراء فتوحات أبيه وانتصاراته وتوطيده أركان الدولة. وتمكن لشغفه بالعلم والاطلاع والقراءة، أن يجمع كثيراً من الكتب التي كان يرسل في طلبها من الأمصار المعروفة بها كافة حتى وصل عدد الكتب في خزانة كتبه بقرطبة إلى أربعمائة (٤٠٠) ألف كتاب. ويقال إنه قرأ كثيراً منها وعلق عليها. وبلغ من شغفه بالكتب أنه طلب إلى أبي الفرج الأصفهاني صاحب «الأغاني» أن يبيعه إياه حين علم بظهوره ودفع له ثمنه ألف دينار ذهباً. ويقال إن الأصفهاني بعث إليه بالكتاب قبل أن يرسله إلى العراق[٥٠٨].

أما جزيرة العرب، فقد تعاورت عليها أسباب وأحداث كثيرة أهمها زحف القرامطة على مكة وعيثهم فساداً في البلاد، ومنع الحجاج من زيارة البيت الحرام أونهبهم أوالتنكيل بهم، مما أضعف شأنها وجعلها في شبه عزلة وأخرها مادياً وعلمياً[٥٠٩]. وقد أسهب المقدسي في الكلام عنها في ذلك العصر، ومما قال: «والحجاز بلد فقير قحط»[٥١٠]، ومنه "ومذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء وقرْح سنّة، وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عُمان شراة غالية، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وهجر وصعدة شيعة، وشيعة عمان وصعدة.. وسواحل الحرمين معتزلة إلا عمان، والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبي حنيفة والجوامع بأيديهم.. والعمل بهجر على مذهب القرامطة.

أهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلاّ بصحار فإنِ نداهم وكلامهم بالفارسية، وأكثر أهل عدن وجُدّة فرس إلاّ أن اللغة عربية... وجميع لغات(لهجات) العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة. القراءات بمكّة على حرف ابن كثير، وباليمن قراءة عاصم ثم

قراءة أبي عمرومستعملة في جميع الإقليم . . . "[٥١١].

المظاهر:

كثيرة هي مظاهر الازدهار العلمي والأدبي بضروبها المختلفة في هذا العصر، أهمها باختصار:

(١) استمرار حركة الترجمة:

لقد تراجعت حركة الترجمة، بعد نهضتها الكبرى في عهد الخليفة المأمون مباشرة، لا سيما في عهدي المعتصم والواثق حتى عهد المتوكل الذي أعاد إليها بعض ما كانت عليه، لكنها ضعفت بعده وظل الضعف يلازمها حتى مطالع القرن الرابع الذي يمثل نصفه الأول مرحلة جديدة من مراحل تطورها في العلوم التي كانت عليها في عهد المأمون، وإن كانت حركة التدوين والتأليف أوسع منها ونتيجة مباشرة لها كما يظهر، مثلاً، في أعمال أبي بكر الرازي وأبي نصر الفارابي والشيخ الرئيس ابن سينا[٥١٢]. وعلى الرغم مما واجه «بيت الحكمة» من ظروف مختلفة من الرعاية أوعدمها بعد عهد المأمون، فإنه ظلّ له دوره في الترجمة التي ظل رعاة حركتها مستمرين في فاعليتها، وظل بيت الحكمة مركزاً مهماً من مراكز الترجمة في الدولة العباسية إلى أن استولى المغول على بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ)، وخربوا ذلك المركز ودمروا ما فيه[٥١٣].

من أشهر المترجمين والنقلة في هذا العصر:

١ - أبوبشر متّى بن يونس(ت ٣٢٨ هـ) الذي كان يترجم من السريانيّة إلى العربية، لأنه لم يكن يعرف اليونانية، ممّا خلفته مدرسة حنين بن إسحق وتلامذته من ترجمات يونانية إلى السريانية. ومن ترجماته: كتاب "الشعر"، ومقالة "اللام" المقالة

الحادية عشرة بتفسير الإسكندر من كتاب " الحروف "(الإلهيات)، وكتاب " الحس والمحسوس "، وكتاب " الكون والفساد "، وكلها لأرسطو[٥١٤].

٢ - سنان بن ثابت بن قرّة(ت ٣٣١هـ)، كان معروفاً بغير علم أهمها علم الهيئة والحساب والطب إذ كان طبيب المقتدر والقاهر وبجكم التركي، وقد صار رئيساً للأطباء في عهد المقتدر الذي كلفه امتحان جميع الأطباء قبل ممارسة المهنة، وهوصاحب فكرة إنشاء "البيمارستان المقتدري ". نقل إلى العربية " نواميس هرمس "، والسور والصلوات التي يصلي بها الصابئة، وكتباً أخرى[٥١٥].

٣ - يحيى بن عديّ(ت ٣٦٣ أو٣٦٤ هـ). آلت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه، وقرأ على متّى بن يونس والفارابي وجماعة في وقتهم. كان جيد المعرفة بالنقل وقد نقل من السريانية إلى العربية، وكان من النسّاخ المشهورين إذ كان يكتب في اليوم والليلة في حدود مئة ورقة. وهوصاحب هذين البيتين:

ربّ ميْتٍ قد صار بالعلم حيّاً
ومُبَقّى قد مات جهلاً وعيّا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً
لا تعدّوا الحياة في الجهل شيّا

اشتهر الرجل بترجمة الآثار اليونانية الفلسفية عن السريانية لا سيما أعمال أرسطو، وبمراجعة عدد من ترجمات غيره، فضلاً عن مؤلفاته هو التي أفاد فيها مما كان يترجم ويراجع. ومن أهم ترجماته: " طوبيقا"، و" السماء والعالم "، و" الآثار العلوية»، و" الإلهيات "(الحروف)، و" سوفسطيقا "[٥١٦]. على الرغم من كل ذلك، فقد قال فيه أبوحيان التوحيدي:[٥١٧] " . . . كان شيخاً ليّن العريكة، فروقة[٥١٨]، مشوّه الترجمة، رديء العبارة، لكنه كان متأنّياً في تخريج المختلفة"[٥١٩].

٤ - عيسى بن زرعة(ت ٣٩٨هـ). وصفه ابن النديم بأنه «أحد المتقدمين في علم المنطق وعلم الفلسفة، والنقلة (المجودين)»[٥٢٠]، كان من الملازمين ليحيى بن عديّ،

ومن المفتونين بالتجارة إلى بلاد الروم. كان الناس يعظمونه للعلم وبراعته في علم المنطق والفلسفة اللذين له مصنفات معروفة فيهما.

كان على معرفة تامة بالعربية والسريانية التي ترجم منها. من أهم ترجماته: كتاب الحيوان لأرسطو، وكتاب منافع أعضاء الحيوان بتفسير يحيى النحوي، وكتاب «خمس مقالات من كتاب نيقولاس في فلسفة أرسطاليس"، وكتاب "سوفسطيقا النص»[٥٢١] لأرسطاليس[٥٢٢].

أثنى عليه التوحيدي وانتقده، فقال:[٥٢٣] "... حسن الترجمة، صحيح النقل، كثير الرجوع إلى الكتب، محمود النقل إلى العربية، جيد الوفاء بكلّ ما جلّ من الفلسفة؛ ليس له في دقيقها منفذ، ولا له من لغزها مأخذ. ولولا توزّع فكره في التجارة، ومحبته في الربح، وحرصه على الجمع، وشدّته على المنع، لكانت قريحته تستجيب له، وغائمته[٥٢٤] تدر عليه؛ لكنه مبدّد مندّد، وحبّ الدنيا يعمي ويصم».

(٢) مجالس العلم والأدب:

كثرت في هذا العصر المجالس التي كان يعقدها الأمراء والوزراء للتباحث في شؤون العلم والأدب المختلفة. فعضد الدولة البويهي(٣٣٨ - ٣٧٢هـ) "كان - على ما مُكّن له في الأرض، وجُعل له من أزمّة البسط والقبض، وخُصّ به من رفعة الشان، وأُوتي من سعة السلطان - يتفرغ للأدب، ويتشاغل بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء»[٥٢٥]. وكان "ينادم بعض الأدباء الظرفاء، ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات"[٥٢٦].

وكان الوزير المهلبي (٢٩١ - ٣٥٢هـ) وزير معزّ الدولة البويهي يسأل، في مجالسه، جلساءه وندماءه عن بعض الألفاظ والقضايا والمسائل الأدبية، وقد أُثني على " حسن مجلسه، وخفة روح أدبه، وإنشاده للصنوبري وطبقته ما طاب به الوقت، وهشت له النفس"[٥٢٧]. ورُوي أنه كان "يكثر الحديث على طعامه وكان طيب

الحديث، وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتّاب والندماء" [٥٢٨].

أمّا أبوالفضل بن العميد(ت ٣٥٩ أو٣٦٠ هـ) وزير ركن الدولة البويهي، فقد كان يختص به، وينادمه حاضراً عدد من الشعراء والكتّاب والعلماء كأبي العلاء السروي، وأبي الحسين بن فارس، فكان يقارضهم[٥٢٩]. وكان يخدمه الكبراء، وينتجعه الشعراء، وهوالذي قال فيه المتنبي عند صدوره عن كافور الإخشيدي[٥٣٠]:

مَنْ مبلغ الأعراب أنّي بعدها[٥٣١]
شاهدتُ رِسْطاليسَ والإسكندرا
وسمعتُ بطليموس دارس كتْبِهِ
مُتملّكاً مُتبدّياً مُتحضّرا[٥٣٢]

وحكى الصاحب بن عباد أنه كان يحضر بعض مجالسه في رمضان وقد حضر الفقهاء والمتكلمون للمناظرة[٥٣٣].

وأمّا الصاحب (٣٢٦ - ٣٨٥هـ) نفسه، بقطع النظر عمّا شنّعه التوحيدي عليه وعلى أستاذه ابن العميد. فقال عنه الثعالبي: "وكانت أيامه للعَلويّة والعلماء، والأدباء والشعراء. وحضرته محطّ رحالهم، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله مصروفة إليهم، وصنائعه مقصورة عليهم" [٥٣٤]. وذكر أن مجلسه صار " مجمعاً لصوْب العقول، وذوب العلوم، ودرر القرائح . . . واحتف به من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من يربى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني. . . ". وذَكَر كثيرين ممن جمعتهم حضرته بأصبهان والري وجرجان، منهم: أبوالحسن السلامي، وأبوبكر الخوارزمي، والقاضي الجرجاني، وأبوالقاسم الزعفراني، وأبوالحسن الجوهري، وأبودلف الخزرجي»[٥٣٥].

وكان يعقوب بن كِلّس (٣١٨ - ٣٨٠ هـ) وزير العزيز بن المعزّ صاحب مصر «يحب أهل العلم، ويجمَع عنده العلماء، ورتّب لنفسه مجلساً في كلّ ليلة جمعة يقرأ فيه بنفسه مصنفاته على الناس، وتحضره القضاة والفقهاء والقرّاء والنحاة وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث. فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح[٥٣٦]، وكان من جلسائه الحسين بن عبدالرحيم الزلزالي صاحب كتاب "الأسجاع". كان ينصب كلّ يوم خِواناً[٥٣٧] لخاصته من أهل العلم والكتّاب وخواص أتباعه ومن يستدعيه، وكان في داره قوم يكتبون القرآن، وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب، حتى الطبّ، ويعارضون ويشكّلون المصاحف وينقطونها" [٥٣٨].

صنف ذلك الوزير كتاباً في الفقه مما سمعه من المعزّ وولده العزيز، وجلس في رمضان عام ٣٦٩هـ مجلساً حضره العام والخاص، وقرأ فيه الكتاب بنفسه على الناس، وكان الوزير ابن الفرات أحد من حضروا ذلك المجلس[٥٣٩].

امّا سيف الدولة الحمداني(٣٠٣ - ٣٥٦ هـ) "فلم يجتمع قطّ بباب أحد من الملوك ـ بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر". كان خطيبه ابن نباتة الفارقي، ومعلمه ابن خالويه، ومطربه الفارابي، وطبّاخه كشاجم، وخزّان كتبه الخالديين والصنوبري، ومُدّاحه المتنبي والسلامي والوأواء الدمشقي والرّفّاء والناميّ وابن نباتة السعدي والصنوبري، وغيرهم" [٥٤٠]. لا غرو في هذا، فقد كان أديباً شاعراً محبّاً لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به. يُحكى أن عليّ بن محمد الشمشاطي اختار من مدائح الشعراء له عشرة آلاف بيت[٥٤١]، وأنه، لكثرة مُدّاحه "كان قد أمر بضرب دنانير للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل، وعليه اسمه وصورته» [٥٤٢].

كان مجلسه، كما يقول ابن خلكان "مجمع الفضلاء في جميع المعارف" [٥٤٣]،

وكان ينظم فيه، أحياناً، شعراً ويطلب إلى جلاسه من الشعراء أن يجيزوه[٥٤٤] كالذي جرى بينه وبين أبي فراس، وأن ينشدوه القصائد التي كان معجباً بها كطلبه إلى المتنبي أن ينشده الميمية التي مطلعها:

على قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائمُ
وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وكان ذا ذائقة نقدية ينقد بها شعر مادحيه، فقد انتقد على أبي الطيب، على قري النقد الذي وجّه إلى بيتين لامرئ القيس، ترتيب شطور هذين البيتين من القصيدة نفسها:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنّكَ في جفن الردى وهو نائمُ
تمرّ بك الأبطال كَلْمى هزيمةً
ووجهكَ وضّاحٌ وثغركَ باسمُ

ووجّهه إلى أن يجعل عجز الثاني عجزاً للأول ويحل هذا مكانه، فانصاع المتنبي، وقال: " أيّد اللّه مولانا، إن صحّ الذي استدرك على امرئ القيس هذا كان أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا. ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك" [٥٤٥].

روي عن ابن خالويه الحسين بن أحمد(ت ٣٧٠هـ)، وقد كان آل حمدان «يكرمونه ويدرسون عليه ويقتبسون منه»، روي عنه: " دخلت يوماً على سيف الدولة ابن حمدان، فلمّا مثلت بين يديه، قال لي: اقعد، ولم يقل اجلس، فتبيّنت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب، واطلاعه على أسرار كلام العرب ". لقد ذكر ابن خالويه هذا، لأن المختار عند أهل اللغة والأدب أن يقال للقائم: اقعد، وللنائم والساجد: اجلس[٥٤٦]. وروي عنه، كذلك، أن سيف الدولة كان يسأل من بحضرته من العلماء،

أحياناً، أسئلة في النحو والفقه واللغة[٥٤٧].

وكان لوزير سيف الدولة أبي أحمد بن نصر البازيار(ت ٣٥٢ هـ) مجلس أيضاً كان يتحاور فيه ابن خالويه والمتنبي عن بعض الشعراء كأشجع السلمي وأبي نواس.[٥٤٨] ومن مجالس ذلك العصر مجلس الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (ت٣٩٤هـ)، الذي انتزع الملك من هشام بن الحكم في الأندلس[٥٤٩] والذي كان يحب العلوم والأدب ويشجع أهليهما. قيل إنه: "كان يعقد طول أيام مملكته في كل أسبوع مجلساً يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة[٥٥٠]"، وإنه "خطّ بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره يدرس فيه، ويتبرك به[٥٥١]". وفي أخباره ما يُنبي عن وجوه من الشبه بينه وبين سيف الدولة الحمداني، فقد كان المنصور كثير الغزوات حتى إنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرّة ضخمة، عهد بتصييره في حَنُوطه[٥٥٢]. وكان يحملها حيث سار مع أكفانه توقعاً لحلول منيته[٥٥٣]. وكان يسأل، في مجالسه، بعض جلسائه لا سيما الوافدين منهم، كأبي العلاء صاعد البغدادي اللغوي (ت ٤١٧هـ)، عن بعض المسائل الأدبية اختباراً لهم وتأكداً من معارفهم، كما كانت تُتناول فيها مسائل علمية وأدبية شتّى بين الجلوس، فضلاً عن المناظرات[٥٥٤].

ومن علماء هذا العصر من جعل من بيته مقيلاً لأهل العلم، كأبي سليمان السجستاني المنطقي (محمد بن طاهر بن بهرام) المتوفى في حدود عام ٣٨٠ هـ. يقول القفطي: "قرأ على متّى بن يونس وأمثاله، وتصدَّر لإفادة هذا الشأن، وقصده الرؤساء والأجلاء. وكان منزله مقيلاً لأهل العلوم القديمة، وله أخبار وحكايات وسؤالات وأجوبة في هذا الشأن. وكان عضد الدولة... يكرمه ويفخمه...، وكان أبوحيّان التوحيدي من بعض أصحابه المعتصمين به...، ولأجله صنّف كتاب الإمتاع والمؤانسة نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبدالله بن العارض الشيرازي عندما

تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة" [٥٥٥].

وحين سئل أبوحيان التوحيدي عن درجته في العلم والحكمة وعن محلّه بين علماء عصره من مثل: ابن زرعة، وابن الخمّار (الحسن بن سوار الطبيب الفيلسوف)، وابن السّمح (من مناطقة بغداد)، والقومسي (أبي بكر الفيلسوف)، ومسكويه، ويحيى بن عدي، و. . . .، قال: " فإنه أدقّهم نظراً، وأقعرهم غوصاً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدّرر، وأوقعهم على الغُرر، مع تقطع في العبارة، ولُكنةٍ ناشئة من العجمة وقلّة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكنز»[٥٥٦]. وذكر التوحيدي كثيراً من مقابسات أبي سليمان مع علماء عصره مما كان يدور في مجالسه عن المنطق[٥٥٧] والنجوم مثلاً[٥٥٨]، فضلاً عن مقابسات بعض من ذكروا من أعلام عصره[٥٥٩].

ولم يكن بلاط السامانيين ببخارى يخلو من تلك المجالس، بل ربما كان يعقد فيها ما قد يناظر ما ندعوه الآن " الندوات " و" المهرجانات " و" المؤتمرات ". يقول الثعالبي: «كانت بخارى في الدولة السامانيّة(٢٦٦ - ٣٣٩هـ) مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر" [٥٦٠]، ويُروى عن ابن أبي الحسن موسى الموسوي أنّ والده قد اتخذ في عهد الأمير نصر الثاني بن أحمد الساماني(٣٠١ - ٣٣٠هـ) دعوةً جمع فيها أفاضل غرباء بخارى من العلماء والأدباء من مثل أبي علي الزوزني، وأبي إسحق الفارسي، وأبي القاسم الدينوري، وعلي بن هارون الشيباني " فلما استقرّ بهم مجلس الأنس أقبل بعضهم على بعض يتجاذبون أهداب المذاكرة، ويتهادون رياحين المحاضرة، ويقتفون نوافج الأدب، ويتساقطون عقود الدرّ، وينفثون في عقد السحر ". وقد أوصى الموسوي ابنه بأن يجعل من ذلك

اليوم المشهود المشهور " تاريخاً لاجتماع أعلام الفضل وأفراد الوقت " ، وأن يذكره بعده «في أعياد الدهر ، وأعيان العمر ، فما أراك ترى على السنين أمثال هؤلاء مجتمعين " ؛ وصدق حدسه بقول الابن : " فكان الأمر على ما قال ، ولم تكتحل عيني بمثل ذلك المجمع " [٥٦١] .

وكان إلى جانب كل ذلك مجالس أدبية كثيرة غير رسمية تعقد في منازل الأصدقاء والأغنياء والأدباء والعلماء يتداولون فيها العلوم ، ويتجاذبون المُلح والنوادر ، ويصفون ما يعرض من أمور ومسائل اجتماعية شعراً[٥٦٢] . ومن تلك المجالس ، مثلاً ، مجلس أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبدالله(٢٨٠ - ٣٦٨ هـ) الذي كان يحضره أبوحيان التوحيدي وغيره[٥٦٣] .

(٣) الكتب ودور العلم:

كان هذا العصر ، كما يقول آدم متز عصر " تنظيم المعارف[٥٦٤] " ، وكانت العناية بالمكتبات وجمع الكتب وإنشاء المعاهد ودور العلم وحلقات الدرس كبيرة يتبارى فيها الملوك والأمراء والوزراء والعلماء والأدباء .

لم تكن المساجد الكبرى لتخلومن الكتب والمكتبات ، إذ كان من ديدن العلماء وغير العلماء أن يقفوها عليها . فأبونصر المنازي (نسبة إلى منازِجرد)[٥٦٥] أحمد بن يوسف السّليكي المتوفى عام ٤٣٧هـ وزير أبي نصر أحمد بن مروان الكردي صاحب ميّافارقين وديار بكر ، وقد كان فاضلاً شاعراً واجتمع بالمعري في معرّة النعمان ، " جمع كتباً كثيرة ، ثم وقفها على جامع ميّافارقين وجامع آمد " وعرفت بـ " كتب المنازي»[٥٦٦] .

وكانت لعدد من حكّام هذا العصر في مختلف مراكزه السياسية والعلمية والثقافية

خزائن كتبهم التي يعنون بها ويفاخرون. فقد كانت للخليفة العزيز باللّه (ت٣٨٦ هـ) خزانة كتب كبيرة تضم ما يزيد على مئتي ألف كتاب في إحدى الروايات؛ منها عدد من نسخ كتاب " العين " للخليل بن أحمد وتاريخ الطبري، وكان من بين تلك النسخ ما هو بخط الخليل والطبري نفسيهما، كما كان فيها نسخ من " جمهرة " ابن دريد[٥٦٧]. وكان يتولى أمرها أبوالحسن علي بن محمد الشّابشتي(ت ٣٨٨ أو ٣٩٠هـ) المعروف بكتابه «الديارات»، الذي كان أثيراً عند العزيز إذ جعله أيضاً " دفتر خوان يقرأ له الكتب ويجلسه وينادمه. وكان حلوالمحاورة، لطيف المعاشرة" [٥٦٨].

أمّا في زمن الدولة الأموية بالأندلس، فقد مضى الكلام في مطالع هذا الفصل عمّا كان من أمر شغف الحكم الثاني المستنصر بالكتب، وأمر خزانة كتبه بقرطبة.

وأمّا البويهيون، فقد اطلع المقدسي على خزانة كتب عضد الدولة، ووصفها بأنها "حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلّها إلاّ وحصّله فيها ". وقد كان فيها فهارس لأسامي الكتب[٥٦٩].

وكانت للأمير نوح بن نصر الساماني(ت ٣٤٣هـ) مكتبة كبيرة " عديمة المثل، فيها من كل فنّ من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته " هي التي دخلها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا(٣٧٠ - ٤٢٨هـ) حين استدعاه الأمير لمعالجته من مرضٍ أصابه، حتى قيل: " فظفر أبو علي فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها وحصّل نُخب فوائدها واطلع على أكثر علومها. وكان يقال: إن أبا عليّ توصّل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ما حصّله منها وينسبه إلى نفسه»[٥٧٠].

وكانت لوزرائهم مكتبات أيضاً، فقد مضى الحديث - في بدايات هذا الفصل

كذلك ـ عن شغف سابور بن أردشير ومكتبته . أمّا الصاحب بن عبّاد ، فيحكى أنه لمّا كتب إليه الأمير الساماني نوح بن منصور سراً ليستوزره ويفوّض إليه أمور مملكته ، كان مما اعتذر به أنه " يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل ، فما الظن بما يليق بها من التجمل ؟[٥٧١] . وقد دعّم أبوالحسن البيهقي هذا بقوله : " بيت الكتب الذي بالرّي دليل على ذلك ، بعدما أحرقه السلطان محمود بن سُبُكتكين . فإنّي طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك الكتب عشرة مجلّدات ، فإن السلطان محموداً لما ورد إلى الريّ ، قيل له : إنّ هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع ، فاستخرج منها كلّ ما كان في علم الكلام ، وأمر بحرقه»[٥٧٢] .

قد تكون هذه الفعلة ، وغيرها كذلك ، مما حدا بالمستشرق إدوارد براون أن يقول عن السلطان محمود : «وطالما وصف الكتّاب محموداً الغزنوي بأنه كان نصيراً للأدب والفنون ، ولكنه في رأيي أقرب إلى أن يوصف بأنه من كبار " الخاطفين " لرجال الآداب والفنون ؛ وكثيراً ما كان يعاملهم في النهاية معاملة تنطوي على كثير من الازدراء والامتهان " . واستشهد بعدم مكافأته الفردوسي صاحب " الشاهنامة " الذي عانى في نظمها ثلاثين سنة ، ومعاملته السيئة لأبي الريحان البيروني ، وملاحقته الشيخ الرئيس ابن سينا لرفضه التوجه إليه حين طلبه فيمن طلب من العلماء والأدباء من " مأمون بن مأمون " أمير خوارزم[٥٧٣] .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كان السلطان محمود الغزنوي (٣٦١ – ٤٢٢ هـ) ، الذي حكم من عام ٣٨٨هـ إلى قبل وفاته بسنة ، ذا علم ومعرفة ، وصاحب كثير من الكتب والفنون ، وقد قصده العلماء من أقطار البلاد فكان يقبل عليهم ويكرمهم ، ويحسن إليهم[٥٧٤] .

وأمّا ابن العميد ، فكان مسكويه المؤرخ خازن كتبه التي " كانت كثيرة ، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب " . ولمّا نهبت الخراسانيّة داره بالريّ عام ٣٥٥

هـ، عزّت عليه الكتب، لأنها " هي التي لا عوض عنها " أمّا سائر الخزائن " فيوجد منها عوض "، لكنها سلمت بأجمعها من بين جميع ما له، فكان هذا سبب فرحته وحبوره واسفرار وجهه"[٥٧٥].

وسلف الكلام عن أنه كانت لسيف الدولة الحمداني خزانة كتب، وكان خزنتها الخالديين[٥٧٦]، والصنوبري الذي كان جدّه الحسن صاحب بيت الحكمة للمأمون[٥٧٧].

وثمة أخبار عمن كانوا يقتنون أعداداً كثيرة من الكتب من مثل أبي بكر الصولي محمد بن يحيى(ت ٣٣٥ هـ) الذي كان صاحب " خزانة أفردها لما جمع من الكتب المختلفة، ورتبها أجمل ترتيب؛ وكان يقول لأصحابه:

كل ما في هذه الخزانة سماعي». وإذا ما أراد مراجعة كتاب منها، قال: يا غلام هات الكتاب الفلاني، فسمعه يوماً أبوسعيد العُقيلي يقول ذلك، فأنشد:

إنمّا الصوليّ شيخٌ
أعلم الناس خزانهْ
إنْ سألناه بعلمٍ
نبتغي عنه الإبانهْ
قال: يا غلمةُ، هاتوا
رزمة العلم فلانهْ[٥٧٨]

ومن مثل، محمد بن نصر الحاجب، وحبشي بن معز الدولة، والقاضي أبي المطرف قاضي الجماعة بقرطبة، الذي جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس. وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً، وكان لا يتردد في شراء أيّ كتاب حسن مهما غلا ثمنه، ولم يكن يعير كتاباً قط، بل كان يطلب إلى النسّاخ لينسخوا نسخة من أي كتاب يلحف طالبه باستعارته. وقيل إن أهل قرطبة قضوا عاماً كاملاً في بيع كتبه بمسجده، وكان ثمنها أربعين ألف دينار[٥٧٩].

وقد وازن آدم متز بين أعداد الكتب في الدولة الإسلامية آنذاك وأعدادها في خزائن كتب الغرب في المدة ذاتها، فوجد أن البون شاسع لقلة الأعداد في مكتبات الغرب[٥٨٠].

وكان يرفد في نشر العلم، خزائن الكتب والمكتبات تلك، معاهد علمية أخرى تزيد عليها في أنها كانت تُعنى بالتعليم إلى جوار ما فيها من كتب، وتجري الأرزاق على من يلتحق بها، وكأنها كانت تمهيداً للمدارس التي أنشئت في القرون اللاحقة، لا سيما القرن الخامس الهجري، كالمدارس النظامية التي أنشأها نظام الملك الطوسي في بغداد ونيسابور وأصفهان وهراة وغيرها من المدن التي كانت خاضعة لسلطانه.

كان أبوالقاسم الفقيه الشافعي جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي (٢٤٠ - ٣٢٠ هـ) شاعراً أديباً فاضلاً ناقداً للشعر كثير الرواية، وكان "يفْضُل في العلوم سواه، متقدماً في الفقه معروفاً به، قويّاً في النحو فيما يكتبه، عارفاً بالكلام والجدل مبرّزاً فيه، حافظاً لكتب اللغة، راوية للأخبار، بصيراً بالنجوم، عالماً مطّلعاً على علوم الأوائل"[٥٨١]، وكانت لذلك الفقيه ببلده الموصل "دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كلّ طالب للعلم، لا يُمنع أحد من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب، وإن كان معسراً أعطاه ورَقاً وورِقاً[٥٨٢]. تُفتح كلّ يوم، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه، ويجتمع إليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته. . . ، ثم يملي ما حفظه من الحكايات المستطابة، وشيئاً من النوادر المؤلفة، وطَرَفاً من الفقه وما يتعلق به»[٥٨٣].

ويذكر المقدسيّ أن أبا عليّ بن سوّار الكاتب (ت ٣٥٤ هـ) أحد رجالات عضد الدولة أنشأ في (رام هرمز) "دار كتب، كالتي بالبصرة، والداران جميعاً اتّخذهما. . . وفيهما أجراء على من قصدهما، ولزم القراءة والنسخ، إلاّ أن خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتباً. وفي هذه أبداً شيخ يُدْرس عليه الكلام على مذاهب المعتزلة»[٥٨٤].

واتخذ الشريف الرضي الموسوي (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) الشاعر المعروف ونقيب الطالبيين داراً لطلبة العلم سمّاها " دار العلم " ، وعيّن لهم فيها جميع ما يحتاجون إليه ، وجعل لكل واحد منهم مفتاحاً بحيث يتناول ما يريده منها دون الرجوع إلى خازن[٥٨٥] .

وأنشئت في مصر دور للعلم أيضاً ، كالدار التي اشتراها العزيز باللّه الفاطمي عام ٣٧٨هـ قرب الأزهر وجعلها لخمسة وثلاثين عالماً كانوا يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد بعد صلاة كلّ يوم جمعة حتى صلاة العصر ، والدار التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمرالله عام ٣٩٥هـ بالقاهرة وسميت " دار العلم " أو" دار الحكمة " ، وقد حُملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ووُظّف لها خزّان وبوّابون ، وعُيّن فيها من يُدرّسون الناس العلم ، وكان يدخلها سائر الناس يقرأون وينسخون[٥٨٦] .

كانت تلك أمثلة ليس غير ، لكن المسجد ، في أي مركز ، كان ـ كما في العصور السابقة ـ المدرسة الكبرى التي تُعطى فيها أكثر الدروس لا سيما دروس الفقه والكلام . يقول المقدسي عن إقليم مصر : " والرسوم بجوامع هذا الإقليم إذا سلّم الإمام كلّ يوم صلاة الغداة وضع بين يديه مصحفاً يقرأ فيه ، ويجتمع الناس عليه كما يجتمع على المذكّرين . . . وبين العشاءين جامعهم مغتصّ بحَلَق الفقهاء وأئمة القرّاء وأهل الأدب والحكمة . ودخلتها مع جماعة من المقادسة ، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين : دوّروا وجوهكم إلى المجلس . فننظر فإذا نحن بين مجلسين . على هذا جميع المساجد ، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس . . . ولا ترى أجلّ من مجالس القرّاء به »[٥٨٧] .

وكان جامع المنصور ببغداد ، من أشهر مراكز التعليم آنذاك ، فقد جلس إبراهيم بن محمد المعروف بـِ " نفطويه "(٢٤٤ - ٣٢٣ هـ) ، مثلاً ، خمسين سنة في مكانه فيه

للتدريس والإقراء. كان حسن الحفظ للقرآن وكان " أول ما يبتدىء به في مجلسه . . . أن يُقرىء القرآن على قراءة عاصم، ثم الكتب بعده. وكان فقيهاً، عالماً بمذهب داود الأصبهاني[٥٨٨]، رأساً فيه، يسلّم له ذلك جميع أصحابه؛ وكان مُسْنِداً في الحديث من أهل طبقته، ثقةً، صدوقاً»[٥٨٩]

ولقد كانت " نيسابور " أكبر مراكز العلم بخراسان، ومهد تلك المعاهد والمدارس. ففيها بنيت مدرسة لأبي إسحق الإسفراييني إبراهيم بن محمد(ت ٤١٨هـ) كانت مشهورة، وكان هو فقيهاً شافعياً متكلماً أصولياً. وممن اختلفوا إلى مجلسه أبوالقاسم القشيري[٥٩٠]. وبنى أبوبكر ابن فَوْرك محمد بن الحسن(ت ٤٠٦هـ) له بها " مدرسة وداراً، وأحيا الله تعالى به أنواعاً من العلوم "، وكان متكلماً أصولياً وأديباً نحوياً[٥٩١]. وقد تكون هذه الصفة وصفة الإسفراييني السالفة مبعث ما ذهب إليه آدم متز من أنهما ربما آثرا البحث في المسائل الكلامية أوالتدريس على مجرد رواية الأحاديث[٥٩٢].

وبنى أبوبكر البستي(ت ٤٢٩ هـ)، بنيسابور أيضاً، مدرسة على باب داره لأهل العلم، وقد كان من كبار المدرسين والمناظرين في نيسابور[٥٩٣].

ويشير أحمد أمين إلى ضرب من العلم يناظر ما نسميه اليوم " العلم بالمراسلة"[٥٩٤] إذ كان يكتب أحدهم إلى عالم أوأديب ما يسأله عن أمور عامة أوخاصة. فمن النوع الأول ما كان يصل إلى أبي سعيد السيرافي من رسائل يستفسر أصحابها عن مسائل شتّى. فقد كتب إليه نوح بن نصر الساماني عام ٣٤٠هـ يسأله ـ بعد أن خاطبه بالإمام ـ عمّا يزيد على أربعمائة مسألة معظمها في «الحِران»[٥٩٥] وما أشبهه وسائرها عن أمثال مصنوعة على العرب شكّ فيها. وكان مع ذلك الكتاب كتاب من الوزير البلعمي خاطبه فيه بإمام المسلمين، وسأله عن بعض المسائل القرآنية وأمثال للعرب مشكلة.

وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتاباً خاطبه فيه بشيخ

الإسلام، وسأله عن مائة وعشرين مسألة أكثرها في القرآن وسائرها عن روايات عن النبي(ص) وعن الصحابة. كما كتب إليه أبوجعفر ملك سجستان، بإيعاز من أبي سلمان المنطقي، كما يقول التوحيدي، كتاباً خاطبه فيه بالشيخ الفرد، وسأله عن سبعين مسألة في القرآن ومائة كلمة في العربية وثلاثمائة بيت من الشعر وأربعين مسألة في الأحكام وثلاثين في الأصول على طريق المتكلمين. وكتب إليه، كذلك، الوزير ابن حِنزابة[٥٩٦] من مصر، وخاطبه بالشيخ الجليل، وسأله عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المروي عن الرسول(ص) وعن السلف[٥٩٧].

ومن النوع الآخر، المكاتبات التي كانت بين داعي الدّعاة بمصر وأبي العلاء المعري (٣٦١ - ٤٤٩هـ) والتي بدأها الأول بسؤال الآخر عن "العلة في تحريمه على نفسه اللحم واللّبن، وكل ما يصدر إلى الوجود من منافع الحيوان»[٥٩٨].

وقمين أن يشار في نهاية هذا المبحث إلى هذه الأمور: [٥٩٩]

١ - ترك اللغويون، في التدريس، طريقة المتكلّمين والمحدّثين في "الإملاء"، مستعيضين عنها بتدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة والمدرّس يشرح. يقال إن أبا القاسم الزجّاجي(ت ٣٣٩هـ) كان آخر المملين من أهل اللغة، أمّا إملاء الحديث فاستمر على ما كان عليه[٦٠٠].

٢ - ظل أمر التهيّب الشديد للحديث مستمراً كما كان عليه من قبل، لأن التحديث كان يعدّ نوعاً من العبادة ذا آداب خاصة. شاهد هذا أنه لمّا عزم الصاحب بن عبّاد، وهو وزير، على إملاء الحديث "خرج يوماً متطلّساً[٦٠١] متحنّكاً بزي أهل العلم، فقال: قد علمتم قدمي في العلم، فأقرّوا له بذلك. فقال: وانا متلبّسٌ بهذا الأمر؛ وجميع ما أنفقته، من صغري إلى وقتي هذا، من مال أبي وجدّي، ومع

هذا فلا أخلو من تَبِعات[٦٠٢]. أشهد الله وأشهدكم أنّي تائب إلى الله من ذنب أذنبته. واتخذ لنفسه بيتاً وسمّاه بيت التوبة، ولبث أسبوعاً على ذلك، ثمّ أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته، ثمّ خرج فقعد للإملاء؛ وحضر الخلق الكثير، وكان المستملي الواحد ينضم إليه ستة، كلّ يبلّغ صاحبه، فكتب الناس حتى القاضي عبدالجبّار»[٦٠٣].

٣ - لم تكن مهنة التعليم تدرّ شيئاً كثيراً لا سيما إذا لم يكن صاحبها فقيهاً ذا منصب، فيحيى بن عدي، كما تقدّم، كان من أكبر فلاسفة القرن الرابع، لكنه كان يعيش من النسخ. أمّا الفقهاء فاختلفوا في تجويز أخذ الأجر على تعليم القرآن والحديث بين مجوّز وغير مجوّز، فأبوالعباس الأصم (ت ٣٤٦ هـ) الذي كان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم، وأبوبكر الجوزقي(ت ٣٨٨ هـ) محدّث نيسابور، مثلاً، ما كانا يأخذان على التحديث شيئاً. ومثل هذين كان أبوسعيد السيرافي صاحب المناظرة المعروفة مع متّى بن يونس[٦٠٤]، فلم يكن، وقد كان قاضياً أيضاً، «يأخذ على الحكم أجراً، إنّما يأكل من كتْب يمينه، فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس، حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون بقدر مئونته، ثم يخرج إلى مجلسه» [٦٠٥].

أمّا بعض العلماء الكبار، فكانوا يأخذون أرزاقاً من السلطان، وكانوا ثلاثة أقسام: فقهاء، وعلماء، وندماء وهم الذين كانوا أكثر رزقاً. فقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دُريد محمد بن الحسن اللغوي المعروف، الذي مات هو وأبوهاشم الجُبّائي عام ٣٢١هـ، فقيل " مات علما اللغة والكلام»[٦٠٦]، أجرى عليه خمسين ديناراً شهريّاً، وأجرى سيف الدولة الحمداني على الفارابي الفيلسوف(ت ٣٣٩هـ) أربعة دراهم يوميّاً اقتصر عليها لقناعته[٦٠٧]. أمّا أبوإسحق إبراهيم بن محمد الزجّاج (ت ٣١٠ أو ٣١١

أو٣١٦هـ)[٦٠٨]، فقد " جُعل له رزق في الندماء، ورزق في الفقهاء، ورزق في العلماء نحوثلثمائة دينار"، وكان يعلّم أولاد المعتضد أيضاً[٦٠٩].

وكان ابن الفرات (قتل عام ٣١٢هـ) وزير المقتدر " يجري الأرزاق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء، أكثرهم مائة درهم[٦١٠] في الشهر، وأقلهم خمسة دراهم، وما بين ذلك»[٦١١].

(٤) العلوم النقلية:

فقد استمر، في هذا العصر، التأليف في العلوم النقلية والعقلية، وازدهر ازدهاراً كبيراً يصعب حصره في مبحث نموذج كهذا المبحث الذي لا يعنى بالرصد ولا بالتفصيل والشرح والتقويم، بل حسبه أن ينبّه على الأهم والأبرز، وأن يضع الصّوى والإمارات، فالكلام عن علوم عصر بكامله بضربيها النقلي والعقلي غيره في الكلام عن أحدهما، على كبره وامتداده، أو عن علم واحد منهما.

ففي العلوم النقلية، أقف عند التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة والتاريخ والجغرافيا، وأترك الإبداع الأدبي شعراً ونثراً إلى مبحث مستقل.

أ- التفسير:

على الرغم من أن جواز التفسير لم يكن، منذ القدم، أمراً مسلّماً به إلاّ بعد استيفاء شروطه، باستشهاد الطبري نفسه بقول الشعبي قديماً للسّدي حين مر به وهويفسّر القرآن: " لئن يضرب على استك بالطبل خير لك من مجلسك هذا" على الرغم من هذا فإن الجهود في التفسير استمرت وكانت شتّى تبعاً لانتماء المفسرين أنفسهم ومواقفهم، وقد بلغت أوجها في تفسير محمد بن جرير الطبري(ت ٣١٠ هـ) في بدايات القرن الرابع، وهوصاحب كتاب " تاريخ الرسل والملوك " المعروف بتاريخ

الطبري كما هوشأن تفسيره تفسير الطبري " جامع البيان عن تأويل القرآن " الذي قال فيه أبوحامد الإسفراييني " لوسافر رجل إلى الصين حتى يحصّل كتاب تفسير محمد بن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيراً[٦١٢]، وقال فيه أبوبكر بن بَالوَيْه : " ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة»[٦١٣].

وأسهم المعتزلة في هذا العصر بجهود في التفسير، ومن مفسريهم، محمد بن بحر الأصفهاني (ت ٣٣٢هـ)، وأبوعبيدالله الأسدي(ت ٣٨٧هـ) الذي كتب في تفسير البسملة وحدها مئة وعشرين وجهاً، وأبوبكر النقّاش(٢٦٥ أو٢٦٦ - ٣٥١ هـ)، وعنوان تفسيره " شفاء الصدور» [٦١٤]، والشريف المرتضى(٣٥٥ - ٤٣٦هـ) في " الأمالي "، وأبوالحسن علي بن عيسى الرمّاني[٦١٥] (٢٩٦ - ٣٨٤هـ). يقال إن الصاحب بن عبّاد سئل عن عدم تصنيفه في التفسير، فأجاب: " وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً»؟!.

ب - الحديث:

الاهتمام بالحديث قديم، لكنّ الذي جدّ في هذا العصر، هو أنه يجوز الاكتفاء برواية الحديث بما في الكتب دون لقاء رجاله والرحلة في طلبه ودون إجازة مكتوبة تبيح للمحدّث الحق في الرواية[٦١٦]. فقد استطاع ابن يونس الصّدفي(٢٨١ - ٣٤٧هـ) صاحب تاريخ مصر أن يكون محدّثاً دون أن يغادر مصر[٦١٧].

إذا ما جزنا، مثلاً، حفّاظ الأحاديث في هذا العصر كعبدالله بن سليمان الأشعث(ت ٣١٦هـ)، محدّث العراق الذي كان يحدّث في دار الوزير علي بن عيسى، وابن عقدة(ت ٣٣٢ هـ) الذي كان يحفظ مائتين وخمسين ألف حديث بأسانيدها، والحافظ ميسر الذي توفي بمصر عام ٤٠١هـ والذي كان عنده درج طوله سبعة وثمانون ذراعاً مملوءة الوجهين فيه أوائل ما يحفظه[٦١٨]، إذا ما جزناهم إلى كبار

محدّثي القرن الرابع لا مندوحة عن ذكر اثنين :

الأول ، الدارقطني أبوالحسن علي بن عمر(٣٠٦ - ٣٨٥ هـ) الحافظ المشهور ، الذي قيل فيه : " وانفرد بالإمامة في علم الحديث في دهره ، ولم ينازعه في ذلك أحد من نظرائه»[٦١٩] و" أحسن الناس كلاماً عن حديث رسول الله ، صلّى عليه وسلّم ثلاثة : علي بن المديني في وقته[٦٢٠] ، وموسى بن هارون في وقته[٦٢١] ، والدارقطني في وقته»[٦٢٢] . ولمّا ذهب إلى مصر عند أبي الفضل جعفر بن الفضل المعروف بابن حِنْزابة وزير كافور الإخشيدي ساعده في تأليف " مسند" كان يؤلفه ، بالغ الوزير " في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئًا كثيراً ، وحصل له بسببه مال جزيل " وظلّ عنده إلى أن أنهى المسند[٦٢٣] .

والآخر ، أبوعبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري[٦٢٤](٣٢١ - ٤٠٥هـ) الحافظ المعروف بابن البيّع " إمام أهل الحديث في عصره ، والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبق إلى مثلها " . طلب الحديث ، وغلب عليه فاشتهر به ، وسمعه من كثيرين حتى وصل معجم شيوخه إلى حوالي مئتين ، وصنّف في علومه أعمالاً كثيرة ، وقد تقلّد القضاء بنيسابور عام ٣٥٩هـ في أيام الدولة السامانيّة .

ج - الفقه وعلم الكلام:

لعل من أكبر سمات هذا العصر بالنسبة إلى الفقه ثنتين : الأولى ، سدّ باب الاجتهاد في التشريع الإسلامي لا لشيء إلا للاقتداء بالعلماء الأولين وإضفاء كثير من القداسة عليهم ، حتى أضحى فقيه هذا العصر ، في الأكثر ، لا يستطيع أن يصدر حكمه الخاص إلاّ في المسائل الجزئية الصغيرة .

والأخرى ، الخلاف الشديد بين طوائف الفقهاء المختلفة أنفسهم ، وبين السنّة والشيعة ، كما تقدّم في فصل العصر الاجتماعي ، وليس ثمة من حاجة إلى الاستشهاد

وضرب مُثُل أخرى[٦٢٥].

ولقد نتج عن ذلك ظاهرتان متغايرتان[٦٢٦]: إحداهما، انحصار فقهاء هذا الزمان، في الأغلب، في النقل عن السلف وشرح كتبهم واختصارها والتحشية عليها. فقد صنّف أبوالحسن عبيد الله بن الحسن الكرخي(ت ٣٤٠ هـ) الفقيه العراقي، الذي كان "ممن يشار إليه ويؤخذ عنه، وعليه قرأ المبرّزون من فقهاء الزمان، وكان واحد عصره غير مدافع ولا منازع"، صنّف كتاب "المختصر" في الفقه، وغيره[٦٢٧]. وصنّف أبوالحسين القُدوري[٦٢٨] أحمد بن محمد(٣٦٢ - ٤٢٨هـ) الفقيه الحنفي، الذي انتهت إليه رئاسة الحنفيّة بالعراق، كتاب "المختصر" المشهور وغيره[٦٢٩].

والأخرى، تعزيز ما يسمّى "آداب البحث والمناظرة"، فالقدوري، مثلاً، كان يناظر الفقيه الشافعي أبا حامد الإسفراييني[٦٣٠] أحمد بن أبي طاهر(٣٤٤ - ٤٠٦هـ)، وكان "يعظمّه، ويفضّله على كلّ أحد". لقد كان أبوحامد فقيهاً شافعياً "انتهت إليه رياسة الدنيا والدين ببغداد، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه"، وكان الناس يقولون: "لورآه الشافعي لفرح به". وله من الكتب في المذهب: «التعليقة الكبرى» و«البستان»[٦٣١].

أمّا علم الكلام، الذي نشأ بدءاً للدفاع عن الإسلام دفاعاً مسلّحاً بالفلسفة ومستنداً إلى المنطق والجدل، فإنّما قرنته هنا بالفقه لأنه كان مرتبطاً به في نشأته، وكان ثمة مسائل فقهية في ثناياه، بيد أنه استقلّ عنه بجهود المعتزلة، ولا أرغب في أن أدخل في بداياته وأهدافه وتفصيلاته وتأثراته ورجالاته السابقين[٦٣٢]، بل أشير إلى بعض أعلامه في هذا العصر فحسب، واشهرهم الجُبّائيان[٦٣٣]: أبوعلي محمد بن عبدالوهاب (٢٣٥ - ٣٠٣هـ)، وابنه أبو هاشم عبدالسلام (٢٤٧ - ٣٢١هـ).

فأمّا الأول، فكان أحد أئمة المعتزلة وإماماً في علم الكلام الذي لقفه عن أبي

يوسف يعقوب بن عبدالله الشحّام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره، له في الاعتزال مقالات مشهورة. أخذ أبوالحسن الأشعري علم الكلام عنه، وكانت له معه مناظرات واعتراضات على أقاويله آلت جميعاً إلى تركه مجلس أستاذه وإلى الوحشة بينهما(٦٣٤).

وأمّا الآخر الابن، فكان رأس فرقة "البهشمية" (٦٣٥)، ويبدو أن تأثيره في المعتزلة كان كبيراً، إذ كان "المتكلم المشهور والعالم ابن العالم"، وكانت له، كأبيه، مقالات على مذهب الاعتزال(٦٣٦)، قال عنه أبومنصور البغدادي(ت ٤٢٩ هـ): "أكبر معتزلة عصرنا على مذهبه"، وقد توسع في الكلام عن فضائح فرقته كما سمّاها(٦٣٧).

د - علوم اللغة:

المقصود بعلوم اللغة هنا المعنى الخاص لا المعنى العام الأوسع، أي اللغة والنحو والصرف تحديداً وليس علوم العربية عامة.

ليس من شكّ أن هذا العصر يعدّ من العصور الزاهرة في علوم اللغة من حيث كثرة التأليف فيها، وما طرأ عليها من تطوير وتحديث في عدد من الأمور.

لقد تخلّص علم اللغة، بدءاً، من طرائق الفقهاء، لا سيما في الإملاء، التي تكلم عنها السيوطي وذهب إلى أن أبا القاسم الزجاجي كان آخر من أملى على طرائق أولئك اللغويين، وهو ما سبقت الإشارة إليه في مبحث "الفقه وعلم الكلام" من هذا الفصل. ففي حين كان العلماء المتقدمون كالمبرّد(ت ٢٨٥ هـ)، مثلاً، وبعض علماء هذا العصر كغلام ثعلب أبي عمر محمد بن عبدالواحد(ت ٣٤٥هـ) وأبي عليّ القالي (ت٣٥٦هـ)، يرصفون معارفهم رصفاً حتى لا رابط يربطها في كثير من الأحايين ويُعنون بالجزئيات، نحا السواد الأعظم من علماء هذا العصر نحواً آخر غايته تناول مواد البحث تناولاً منظّماً ربما كان لمعرفة العرب بالتراث اليوناني أثر في ذلك(٦٣٨). سئل

أبوسليمان المنطقي السجستاني محمد بن طاهر عن النحوالعربي والنحواليوناني، فقال: " نحوالعرب فطرة، ونحونا فِطنة" [٦٣٩].

من ميزات هذا العصر التوسع في تأليف المعجمات المختلفة، لأسباب أهمها أن أصحاب المعاجم لم يكتفوا بتقييد لهجة واحدة، إنما امتد تقييدهم إلى غير لهجة كما دوّن بعضهم أصول الكلمات وتصحيفاتها، وأن بعض الأعراب توسّعوا في المجاز إذ سمّوا الثياب القصيرة مثلاً مقطّعات، فضلاً عن انتقال اللغة من البداوة إلى الحضارة[٦٤٠]. ومن أهم معجمات هذا العصر معجم " الصحاح " للجوهري(ت ٣٩٢) الذي أضحى صاحب مدرسة في المعجمات، ففي حين رتّب الخليل بن أحمد معجمه "العين " ومن سار على نهجه في معجماتهم حسب مخارج الحروف مبتدئين بحروف الحلق، اعتمد الجوهري التقسيم إلى أبواب وفق الحرف الأخير للكلمة، وجعل كلّ باب فصولاً وفق الحرف الأول. وقد حذا حذوه أصحاب أشهر المعجمات المعروفة كابن منظور صاحب " اللسان " والفيروزآبادي مؤلف " القاموس المحيط" والزبيدي صاحب "تاج العروس ".

ومن معجميي هذا العصر من صنع معجمه وفقاً للترتيب " الهجائي " كابن دريد(ت ٣٢١هـ) في " جمهرة اللغة "، وابن فارس في " المقاييس " و" المجمل ".

ومنهم من ألّف في " معجمات المعاني"[٦٤١]، كقدامة بن جعفر في "جواهر الألفاظ" والثعالبي في " فقه اللغة " وابن فارس في " متخير الألفاظ ".

ومن السمات اللغوية المهمة في هذا العصر الالتفات إلى مسألة " الاشتقاق الأكبر" التي انتثرت بذورها، بدءاً، عند أبي علي الفارسي(٢٨٨ – ٣٧٧هـ)، ثم تلقّفها تلميذه عثمان بن جنّي(ت ٣٩٢هـ) الذي يقول: " هذا موضوع لم يسمّه أحد من أصحابنا؛ غير أن أبا علي ـ رحمه الله ـ كان يستعين به، ويُخْلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر؛

لكنه مع هذا لم يسمّه، وإنّما كان يعتاده عند الضرورة، ويستريح إليه، ويتعلّل به. وإنما هذا التلقيب لنا نحن. . . . الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير. فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم. . . . ، وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثيّة، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً" (٦٤٢).

لقد كان أبوعلي " أوحد زمانه في علم العربية. . . وكان كثير من تلامذته يقول: هو فوق المبرّد"(٦٤٣). أمّا ابن جنّي، فكان " من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، وصنّف في ذلك كتباً أبرّ(٦٤٤) بها على المتقدمين، وأعجز المتأخرين، ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف، ولم يتكلم أحد في التصريف أدقّ كلاماً منه»(٦٤٥).

لقد صحب ابن جنّي أستاذه أبا عليّ أربعين سنة، إذ كانت البدء بعد أن اجتاز أبوعلي بالموصل فمرّ بالجامع وابن جنّيّ، وقد كان شابّاً، في حلقة يعلّم النحو، فسأله أبوعليّ عن مسألة في التصريف قصّر فيها، فقال له أبوعلي " زبّبْت(٦٤٦) وأنت حصرم". ولما عرف أنه أبوعلي لزمه " من يومئذ، واعتنى بالتصريف فما أحد أعلم منه به ولا أقوم بأصوله وفروعه، ولا أحسن أحد إحساناً في تصنيفه. فلمّا مات أبو عليّ تصّدر أبوالفتح في مجلسه ببغداد" (٦٤٧).

واللافت أنه قدّر للأستاذ والتلميذ أن يكونا ممن ضمّهم بلاط سيف الدولة الحمداني بحلب، اذ اتصل به الأول عام ٣٤١هـ وجرت بينه وبين المتنبي مجالس(٦٤٨)، ولما رجع إلى بغداد كانت بينه وبين سيف الدولة بعض مراسلات يدافع فيها أبوعلي عن أشياء ادّعى ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) عليه الخطأ فيها لسيف الدولة الذي كتب إلى أبي علي يستفسره عنها(٦٤٩) وقد كان لابن خالويه مع أبي الطيب مجالس ومباحث عند سيف الدولة(٦٥٠). أمّا ابن جني فقد انعقدت الآصرة بحلب بينه وبين المتنبي، إذ كان

يحضر عنده كثيراً ويناظره في شيء من النحو دون أن يقرأ عليه شيئاً من شعره. وكان المتنبي يقول عنه: " هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس" [٦٥١] ولمّا مات المتنبي رثاه ابن جني في قصيدة أولها[٦٥٢]:

غـاض الـقـريض وأذوتْ نـضْـرة الأدبِ

وصـوّحتْ بـعـد ريّ دوحـة الـكُـتُبِ

وشرح ديوانه الشرح الذي سمّاه " الفَسْر" وكان قد قرأه عليه[٦٥٣]، وكان أحد النقاد الذين دافعوا عنه في المعركة النقدية التي نشبت حوله في القرن الرابع الهجري. وكان فشوّ" اللحن " مظهراً آخر من المظاهر اللغوية في هذا العصر، وقد ساعد عليه انقسام الدولة الإسلامية إلى دول عدة، وشيوع اللحن في لغة العامة والخاصة ولغة الأدب شعره ونثره، مما حمل أهل اللغة على العناية بالموضوع والتصدي له والتأليف فيه، فكان أن وضع أبوبكر الزبيدي(ت ٣٧٩هـ)، مثلاً، كتاب " لحن العامة"[٦٥٤]، وألف ابن خالويه «ليس في كلام العرب»[٦٥٥].

تلك كانت السمات الكُبَر، لكنّ ما أُلِّف في علوم العربية في هذا العصر كان كثيراً، والأهم أنه ظل للمدارس النحوية المختلفة رجالها وامتدادها، فضلاً عما أُبرز من جهود بعضهم في تلك السمات. فمن المدرسة البصرية: أبوإسحق إبراهيم الزجّاج (ت٣١٠ هـ)، ومحمد أبوبكر السرّاج (ت ٣١٦ هـ)، وأبوسعيد السيرافي الحسن بن عبدالله (٢٨٠ – ٣٦٨هـ). ومن أتباع مدرسة الكوفة كان تلاميذ ثعلب: أبوموسى الحامض (ت ٣٠٥ هـ)، وغلام ثعلب أبوعمر الزاهد(ت ٣٤٥هـ)، وابن مقْسم أبوبكر العطّار (ت ٣٥٤ هـ)، وكان أشهرهم أبا بكر الأنباري محمد بن القاسم(٢٧١ – ٣٢٨هـ)، وأحمد بن فارس (٣٠٦ أو٣٠٨ – ٣٧٥ أو٣٩٠هـ)[٦٥٦] مؤلف " المجمل في اللغة " و" مقاييس اللغة " و" الصاحبي في فقه اللغة "، الذي ألّفه لخزانة الصاحب بن عبّاد، و"متخيّر الألفاظ ".

أمّا المدرسة البغدادية، فكان من أتباعها: أبوالقاسم الزجّاجي(ت ٣٣٧هـ أو ٣٤٠هـ)، وأبوعلي الفارسي، وابن جنّي.[٦٥٧]

هـ - البلاغة والنقد:

يكاد ينعقد الإجماع على أن هذا العصر كان عصر انفصال البلاغة عن النقد بدءاً من كتاب " الصناعتين " لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ). أمّا التأليف فيهما فجعل يزداد ويتطور، وينحو نحو المنهجية، وتتضح فيه الأفكار والمفاهيم والقضايا، فمن المؤلفات مثلاً:

"عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) و«أخبار أبي تمام» و«أخبار البحتري» لأبي بكر الصولي (ت ٣٣٥ أو٣٣٦ هـ)، "ونقد الشعر" لقدامة بن جعفر(ت ٣٣٧ هـ)، و"البرهان في وجوه البيان" لابن وهب الكاتب البغدادي، و"الموازنة بين الطائيين" للآمدي (ت ٣٧٢هـ) و"المصون في الأدب" لأبي أحمد العسكري (٣٨٢هـ)، و"الموشح" للمرزباني(ت ٣٨٤ هـ)، و"النكت في إعجاز القرآن" للرمّاني(ت ٣٨٦هـ)، و" الموضحة " و" حلية المحاضرة " و" الرسالة الحاتميّة " للحاتمي محمد بن المظفر(ت ٣٨٨هـ)، و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي عبدالعزيز الجرجاني(ت ٣٩٢)، وكتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، "وإعجاز القرآن" لأبي بكر الباقلاني(ت ٤٠٣هـ).

واستقرت مسارات النقد في هذا القرن فيما يأتي:[٦٥٨]

(١) اعتماد الذوق الفني في إنشاء نظرية الشعر(ابن طباطبا العلوي).

(٢) الصراع النقدي في أبي تمّام.

(٣) النقد والأثر اليوناني(قدامة بن جعفر، والفارابي، وأبوحيان التوحيدي).

(٤) المعركة النقدية حول المتنبي(الحاتمي، وأبوالعباس النامي، والصاحب بن

عبّاد، وابن جنّي والردود عليه، وابن وكيع التنّيسي، والقاضي الجرجاني).
(٥) النقد وفكرة الإعجاز (الرمّاني، والخطّابي، والباقلاني، وأبوهلال العسكري).

و - التاريخ والجغرافية:

كان القرن الرابع ثريّاً بكثيرين من المؤرخين. ويعدّ تاريخ الطبري، الذي سلفت الإشارة إليه في التفسير، من أمهات الكتب التاريخية الموثوق بصحتها، فهو" أكثر تحقيقاً ممن سبقه من المؤرخين، فضلاً عن أنه انفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله"[٦٥٩]. وقد بدأ حوادثه، حسب السنوات، منذ الخليقة حتى عام ٣٠٢ هـ، ثم جاء عريب بن سعد القرطبي(ت ٣٦٦هـ) ليصل ما انقطع فألّف " صلة تاريخ الطبري " من عام ٢٩١هـ حتى عام ٣٢٠هـ نهاية عهد الخليفة المقتدر.

يقول أحمد أمين عن الكتاب: " وكتابه هذا مع أنه تاريخي في أصله، فالقارىء له يقف على ثروة كبيرة في الأدب، لأنه في حكايته للروايات المختلفة يقصّها في لغة رصينة بليغة، غاية في القوة. وهوجريء في قول الحق، يتعرض لذكر أشياء قد لا يرضى عنها العباسيون أنفسهم، وهم الخلفاء ذووالسلطة. وإن أخذنا عليه شيئاً، فهو أنه يكثر من ذكر الحروب والوقائع الحربيّة، وسيَر الخلفاء؛ ولا يعرض إلاّ لماماً لذكر الأحداث الاجتماعية، والمسائل الاقتصادية[٦٦٠]

وألف سعيد بن البطريق المشهور بـ" أوتيخا "(ت ٣١٧ هـ)، الذي كان أحد بطارقة الإسكندرية، كتاب: " التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق "، وهوالذي ذيّله يحيى بن سعيد الأنطاكي(ت ٤٥٨هـ) بكتابه: " صلة كتاب أوتيخا"[٦٦١]

وللجهشياري أبي عبدالله محمد بن عبدوس(ت ٣٣١هـ) كتاب " الوزراء والكتّاب"[٦٦٢] وهومن أقدم المصادر التاريخية، وأشهرها ذكراً. فصّل فيه صاحبه تاريخ

كتابة الإنشاء منذ تأسيس الدولة الإسلامية في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم، وتاريخ الوزارة والوزراء في الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجري"[٦٦٣]. ويعدّ الكتاب "أول ما ألف من نوعه في تاريخ الوزراء"، وقد حذا المؤرخون حذوه، إذ ألف هلال بن المحسن الصابي(ت ٣٥٩هـ) "تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء"، وأفاد منه ابن الأثير في "كامله" وابن الطقطقا في "الفخري في الآداب السلطانية" [٦٦٤].

كان ابن عبدوس ووالده من رجالات الدولة العباسية في خلافة المقتدر، يذكر المسعودي أن غير واحد من أهل الدراية أخبره أن الجهشياري "صنّف أخبار المقتدر في ألف ورقة"، أمّا هو نفسه فيقول: "وقد صنّف أبوعبدالله بن عبدوس الجهشياري أخبار المقتدر باللّه في ألوف من الأوراق، ووقع لي أجزاء يسيرة منها" [٦٦٥].

وألف أبوبكر الصولي كتاب "الأوراق"، وهومطبوع في ثلاثة أجزاء: [٦٦٦] و"أخبار الراضي باللّه والمتّقي للّه" أو" تاريخ الدولة العباسيّة من سنة ٣٣٢ إلى ٣٣٣هـ"، و«أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم»، و" أخبار الشعراء المحدثين".

ومن أهم مصادر هذا العصر التاريخية كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" لأبي الحسين علي المسعودي(ت ٣٤٦ هـ)[٦٦٧] الذي لقّبه ابن خلدون قديماً بـ "إمام المؤرخين" وفون كريمر حديثاً بـ «هيرودوتس العرب»[٦٦٨]. لم يكن المسعودي مؤرخاً فحسب، إنما كان جغرافياً رحّالة كذلك، وهذا يفسّر التفاتاته الكثيرة إلى القضايا الاجتماعية في كتابه هذا الذي عرض فيه للأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى زمانه هو. ومن كتبه المطبوعه كذلك "التنبيه والإشراف"، وهومن الكتب المهمة في تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالعباسيين[٦٦٩]. وللمسعودي كتب أخرى ذكرها هو في مقدمة "التنبيه" وعرض لمحتويات بعضها[٦٧٠].

ومن المصادر التاريخية المهمة أيضاً كتاب "تجارب الأمم" لمسكويه أحمد بن محمد

ابن يعقوب(٣٢٥ - ٤٢١هـ) الذي عاصر الدولة البويهية وخدم عدداً من أمرائها ووزرائهم. والمهم في كتابه أنه عني، إلى جانب التاريخ، بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، وأنه اعتمد المشاهدة والعِيان، لقوله: " أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة(٣٤٠ هـ) فهومن مشاهدة وعيان وخبر محصّل يجري عندي خبره مجرى ما عاينته"[٦٧١]. وقد كان يلتفت إلى الأمور الصغيرة التي تهدي إلى العبرة والاتعاظ[٦٧٢] ليتدبر أولوالألباب. ومن يدري، فلربما كان كتابه " تهذيب الأخلاق " مولوداً شرعياً لذاك التوجه، وردّة فعل لسيرة صاحبه الأولى[٦٧٣]. وألف وزير المقتدي بالله أبوشجاع محمد بن الحسين الروذراوري " ذيل تجارب الأمم " أرّخ فيه لحوادث خمس وعشرين سنة(٣٦٩ - ٣٩٣ هـ) أي من حيث انتهى مسكويه الذي أرّخ للأحداث بدءاً من عام ٢٩٥هـ حتى عام ٣٦٩هـ.

ومن مؤرخي هذا العصر في غير ناحية: الشابشتي صاحب " الديارات "؛ والحسن بن زولاق(٣٠٦ - ٣٨٧ هـ)، الذي عاش في العهدين الإخشيدي والفاطمي، وكان " فاضلاً في التاريخ وله فيه مصنف جيد، وله كتاب في خطط مصر"[٦٧٤].

أمّا في الجغرافية وتقويم البلدان، فازدهر أمرهما ازدهاراً بيّناً وإن كان البحث في أحوال الأقاليم وليد النهضة العلمية في القرن الثالث الهجري[٦٧٥] كما يبدو من كتاب "المسالك والممالك" لابن خُرداذبه(ت ٣٠٠هـ)، و" البلدان " لليعقوبي(ت ٢٩٢هـ)، وغيرهما، على الرغم من الانتقادات التي وجهها المقدسي إلى عدد منها[٦٧٦].

من أشهر بلدانيي هذا العصر:

(١) لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني(٢٨٠ - ٣٣٤هـ أوبعدها)[٦٧٧] صاحب " صفة جزيرة العرب " وأشهر مؤلفاته " الإكليل ".

(٢) قدامة بن جعفر في كتابه " الخراج وصناعة الكتابة" [٦٧٨].

(٣) المسعودي في " مروج الذهب " ، وقد مرّ الكلام عنه .

(٤ و٥) ابن حوقل أبوالقاسم النصيبي(ت ٣٨٠ هـ) ، والمقدسي البشّاري أبوعبدالله محمد بن أحمد(ت ٣٨٧هـ) . وقد وصفت كتبهما معاً بأنها كانت " الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان ؛ وكلاهما قد سافر حتى دوّخ المالك ، وحمله تيار الأسفار ، واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين[٦٧٩] . وممّا يجمعهما ، كذلك ، أنهما اقتصرا على وصف مملكة الإسلام فحسب . فأمّا ابن حوقل ، فراجع كتاب "المسالك والممالك" للإصطخري وزاد عليه وأخرجه بالعنوان نفسه "المسالك والممالك"[٦٨٠] .

يقول ابن حوقل[٦٨١] : " . . . سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها ، ووصفت رجالات أهل البلدان وأعيان ملوكها . . . ولم أستقص ذلك كراهية الإطالة . . . ، ولأن الغرض في كتابي هذا تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمتُه ممن شاهدها " .

أمّا المقدسي ، فيقول : . . . فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه(العلماء) وأنفرد بفنٍّ لم يذكروه إلاّ على الإخلال ، وهوذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها[٦٨٢] .

(٥) العلوم العقلية:

وتصل النوبة ، بعد العلوم النقلية ، إلى العلوم العقلية ، وهي كثيرة في أنواعها وعلمائها ومؤلفاتهم وإن كانت العناية بها أقل من الاهتمام بالنقلية لعوامل دينية وذاتية[٦٨٣] .

أ - الفلسفة:

ليس من شأن هذا الكتاب أن يستقصي ويتتبع ويفصّل ويحلّل ، بيد أنه تحسن الإشارة إلى أن العلماء العرب والمسلمين لم يكتف أكثرهم ، وفقاً لروح العصر ، بعلم واحد ينقطع إليه ، بل كانوا موسوعيين اشتهر كثيرون منهم بغير علم وأجادوه وكانت

لهم فيها أعمال ومؤلفات من الصعب، لهذا، أن يصنفوا في علم واحد.

فالفلسفة ازدهرت في هذا العصر، وكان من أشهر فلاسفة المشرق: الفارابي، وإخوان الصفا، وابن سينا.

فأمّا الفارابي، فكان واحداً ممن ضمهم بلاط سيف الدولة كما تقدم، وكان عالماً وموسيقياً. أخذ صناعة المنطق عن متّى بن يونس ببغداد، وعن يوحنا بن حيلان في حرّان. درس كتب أرسطو ووقف على ما فيها؛ يقال إنه وجد بخطّه على "كتاب النفس" لأرسطو: "إني قرأت هذا الكتاب مائتي مرّة"، ونقل عنه: "قرأت(السماع الطبيعي) لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرّة" [٦٨٤]، وكان قد بدأ بفلسفة أفلاطون. ولقد ترك اشتغاله بهما(أفلاطون وأرسطو) وبشروح كتب أرسطو تحديداً آثاراً في تآليفه التي أهمها[٦٨٥]: البرهان، وآراء أهل المدينة الفاضلة، وإحصاء العلوم، والنواميس، والسياسة المدنية. ليس كثيراً عليه، إذاً، أن يلقب بـ"المعلم الثاني"، وأن يوصف بـ "فيلسوف المسلمين على الحقيقة"[٦٨٦].

أمّا "إخوان الصّفا"، فكانوا جمعية سرّية بالبصرة وبغداد، يجتمعون سرّاً ويتباحثون بالفلسفة على أنواعها، وقد دوّنوا آراءَهم في خمسين رسالة عرفت بـ"رسائل إخوان الصّفا"، تضم عصارة فلسفتهم، وهي "خلاصةأبحاث الفلاسفة بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند، وتعديلها على ما يقتضيه الإسلام"[٦٨٧].

وكان ثمة جماعة أخرى، هي جماعة الفيلسوف المعروف أبي سليمان السجستاني المنطقي، التي "لم يكن منهجها كمنهج إخوان الصّفا، فلم يكونوا رجال دعوة وتبشير، ولا ذوي مطامع ومطامح، وإن لم يكونوا يؤلفون رسائل أو كتباً، إنما كان همهم أن يجتمعوا في بيت رئيسهم للمتعة العقلية وكفى"[٦٨٨]، وقد سبق الكلام عن بعض أتباعها، على أن التوحيدي سجّل عدداً من مجالسها في "المقابسات".

وأمّا الشيخ الرئيس أبوعلي الحسين بن عبدالله بن سينا[٦٨٩] (٣٧٠ - ٤٢٨هـ)، فبرع، إلى جانب الفلسفة في "علم المنطق والطبيعي والرياضي"، وفي الطب الذي له فيه "القانون". تربو مؤلفاته على المئة في الفلسفة وغيرها، منها: الشفاء، والنجاة، والإشارات، وحي بن يقظان، وسلامان وأبسال، ورسالة الطير. وقصيدته العينيّة في النفس معروفة، مطلعها:

هبطتْ إليكَ من المحلّ الأرفعِ
ورقاءُ ذات تعزّزٍ وتمنُّعِ

وعرفت الأندلس الفلسفة، إذ دخلتها مذ عهد عبد الرحمن الأوسط، ومن فلاسفتها، مثلاً: المجريطي مسلمة بن أحمد(ت ٣٩٨هـ) وتلامذته الكثر، وقد عُني أولئك بعلوم الأوائل كالرياضيات والنجوم والهندسة التي كانت تعد آنذاك في الفلسفة[٦٩٠]، أمّا الفلسفة بالمعنى الاصطلاحي فلم يعن الأندلسيون بها إلاّ بعد دخول رسائل إخوان الصفا إليها[٦٩١].

ب - الطب:

وعني العرب والمسلمون في هذا العصر بالطبّ عناية قصوى[٦٩٢]، وهو وإن كان منذ اهتمامهم به منبجساً عن حركة الترجمة في بداياتها الأولى، يعدّ خلاصة ما وصل إليه هذا العلم عند الآخر المتمدن قبل الإسلام وبعده من يونانيين وفرس وهنود، فضلاً عما أضافوه هم.

لقد كان عدد الأطباء، بعد ترجمة الكتب الطبيّة، في أربعة القرون الهجرية الأولى يقدّر بالمئات كما يظهر من مطالعة "فهرست" ابن النديم، و"تاريخ حكماء الإسلام" للبيهقي، و"إخبار العلماء" للقفطي، و"طبقات الأطباء" لابن أبي أُصيبعة، و"نزهة الأرواح" أو "تاريخ الحكماء" للشهرزوري، وغيرها من كتب التراجم من مثل "وفيات الأعيان" و"معجم الأدباء". يقال إن عدد أطباء بغداد وحدها في عهد الخليفة المقتدر

وصل إلى(٨٦٠) طبيباً، ويقال إن سيف الدولة الحمداني، كما تقدم، كان إذا أكل الطعام حضر إلى مائدته أربعة وعشرون طبيباً، وكان فيهم الطبيب عيسى الرقّي المعروف بالتفليسي، الذي كان طبيباً مشهوراً في أيامه، عارفاً بالصناعة الطبيّة حقّ معرفتها، وله أعمال فاضلة ومعالجات بديعة"، وكان ينقل من السريانية، ويأخذ أربعة أرزاق: رزقاً بسبب الطبّ، ورزقاً بسبب النقل، ورزقين بسبب علمين آخرين. أمّا الأطباء الآخرون فكان فيهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم[٦٩٣].

ولقد ركز الأطباء في القرنين الثالث والرابع الهجريين في العناصر الأساسية في الطبّ من غذاء، ودواء، وشراب، واعتماد التجربة في البحث والعلاج، والتفات إلى نفسية المريض، وربط الغذاء بالرياضة البدنية، والاهتمام بالحميّات، والجراحة كما في "قانون" ابن سينا الذي جمع ما كتبه جالينوس في التشريح وقرّبه إلى الأفهام، وطب العيون كما عند علي بن عيسى الكحّال صاحب "تذكرة الكحّالين[٦٩٤] وابن سينا الذي عني بموضوع الرّمد كثيراً.

من أشهر الأطباء، غير من أشير إليه، أبو بكر الرازي محمد بن زكريا[٦٩٥] (ت٣١١هـ) صاحب "الحاوي" و"الجامع" و"الأعصاب" و"المنصوري" الذي ألّفه لمنصور بن نوح السّاماني. والرازي هوالذي دبّر مارستان الري ومارستان بغداد في أيام المكتفي". من أقواله الطبيّة، مثلاً:

- "مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية".
- "مهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركّب".
- "إذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقلّ لبث العلّة".

ومنهم، علي بن العباس المجوسي(ت ٣٨٤ هـ) المشهور بكتابه "الملكي" الذي صنّفه لعضد الدولة البويهي، وهو"كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبيّة علمها وعملها"[٦٩٦].

ج - الكيمياء والصيدلة:

وقاد الاهتمام بالطب إلى الاهتمام بالكيمياء والصيدلة والنبات كما كان الشأن في الأعصر السابقة، فكان الكندي وأبوبكر الرازي، امتداداً لجابر بن حيّان في الكيمياء، إذ اكتشفوا عدداً من المركبات الكيماوية. وكما صنّف الرازي " المنصوري " في الطب لمنصور بن نوح، كما تقدم، صنّف له كتاباً في إثبات صناعة الكيمياء كافأه عليه بألف دينار، وطلب إليه أن يخرج ما فيه إلى الفعل بعد أن تكفل له بكل الآلات التي طلبها، لكنه عجز، فأمر بأن يعاقب، وهكذا كان(٦٩٧).

وأفاد علماء هذا العصر من مؤلفات «جالينوس»(٦٩٨) و" ديسقوريدس " الذي ترجم أصطفان بن باسيل كتابه عن اليونانية مباشرة، وحمل الكتاب إلى الأندلس، فانتفع الناس به إلى أيام الناصر عبدالرحمن بن محمد(٦٩٩).

وعُرف في عهد هشام المؤيد بالله داود بن سليمان بن حسّان المعروف بابن جلجل، الذي كان طبيباً خبيراً بالمعالجات، جيد التصرف بصناعة الطب. فسّر أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس، وله من الكتب: " كتاب تفسير الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس " ألّفه بقرطبة عام ٣٧٢هـ، وله مقال في الأدوية التي لم يذكرها العالم اليوناني ذاك، الذي ظلّ نفر من الأطباء المعاصرين لابن جلجل يعملون على تصحيح أسماء عقاقير كتابه (٧٠٠).

د - الرياضيات والفلك والنجوم:

وكانت للعلماء في هذا العصر جهود بارزة في الرياضيات عامة: الحساب والجبر والهندسة. ومما يحسب لهم نقلهم الحساب الهندي والأرقام الهندية، التي نستعملها نحن اليوم، واستعمالهم(الصفر) للغاية نفسها التي يستعمل فيها الآن(٧٠١).

ومن علماء الرياضيات، وإن جمعوا إليها علوماً أخرى، سنان بن ثابت صاحب

التآليف في الهندسة[٧٠٢]؛ وكان من أشهرهم الحسن بن الهيثم، أبوعلي الحسن بن الحسن(٣٥٤ - ٤٣٠هـ) الذي لقّب بـ"بطليموس الثاني" لأنه "كان تلو بطليموس في العلوم الرياضية والمعقولات، وتصانيفه أكثر من أن تُحصى[٧٠٣] لا سيما في الهندسة إذ "كان علماً بهذا الشأن متقناً له متفنناً فيه، قيّماً بغوامضه ومعانيه" [٧٠٤]. ومن مؤلفاته: تهذيب المجسطي، ومصادرات إقليدس، وتربيع الدائرة، وعلل الحساب الهندي، وغيرها[٧٠٥].

وكان للعرب والمسلمين اهتمام بالفلك والنجوم قبل هذا العصر، الذي تواصلت فيه جهودهم، وهم عموماً "قالوا بإبطال صناعة التنجيم المبنيّة على الوهم، ولعلهم أول من فعل ذلك، وإن كانوا لم يستطيعوا إبطالها، ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحوالحقائق المبنيّة على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء. وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الأفلاك، ويؤلفون الأزياج، ويقيسون العُروض، ويراقبون السيّارات". . . .

واهتموا بالرصد والمراصد[٧٠٦]، اهتماماً وصل إلى مداه في هذا القرن، لأن شرف الدولة بن عضد الدولة أمر برصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها في بروجها كما كان يفعل الخليفة المأمون[٧٠٧]. كان من مشاهير هذين العلمين، مثلاً: أبوالريحان البيروني؛ وأبوالحسن علي بن يونس المنجم المصري(ت ٣٩٩ هـ) الذي استعان به الخليفة الفاطمي الحاكم صاحب "الرصد الحاكمي" بسفح جبل المقطّم، وأبوالحسن علي بن هارون بن أبي منصور(٢٧٧ - ٣٥٢هـ)؛ وأبوالوفاء البوزجاني المهندس(٣٢٨ - ٣٨٧هـ) الذي "بلغ المحلّ الأعلى في الرياضيات. . . ، وكفى بذلك شاهداً تصنيفه المعنون بالمنازل ثم زيجه، ثم سائر تصانيفه"[٧٠٨].

(٦) الإبداع الأدبي:

الإبداع الأدبي، نثراً وشعراً، في هذا العصر كثير متعدد المنازع والاتجاهات، والمبدعون كثر كذلك لا تمكن الإحاطة بهم ولا بكل نتاجاتهم الإبداعية، وهوأمر غير

ممكن وغير متوقع في مبحث من فصل روعي فيه ـ وفي غيره من الفصول – إبراز أظهر الأطر والسمات والميزات التي من بينها أن جلّ كتّاب هذا العصر كانوا يقرضون الشعر، وأن بعض الشعراء كانوا يكتبون النثر، بيد أن هذا لا يعني أن نثر هؤلاء وشعر أولئك كانا من الشعر والنثر الجيدين، فأبوالقاسم عبد العزيز بن يوسف أحد كتاب آل بويه وصاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة كان من المعدودين في الرسائل الإخوانية بحيث وصفه الثعالبي بأنه " أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق. . . ، وأعيان الممدّحين المقدمين في الآداب والكتابة " لكن شعره لم يكن، فيما وصل إلينا منه، من الشعر الجيد، وإن قال عنه الثعالبي إنه : " أحسن من زهر الرياض"[٧٠٩]، وكذا كان أبوحيان التوحيدي. غير أن ثمة كتّاباً غلب عليهم النثر ولا تخلو أشعارهم من جودة من مثل : القاضي الجرجاني، وأبي بكر الخوارزمي، وابن العميد، وأبي إسحق الصابي، وبديع الزمان الهمذاني[٧١٠]، وثمة من برز في الصناعتين معاً كالشريف الرضي وأبي العلاء المعري.

وقد تعهد الثعالبي التأريخ لمبدعي القرن الرابع كتّاباً وشعراء في " يتيمة الدهر " و"تتمتها " في أمصار الدولة الإسلامية كافة، مشترطاً أن يورد من إبداعاتهم " لبّ اللّب وحبّة القلب، وناظر العين، ونكتة الكلمة، وواسطة العقد، ونقش الفص"[٧١١]، غير أنه لم يلتزم بشرطه التزاماً كاملاً[٧١٢]، إنّما خالفه بعض المخالفة معتذراً بقوله : " فإن وقع في خلال ما أكتبه البيت والبيتان ـ مما ليس من أبيات القصائد، ووسائط القلائد ـ فلأن الكلام معقود به والمعنى لا يتمّ دونه، ولأن ما يتقدمه أويليه مفتقر إليه، أولأنه شعر ملك أوأمير أو وزير أو رئيس خطير، أوإمام من أهل الأدب والعلم كبير، وإنّما ينفق مثل ذلك بالانتساب إلى قائله، لا بكثرة طائله :

وخير الشعر أكرمه رجالاً
وشرّ الشعر ما قال العبيدُ [٧١٣ - ٧١٤]

وسوّغ له القسم الأخير من عذره أن يكتب عن سيف الدولة الشاعر، وأن يعقد باباً(الرابع من الجزء الأول) لـ " مُلَح شعر آل حمدان أمراء الشام، وقضاتهم، وكتّابهم "، وأن يفرد مكاناً لعدد من الوزراء في الأندلس في بدايات الجزء الثاني، ويخصّص الباب الأول من القسم الثاني للملوك الشعراء من آل بويه الذين أردفهم ببعض وزرائهم.

وتكفّل الدكتور نبيل أبو حاتم بدراسة المبدعين في " اليتيمة " في كتابه " اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري"[٧١٥] (من خلال يتيمة الدهر) - وكان في أصله رسالته للدكتوراه - وجعله في أبواب ثلاثة من فصلين لكلّ منها، والأبواب، هي: بيئات الشعر في القرن الرابع، والموضوعات التقليدية، والاتجاهات الشعرية الجديدة.

وألحق المؤلف بكتابه " ثَبَتاً" بأسماء شعراء اليتيمة دون " التتمة " في أربعة أقسام: الأول للشعراء فقط، والثاني للكتّاب الذين لهم شعر، والثالث لمن لهم شعر من اللغويين، والأخير لمن ذكرهم الثعالبي ولهم شعر قليل. وقد جهد في الأقسام الثلاثة الأولى بتتبع مصادر أعلامها في غير " اليتيمة " وتقييدها، أمّا القسم الأخير فلم يجد لهم ذكراً في غير اليتيمة(ص ٤٣١)، ولعله يكمل صنيعه هذا فيرصد المبدعين في "التتمة " أيضاً.

أمّا الدكتور شوقي ضيف، فهوالمؤرخ الأدبي الأكبر لإبداع الدول والإمارات في سلسلة كتبه بعد كتاب " العصر العباسي الثاني " التي أصدرها تباعاً بعنوان " عصر الدول والإمارات " في خمسة أجزاء إلى الآن: الأول للجزيرة العربية والعراق وإيران، والثاني للشام، والثالث لمصر، والرابع للأندلس، والأخير لليبيا وتونس وصقلية. وللقرن الرابع حظٌ وفير فيها من حيث التأريخ السياسي والاجتماعي والعلمي المكثّف، ومن حيث الترجمة والدراسة الموجزة الوافية والنماذج في كلّ جزء لبعض المبدعين في الاتجاهات النثرية والشعرية المختلفة فحسب.

أ - النثر:

تعددت الأجناس الأدبية النثرية في هذا العصر، فكان جنس " الرسالة " في الطليعة، وهوقسمان: الرسائل السلطانيّة / الديوانية، والرسائل الإخوانية. فمن كتاب الضرب الأول، هؤلاء الوزراء الأدباء: الصاحب بن عبّاد، وابن العميد، وابن مقلة، والمهلبي، أبومحمد الحسن بن محمد(٢٩١ - ٣٥٢هـ)، والخصيبي[٧١٦]، وأبوالقاسم علي بن محمد الإسكافي النيسابوري وزير السامانيين الذين كان " أكتب الناس في السلطانيات، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعي قصير الباع "[٧١٧] والذي تقلّد ديوان الرسائل لأبي علي الصاغاني[٧١٨].

وكان من غير الوزراء: أبوإسحق إبراهيم بن هلال الصابي(٣١٠ - ٣٨٤هـ) الذي " خنق التسعين في خدمة الخلفاء، وخلافة الوزراء، وتقلّد الأعمال الجلائل، مع ديوان الرسائل "[٧١٩]، والذي كان الصاحب بن عباد " يتمنّى انحيازه إلى جنبته، وقدومه إلى حضرته "، وهوالذي كثيراً ما كان يقول: " كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة:

الأستاذ ابن العميد، وأبوالقاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبوإسحق الصابي، ولوشئت ذكرت الرابع، يعني نفسه"[٧٢٠]. كان أوحد الدنيا في إنشاء الرسائل[٧٢١]، وكانت بينه وبين الشريف الرّضي نقيب الطالبيين، مع اختلاف الملّة، مودّة ومكاتبات، ولما مات رثاه الشريف بالداليّة المشهورة التي أوّلها:

أعلمتَ من حملوا على الأعوادِ

أرأيتَ كيف خبا ضياء النادي ؟

ما كنتُ أعلم قبل دفنكَ في الثّرى

أنّ الثرى يعلوعلى الأطوادِ !

فعاتبه الناس لأنه رثى " صابئاً "، فقال " إنّما رثيت فضله»[٧٢٢]

أمّا كتّاب الضرب الآخر / الرسائل الإخوانية، فمنهم: أبوحيان التوحيدي، وعبدالعزيز بن يوسف الذي سبقت الإشارة إليه، والببغاء الأديب وإن لم تصل إلينا من رسائل هذين الأخيرين أشياء كثيرة[٧٢٣]، وأبوبكر الخوارزمي(ت ٣٨٣هـ) الذي كان "باقعة الدهر، وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم"[٧٢٤].

ويمكن أن يعدّ أبوحيان التوحيدي صاحب مدرسة نثرية كعبدالحميد الكاتب، والجاحظ، وابن العميد، وغيرهم.

لقد صنّف التوحيدي في الجاحظ كتاباً عنوانه " تقريظ الجاحظ"[٧٢٥] وقال عن كتبه: "هي الدرّ النثير، والنّور المطير، وكلامه الخمر الصرْف، والسحر الحلال"[٧٢٦].

لا أحسب أن المجال مناسب للتوسع في الذي طرحت، لكنّ، ما يقوّيه ويعضده أن روح العصر وآفاقه ومعطياته العلمية اختلفت عما كان عليه الأمر في عصر الجاحظ(القرن الثالث الهجري)، وهو إن كان أسلوبه يمثل " الطريقة التي جرى عليها المترسلون منذ القرن الثاني الهجري حتى القرن الرابع، وذلك قبل أن طغى السجع على أقلام الكتّاب. . . "، وإن كان " من خصائصه احتذاء الجاحظ في التفنن في كلّ شيء مطبوعاً على ذلك إلى الحدّ الأقصى "، فإنه " أولع بوضع الأحاديث والأسماء ووقائع التاريخ في الصورة الروائية"[٧٢٧]، وإنه لم يلجأ إلى السجع في كتبه إلاّ في "الإشارات الإلهية"[٧٢٨] حيث يمزج بين السجع والمزاوجة[٧٢٩]. يقول آدم متز: " ربما كان أعظم كتّاب النثر العرب على الإطلاق"[٧٣٠]، ويقول: " وأول ما نلاحظه أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع، وقادراً عليه، غير أننا نكاد لا(كذا) نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء. ولم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هوأبسط وأقوى وأشد تعبيراً عن مزاج صاحبه مما كتب أبوحيّان، ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع، فيجري عليها ويعظّم أصحابها، ولقد كان أبوحيان فنّاناً

غريباً بين أهل عصره»[٧٣١] . أمّا في العصر الحديث ، فقد " تحول النظر عن الصناعة اللفظيّة إلى جلال العبارة القائمة على سموّ المعاني ، وعمق التفكير وحسن التسلسل الفكري ، فزالت عنه الحجب ، وأخذ النقاد ينظرون إليه بعين غير عين أهل الصنعة اللفظية" [٧٣٢] .

ومهما يكن الأمر ، فإنّه إذا ما استثنينا ابن العميد من الكتّاب الديوانيين والتوحيدي من غيرهم في " الإشارات الإلهية " ، فإن السيادة الأسلوبية أضحت ، آنذاك ، لالتزام السجع والبديع والتأنق بتزويقه بالشعر والأمثال[٧٣٣] .

صفوة القول في رسائل القرن الرابع الهجري " إنها أدقّ آية من ازدهار الفن الإسلامي ، ومادتها هي أنفس ما عالجته يد الفنّان ، وهي اللغة ؛ ولولم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للرشاقة الرقيقة ، وامتلاكهم لناصية البيان في صورته الصعبة ، وتلاعبهم بذلك تلاعباً" [٧٣٤]

ومن الأجناس الأدبية النثرية التي عرفها هذا العصر ، بقطع النظر عن الإرهاصات والأصول ، جنس " المقامة " عند بديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسين (ت٣٩٨ هـ) الذي أرى أن نحتفظ به جنساً أدبياً مستقلاً دون أن نحاول إلحاقه أو إلصاقه بأي جنس من الأجناس النثرية الحديثة كالقصة والرواية ! فلم لا تكون لنا أجناس أدبية ذات سمات نسيج وحدها خاصة بنا كغيرنا من الأمم مثل " التوقيعات " و"المقامات " و"الموشحات " ؟! .

لقد نادى زكي مبارك منذ عام ١٩٣١ م بشيء قريب من هذا حين قال : " . . . إن القرن الرابع دان اللغة العربية بفنّ من فنون القصص هو فن المقامات ، وذيوع هذا الفن يرجع إلى أنه وافق السليقة العربية التي تميل إلى القصص القصيرة ، والتي تميل إلى

الزخرف في الإنشاء.

وقد ظن ناس أن فنّ المقامة هوفنّ القصة، وكذلك نراهم يذكرون المقامات كلّما أثير موضوع القصة في اللغة العربية، والواقع أن العرب، بفطرتهم، لم يكونوا يميلون إلى القصص المعقّد الذي وُجد كثير منه فيما أثر عن اليونان القدماء، والذي ذاع عند الإنجليز والروس والفرنسيس والألمان.

ولا عيب في أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل، فإن الفن الصحيح يرتكز أولاً على الفطرة، ولم يكن العرب مفطورين على القصة التي تقرأ في أيام أو أسابيع، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الأقاصيص التي وجدت عند معاصريهم في الشرق والغرب"[٧٣٥].

وكان لعدد من كتّاب هذا العصر إسهامهم في فن الفكاهة النثرية الذي لم يكن من مبتكراته، بل ظهر فيه ظهوراً واضحاً. فضلاً عمّا في مقامات البديع، كما في "المقامة الشاميّة" و"المضيرية" مثلاً. وثمّة ألوان أخرى عند "أبي الخطّاب الصابي" (صفة حَمَل) و"أبي إسحق الصابي" (التعزية في ثور، وعهد التطفل)[٧٣٦].

كما كان لعدد آخر سهمة في التأليف في قصص السمر بنحو ليس عربياً خالصاً، وهي القصص التي جعلت تتسرب إلى الأدب العربي منذ القرن الثالث الهجري[٧٣٧]، إذ شرع الجهشياري بتأليف كتاب على غرار "ألف ليلة وليلة" بجمع «ألف» سمر من أسمار العرب وغيرهم، وكتب(٤٨٠) منها، لكن حمامه عاجله قبل أن يتمّها[٧٣٨]. أمّا مسكويه فألّف كتاب "أنْس الفريد"، وهو" أحسن كَتاب صنّف في الحكايات القصار والفوائد اللّطاف»[٧٣٩].

ب. الشعر:

إن عدد الشعراء فقط في "اليتيمة" وحدها دون "التتمّة" - كما يؤخذ من "ثبت

نبيل أبوحاتم" - مئتان وخمسة وأربعون(٢٤٥) شاعراً بين مشهور ومغمور ومكثر ومقلّ وملك وأمير ووزير، ناهيك عن الشعراء الكتّاب والشعراء اللغويين، وعن الشعراء الذين انفرد الثعالبي بذكرهم وعددهم تسعة وستون(٦٩). إنه عدد كبير، وليس من المعقول أن يكون صاحب اليتيمة قد استقصى كل شعراء هذا القرن حتى بعد الاستدراك بـ" تتمة اليتيمة ".

لقد كان أولئك الشعراء، وغيرهم ممن فات الثعالبي أن يستوعبهم وذكروا في مصادر أخرى، موزعين على أمصار الدولة الإسلامية الواحدة وإماراتها ودولها التي انقسمت عنها، إمّا من أهلها الأصليين وإمّا من الوافدين عليها كأولئك الذين أمّوا بلاط الحمدانيين وسيف الدولة تحديداً، والذين رحلوا إلى البويهيين ووزرائهم، وإلى مصر والأندلس لأسباب شتّى منها المال والجاه والمنصب والرحلة واستدعاء الملوك والأمراء والوزراء والعمّال ـ باصطلاح ذلك الزمان ـ أنفسهم لهم. كما كانوا موزعي الموضوعات والاتجاهات الشعرية والفنيّة والميول السياسية والمذهبية والعرقيّة، حتى إننا نجد، مثلاً "الصنوبري والمتنبي وابن الحجّاج والشريف الرّضي جنباً لجنب. . . ، وكلّ واحد منهم يشبه في الناحية التي نبغ فيها قمّة تشرف على كل القرون التالية للأدب العربي"[٧٤٠].

وإذا ما أردنا أن نلمّ بما كانت عليه حال الأدب عامة والشعر خاصة في أمصار الدولة الإسلامية كافة، نلحظ أن النهضة الأدبية في الشام هي التي ازدهرت في الدولة الحمدانية في حلب وفي عهد سيف الدولة تحديداً[٧٤١]، وهو ما سنفرده بمبحث مستقل.

وفي مصر، نهض الشعر في عهد الفاطميين لأنهم كانوا في حاجة إلى من يحمل لواء الدعوة والدعاية معاً كالذي فعله في المغرب ابن هانىءالأندلسي(متنبي المغرب) شاعر المعزّ لدين الله الذي أكرمه كثيراً وبنى له قصراً، ولما مات عام ٣٦٢هـ قال فيه:

" هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك "[٧٤٢]، ولأنهم كانوا أسخياء مع من يمدحهم ويدعو لهم. ومن الشعراء غير ابن هانىء: أبو الرّقعمق. أبوحامد أحمد بن محمد الأنطاكي(ت ٣٩٩ هـ) من الشعراء الذين وفدوا من الشام، ثمّ أقام بمصر مدة ومدح المعزّ؛ والقائد جوهراً؛ والوزير ابن كلّس وغيرهم[٧٤٣].

قال الثعالبي عنه: " نادرة الزمان. . . ، وممن تصرّف بالشعر الجزل في أنواع الجد والهزل. . . ، وهوأحد المدّاحين المجيدين. . . ، وهوبالشام كابن حجّاج بالعراق" [٧٤٤]. ومنهم تميم بن المعزّ الفاطمي(ت ٣٧٤ أو٣٧٥ هـ)، وهومن شعراء اليتيمة أيضاً[٧٤٥]. أمّا العراق، فكان فيه عدد وفير من الشعراء من مثل: ابن نباتة السعدي، مادح سيف الدولة في حلب وعضد الدولة، والوزير المهلبي بالعراق، وابن العميد بالريّ؛ وأبي الحسن السّلامي[٧٤٦] محمد بن عبدالله (٣٣٦ - ٣٩٣ هـ) الذي وصفه الثعالبي بأنه" من أشعر أهل العراق، قولاً بالإطلاق، وشهادة بالاستحقاق". لقي بالموصل، حين خرج إليها صبيّاً، أبا الفرج الببغاء، وأبا عثمان الخالدي، وأبا الحسن التلعفري، وشيوخ الشعراء، فأعجبوا به لكنهم شكّوا في شعره وشاعريته، ولما اختبره الخالدي ونجح في الاختبار زال شكهم. مدح الصاحب بن عبّاد وابن العميد. وكان منهم، كذلك، ابن سكّرة الهاشمي البغدادي أبوالحسن محمد بن عبدالله (ت ٣٨٥ هـ)، وابن الحجّاج أبوعبدالله الحسين بن أحمد(ت ٣٩١ هـ)، والاثنان من شعراء مدرسة الهزل واللهو والمجون. يقول الثعالبي في الأول: " شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع، فائق في قول المُلح والظرف، أحد فحول الأفراد، جارٍ في ميدان المجون والسخف ما أراد"[٧٤٧]، ويقول في الآخر: "هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف[٧٤٨]، ولا يبني جلّ قوله إلا على سخف، فإنه من سحرة الشعر، وعجائب العصر. . . ، فرد زمانه في فنه الذي شهر به، وأنه لم يسبق إلى طريقته، ولم يلحق شأوه في نمطه. . . ، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها، وانتظامها في سلك الملاحة

والبلاغة، وإن كانت مفصحة عن السخافة، مشوبة بلغات الخلديين والمكدين وأهل الشّطارة. ولولا أن جدّ الأدب جدّ وهزله هزل. . . . ، لصنت كتابي هذا عن كثير من كلام من يمدّ يد المجون فيعرك بها أذن الحرم، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل"[٧٤٩].

وينقل عن البغداديين فيهما معاً: " إن زماناً جاد بابن سكّرة وابن الحجّاج لسخيّ جداً. وما أشبههما إلاّ بجرير والفرزدق في عصريهما" [٧٥٠].

وكان الأخوان الشريف الرضي(٣٥٩ - ٤٠٦هـ) والشريف المرتضى(٣٥٥ - ٤٣٦هـ) ناهيك عن المتنبي، أشهر شعراء العراق، وهما خير ممثلين لشعر الطالبيين. فقد وصف الأول بأنه أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المفلقين[٧٥١]، بل وصف بأنه " أشعر قريش[٧٥٢]. أما أخوه المرتضى علي بن الطاهر فقد كان " إماماً في علم الكلام والأدب والشعر " واشتهر بوصف «الطيف»[٧٥٣]، والتأليف فيه، إذ ألّف " طيف الخيال" [٧٥٤]. وهومشهور في النثر بأماليه وقد سلفت الإشارة إليه في الكلام عن مبحث " التفسير ".

وأمّا خراسان وما وراء النهر حيث كانت الدولتان السامانيّة (٢٦١ - ٣٨٩هـ) والبويهية، فكان فيها نشاط علمي وأدبي وتأليفي مهم في مجالات شتّى كابن سينا، في الفلسفة، والخوارزمي في الآداب، والجوهري في اللغة. أمّا في الشعر، فأنجب عدداً كبيراً من الشعراء الذين أثبتهم الثعالبي في اليتيمة وأورد نماذج من أشعارهم، فهويقول عن " بخارى "، مثلاً: " كانت بخارى في الدولة السامانيّة مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر "[٧٥٥].

وكان ثمة أدباء في رحاب الدولة الغزنوية في عهد محمود خاصة، كأبي الفتح البستي الشاعر(ت ٤٠٠ أو٤٠١) [٧٥٦] كاتب محمود الغزنوي إلى جانب أبي القاسم

الميمندي وزيره .

وكان في الأندلس ، غير ابن هانىء ، ابن درّاج القسطلي(٣٤٧ - ٤٢١ هـ) الذي قال عنه الثعالبي : " كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام "[٧٥٧] ، والذي كان من مدّاح المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر من بعده .

المهم في أمر الأندلس الشعري اختراع " الموشح " ، الذي يرجّح أنه كان مولود هذا العصر بغض النظر عن الخلاف في بداياته ومخترعه الأول وأصوله[٧٥٨] . إنه جنس أدبي جديد يختلف عن " قصيدة الشطرين " المعهودة ذات الوزن الواحد والقافية الموحدة ، وهو جنس معروف من " قالب " خاص في التركيب والإيقاع .

٧ - موقع الحمدانيين في العصر العلمي والأدبي:

حرصت أن يكون من منهج هذا الكتاب المخصص لعصر أبي فراس الحمداني أن يركز على نصيب الحمدانيين في كل مبحث من فصوله الثلاثة إن كان لهم فيه علقة ، وأحسب أن الإشارات إليهم تعددت في مباحث هذا الفصل والفصل الثاني ، أمّا الفصل الأول فكان لهم القدح المعلّى فيه . وآثرت أن أخصهم وحدهم بهذا المبحث ، ما دام الكتاب معقوداً على عصر شاعرهم الأكبر ، لكي يبرز دورهم وسهمتهم في النهضة العلمية والأدبية في القرن الرابع .

فعلى الرغم من عدم الاستقرار الذي كتب عليهم سواء في علاقاتهم مع بعضهم أم في الأحداث الداخلية والخارجية التي تصدوا لها لا سيما سيف الدولة ، فإن ذلك كلّه لم يصرفهم عن أن يهتموا بالأدب والعلم ، وعن أن يكون لهم إسهامهم فيهما ، فكان أن جمعوا " بين أدوات السيف والقلم " كما يقول الثعالبي[٧٥٩] .

ليس من شكّ في أن نهضة بني حمدان الثقافية تجلت أكثر ما تجلّت في حلب سيف الدولة ، لكن لم تعدم ولايات آل حمدان الأخرى أن يكون لها نصيب فيها .

ففي أنطاكية كان أول اتصال للمتنبي بالحمدانيين، حيث اتصل عام ٣٣٦ هـ بأبي العشائر(الحسن بن علي بن الحسن) ابن عمّ سيف الدولة وواليها له، ومدحه بعدة قصائد[٧٦٠] أولها " القافيّة " التي مطلعها : [٧٦١]

أتـراهـا لـكـثـرة الـعـشّـاقِ

تحـسب الـدمع خـلْـقـةً في المـآقي

فأكرمه أبوالعشائر، وعرف منزلته، وهوالذي قدّمه إلى سيف الدولة أول مرّة عام ٣٣٧ هـ، وأثنى عليه وعرّفه منزلته من الشعر والأدب، مذ ذلك التاريخ نشأت الصلة بين الأمير والشاعر الذي اشترط عليه ألاّ ينشده مديحه إلاّ وهو قاعد، فقبل سيف الدولة الشرط، وهكذا كان[٧٦٢].

غير أنّ المتنبي، كما يقول طه حسين، لم يكن " حسن الوفاء لأبي العشائر، فهو لم يكد يتصل بسيف الدولة حتى أعرض عن غيره من الناس، ونسي أبا العشائر نسياناً تاماً، فلم يذكره ولم يشر إليه. وكان الرجل خليقاً أن يلقى من صنيعته بعض الشكر على ما قدم إليه من إحسان ". ويرى طه حسين، أيضاً، أنّ هذا كلّه ربما كان ميسّراً لشيءمن(الحلف) بين أبي العشائر وأبي فراس وأصحابه على قتل المتنبي غيلة، لا سيما أن إحدى أختي أبي فراس كانت زوج أبي العشائر الذي حمى المتنبي حين جاءه لاجئاً إليه عائذاً به والذي قدّمه إلى سيف الدولة[٧٦٣].

إذا ما أضفنا إلى هذا ما كان بين أبي فراس والمتنبي وبين هذا الأخير وابن خالويه والحاتمي والسّلامي وغيرهم ممن كانوا لا يرغبون فيه في بلاط سيف الدولة من خصومات ترتد إلى الحسد والغيرة من تقريب سيف الدولة للمتنبي واهتمامه الكبير به والإحسان إليه، وأضفنا إليه، كذلك، ما ذهب إليه محمود شاكر من أنه كان ثمة علاقة تربط المتنبي بخولة أخت سيف الدولة استنتجها من رثاء الشاعر لها بالبائية المشهورة التي مطلعها[٧٦٤]:

يـا أختَ خـيـر أخٍ، يـا بـنتَ خـيـر أبٍ

كـنـايـة بـهـمـا عن أشـرفِ الـنـسبِ

والتي منها هذان البيتان السائران :

طـوى الجـزيـرة حـتى جـاءني خـبـرٌ
فـزِعتُ فـيه بـآمـالي إلى الـكـذبِ

حـتى إذا لـم يـدعْ لي صـدقه أمـلاً
شـرقتُ بـالـدّمع حـتى كـاد يـشـرق بي

إذا ما أضفنا هذه الأسباب إلى بعضها ، فإنها قد تفسّر جوانب مهمة من ترك المتنبي سيف الدولة إلى كافور .

وكان في الموصل ، إبّان إمرة ناصر الدولة ، شعراء كثيرون سواء من أهلها الأصليين أم من الوافدين عليها . فمن أهل الموصل ، مثلاً ، كان :

الخبّاز البلدي[٧٦٥] (أبوبكر محمد بن أحمد بن حمدان) ، والسريّ الرّفاء ، والخالديان ، وقد أوردهم الثعالبي جميعاً في اليتيمة وذكر أطرافاً من أخبارهم ونماذج من أشعارهم . وكان من أشهر الوافدين أبوالحسن السّلامي الذي وفد على الموصل "وهوصبي حين راهق " ، وشك شيوخ شعرائها في شعره إلى أن اختبره أبوعثمان الخالدي كما تقدم .

وكان آل حمدان من الأسر الشاعرة كما يبدو من " الباب " الذي عقده الثعالبي لهم في " اليتيمة " بصرف النظر عن القيم الفنيّة لشعر أكثرهم . وإذا ما استثنينا سيف الدولة وأبا فراس مؤقتاً تطالعنا أسماء أبي زهير مهلهل بن نصر بن حمدان ، وأبي العشائر وأبي وائل تغلب بن داود بن حمدان ، وأبي المطاع بن ناصر الدولة ، ، والحسين بن ناصر الدولة[٧٦٦] . ولما عوتب المتنبي في آخر أيامه ، على تراجع شعره ، قال : "قد تجوزت في قولي ، وأعفيت طبعي ، واغتنمت الراحة مذ فارقت آل حمدان ، وفيهم من

يقول" : [٧٦٧] ويذكر الثعالبي عدداً من الشعراء المقلين من الأمراء والقضاة والكتاب الذين أدرج شعرهم في عنوانه الكبير : " في ملح شعر آل حمدان أمراء الشّام وقضاتهم وكتّابهم " ، هم :

(١) منصور وأحمد ابنا كيغلغ الأديبان الشاعران من أولاد أمراء الشام[٧٦٨] .

(٢) أبومحمد جعفر وأبوأحمد عبدالله ابنا ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوّادها المختصين بسيف الدولة ، وكانت بينهما وبين أبي فراس مكاتبات ومجاوبات ، إذ أرسل إليهما من قصيدة يقول :

أتـــاني عن بـــني ورقـــاء قـــولٌ
ألـــذّ جـــنًى من المـــاء الـــقـــراحِ

فأجابه أبوأحمد بقصيدة أوّلها :

أصـــاحٍ قـــلـــبه أم غـــيـــر صـــاحِ
وقـــد عَـــنَّتْ له عُـــفْـــر الـــبـــطـــاحِ

وله ولأخيه " معارضات " أخرى لبعض قصائد أبي فراس ، وله هوقصيدة "يائيّة"عرض فيها لبني كعب وضرب سيف الدولة لهم . وكانت بينهما وبين أبي إسحق الصابي مكاتبات شعرية بعد وفاة سيف الدولة[٧٦٩] .

(٣) أبوحصين علي بن عبدالملك الرّقي القاضي بحلب[٧٧٠] ، الذي قال فيه السريّ الرفّاء :

لـــقـــد أضـــحتْ خِلال أبـــوحـــصـــينٍ
حـــصـــونـــاً في المـــلـــمّـــات الـــصّـــعـــابِ

وكانت بينه وبين أبي فراس مودة تبدو مما كان بينهما من مكاتبات / معارضات شعرية . فلمّا كتب إليه أبوفراس ، وقد عزم المسير إلى الرقّة ، قصيدة مطلعها :

يـــا طـــول شـــوقي إنْ كـــان الـــرحـــيل غـــدا

لا فـرّق الـلـه فـيـمـا بـيـنـنـا أبـدا

أجابه القاضي بقصيدة أوّلها :

الحـمـد لـلـه حـمـداً دائـمـاً أبـدا

أعـطـاني الـدهـر مـا لـم يُـعـطه أحـدا

هي التي ذكر فيها سيف الدولة ، فقال منها :

لـولا الأمـيـر وأنّ الـفـضـل مـبـدؤُهُ

مـنـه لـقـلـتُ بـأنّ الـفـضـل مـنك بـدا

(٤) أبوالفرج سلامة بن بحر أحد قضاة سيف الدولة ، الذي كان ينظم شعراً "يكاد يمتزج بأجزاء الهواء رقةً وخفّة ، ويجري مع الماء لطافة وسلاسة" [٧٧١] .

(٥) أبومحمد عبدالله بن عمرو بن محمد الفياض كاتب سيف الدولة ونديمه . وقد مضى الكلام عنه[٧٧٢] .

(٦) أبوالقاسم الشيظمي . لم يذكر له الثعالبي سوى مقطوعة من ثلاثة أبيات في وصف " نمرقة " رآها بجنب سيف الدولة[٧٧٣] . ويبدو أن " الشيظمي " لقبه ، فابن النديم يقول : " واسمه . . . .[٧٧٤] ، وكان يجول ، ثمّ انقطع إلى سيف الدولة . وقد عمل شعره قبل موته ، ومقداره نحوخمسمائة ورقة" [٧٧٥] .

(٧) أبوذر أستاذ سيف الدولة ، وقد مرّ ذكره .

(٨) أبوالفتح البكتمري المعروف بابن الكاتب الشاميّ [٧٧٦] .

(٩) أبوالفرج العجلي الكاتب[٧٧٧] .

(١٠) ابن خالويه أستاذ بني حمدان[٧٧٨] ، وقد سلف الحديث عنه .

(١١) ابن جنّي[٧٧٩]، وقد مضى الكلام عنه.

(١٢) الشمشاطي، أبوالفتح الحسن بن علي بن محمد، ولم يقع للثعالبي من شعره سوى بيتين في البنفسج ومثلهما في "الجلّنار" [٧٨٠] وهوالذي اختار مع كاتب سيف الدولة محمد الفيّاض عشرة آلاف بيت من مدائح الشعراء في أميرهم[٧٨١].

أمّا سيف الدولة، فكان شاعراً وناقداً(بالمفهوم السائد آنذاك) في آن، وقد ألمعت إلى شيء من شعره في فصل "العصر الاجتماعي"، وإلى شيء من نقده في فصل "العصر العلمي والأدبي" واستشهدت عليهما ببعض المُثُل، وها أنذا أستكمل الموضوع.

يستفاد من المُلح / النماذج التي أثبتها الثعالبي[٧٨٢] أن الرجل كان ينظم الشعر في الوصف، والغزل، فمن وصفه قوله في قوس قزح:

وقد نشرتْ أيدي الجنوب مطارفاً
على الجوّ دُكناً والحواشي على الأرضِ
يطرّزها قوس الغمام بأصفرٍ
على أحمرٍ في أخضرٍ تحت مبيضِّ
كأذيال خَوْدٍ أقبلتْ في غلائلٍ
مُصَبّغةٍ والبعضُ أقصر من بعضِ

الذي يقول فيه الثعالبي "وهذا من التشبيهات الملوكيّة التي لا يكاد يحضر مثلها السوقة".

ومن غزله، غير الذي ذكرته له في جاريته الروميّة، قوله:

تجـــنّى عـــليّ الـــذنب والـــذنب ذنـــبُهُ
وعــاتــبــني ظــلــمــاً وفي شـِقّه الـعـتْبُ
وأعـــرض لمـــا صـــار قـــلـــبي بـــكـــفِّهِ
فــهلا جـفــاني حــين كــان ليَ الــقــلبُ ؟
إذا بَـــرِمِ المـــولى بـــخـــدمـــة عـــبـــدِهِ
تجـــنّى له ذنـــبـــاً وإنْ لم يـــكن ذنـبُ

وأمّا سيف الدولة الناقد، فكان يطلب إلى الشعراء في مجلسه، الذي سبق الكلام عنه، " إجازة " أبيات أوأنصاف أبيات كان ينظمها، كالذي جرى بينه وبين ابن عمّه أبي فراس فيما مضى من كلام. وكان ينقد عليهم بعض أشعارهم كنقده الذي ذكرته لبيتي المتنبي فيه من " ميميّة " معروفة. وأذكر، هنا، أن أحد الخالديين، وقد كان من خواص شعرائه، أنشده قصيدة طويلة منها هذا البيت:

فـــغـــدا لـــنـــا من جـــودكِ المـــأكـــول والـ
ـــمـــشـــروب والمـــنـــكـــوح والمـــلـــبـــوسُ

فقال له سيف الدولة " أحسنت إلاّ في لفظة(المنكوح)، فليست مما يخاطب بها الملوك[٧٨٣]. وهذا من النقد الاجتماعي الذي يندرج في مفهوم " اللياقة الاجتماعية "، وليس من النقد الأدبي، وهوكثير في نقدنا العربي القديم.

ليس من شك في أن ذلك كلّه - وثمة غيره - كان نتاجاً طبيعياً لاهتمامات الأمير الحمداني الأدبية والثقافية والعلمية المتنوعة كما يتجلى ممّا كان يدور في مجالسه، التي سلفت الإشارة إليها، ومما كان يفيده من مجالسيه المقيمين والوافدين في أوقات السلم. فثمة إشارة إلى أستاذ له اسمه «أبوذرّ»[٧٨٤]، وثمة خبر عن أن آل حمدان كانوا يدرسون على ابن خالويه[٧٨٥]. أمّا كاتبه ونديمه أبومحمد عبدالله بن

عمرو بن محمد الفياض ، الذي كان معروفاً " ببعد المدى في مضمار الأدب وحلبة الكتابة " ، فلم يكن "يؤثر عليه في السفارة إلى الحضرة أحداً لحسن عبارته وقوة بيانه ، ونفاذه في استغراق الأغراض ، وتحصيل المراد" (٧٨٦) .

ذهب الدكتور طه حسين إلى أن ثقافة سيف الدولة كانت " واسعة عميقة فيما يظهر . . . ، وكانت بيئته الخاصة التي نشأ فيها تهيئه لحياة مثقفة لها حظٌّ لا بأس به من المشاركة في العلم والأدب ، والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهرة التي كانت مسيطرة ببغداد . . . . ، وثقافة سيف الدولة تظهر في أحاديثه ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن ، وقدرته على التمييز الدقيق بين ما كان يقال في مجلسه من الصواب والخطأ ومن الجيد والرديء ، ورغبته في أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء ، وفي أن تتفرع فيها الثقافات ، فتوجد الفلسفة إلى جانب العلم ، وتوجد علوم الدين إلى جانب علوم اللغة والأدب .

وما كان الرجل يصنع هذا عن جهل ، ولا عن غرور ، ولا عن رغبة في المنافسة للمنافسة من حيث هي ، بل عن بصيرة وحسن رأي ، وعلم بما يأتي وما يدع ، وتقدير صحيح لأثر الحياة العقلية المزدهرة في نشر الدعوة ، وإعلان ما كان يريد لملكه ودولته من أُبّهة وجلال . . . وما أستبعد أن يكون سيف الدولة قد ألمّ شيئاً باليونانية وثقافة اليونانيين ، لاتصاله اليومي أثناء حياته كلها باليونان وشئون اليونان"(٧٨٧) .

إذا ما حاولنا أن نطبّق ما جاء في نص طه حسين الطويل هذا تطبيقاً واقعياً على ما يجري في جنبات بلاط سيف الدولة ومجالسه مبتدئين بالنص من آخره تبين لنا أن الرجل كانت له عناية ما بالأمور العلمية البحتة وبالطب تحديداً ، وإن كان اهتمامه به خاصاً . فقد سلف الكلام عن أنه كان يحضر إلى مائدته ، حين يأكل ، أربعة وعشرون

طبيباً كان عيسى الرّقي أحدهم. وكان من أطبائه الفلاسفة أبوالحسين كشكرايا، الذي كان " طبيباً عالماً مشهوراً بالفضل والإتقان لصناعة الطب، وجودة المزاولة لأعمالها " والذي استخدمه، كذلك، عضد الدولة البويهي لمّا بنى البيمارستان المنسوب إليه ببغداد. وهو معروف بصاحب " الحقنة " وبكناشه " الحاوي "؛ وكان من أنجب تلاميذ سنان بن ثابت بن قرّة[٧٨٨].

وكان الفارابي، أشهر العلماء الذين عرفهم بلاط سيف الدولة في الطب والفلسفة والموسيقى. ولقد مضى الكلام عنه مرتين: الأولى في فصل العصر الاجتماعي في الحديث عن الموسيقى وما كان لها من شأن في بلاط سيف الدولة حيث نقلت شيئاً من الحوار الذي دار بينه وبين الأمير في الموسيقى والذي عاب فيه مهرة هذه الصنعة في بلاطه؛ وقد قيل إنه هومخترع آلة " القانون "، وإنه كان " مطرب " الأمير. والأخرى، في موضوع " الفلسفة " من مبحث العلوم العقلية في هذا الفصل.

بقي أن يشار إليه هنا طبيباً، إذ قيل: " كانت له قوة في صناعة الطبّ، وعلم بالأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها ولا حاول جزئياتها"[٧٨٩]، وقيل: " صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم[٧٩٠].

من المهم أن يشار، في الفارابي، إلى ما يذهب إليه مصطفى الشكعة من أنه " كان عمدة للحياة العقلية عند بني حمدان "، وأن فلسفته " كان لها أثرها في الشعر الحمداني، وعند المتنبي على وجه الخصوص ". ففي حين يجعل الفارابي، في الأخلاق، للعقل والمعرفة المقام الأول، يقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ

هو أوّل، وهي المحلّ الثاني

وفي حين يُرجع الفارابي كلّ شيء إلى الأخلاق في مدينته الفاضلة، ويرى أن

أهل المدينة الجاهلة بلا عقل وفي مرتبة البهائم، يقول أبوالطيب:

لولا العقول لكان أدنى ضيغمٍ[٧٩١]

أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ

ويزيد الدارس نفسه: "ولعل الحكم الكثيرة التي شاعت في شعر الحمدانيين لم تكن هي الأخرى إلاّ صدىً لآثار الفارابي الفيلسوف وأفكاره التي نثرها في حلب ودمشق في ظلّ حكم الحمدانيين[٧٩٢].

ويذكر ابن النديم، في أسماء "الصنّاع"، اثنين كانا مع سيف الدولة، الأول شجاع ابن . . . . . .[٧٩٣] غلام بيطولس، والأخرى العجليّة ابنة العجلي الإسطرلابي غلام بيطولس أيضاً[٧٩٤].

وعاش في العهد الحمداني أبوالقاسم المجتبي عليّ بن أحمد الأنطاكي (ت ٣٧٦هـ) الذي استوطن بغداد إلى أن مات فيها، وكان من أصحاب عضد الدولة بن بويه المقدّمين عنده. اشتهر بعلم العدد والهندسة، وله فيهما تصانيف كثيرة، منها: التخت الكبير في الحساب الهندي، وكتاب الحساب على التخت بلا محو، وكتاب الموازين العددية، وكتاب الحساب بلا تخت بل باليد، وكتاب شرح إقليدس، وغيرها[٧٩٥].

وديونيسيوس المهندس الرياضي، والمنجّم الصابي البعلبكي[٧٩٦]، وأبوالقاسم الرقّي المنجّم الفلكي الذي كان ممن صحبوا سيف الدولة، وخدموه، واختصوا به، وحضروا مجالسه[٧٩٧]. وقمين بالإشارة أن سيف الدولة نفسه كان يؤمن بالتنجيم ويعمل به، إذ كتب إلى ابنه أبي المعالي، بعد أن قضى على ثورة رشيق النسيمي من وجوه طرسوس ودِزْبر الديلمي في أنطاكية عام ٣٥٤هـ ما يأتي: ". . . .، ثم عبرت الفرات، ونظرت في التقويم فوجدت الكسوف، فتأملته على حسب ما أوجبه علم النجوم والمولد، فكان غشاءً على أعدائنا فقصدتهم، وهم على مرحلة من حلب

بالناعورة"[٧٩٨].

وأورد محمد كرد علي قائمة كبيرة بعلماء الشام في الحديث والفقه والجغرافية والطب والنجوم والرياضيات والأدب شعره ونثره[٧٩٩]، منهم: إبراهيم بن عبدالرزاق الأنطاكي مقرىء أهل الشام، وعمر الأنطاكي وعبدالوهاب الكلابي من أهل الحديث، والمقدسي صاحب "أحسن التقاسيم". في الجغرافية وقد سبق الكلام عنه، وغيرهم. وكان من مشاهير هؤلاء ابن نباتة الفارقي عبدالرحيم بن محمد(٣٣٥ - ٣٧٤هـ) في الخطابة والوعظ. كان خطيب حلب وواعظها في بلاط سيف الدولة[٨٠٠]، وبها اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة، وقيل إنه سمع عليه بعض ديوانه. وقد أكثر من خطب الجهاد ليحضّ الناس عليه ويحثُّهم على نصرة سيف الدولة في غزواته الكثيرة[٨٠١]. وقد كان يعمل خطب الجهاد ويحسن في تصنيفها حتى إنه صعد في إحدى السنوات، المنبر وخطب الناس الذين كانوا يملؤون الجامع، فخرج أكثرهم من الجامع إلى الغزاة رأساً[٨٠٢]. ولا يقل عنه شهرة في الكتابة أبوالفرج عبدالواحد بن نصر المعروف بالببغاء(ت ٣٩٨هـ) الشاعر الكاتب، الذي كان "في عنفوان أمره وريعان شبابه متصلاً بسيف الدولة، مقيماً في جملته، ثم تنقلت به، بعد وفاة صاحبه، الأحوال في وروده الموصل وبغداد ومنادمته بهما الملوك والرؤساء، وإخفاقه مرّة وإنجاحه أخرى"[٨٠٣]. وصفه الثعالبي بأنه "واحد أفراد الدهر في النظم والنثر"[٨٠٤]، ويقول شوقي ضيف: "ولعل كاتباً في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبوالفرج"[٨٠٥].

ولمعت في بلاط سيف الدولة ومجالسه أسماء معروفة في اللغة والأدب أمثال أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني اللذين سبق الحديث عنهما، علمياً، في مبحث "علوم اللغة" من هذا الفصل، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي الطيب اللغوي.

فأمّا أبوبكر الخوارزمي، وقد تقدم شيء عنه، فيقال إنه كان "يقيم في شبيبته بحلب في بلاط سيف الدولة. ثم توجه إلى بخارى قاصداً أبا علي البلعمي وزير آل سامان، ولكنه فارقه سريعاً فقصد نيسابور وسجستان[٨٠٦] وأنه أقام بالشام مدة، وسكن بنواحي حلب، وكان مشاراً إليه في عصره" [٨٠٧].

أمّا أبوالطيب اللغوي الحلبي، عبد الواحد بن عليّ، فأصله من عسكر مُكْرم في خوزستان. قدم إلى حلب ليكون في رحاب سيف الدولة. كان من العلماء المبرّزين في اللغة وصاحب تصانيف ضاع أكثرها، ومما وصل إلينا منها وطبع: كتابا "الإبدال" و"الإتباع"[٨٠٨]، و«شجر الدرّ»، و«مراتب النحويين». ظلّ في حلب إلى أن قتله الدّمستق مع من قتل حين دخلها عام ٣٥١هـ، كانت بينه وبين ابن خالويه منافسات ومنازعات ومحاسدة[٨٠٩]، ربما كان سببها أن سيف الدولة أرسل إليه منْ يسأله عن مسائل في اللغة فلم يستطع أن يجيب عنها فوراً فاضطرب ودخل خزانته، وأخرج كتب اللغة، وفرّقها على أصحابه يفتشونها ليجيب عنها، في حين أن أبا الطيب اللغوي، الذي كان في المجلس، أجاب عنها فوراً[٨١٠]. وثمة رواية أخرى مفادها أن المتنبي وأبا الطيب اللغوي وابن خالويه كانوا ثلاثتهم بحضرة سيف الدولة، وقد جرت مسألة في اللغة بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه والمتنبي ساكت، غير أن الأمير دعاه للكلام، فتكلّم بما قوّى حجة أبي الطيب اللغوي وضعّف حجة الآخر، فما كان منه إلاّ ضرب المتنبي بمفتاح كان في كمّه، فغضب المتنبي لأن سيف الدولة لم ينتصر له، وكان ذلك أحد أسباب فراقه له[٨١١]. وكان ابن خالويه يلقّب أبا الطيب اللغوي بـ"قرموطة الكبرتل "أي "دحروجة الجُعل" [٨١٢].

وحُكي عن أبي إسحق الصابي أن رسولاً لسيف الدولة أمّ بغداد وطلب إليه، بتكليف من الأمير، شعراً، فأعطاه - بعد مدافعة - هذه الأبيات الثلاثة:

إن كنتُ خنتكَ في المودّة ساعةً

فـــذممتُ ســـيف الـــدولـــة المحـــمـــودا

وزعـــمـتُ أنّ لـه شـــريـــكـــاً في الـــعلا

وجـــحـــدتُه في فـضـــلـه الـــتـــوحـــيـــدا

قـسـمـاً لـو انّي حـالف بـغـمـوسـهـا[٨١٣]

لـــــغـــــريم ديْـنٍ مـــــا أراد مـــــزيـــــدا

ولما عاد الرسول، ودخل عليه الصابي مسلّماً أعطاه كيساً بختم الأمير مكتوباً عليه اسمه وفيه ثلاثمائة دينار[٨١٤]. ويقال إنه راسل المتنبي ليمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم، فامتنع خشية أن يتغيّر عليه الوزير المهلبي ـ لأن المتنبي رفض أن يمدحه – وقال له: " فإن كنت لا تبالي هذه الحال، فأنا أُجيبك إلى ما التمست، وما أريد منك مالاً، ولا عن شعري عوضاً "، فقال الصابي: " فتنبّهت على موضع الغلط، وعلمت أنه قد نصح، فلم أعاوده" [٨١٥].

ويُروى أن أبا الفرج الأصفهاني علي بن الحسين(٢٨٤ – ٣٥٦هـ) ألّف "الأغاني" في خمسين سنة، وكتبه مرة واحدة في عمره، هي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة[٨١٦]. ولما انتخب الوزير أبوالقاسم الحسن بن الحسن المغربيّ لسيف الدولة ما انتخب من "الأغاني" أعطاه ألف دينار[٨١٧]، فلما علم الصاحب بن عبّاد بذلك، قال: "لقد قصّر سيف الدولة، وإنه يستأهل أضعافها"، وقال عن الكتاب: " لقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره، ولا راقني منها سواه" [٨١٨].

أمّا الكتابة، فكان من كتاب الأمير الخاصين، كما تقدّم، أبومحمد الفيّاض، وجعفر بن ورقاء الشيباني، وأبوالفرج الببغاء، ووزيره ونديمه أبوعلي أحمد بن الحسين ابن منصور البازيار.

وأمّا الشعراء مقيمين كانوا أم وافدين، فما كان أكثرهم. ولقد قيل: " فلم يجتمع قطّ بباب أحد الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر"[٨١٩]. وقد شجعهم غير عامل على هذا، فالأمير نفسه وابن عمّه أبوفراس ونفر من آل حمدان كانوا شعراء، وكان سيف الدولة مثقّفاً محباً للعلم والأدب ذا صلة بهما مقدّراً لأهليهما، وكريماً يغدق الأموال على الأدباء بسخاء في مجالسه وغير مجالسه، وقد ضرب لهذه الغاية نقوداً خاصة، فضلاً عن أنه كاد يكون الوحيد الذي دافع عن ثغور الإسلام، وعن التنافس العلمي والأدبي بين أمراء الدول آنذاك.

عرف بلاط سيف الدولة من شيوخ الشعراء، غير المتنبي وأبي فراس، السريّ الرفّاء والخالديين، وأبا بكر الصنوبري، وأبا الفرج الببغاء الذي مرّ الكلام عنه، والنامي، والزاهي، والناشىء الأصغر؛ وكشاجم، والوأواء الدمشقي، وغيرهم.

حسبي أن أقف على أهم أخبار كلّ منهم ممّن له علاقة باتصاله بسيف الدولة:

فأمّا السريّ (ت ٣٦٢ أو٣٦٤هـ)[٨٢٠]، فموصليّ لحّاً، أُسلم صبيّاً في الرفائين بالموصل، فكان يرفو ويطرز إلى أن قضى باكورة شبابه، وظلّ في ضنك من العيش إلى أن خرج إلى حلب واتصل بسيف الدولة ومدحه كثيراً[٨٢١]. " فطلع سعده بعد الأفول، وبَعُد صيته بعد الخمول، وحسن موقع شعره عند الأمراء من بني حمدان ورؤساء الشام والعراق"، إذ مدح المهلبي الوزير وغيره. ونابذ الخالديين الموصليين، كذلك، وناصبهما العداوة، وادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره، ودسّ في شعر كشاجم، الذي كان ينسخه، أحسن شعرهما، ليزيد في حجم ما ينسخ ويشنّع عليهما.

أمّا الخالديان، فكانا من قرية " الخالدية " بالموصل[٨٢٢]، وكانا " يشتركان في قرض الشعر وينفردان[٨٢٣]. التحقا بخدمة سيف الدولة، وأصبحا من خواص شعرائه، وفي مقدمة ندمائه، ومن خزنة كتبه كما تقدم. وقد مدحاه فكان لهما نصيب في عطاياه

وهداياه[٨٢٤]، لكنهما انصرفا من عنده " على حدّ مغاضبة " كما يقول أبوالعلاء المعري[٨٢٥]. وكانت لهما مع السريّ الرّفاء ما مضى الكلام عنه قبل قليل.

وأمّا أبوبكر الصنوبري شاعر الطبيعة المعروف، فهوأنطاكي أصلاً، توفي عام ٣٣٤هـ أي بعد إمرة سيف الدولة على حلب بسنة واحدة، فقط[٨٢٦]. معنى هذا أنه لم يبق في خدمة الأمير سوى سنة واحدة كان فيها أحد خزنة كتبه. غير أن صلته بسيف الدولة كانت أقدم من توليه إمارة حلب، وله فيه قصائد تمدحه في غزوه الروم[٨٢٧].

وكان أبوالعبّاس الناميّ أحمد بن محمد الدّارمي المصيصي المختلف في وفاته[٨٢٨] من فحول شعراء العصر، وخواص شعراء سيف الدولة، إذ كان عنده تلوالمتنبي في المنزلة والرتبة[٨٢٩]؛ وكانت له مع المتنبي وقائع ومعارضات[٨٣٠]. أورد له الثعالبي شعراً في سيف الدولة وناصر الدولة[٨٣١].

أمّا أبوالقاسم الزّاهي عليّ بن إسحق بن خلف البغدادي (٣١٨ - ٣٥٢هـ)، فكان وصّافاً محسناً، كثير المدح والظّرْف[٨٣٢]. مدح سيف الدولة والوزير المهلبيّ وغيرهما من رؤساء وقته[٨٣٣]، وقال الشعر في جميع الفنون وإن لم يقع شعره إلى الثعالبي آنذاك[٨٣٤].

وأمّا الناشيء الأصغر عليّ بن عبدالله بن وصيف (٢٧١ - ٣٦٥ أو٣٦٦ هـ)، فقد مضى إلى الكوفة عام ٣٢٥هـ وأملى شعره في مسجدها الجامع والناس يكتبون عنه، وكان المتنبي أحدهم وهو لم يعرف بعد ولم يلقب بهذا اللقب[٨٣٥]. كان قد قصد سيف الدولة بحلب ومدحه، ولما عزم على مفارقته وقد غمره بإحسانه، قال:[٨٣٦]

أودّع لا أنّي أودّع طــــــائــــــعـــــا

وأُعطي بكرهي الدهر ما كنتُ مانعا

تَـحـمَّـلتَ عـنّـا بـالـصـنـائع والـعـلا

فـنـسـتـودع الـله الـعلا والـصـنـائـعـا

رعـــاكَ الـــذي يـــرعى بـــســيـــفكَ ديـــنَهُ

ولـــقّـاكَ روض الــعـيش أخــضـرَ يـانـعـا

وكان كشاجم[٨٣٧] أبوالفتح محمود بن الحسن المختلف في أصله وتاريخ وفاته ممن عملوا في خدمة سيف الدولة منجّماً ورئيساً للطبّاخين، ومن شعراء والده أبي الهيجاء عبدالله الحمداني[٨٣٨]، وكان صديقاً للصنوبري[٨٣٩].

كما كان الوأواء الدمشقي أبوالفرج محمد بن أحمد(وقيل محمد) الغسّاني[٨٤٠] (ت حوالي ٣٩٠هـ) ممن نال رضا سيف الدولة وحظوته بمدحه له في دمشق بين عام ٣٣٣ وعام ٣٣٥هـ.

وكان لابن نباتة السعدي(٣٢٧ - ٤٠٥هـ) في سيف الدولة " غرّ القصائد، ونخب المدائح، وكان قد أعطاه فرساً أدهم أغرّ محجّلاً" [٨٤١].

بقي غير هؤلاء عدد آخر من شعراء سيف الدولة كأبي عبدالله الخليع الشامي الذي " أدرك زمان البحتري، وبقي إلى أيام سيف الدولة فانخرط في سلك شعرائه"[٨٤٢]؛ والمغنم المصري، الذي قال عنه ابن النديم: " من شعراء سيف الدولة"[٨٤٣]؛ وعبدالله بن أبي الجوع[٨٤٤]؛ وأبي علي صالح بن رشدين الكاتب[٨٤٥].

إن أخبار سيف الدولة، كما يقول ابن خلّكان: " كثيرة مع الشعراء. . . ، وفي تعدادهم طول[٨٤٦] " حسبنا من ذكرنا، فليس المقام مقام استقصاء.

بيد أنه تحسن الإشارة إلى ما كان بين بعض من ضمّهم بلاط سيف الدولة من العلماء والأدباء من خصومات ومنازعات ألمعت إلى بعضها، لعل أكبرها ما كان بين قطبي الرحى أبي فراس والمتنبي وأنصار كلّ منهما. فالمتنبي يشهد لأبي فراس "بالتقدم

والتبريز، ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته، ولا يجترىء على مجاراته"، لكنه "لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان"؛ وقد فُسِّر هذا بالتهيب والإجلال، لا الإغفال والإخلال[٨٤٧]، وهوتفسير غريب! أما أبوفراس، فيروى عنه أنه قال لسيف الدولة: "إن هذا المتمشدق كثير الإدلال عليك، وأنت تعطيه كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرّق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خيرمن شعره". ويقال إن الأمير تأثر بهذا الكلام وعمل به، وكان المتنبي غائباً. ولما بلغته القصة دخل على سيف الدولة وأنشده أبياتاً معاتباً:

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً

فداه الورى أمضى السيوف مضاربا...

فأطرق سيف الدولة ولم ينظر إليه كعادته، فخرج المتنبي متغيّراً، وحضر أبوفراس وعدد من الشعراء، فبالغوا في الوقيعة في حق المتنبي الذي انقطع ونظم القصيدة التي مطلعها:

واحرَّ قلباه مِمَّن قلبه شبمُ

ومَن بجسمي وحالي عنده سقمُ

وجاء فأنشدها، وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقّه:

مالي أُكتّم حبّاً قد برى جسدي

وتدّعي حبّ سيف الدولة الأممُ؟!

فهمّ جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة، لشدة إدلاله وإعراض سيف الدولة عنه. وبدءاً من قوله:

يا أعدلَ الناس إلاّ في مُعاملتي

فيكَ الخصام وأنتَ الخصمُ والحكمُ

أخذ أبوفراس يتدخل مدّعياً سرقة المتنبي لبعض أبياته في القصيدة من غيره من الشعراء وينقد بعضها، لكن سيف الدولة غضب من كثرة مناقشة هذه القصيدة وكثرة دعاوي الشاعر فيها، وضَربه بالدواة التي بين يديه، فقال في الحال:

إنْ كــان ســرَّكم مــا قــال حــاســدنــا

فـــمـــا لجـــرحٍ إذا أرضـــاكُمُ ألمُ

فأُعجب الأمير بهذا البيت ولم يلتفت إلى ما قال أبوفراس فيه، بل رضي عن المتنبي في الحال، وأدناه إليه، وقبّل رأسه، وأجازه بألف دينار، ثم أردفه بألف أخرى، فقال المتنبي:

جــاءتْ دنــانــيــركَ مــخــتــومــةً

عــاجــلــةً ألــفــاً عــلــى ألفِ

أشــبــهــهــا فــعــلكَ في فــيــلقٍ

قــلــبــتَه صــفّــاً عــلــى صفِّ

وقال في آخرها:

شــرّ الــبلاد مــكــان لا صــديق بِهِ

وشـرّ مـا يـكـسب الإنـسـان مـا يـصمُ (٨٤٨)

وكان من أعداء المتنبي وحسّاده الآخرين أبوالعباس النامي الذي ظل سيف الدولة يميل إليه ميلاً شديداً إلى أن جاءه المتنبي، فمال عنه، فغاظه ذلك، واهتبل الفرصة مرّة، فسأله عن سرّ تفضيله " ابن عيدان السقا"(المتنبي) عليه، فأجابه بعد إلحاح: لأنّك لا تحسن أن تقول كقوله:

يــعــود مِنْ كل فــتحٍ غــيــرَ مُــفــتــخــرٍ

وقــد أغــذّ إلــيه غــيــر مُــحــتــفلِ

فنهض من بين يديه مغضباً، وهوالقائل : " كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي، وكنت أشتهي أن أكون سبقته إلى معنيين قالهما ما سُبق إليهما" [٨٤٩].

وحُكي عن أبي الفرج الببغاء : " كان أبوالطيب يأنس بي، ويشكو من سيف الدولة، ويأمنني على غيبته له، وكانت الحال بيني وبينه عامرة دون باقي الشعراء، وكان سيف الدولة يغتاظ من تعاظمه، ويجفو عليه إذا كلّمه، والمتنبي يجيبه في أكثر الأوقات، ويتغاضى في بعضها" [٨٥٠].

ورُوي عن ابن جني، الذي قرأ ديوان المتنبي عليه، أنه قرأ عليه قصيدته في كافور التي أوّلها :

أُغالب فيكَ الشوق والشوق أغلبُ

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجبُ

فلما بلغ إلى قوله :

ألا ليتَ شعري هل أقول قصيدةً

ولا أشتكي فيها ولا أتعتّبُ

وبي ما يذود الشعر عنّي أقلُّهُ

ولكنّ قلبي يا ابنة القوم قُلّبُ

قال للمتنبي : " يعزّ عليّ، كيف يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة ؟ "، فقال : " حذّرناه وأنذرناه فما نفع، ألست القائل فيه :

أخا الجود، أعطِ الناس ما أنتَ مالكٌ

ولا تُعطينْ للناس ما أنا قائلُ

فهو الذي أعطاني كافوراً بسوء تدبيره وقلة تمييزه[٨٥١] وترك الشاعرالأمير بعد تسع سنوات(٣٣٧ - ٣٤٦ هـ) بعد أن قال فيه نحو ثلث ديوانه، أوكما يقول طه

الفصــل الأخيـــر

العصر العلمي والأدبي

الازدهار: أسبابه ومظاهره

الأسباب:

فليس الهدف من هذا الفصل، كما هو شأن الفصلين الأولين، التأريخ الدقيق والشامل للحياة العلمية والأدبية في عصر أبي فراس الأكبر والأشمل القرن الرابع الهجري، فذا موضوع طويل كبير ممتد تتسع جلّ موضوعاته لأن يكتب في كلّ واحد منها كتاب أو أكثر، فضلاً عن الدراسات غير القليلة التي خصه المعاصرون بها من مثل: «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» لآدم متز، و«ظهر الإسلام» لأحمد أمين، و«تاريخ الإسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي»، (الجزء الثالث) لحسن إبراهيم حسن، و«النثر الفني في القرن الرابع الهجري»، لزكي مبارك؛ وعن الدراسات التي وقفها أصحابها على أدب دولة من الدول التي استقلت فيه - لا سيما الدولة البويهية ودولة بني حمدان - أو على أديب أو عالم من علمائها وما أكثرهم وأكثر ما كتب فيهم، الهدف، إذاً، هو عرض الملامح الكبر والسمات العامة والمفاصل المركزية والتنبيه عليها دون تفصيل إلا ما يقتضيه الموقع أحياناً.

قد يكون من المفارقة وغير المألوف أن يؤلف العصر السياسي والعصر العلمي والأدبي ثنائية عكسية، وأن يسيرا في خطين متوازيين: انقسام وضعف سياسي، وازدهار علمي. لقد كانت المملكة الإسلامية في هذا العصر «أعلى شأناً في العلم من القرون التي كانت قبلها. ولئن كانت الثمار السياسية قد تساقطت. . فالثمار العلمية قد نضجت[٥٠٠].

إذا ما تحرينا الأسباب نجد أن الانقسام نفسه جعل تلك الدول تتنافس تنافساً كبيراً في العلم والأدب وتشجع عليهما وتستقطب العلماء والأدباء من كل ناحية وصوب تكرمهم وتغدق عليهم وتفاخر بهم، ويفتح أمراؤها وقادتها ووزراؤها لهم أبواب قصورهم لتضمهم مجالسها العلمية والأدبية لا سيما أن عدداً من الخلفاء والأمراء والوزراء وأفراد الأسر الحاكمة كانوا أدباء. فالخليفة الراضي (ت ٣٢٩ هـ)، مثلاً، كان أديباً، شاعراً، فصيحاً، محباً للعلماء، وقد عُدَّ من فضائله أنه آخر خليفة له شعر مدوّن[٥٠١] ونقل عنه قوله: «فما أجد في زماني مياسير من الكتاب والتجار يجمل بمثلهم الملك ويلجأ المهم إليهم»[٥٠٢]

ومن مظاهر التنافس المشوب بالمفاخرة والمباهاة والنقد ما كان يتباهى به ابن سعدان (الحسين بن أحمد) وزير صمصام الدولة البويهي من أن جلساءه من العلماء والأدباء لا يناظرهم أحد ممن كانت تضمهم مجالس الوزير المهلبي والوزير ابن العميد والصاحب بن عباد. يقول: «ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير.. أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحد من هؤلاء؟... أوأن جميع أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون، وهو فيما بينهم يصيح ويقول: قال شيخنا أبوعلي وأبوهاشم؟».

وكان التنافس بين وزراء الدولة الواحدة في أقاليمهم سبباً من أسباب ازدهار العلم والأدب ورواجهما، كذاك الذي بين وزراء آل بويه في العراق: الوزير المهلبي وابن سعدان وسابور بن أردشير أنفسهم، والذي كان بين هؤلاء وزملائهم في فارس الصاحب بن عباد وابن العميد، فضلاً عن اختلاف ميولهم ونزعاتهم الفكرية والأدبية.

ففي حين كان ميل ابن سعدان مع الفلسفة، كان هوى ابن العميد مع العلم

والأدب معاً وهوى الصاحب بن عباد والوزير المهلبي مع الأدب فقط، أما سابور بن أردشير فكان شغوفاً بالكتب جداً إذ أنشأ ببغداد عام ٣٨١ هـ مكتبة تحوي أكثر من عشرة آلاف مجلد ظلت قائمة إلى أن احترقت عام ٤٥٠هـ في عهد طغرل بك[٥٠٣]

ومن الأسباب أن انفصال الدول عن جسم الدولة العباسية الكبرى الواحدة أدّى إلى أن تستقل في أموالها لا ترسله إلى بغداد بل تتصرف فيه كما تشاء وتنفقه على شؤونها الخاصة، وقد نال العلم والأدب وأهلوهما فيها أكثر مما كانوا ينالونه تحت راية الدولة الأم الواحدة[٥٠٤]

وكان لا تخاذ بعض الفرق كالمعتزلة والإسماعيلية مثلاً، الثقافة والعلم وسائل لتحقيق أهدافها السياسية والدينية وللجدل الذي احتدم بينها وبين علماء أهل السنة آثار بعيدة كذلك[٥٠٥].

وساعد على الازدهار، أيضاً، رحلات العلماء والأدباء وتنقلاتهم في الأمصار على الرغم من مشاق السفر والرحلة وفقر كثيرين منهم، يستوي في هذا أهل الحديث وعلماء النحو واللغة والشعراء، كأولئك الذين كانوا يقصدون بلاط سيف الدولة مثلاً، والوراقون وتجار الكتب لا سيما من كانوا يحملون كتب المشرق إلى المغرب[٥٠٦].

ومن الطبيعي أن يكون الازدهار نسبياً بين هاتيك الدول ومراكز العلم المختلفة، وإن كان نصيب بعضها من الاهتمام بالعلوم والآداب ونشرهما قليلاً. فدولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ) بالمغرب الذين كانت عاصمتهم فاس، ثم «البصرة» بأقصى المغرب التي قضت حوالي نصف عمرها في هذا العصر ولم تتح لحكامها فرصة توجيه الجهود لنشر العلوم والفنون والأخذ بأسباب الحضارة، لأنه لم يكتب لها الاستقرار الذي يمكنها من ذلك[٥٠٧]. ولو وازنا بين هذا وشيء مما كان في الدولة الأموية بالأندلس

(١٣٨-٣٩٧هـ) لوجدنا أن الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) الذي خلف أباه عبدالرحمن الناصر، قد نعم بالهدوء والاستقرار من جراء فتوحات أبيه وانتصاراته وتوطيده أركان الدولة. وتمكن لشغفه بالعلم والاطلاع والقراءة، أن يجمع كثيراً من الكتب التي كان يرسل في طلبها من الأمصار المعروفة بها كافة حتى وصل عدد الكتب في خزانة كتبه بقرطبة إلى أربعمائة (٤٠٠) ألف كتاب. ويقال إنه قرأ كثيراً منها وعلق عليها. وبلغ من شغفه بالكتب أنه طلب إلى أبي الفرج الأصفهاني صاحب «الأغاني» أن يبيعه إياه حين علم بظهوره ودفع له ثمنه ألف دينار ذهباً. ويقال إن الأصفهاني بعث إليه بالكتاب قبل أن يرسله إلى العراق[٥٠٨].

أما جزيرة العرب، فقد تعاورت عليها أسباب وأحداث كثيرة أهمها زحف القرامطة على مكة وعيثهم فساداً في البلاد، ومنع الحجاج من زيارة البيت الحرام أونهبهم أوالتنكيل بهم، مما أضعف شأنها وجعلها في شبه عزلة وأخرها مادياً وعلمياً[٥٠٩]. وقد أسهب المقدسي في الكلام عنها في ذلك العصر، ومما قال: «والحجاز بلد فقير قحط»[٥١٠]، ومنه "ومذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء وقرْح سنّة، وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عُمان شراة غالية، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وهجر وصعدة شيعة، وشيعة عمان وصعدة. . وسواحل الحرمين معتزلة إلا عمان، والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبي حنيفة والجوامع بأيديهم. . والعمل بهجر على مذهب القرامطة.

أهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلاّ بصحار فإن نداهم وكلامهم بالفارسية، وأكثر أهل عدن وجُدّة فرس إلاّ أن اللغة عربية. . . وجميع لغات(لهجات) العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة. القراءات بمكّة على حرف ابن كثير، وباليمن قراءة عاصم ثم

قراءة أبي عمرو مستعملة في جميع الإقليم . . . "[٥١١].

المظاهر:

كثيرة هي مظاهر الازدهار العلمي والأدبي بضروبها المختلفة في هذا العصر، أهمها باختصار :

(١) استمرار حركة الترجمة:

لقد تراجعت حركة الترجمة، بعد نهضتها الكبرى في عهد الخليفة المأمون مباشرة، لا سيما في عهدي المعتصم والواثق حتى عهد المتوكل الذي أعاد إليها بعض ما كانت عليه، لكنها ضعفت بعده وظل الضعف يلازمها حتى مطالع القرن الرابع الذي يمثل نصفه الأول مرحلة جديدة من مراحل تطورها في العلوم التي كانت عليها في عهد المأمون، وإن كانت حركة التدوين والتأليف أوسع منها ونتيجة مباشرة لها كما يظهر، مثلاً، في أعمال أبي بكر الرازي وأبي نصر الفارابي والشيخ الرئيس ابن سينا[٥١٢]. وعلى الرغم مما واجه «بيت الحكمة» من ظروف مختلفة من الرعاية أوعدمها بعد عهد المأمون، فإنه ظلّ له دوره في الترجمة التي ظل رعاة حركتها مستمرين في فاعليتها، وظل بيت الحكمة مركزاً مهماً من مراكز الترجمة في الدولة العباسية إلى أن استولى المغول على بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ)، وخربوا ذلك المركز ودمروا ما فيه[٥١٣].

من أشهر المترجمين والنقلة في هذا العصر:

١ - أبوبشر متّى بن يونس (ت ٣٢٨ هـ) الذي كان يترجم من السريانيّة إلى العربية، لأنه لم يكن يعرف اليونانية، ممّا خلفته مدرسة حنين بن إسحق وتلامذته من ترجمات يونانية إلى السريانية. ومن ترجماته: كتاب "الشعر"، ومقالة "اللام" المقالة

الحادية عشرة بتفسير الإسكندر من كتاب " الحروف "(الإلهيات)، وكتاب " الحس والمحسوس "، وكتاب " الكون والفساد "، وكلها لأرسطو[٥١٤].

٢ – سنان بن ثابت بن قرّة(ت ٣٣١هـ)، كان معروفاً بغير علم أهمها علم الهيئة والحساب والطب إذ كان طبيب المقتدر والقاهر وبجكم التركي، وقد صار رئيساً للأطباء في عهد المقتدر الذي كلفه امتحان جميع الأطباء قبل ممارسة المهنة، وهوصاحب فكرة إنشاء "البيمارستان المقتدري ". نقل إلى العربية " نواميس هرمس "، والسور والصلوات التي يصلي بها الصابئة، وكتباً أخرى[٥١٥].

٣ – يحيى بن عديّ(ت ٣٦٣ أو٣٦٤ هـ). آلت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه، وقرأ على متّى بن يونس والفارابي وجماعة في وقتهم. كان جيد المعرفة بالنقل وقد نقل من السريانية إلى العربية، وكان من النسّاخ المشهورين إذ كان يكتب في اليوم والليلة في حدود مئة ورقة. وهوصاحب هذين البيتين:

ربّ ميْتٍ قد صار بالعلم حيّاً
ومُبَقّى قد مات جهلاً وعيّا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً
لا تعدّوا الحياة في الجهل شيّا

اشتهر الرجل بترجمة الآثار اليونانية الفلسفية عن السريانية لا سيما أعمال أرسطو، وبمراجعة عدد من ترجمات غيره، فضلاً عن مؤلفاته هو التي أفاد فيها مما كان يترجم ويراجع. ومن أهم ترجماته: " طوبيقا"، و" السماء والعالم "، و" الآثار العلوية»، و" الإلهيات "(الحروف)، و" سوفسطيقا "[٥١٦]. على الرغم من كل ذلك، فقد قال فيه أبوحيان التوحيدي:[٥١٧] " . . . كان شيخاً ليّن العريكة، فروقة[٥١٨]، مشوّه الترجمة، رديء العبارة، لكنه كان متأنّياً في تخريج المختلفة"[٥١٩].

٤ – عيسى بن زرعة(ت ٣٩٨هـ). وصفه ابن النديم بأنه «أحد المتقدمين في علم المنطق وعلم الفلسفة، والنقلة (المجودين)»[٥٢٠]، كان من الملازمين ليحيى بن عديّ،

ومن المفتونين بالتجارة إلى بلاد الروم. كان الناس يعظمونه للعلم وبراعته في علم المنطق والفلسفة اللذين له مصنفات معروفة فيهما.

كان على معرفة تامة بالعربية والسريانية التي ترجم منها. من أهم ترجماته: كتاب الحيوان لأرسطو، وكتاب منافع أعضاء الحيوان بتفسير يحيى النحوي، وكتاب «خمس مقالات من كتاب نيقولاس في فلسفة أرسطاليس"، وكتاب "سوفسطيقا النص»[٥٢١] لأرسطاليس[٥٢٢].

أثنى عليه التوحيدي وانتقده، فقال:[٥٢٣] "... حسن الترجمة، صحيح النقل، كثير الرجوع إلى الكتب، محمود النقل إلى العربية، جيد الوفاء بكلّ ما جلّ من الفلسفة؛ ليس له في دقيقها منفذ، ولا له من لغزها مأخذ. ولولا توزّع فكره في التجارة، ومحبته في الربح، وحرصه على الجمع، وشدّته على المنع، لكانت قريحته تستجيب له، وغائمته[٥٢٤] تدر عليه؛ لكنه مبدّد مندّد، وحبّ الدنيا يعمي ويصم».

(٢) مجالس العلم والأدب:

كثرت في هذا العصر المجالس التي كان يعقدها الأمراء والوزراء للتباحث في شؤون العلم والأدب المختلفة. فعضد الدولة البويهي(٣٣٨ - ٣٧٢هـ) "كان - على ما مُكّن له في الأرض، وجُعل له من أزمّة البسط والقبض، وخُصّ به من رفعة الشان، وأُوتي من سعة السلطان - يتفرغ للأدب، ويتشاغل بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء»[٥٢٥]. وكان "ينادم بعض الأدباء الظرفاء، ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات"[٥٢٦].

وكان الوزير المهلبي (٢٩١ - ٣٥٢هـ) وزير معزّ الدولة البويهي يسأل، في مجالسه، جلساءه وندماءه عن بعض الألفاظ والقضايا والمسائل الأدبية، وقد أُثني على "حسن مجلسه، وخفة روح أدبه، وإنشاده للصنوبري وطبقته ما طاب به الوقت، وهشت له النفس"[٥٢٧]. ورُوي أنه كان "يكثر الحديث على طعامه وكان طيب

الحديث، وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتّاب والندماء" [٥٢٨].

أمّا أبوالفضل بن العميد(ت ٣٥٩ أو٣٦٠ هـ) وزير ركن الدولة البويهي، فقد كان يختص به، وينادمه حاضراً عدد من الشعراء والكتّاب والعلماء كأبي العلاء السروي، وأبي الحسين بن فارس، فكان يقارضهم[٥٢٩]. وكان يخدمه الكبراء، وينتجعه الشعراء، وهوالذي قال فيه المتنبي عند صدوره عن كافور الإخشيدي[٥٣٠]:

مَنْ مبلغ الأعراب أنّي بعدها[٥٣١]
شاهدتُ رِسْطاليسَ والإسكندرا
وسمعتُ بطليموس دارس كتْبِهِ
مُتَملّكاً مُتَبدّياً مُتَحضّرا[٥٣٢]

وحكى الصاحب بن عباد أنه كان يحضر بعض مجالسه في رمضان وقد حضر الفقهاء والمتكلمون للمناظرة[٥٣٣].

وأمّا الصاحب (٣٢٦ - ٣٨٥هـ) نفسه، بقطع النظر عمّا شنّعه التوحيدي عليه وعلى أستاذه ابن العميد. فقال عنه الثعالبي: "وكانت أيامه للعَلويّة والعلماء، والأدباء والشعراء. وحضرته محطّ رحالهم، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله مصروفة إليهم، وصنائعه مقصورة عليهم" [٥٣٤]. وذكر أن مجلسه صار " مجمعاً لصوْب العقول، وذوب العلوم، ودرر القرائح... واحتف به من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من يربى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني...". وذَكَر كثيرين ممن جمعتهم حضرته بأصبهان والري وجرجان، منهم: أبوالحسن السلامي، وأبوبكر الخوارزمي، والقاضي الجرجاني، وأبوالقاسم الزعفراني، وأبوالحسن الجوهري، وأبودلف الخزرجي»[٥٣٥].

وكان يعقوب بن كِلّس (٣١٨ - ٣٨٠ هـ) وزير العزيز بن المعزّ صاحب مصر «يحب أهل العلم، ويجمع عنده العلماء، ورتّب لنفسه مجلساً في كلّ ليلة جمعة يقرأ فيه بنفسه مصنفاته على الناس، وتحضره القضاة والفقهاء والقرّاء والنحاة وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث. فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح[٥٣٦]، وكان من جلسائه الحسين بن عبدالرحيم الزلزالي صاحب كتاب "الأسجاع". كان ينصب كلّ يوم خِواناً[٥٣٧] لخاصته من أهل العلم والكتّاب وخواص أتباعه ومن يستدعيه، وكان في داره قوم يكتبون القرآن، وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب، حتى الطبّ، ويعارضون ويشكّلون المصاحف وينقطونها" [٥٣٨].

صنف ذلك الوزير كتاباً في الفقه مما سمعه من المعزّ وولده العزيز، وجلس في رمضان عام ٣٦٩هـ مجلساً حضره العام والخاص، وقرأ فيه الكتاب بنفسه على الناس، وكان الوزير ابن الفرات أحد من حضروا ذلك المجلس[٥٣٩].

امّا سيف الدولة الحمداني(٣٠٣ - ٣٥٦ هـ) "فلم يجتمع قطّ بباب أحد من الملوك ـ بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر". كان خطيبه ابن نباتة الفارقي، ومعلمه ابن خالويه، ومطربه الفارابي، وطبّاخه كشاجم، وخزّان كتبه الخالديين والصنوبري، ومُدّاحه المتنبي والسلامي والوأواء الدمشقي والرّقّاء والناميّ وابن نباتة السعدي والصنوبري، وغيرهم" [٥٤٠]. لا غرو في هذا، فقد كان أديباً شاعراً محبّاً لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به. يُحكى أن عليّ بن محمد الشمشاطي اختار من مدائح الشعراء له عشرة آلاف بيت[٥٤١]، وأنه، لكثرة مُدّاحه "كان قد أمر بضرب دنانير للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل، وعليه اسمه وصورته» [٥٤٢].

كان مجلسه، كما يقول ابن خلكان "مجمع الفضلاء في جميع المعارف" [٥٤٣]،

وكان ينظم فيه، أحياناً، شعراً ويطلب إلى جلاسه من الشعراء أن يجيزوه[٥٤٤] كالذي جرى بينه وبين أبي فراس، وأن ينشدوه القصائد التي كان معجباً بها كطلبه إلى المتنبي أن ينشده الميمية التي مطلعها:

علـى قَـدْرِ أهل الـعـزم تـأتي الـعـزائمُ

وتـأتي عـلـى قـدر الـكـرام المـكـارمُ

وكان ذا ذائقة نقدية ينقد بها شعر مادحيه، فقد انتقد على أبي الطيب، على قري النقد الذي وجّه إلى بيتين لامرئ القيس، ترتيب شطور هذين البيتين من القصيدة نفسها:

وقـفتَ ومـا في المـوت شكٌ لـواقفٍ

كـأنّكَ في جـفن الـردى وهـو نـائمُ

تـمـرّ بك الأبـطـال كَـلْـمى هـزيمـةً

ووجـهكَ وضّـاحٌ وثـغـركَ بـاسمُ

ووجّهه إلى أن يجعل عجز الثاني عجزاً للأول ويحل هذا مكانه، فانصاع المتنبي، وقال: " أيّد اللّه مولانا، إن صحّ الذي استدرك على امرئ القيس هذا كان أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا. ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك" [٥٤٥].

روي عن ابن خالويه الحسين بن أحمد(ت ٣٧٠هـ)، وقد كان آل حمدان «يكرمونه ويدرسون عليه ويقتبسون منه»، روي عنه: " دخلت يوماً على سيف الدولة ابن حمدان، فلمّا مثلت بين يديه، قال لي: اقعد، ولم يقل اجلس، فتبيّنت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب، واطلاعه على أسرار كلام العرب ". لقد ذكر ابن خالويه هذا، لأن المختار عند أهل اللغة والأدب أن يقال للقائم: اقعد، وللنائم والساجد: اجلس[٥٤٦]. وروي عنه، كذلك، أن سيف الدولة كان يسأل من بحضرته من العلماء،

أحياناً، أسئلة في النحو والفقه واللغة[٥٤٧].

وكان لوزير سيف الدولة أبي أحمد بن نصر البازيار (ت ٣٥٢ هـ) مجلس أيضاً كان يتحاور فيه ابن خالويه والمتنبي عن بعض الشعراء كأشجع السلمي وأبي نواس.[٥٤٨] ومن مجالس ذلك العصر مجلس الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (ت٣٩٤هـ)، الذي انتزع الملك من هشام بن الحكم في الأندلس[٥٤٩] والذي كان يحب العلوم والأدب ويشجع أهليهما. قيل إنه: "كان يعقد طول أيام مملكته في كل أسبوع مجلساً يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة[٥٥٠]"، وإنه "خطّ بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره يدرس فيه، ويتبرك به[٥٥١]". وفي أخباره ما يُنبي عن وجوه من الشبه بينه وبين سيف الدولة الحمداني، فقد كان المنصور كثير الغزوات حتى إنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرّة ضخمة، عهد بتصييره في حَنُوطه[٥٥٢]. وكان يحملها حيث سار مع أكفانه توقعاً لحلول منيته[٥٥٣]. وكان يسأل، في مجالسه، بعض جلسائه لا سيما الوافدين منهم، كأبي العلاء صاعد البغدادي اللغوي (ت ٤١٧هـ)، عن بعض المسائل الأدبية اختباراً لهم وتأكداً من معارفهم، كما كانت تُتناول فيها مسائل علمية وأدبية شتّى بين الجلوس، فضلاً عن المناظرات[٥٥٤].

ومن علماء هذا العصر من جعل من بيته مقيلاً لأهل العلم، كأبي سليمان السجستاني المنطقي (محمد بن طاهر بن بهرام) المتوفى في حدود عام ٣٨٠ هـ. يقول القفطي: "قرأ على متّى بن يونس وأمثاله، وتصدَّر لإفادة هذا الشأن، وقصده الرؤساء والأجلاء. وكان منزله مقيلاً لأهل العلوم القديمة، وله أخبار وحكايات وسؤالات وأجوبة في هذا الشأن. وكان عضد الدولة . . . يكرمه ويفخمه . . . ، وكان أبوحيّان التوحيدي من بعض أصحابه المعتصمين به . . . ، ولأجله صنّف كتاب الإمتاع والمؤانسة نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبدالله بن العارض الشيرازي عندما

تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة" [٥٥٥].

وحين سئل أبوحيان التوحيدي عن درجته في العلم والحكمة وعن محلّه بين علماء عصره من مثل: ابن زرعة، وابن الخمّار (الحسن بن سوار الطبيب الفيلسوف)، وابن السّمح (من مناطقة بغداد)، والقومسي (أبي بكر الفيلسوف)، ومسكويه، ويحيى بن عدي، و. . . .، قال: " فإنه أدقّهم نظراً، وأقعرهم غوصاً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدّرر، وأوقعهم على الغُرر، مع تقطع في العبارة، ولُكنة ناشئة من العجمة وقلّة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكنز»[٥٥٦]. وذكر التوحيدي كثيراً من مقابسات أبي سليمان مع علماء عصره مما كان يدور في مجالسه عن المنطق[٥٥٧] والنجوم مثلاً[٥٥٨]، فضلاً عن مقابسات بعض من ذكروا من أعلام عصره[٥٥٩].

ولم يكن بلاط السامانيين ببخارى يخلو من تلك المجالس، بل ربما كان يعقد فيها ما قد يناظر ما ندعوه الآن " الندوات " و" المهرجانات " و" المؤتمرات ". يقول الثعالبي: «كانت بخارى في الدولة السامانيّة(٢٦٦ - ٣٣٩هـ) مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر" [٥٦٠]، ويُروى عن ابن أبي الحسن موسى الموسوي أنّ والده قد اتخذ في عهد الأمير نصر الثاني بن أحمد الساماني(٣٠١ - ٣٣٠هـ) دعوةً جمع فيها أفاضل غرباء بخارى من العلماء والأدباء من مثل أبي علي الزوزني، وأبي إسحق الفارسي، وأبي القاسم الدينوري، وعلي بن هارون الشيباني " فلما استقرّ بهم مجلس الأنس أقبل بعضهم على بعض يتجاذبون أهداب المذاكرة، ويتهادون رياحين المحاضرة، ويقتفون نوافج الأدب، ويتساقطون عقود الدرّ، وينفثون في عقد السحر ". وقد أوصى الموسوي ابنه بأن يجعل من ذلك

اليوم المشهود المشهور " تاريخاً لاجتماع أعلام الفضل وأفراد الوقت " ، وأن يذكره بعده «في أعياد الدهر ، وأعيان العمر ، فما أراك ترى على السنين أمثال هؤلاء مجتمعين " ؛ وصدق حدسه بقول الابن : " فكان الأمر على ما قال ، ولم تكتحل عيني بمثل ذلك المجمع " (٥٦١) .

وكان إلى جانب كل ذلك مجالس أدبية كثيرة غير رسمية تعقد في منازل الأصدقاء والأغنياء والأدباء والعلماء يتداولون فيها العلوم ، ويتجاذبون المُلح والنوادر ، ويصفون ما يعرض من أمور ومسائل اجتماعية شعراً(٥٦٢) . ومن تلك المجالس ، مثلاً ، مجلس أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبدالله(٢٨٠ - ٣٦٨ هـ) الذي كان يحضره أبوحيان التوحيدي وغيره(٥٦٣) .

(٣) الكتب ودور العلم:

كان هذا العصر ، كما يقول آدم متز عصر " تنظيم المعارف(٥٦٤) " ، وكانت العناية بالمكتبات وجمع الكتب وإنشاء المعاهد ودور العلم وحلقات الدرس كبيرة يتبارى فيها الملوك والأمراء والوزراء والعلماء والأدباء .

لم تكن المساجد الكبرى لتخلومن الكتب والمكتبات ، إذ كان من ديدن العلماء وغير العلماء أن يقفوها عليها . فأبونصر المنازي (نسبة إلى منازجِرد)(٥٦٥) أحمد بن يوسف السّليكي المتوفى عام ٤٣٧هـ وزير أبي نصر أحمد بن مروان الكردي صاحب ميّافارقين وديار بكر ، وقد كان فاضلاً شاعراً واجتمع بالمعري في معرّة النعمان ، " جمع كتباً كثيرة ، ثم وقفها على جامع ميّافارقين وجامع آمد " وعرفت بـِ " كتب المنازي»(٥٦٦) .

وكانت لعدد من حكّام هذا العصر في مختلف مراكزه السياسية والعلمية والثقافية

خزائن كتبهم التي يعنون بها ويفاخرون. فقد كانت للخليفة العزيز بالله (ت٣٨٦ هـ) خزانة كتب كبيرة تضم ما يزيد على مئتي ألف كتاب في إحدى الروايات؛ منها عدد من نسخ كتاب " العين " للخليل بن أحمد وتاريخ الطبري، وكان من بين تلك النسخ ما هو بخط الخليل والطبري نفسيهما، كما كان فيها نسخ من " جمهرة " ابن دريد[٥٦٧]. وكان يتولى أمرها أبوالحسن علي بن محمد الشّابشتي(ت ٣٨٨ أو٣٩٠هـ) المعروف بكتابه «الديارات»، الذي كان أثيراً عند العزيز إذ جعله أيضاً " دفتر خوان يقرأ له الكتب ويجلسه وينادمه. وكان حلوالمحاورة، لطيف المعاشرة" [٥٦٨].

أمّا في زمن الدولة الأموية بالأندلس، فقد مضى الكلام في مطالع هذا الفصل عمّا كان من أمر شغف الحكم الثاني المستنصر بالكتب، وأمر خزانة كتبه بقرطبة.

وأمّا البويهيون، فقد اطلع المقدسي على خزانة كتب عضد الدولة، ووصفها بأنها "حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلّها إلاّ وحصّله فيها ". وقد كان فيها فهارس لأسامي الكتب[٥٦٩].

وكانت للأمير نوح بن نصر الساماني(ت ٣٤٣هـ) مكتبة كبيرة " عديمة المثل، فيها من كل فنّ من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته " هي التي دخلها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا(٣٧٠ - ٤٢٨هـ) حين استدعاه الأمير لمعالجته من مرضٍ أصابه، حتى قيل: " فظفر أبو علي فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها وحصّل نُخب فوائدها واطلع على أكثر علومها. وكان يقال: إن أبا عليّ توصّل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ما حصّله منها وينسبه إلى نفسه»[٥٧٠].

وكانت لوزرائهم مكتبات أيضاً، فقد مضى الحديث - في بدايات هذا الفصل

كذلك ـ عن شغف سابور بن أردشير ومكتبته . أمّا الصاحب بن عبّاد ، فيحكى أنه لمّا كتب إليه الأمير الساماني نوح بن منصور سرّاً ليستوزره ويفوّض إليه أمور مملكته ، كان مما اعتذر به أنه " يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل ، فما الظن بما يليق بها من التجمل ؟"[٥٧١] . وقد دعّم أبوالحسن البيهقي هذا بقوله : " بيت الكتب الذي بالرّي دليل على ذلك ، بعدما أحرقه السلطان محمود بن سُبُكتكين . فإنّي طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك الكتب عشرة مجلّدات ، فإن السلطان محموداً لما ورد إلى الريّ ، قيل له : إنّ هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع ، فاستخرج منها كلّ ما كان في علم الكلام ، وأمر بحرقه»[٥٧٢] .

قد تكون هذه الفعلة ، وغيرها كذلك ، مما حدا بالمستشرق إدوارد براون أن يقول عن السلطان محمود : «وطالما وصف الكتّاب محموداً الغزنوي بأنه كان نصيراً للأدب والفنون ، ولكنه في رأيي أقرب إلى أن يوصف بأنه من كبار " الخاطفين " لرجال الآداب والفنون ؛ وكثيراً ما كان يعاملهم في النهاية معاملة تنطوي على كثير من الازدراء والامتهان " . واستشهد بعدم مكافأته الفردوسي صاحب " الشاهنامة " الذي عانى في نظمها ثلاثين سنة ، ومعاملته السيئة لأبي الريحان البيروني ، وملاحقته الشيخ الرئيس ابن سينا لرفضه التوجه إليه حين طلبه فيمن طلب من العلماء والأدباء من " مأمون بن مأمون " أمير خوارزم[٥٧٣] .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كان السلطان محمود الغزنوي (٣٦١ – ٤٢٢ هـ) ، الذي حكم من عام ٣٨٨هـ إلى قبل وفاته بسنة ، ذا علم ومعرفة ، وصاحب كثير من الكتب والفنون ، وقد قصده العلماء من أقطار البلاد فكان يقبل عليهم ويكرمهم ، ويحسن إليهم[٥٧٤] .

وأمّا ابن العميد ، فكان مسكويه المؤرخ خازن كتبه التي " كانت كثيرة ، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب " . ولمّا نهبت الخراسانيّة داره بالريّ عام ٣٥٥

هـ، عزّت عليه الكتب، لأنها " هي التي لا عوض عنها " أمّا سائر الخزائن " فيوجد منها عوض "، لكنها سلمت بأجمعها من بين جميع ما له، فكان هذا سبب فرحته وحبوره واسفرار وجهه"[٥٧٥].

وسلف الكلام عن أنه كانت لسيف الدولة الحمداني خزانة كتب، وكان خزنتها الخالديين[٥٧٦]، والصنوبري الذي كان جدّه الحسن صاحب بيت الحكمة للمأمون[٥٧٧].

وثمة أخبار عمن كانوا يقتنون أعداداً كثيرة من الكتب من مثل أبي بكر الصولي محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ) الذي كان صاحب " خزانة أفردها لما جمع من الكتب المختلفة، ورتبها أجمل ترتيب؛ وكان يقول لأصحابه:

كل ما في هذه الخزانة سماعي». وإذا ما أراد مراجعة كتاب منها، قال: يا غلام هات الكتاب الفلاني، فسمعه يوماً أبوسعيد العُقيلي يقول ذلك، فأنشد:

إنمّــــا الـــــصـــــوليّ شــــيـخٌ

أعـــــلـم الـــــنـــــاس خـــــزانـهْ

إنْ ســــألــــنــــاه بــــعــــلـمٍ

نــــبــــتــــغي عــــنـه الإبـــانـهْ

قـــال: يـــا غـــلـــمـــةُ، هـــاتـــوا

رزمــــــة الـــــعــــــلـم فلانـهْ[٥٧٨]

ومن مثل، محمد بن نصر الحاجب، وحبشي بن معز الدولة، والقاضي أبي المطرف قاضي الجماعة بقرطبة، الذي جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس. وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً، وكان لا يتردد في شراء أيّ كتاب حسن مهما غلا ثمنه، ولم يكن يعير كتاباً قط، بل كان يطلب إلى النسّاخ لينسخوا نسخة من أي كتاب يلحف طالبه باستعارته. وقيل إن أهل قرطبة قضوا عاماً كاملاً في بيع كتبه بمسجده، وكان ثمنها أربعين ألف دينار[٥٧٩].

وقد وازن آدم متز بين أعداد الكتب في الدولة الإسلامية آنذاك وأعدادها في خزائن كتب الغرب في المدة ذاتها، فوجد أن البون شاسع لقلة الأعداد في مكتبات الغرب[٥٨٠].

وكان يرفد في نشر العلم، خزائن الكتب والمكتبات تلك، معاهد علمية أخرى تزيد عليها في أنها كانت تُعنى بالتعليم إلى جوار ما فيها من كتب، وتجري الأرزاق على من يلتحق بها، وكأنها كانت تمهيداً للمدارس التي أنشئت في القرون اللاحقة، لا سيما القرن الخامس الهجري، كالمدارس النظامية التي أنشأها نظام الملك الطوسي في بغداد ونيسابور وأصفهان وهراة وغيرها من المدن التي كانت خاضعة لسلطانه.

كان أبوالقاسم الفقيه الشافعي جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي (٢٤٠ - ٣٢٠ هـ) شاعراً أديباً فاضلاً ناقداً للشعر كثير الرواية، وكان "يفْضُل في العلوم سواه، متقدماً في الفقه معروفاً به، قويّاً في النحو فيما يكتبه، عارفاً بالكلام والجدل مبرّزاً فيه، حافظاً لكتب اللغة، راوية للأخبار، بصيراً بالنجوم، عالماً مطّلعاً على علوم الأوائل"[٥٨١]، وكانت لذلك الفقيه ببلده الموصل "دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كلّ طالب للعلم، لا يُمنع أحد من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب، وإن كان معسراً أعطاه ورَقاً وورِقاً[٥٨٢]. تُفتح كلّ يوم، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه، ويجتمع إليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته. . . ، ثم يملي ما حفظه من الحكايات المستطابة، وشيئاً من النوادر المؤلفة، وطَرَفاً من الفقه وما يتعلق به»[٥٨٣].

ويذكر المقدسيّ أن أبا عليّ بن سوّار الكاتب (ت ٣٥٤ هـ) أحد رجالات عضد الدولة أنشأ في (رام هرمز) "دار كتب، كالتي بالبصرة، والداران جميعاً اتّخذهما. . . وفيهما أجراء على من قصدهما، ولزم القراءة والنسخ، إلاّ أن خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتباً. وفي هذه أبداً شيخ يُدْرس عليه الكلام على مذاهب المعتزلة»[٥٨٤].

واتخذ الشريف الرضي الموسوي (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) الشاعر المعروف ونقيب الطالبيين داراً لطلبة العلم سمّاها " دار العلم "، وعيّن لهم فيها جميع ما يحتاجون إليه، وجعل لكل واحد منهم مفتاحاً بحيث يتناول ما يريده منها دون الرجوع إلى خازن[٥٨٥].

وأنشئت في مصر دور للعلم أيضاً، كالدار التي اشتراها العزيز باللّه الفاطمي عام ٣٧٨هـ قرب الأزهر وجعلها لخمسة وثلاثين عالماً كانوا يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد بعد صلاة كلّ يوم جمعة حتى صلاة العصر، والدار التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمرالله عام ٣٩٥هـ بالقاهرة وسميت " دار العلم " أو" دار الحكمة "، وقد حُملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ووُظّف لها خزّان وبوّابون، وعُيّن فيها من يُدرّسون الناس العلم، وكان يدخلها سائر الناس يقرأون وينسخون[٥٨٦].

كانت تلك أمثلة ليس غير، لكن المسجد، في أي مركز، كان ـ كما في العصور السابقة ـ المدرسة الكبرى التي تُعطى فيها أكثر الدروس لا سيما دروس الفقه والكلام. يقول المقدسي عن إقليم مصر: " والرسوم بجوامع هذا الإقليم إذا سلّم الإمام كلّ يوم صلاة الغداة وضع بين يديه مصحفاً يقرأ فيه، ويجتمع الناس عليه كما يجتمع على المذكّرين. . . وبين العشاءين جامعهم مغتصّ بحلَق الفقهاء وأئمة القرّاء وأهل الأدب والحكمة. ودخلتها مع جماعة من المقادسة، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين: دوّروا وجوهكم إلى المجلس. فننظر فإذا نحن بين مجلسين. على هذا جميع المساجد، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس. . . ولا ترى أجلّ من مجالس القرّاء به»[٥٨٧].

وكان جامع المنصور ببغداد، من أشهر مراكز التعليم آنذاك، فقد جلس إبراهيم بن محمد المعروف بـ" نفطويه "(٢٤٤ - ٣٢٣ هـ)، مثلاً، خمسين سنة في مكانه فيه

للتدريس والإقراء. كان حسن الحفظ للقرآن وكان " أول ما يبتدىء به في مجلسه . . . أن يُقرىء القرآن على قراءة عاصم، ثم الكتب بعده. وكان فقيهاً، عالماً بمذهب داود الأصبهاني[٥٨٨]، رأساً فيه، يسلّم له ذلك جميع أصحابه؛ وكان مُسْنِداً في الحديث من أهل طبقته، ثقةً، صدوقاً»[٥٨٩]

ولقد كانت " نيسابور " أكبر مراكز العلم بخراسان، ومهد تلك المعاهد والمدارس. ففيها بنيت مدرسة لأبي إسحق الإسفراييني إبراهيم بن محمد(ت ٤١٨هـ) كانت مشهورة، وكان هو فقيهاً شافعياً متكلماً أصولياً. وممن اختلفوا إلى مجلسه أبوالقاسم القشيري[٥٩٠]. وبنى أبوبكر ابن فَوْرك محمد بن الحسن(ت ٤٠٦هـ) له بها " مدرسة وداراً، وأحيا الله تعالى به أنواعاً من العلوم "، وكان متكلماً أصولياً وأديباً نحوياً[٥٩١]. وقد تكون هذه الصفة وصفة الإسفراييني السالفة مبعث ما ذهب إليه آدم متز من أنهما ربما آثرا البحث في المسائل الكلامية أوالتدريس على مجرد رواية الأحاديث[٥٩٢].

وبنى أبوبكر البستي(ت ٤٢٩ هـ)، بنيسابور أيضاً، مدرسة على باب داره لأهل العلم، وقد كان من كبار المدرسين والمناظرين في نيسابور[٥٩٣].

ويشير أحمد أمين إلى ضرب من العلم يناظر ما نسميه اليوم " العلم بالمراسلة"[٥٩٤] إذ كان يكتب أحدهم إلى عالم أوأديب ما يسأله عن أمور عامة أوخاصة. فمن النوع الأول ما كان يصل إلى أبي سعيد السيرافي من رسائل يستفسر أصحابها عن مسائل شتّى. فقد كتب إليه نوح بن نصر الساماني عام ٣٤٠هـ يسأله ـ بعد أن خاطبه بالإمام – عمّا يزيد على أربعمائة مسألة معظمها في «الحِران»[٥٩٥] وما أشبهه وسائرها عن أمثال مصنوعة على العرب شكّ فيها. وكان مع ذلك الكتاب كتاب من الوزير البلعمي خاطبه فيه بإمام المسلمين، وسأله عن بعض المسائل القرآنية وأمثال للعرب مشكلة.

وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتاباً خاطبه فيه بشيخ

الإسلام، وسأله عن مائة وعشرين مسألة أكثرها في القرآن وسائرها عن روايات عن النبي(ص) وعن الصحابة. كما كتب إليه أبوجعفر ملك سجستان، بإيعاز من أبي سلمان المنطقي، كما يقول التوحيدي، كتاباً خاطبه فيه بالشيخ الفرد، وسأله عن سبعين مسألة في القرآن ومائة كلمة في العربية وثلاثمائة بيت من الشعر وأربعين مسألة في الأحكام وثلاثين في الأصول على طريق المتكلمين. وكتب إليه، كذلك، الوزير ابن حِنزابة[٥٩٦] من مصر، وخاطبه بالشيخ الجليل، وسأله عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المروي عن الرسول(ص) وعن السلف[٥٩٧].

ومن النوع الآخر، المكاتبات التي كانت بين داعي الدّعاة بمصر وأبي العلاء المعري (٣٦١ - ٤٤٩هـ) والتي بدأها الأول بسؤال الآخر عن "العلة في تحريمه على نفسه اللحم واللّبن، وكل ما يصدر إلى الوجود من منافع الحيوان»[٥٩٨].

وقمين أن يشار في نهاية هذا المبحث إلى هذه الأمور: [٥٩٩]

١ - ترك اللغويون، في التدريس، طريقة المتكلّمين والمحدّثين في "الإملاء"، مستعيضين عنها بتدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة والمدرّس يشرح. يقال إن أبا القاسم الزجّاجي(ت ٣٣٩هـ) كان آخر المملين من أهل اللغة، أمّا إملاء الحديث فاستمر على ما كان عليه[٦٠٠].

٢ - ظل أمر التهيّب الشديد للحديث مستمراً كما كان عليه من قبل، لأن التحديث كان يعدّ نوعاً من العبادة ذا آداب خاصة. شاهد هذا أنه لّما عزم الصاحب بن عبّاد، وهو وزير، على إملاء الحديث "خرج يوماً متطلّساً[٦٠١] متحنّكاً بزي أهل العلم، فقال: قد علمتم قدمي في العلم، فأقرّوا له بذلك. فقال: وانا متلبّسٌ بهذا الأمر؛ وجميع ما أنفقته، من صغري إلى وقتي هذا، من مال أبي وجدّي، ومع

هذا فلا أخلو من تَبِعات[٦٠٢]. أشهد الله وأشهدكم أنّي تائب إلى الله من ذنب أذنبته. واتخذ لنفسه بيتاً وسمّاه بيت التوبة، ولبث أسبوعاً على ذلك، ثمّ أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته، ثمّ خرج فقعد للإملاء؛ وحضر الخلق الكثير، وكان المستملي الواحد ينضم إليه ستة، كلّ يبلّغ صاحبه، فكتب الناس حتى القاضي عبدالجبّار»[٦٠٣].

٣ - لم تكن مهنة التعليم تدرّ شيئاً كثيراً لا سيما إذا لم يكن صاحبها فقيهاً ذا منصب، فيحيى بن عدي، كما تقدّم، كان من أكبر فلاسفة القرن الرابع، لكنه كان يعيش من النسخ. أمّا الفقهاء فاختلفوا في تجويز أخذ الأجر على تعليم القرآن والحديث بين مجوّز وغير مجوّز، فأبوالعباس الأصم (ت ٣٤٦ هـ) الذي كان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم، وأبوبكر الجوزقي(ت ٣٨٨ هـ) محدّث نيسابور، مثلاً، ما كانا يأخذان على التحديث شيئاً. ومثل هذين كان أبوسعيد السيرافي صاحب المناظرة المعروفة مع متّى بن يونس[٦٠٤]، فلم يكن، وقد كان قاضياً أيضاً، «يأخذ على الحكم أجراً، إنّما يأكل من كتْب يمينه، فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس، حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون بقدر مئونته، ثم يخرج إلى مجلسه» [٦٠٥].

أمّا بعض العلماء الكبار، فكانوا يأخذون أرزاقاً من السلطان، وكانوا ثلاثة أقسام: فقهاء، وعلماء، وندماء وهم الذين كانوا أكثر رزقاً. فقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دُريد محمد بن الحسن اللغوي المعروف، الذي مات هو وأبوهاشم الجُبّائي عام ٣٢١هـ، فقيل " مات علما اللغة والكلام»[٦٠٦]، أجرى عليه خمسين ديناراً شهريّاً، وأجرى سيف الدولة الحمداني على الفارابي الفيلسوف(ت ٣٣٩هـ) أربعة دراهم يوميّاً اقتصر عليها لقناعته[٦٠٧]. أمّا أبوإسحق إبراهيم بن محمد الزجّاج (ت ٣١٠ أو ٣١١

أو٣١٦هـ)[٦٠٨]، فقد " جُعل له رزق في الندماء، ورزق في الفقهاء، ورزق في العلماء نحوثلثمائة دينار"، وكان يعلّم أولاد المعتضد أيضاً[٦٠٩].

وكان ابن الفرات (قتل عام ٣١٢هـ) وزير المقتدر " يجري الأرزاق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء، أكثرهم مائة درهم[٦١٠] في الشهر، وأقلهم خمسة دراهم، وما بين ذلك»[٦١١].

(٤) العلوم النقلية:

فقد استمر، في هذا العصر، التأليف في العلوم النقلية والعقلية، وازدهر ازدهاراً كبيراً يصعب حصره في مبحث نموذج كهذا المبحث الذي لا يعنى بالرصد ولا بالتفصيل والشرح والتقويم، بل حسبه أن ينبّه على الأهم والأبرز، وأن يضع الصّوى والإمارات، فالكلام عن علوم عصر بكامله بضربيها النقلي والعقلي غيره في الكلام عن أحدهما، على كبره وامتداده، أو عن علم واحد منهما.

ففي العلوم النقلية، أقف عند التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة والتاريخ والجغرافيا، وأترك الإبداع الأدبي شعراً ونثراً إلى مبحث مستقل.

أ- التفسير:

على الرغم من أن جواز التفسير لم يكن، منذ القدم، أمراً مسلّماً به إلاّ بعد استيفاء شروطه، باستشهاد الطبري نفسه بقول الشعبي قديماً للسّدي حين مر به وهويفسّر القرآن: " لئن يضرب على استك بالطبل خير لك من مجلسك هذا " على الرغم من هذا فإن الجهود في التفسير استمرت وكانت شتّى تبعاً لانتماء المفسرين أنفسهم ومواقفهم، وقد بلغت أوجها في تفسير محمد بن جرير الطبري(ت ٣١٠ هـ) في بدايات القرن الرابع، وهوصاحب كتاب " تاريخ الرسل والملوك " المعروف بتاريخ

الطبري كما هوشأن تفسيره تفسير الطبري " جامع البيان عن تأويل القرآن " الذي قال فيه أبوحامد الإسفراييني " لوسافر رجل إلى الصين حتى يحصّل كتاب تفسير محمد بن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيراً[٦١٢]، وقال فيه أبوبكر بن بَالوَيْه : " ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة»[٦١٣].

وأسهم المعتزلة في هذا العصر بجهود في التفسير، ومن مفسريهم، محمد بن بحر الأصفهاني (ت ٣٣٢هـ)، وأبوعبيدالله الأسدي(ت ٣٨٧هـ) الذي كتب في تفسير البسملة وحدها مئة وعشرين وجهاً، وأبوبكر النقّاش(٢٦٥ أو٢٦٦ - ٣٥١ هـ)، وعنوان تفسيره " شفاء الصدور» [٦١٤]، والشريف المرتضى(٣٥٥ - ٤٣٦هـ) في " الأمالي "، وأبوالحسن علي بن عيسى الرمّاني[٦١٥] (٢٩٦ - ٣٨٤هـ). يقال إن الصاحب بن عبّاد سئل عن عدم تصنيفه في التفسير، فأجاب: " وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً»؟!.

ب - الحديث:

الاهتمام بالحديث قديم، لكنّ الذي جدّ في هذا العصر، هو أنه يجوز الاكتفاء برواية الحديث بما في الكتب دون لقاء رجاله والرحلة في طلبه ودون إجازة مكتوبة تبيح للمحدّث الحق في الرواية[٦١٦]. فقد استطاع ابن يونس الصّدفي(٢٨١ - ٣٤٧هـ) صاحب تاريخ مصر أن يكون محدّثاً دون أن يغادر مصر[٦١٧].

إذا ما جزنا، مثلاً، حفّاظ الأحاديث في هذا العصر كعبدالله بن سليمان الأشعث(ت ٣١٦هـ)، محدّث العراق الذي كان يحدّث في دار الوزير علي بن عيسى، وابن عقدة(ت ٣٣٢ هـ) الذي كان يحفظ مائتين وخمسين ألف حديث بأسانيدها، والحافظ ميسر الذي توفي بمصر عام ٤٠١هـ والذي كان عنده درج طوله سبعة وثمانون ذراعاً مملوءة الوجهين فيه أوائل ما يحفظه[٦١٨]، إذا ما جزناهم إلى كبار

محدّثي القرن الرابع لا مندوحة عن ذكر اثنين :

الأول ، الدارقطني أبوالحسن علي بن عمر (٣٠٦ - ٣٨٥ هـ) الحافظ المشهور ، الذي قيل فيه : " وانفرد بالإمامة في علم الحديث في دهره ، ولم ينازعه في ذلك أحد من نظرائه »[٦١٩] و" أحسن الناس كلاماً عن حديث رسول الله ، صلّى عليه وسلّم ثلاثة : علي بن المديني في وقته[٦٢٠] ، وموسى بن هارون في وقته[٦٢١] ، والدارقطني في وقته »[٦٢٢] . ولمّا ذهب إلى مصر عند أبي الفضل جعفر بن الفضل المعروف بابن حِنْزابة وزير كافور الإخشيدي ساعده في تأليف " مسند" كان يؤلفه ، بالغ الوزير " في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئًا كثيراً ، وحصل له بسببه مال جزيل " وظلّ عنده إلى أن أنهى المسند[٦٢٣] .

والآخر ، أبوعبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري[٦٢٤] (٣٢١ - ٤٠٥هـ) الحافظ المعروف بابن البيّع " إمام أهل الحديث في عصره ، والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبق إلى مثلها " . طلب الحديث ، وغلب عليه فاشتهر به ، وسمعه من كثيرين حتى وصل معجم شيوخه إلى حوالي مئتين ، وصنّف في علومه أعمالاً كثيرة ، وقد تقلّد القضاء بنيسابور عام ٣٥٩هـ في أيام الدولة السامانيّة .

ج - الفقه وعلم الكلام:

لعل من أكبر سمات هذا العصر بالنسبة إلى الفقه ثنتين : الأولى ، سدّ باب الاجتهاد في التشريع الإسلامي لا لشيء إلا للاقتداء بالعلماء الأولين وإضفاء كثير من القداسة عليهم ، حتى أضحى فقيه هذا العصر ، في الأكثر ، لا يستطيع أن يصدر حكمه الخاص إلاّ في المسائل الجزئية الصغيرة .

والأخرى ، الخلاف الشديد بين طوائف الفقهاء المختلفة أنفسهم ، وبين السنّة والشيعة ، كما تقدّم في فصل العصر الاجتماعي ، وليس ثمة من حاجة إلى الاستشهاد

وضرب مُثُل أخرى[٦٢٥].

ولقد نتج عن ذلك ظاهرتان متغايرتان[٦٢٦]: إحداهما، انحصار فقهاء هذا الزمان، في الأغلب، في النقل عن السلف وشرح كتبهم واختصارها والتحشية عليها. فقد صنّف أبوالحسن عبيد الله بن الحسن الكرخي(ت ٣٤٠ هـ) الفقيه العراقي، الذي كان " ممن يشار إليه ويؤخذ عنه، وعليه قرأ المبرّزون من فقهاء الزمان، وكان واحد عصره غير مدافع ولا منازع "، صنّف كتاب " المختصر " في الفقه، وغيره[٦٢٧]. وصنّف أبوالحسين القُدوري[٦٢٨] أحمد بن محمد(٣٦٢ – ٤٢٨هـ) الفقيه الحنفي، الذي انتهت إليه رئاسة الحنفيّة بالعراق، كتاب " المختصر " المشهور وغيره[٦٢٩].

والأخرى، تعزيز ما يسمّى " آداب البحث والمناظرة "، فالقدوري، مثلاً، كان يناظر الفقيه الشافعي أبا حامد الإسفراييني[٦٣٠] أحمد بن أبي طاهر(٣٤٤ – ٤٠٦هـ)، وكان "يعظمّه، ويفضّله على كلّ أحد". لقد كان أبوحامد فقيهاً شافعياً " انتهت إليه رياسة الدنيا والدين ببغداد، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه "، وكان الناس يقولون: "لورآه الشافعي لفرح به". وله من الكتب في المذهب: «التعليقة الكبرى» و«البستان»[٦٣١].

أمّا علم الكلام، الذي نشأ بدءاً للدفاع عن الإسلام دفاعاً مسلّحاً بالفلسفة ومستنداً إلى المنطق والجدل، فإنّما قرنته هنا بالفقه لأنه كان مرتبطاً به في نشأته، وكان ثمة مسائل فقهية في ثناياه، بيد أنه استقلّ عنه بجهود المعتزلة، ولا أرغب في أن أدخل في بداياته وأهدافه وتفصيلاته وتأثراته ورجالاته السابقين[٦٣٢]، بل أشير إلى بعض أعلامه في هذا العصر فحسب، واشهرهم الجُبّائيان[٦٣٣]: أبوعلي محمد بن عبدالوهاب (٢٣٥ – ٣٠٣هـ)، وابنه أبو هاشم عبدالسلام (٢٤٧ – ٣٢١هـ).

فأمّا الأول، فكان أحد أئمة المعتزلة وإماماً في علم الكلام الذي لقفه عن أبي

يوسف يعقوب بن عبدالله الشحّام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره، له في الاعتزال مقالات مشهورة. أخذ أبوالحسن الأشعري علم الكلام عنه، وكانت له معه مناظرات واعتراضات على أقاويله آلت جميعاً إلى تركه مجلس أستاذه وإلى الوحشة بينهما[٦٣٤].

وأمّا الآخر الابن، فكان رأس فرقة "البهشمية" [٦٣٥]، ويبدو أن تأثيره في المعتزلة كان كبيراً، إذ كان "المتكلم المشهور والعالم ابن العالم"، وكانت له، كأبيه، مقالات على مذهب الاعتزال[٦٣٦]، قال عنه أبومنصور البغدادي(ت ٤٢٩ هـ): "أكبر معتزلة عصرنا على مذهبه"، وقد توسع في الكلام عن فضائح فرقته كما سمّاها[٦٣٧].

د - علوم اللغة:

المقصود بعلوم اللغة هنا المعنى الخاص لا المعنى العام الأوسع، أي اللغة والنحو والصرف تحديداً وليس علوم العربية عامة.

ليس من شكّ أن هذا العصر يعدّ من العصور الزاهرة في علوم اللغة من حيث كثرة التأليف فيها، وما طرأ عليها من تطوير وتحديث في عدد من الأمور.

لقد تخلّص علم اللغة، بدءاً، من طرائق الفقهاء، لا سيما في الإملاء، التي تكلم عنها السيوطي وذهب إلى أن أبا القاسم الزجاجي كان آخر من أملى على طرائق أولئك اللغويين، وهو ما سبقت الإشارة إليه في مبحث "الفقه وعلم الكلام" من هذا الفصل. ففي حين كان العلماء المتقدمون كالمبرّد(ت ٢٨٥ هـ)، مثلاً، وبعض علماء هذا العصر كغلام ثعلب أبي عمر محمد بن عبدالواحد(ت ٣٤٥هـ) وأبي عليّ القالي (ت٣٥٦هـ)، يرصفون معارفهم رصفاً حتى لا رابط يربطها في كثير من الأحايين ويُعنون بالجزئيات، نحا السواد الأعظم من علماء هذا العصر نحواً آخر غايته تناول مواد البحث تناولاً منظّماً ربما كان لمعرفة العرب بالتراث اليوناني أثر في ذلك[٦٣٨]. سئل

أبوسليمان المنطقي السجستاني محمد بن طاهر عن النحوالعربي والنحواليوناني، فقال: " نحوالعرب فطرة، ونحونا فِطنة" [٦٣٩].

من ميزات هذا العصر التوسع في تأليف المعجمات المختلفة، لأسباب أهمها أن أصحاب المعاجم لم يكتفوا بتقييد لهجة واحدة، إنما امتد تقييدهم إلى غير لهجة كما دوّن بعضهم أصول الكلمات وتصحيفاتها، وأن بعض الأعراب توسّعوا في المجاز إذ سمّوا الثياب القصيرة مثلاً مقطّعات، فضلاً عن انتقال اللغة من البداوة إلى الحضارة[٦٤٠]. ومن أهم معجمات هذا العصر معجم " الصحاح " للجوهري(ت ٣٩٢) الذي أضحى صاحب مدرسة في المعجمات، ففي حين رتّب الخليل بن أحمد معجمه "العين " ومن سار على نهجه في معجماتهم حسب مخارج الحروف مبتدئين بحروف الحلق، اعتمد الجوهري التقسيم إلى أبواب وفق الحرف الأخير للكلمة، وجعل كلّ باب فصولاً وفق الحرف الأول. وقد حذا حذوه أصحاب أشهر المعجمات المعروفة كابن منظور صاحب " اللسان " والفيروزآبادي مؤلف " القاموس المحيط" والزبيدي صاحب "تاج العروس ".

ومن معجميي هذا العصر من صنع معجمه وفقاً للترتيب " الهجائي " كابن دريد(ت ٣٢١هـ) في " جمهرة اللغة "، وابن فارس في " المقاييس " و" المجمل ".

ومنهم من ألّف في " معجمات المعاني"[٦٤١]، كقدامة بن جعفر في "جواهر الألفاظ" والثعالبي في " فقه اللغة " وابن فارس في " متخير الألفاظ ".

ومن السمات اللغوية المهمة في هذا العصر الالتفات إلى مسألة " الاشتقاق الأكبر" التي انتثرت بذورها، بدءاً، عند أبي علي الفارسي(٢٨٨ - ٣٧٧هـ)، ثم تلقّفها تلميذه عثمان بن جنّي(ت ٣٩٢هـ) الذي يقول: " هذا موضوع لم يسمّه أحد من أصحابنا؛ غير أن أبا علي ـ رحمه الله ـ كان يستعين به، ويُخْلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر؛

لكنه مع هذا لم يسمّه، وإنّما كان يعتاده عند الضرورة، ويستريح إليه، ويتعلّل به. وإنما هذا التلقيب لنا نحن. . . . الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير. فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم. . . . ، وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثيّة، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً" (٦٤٢).

لقد كان أبوعلي " أوحد زمانه في علم العربية. . . وكان كثير من تلامذته يقول: هو فوق المبرّد"(٦٤٣). أمّا ابن جنّي، فكان " من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، وصنّف في ذلك كتباً أبرّ(٦٤٤) بها على المتقدمين، وأعجز المتأخرين، ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف، ولم يتكلم أحد في التصريف أدقّ كلاماً منه»(٦٤٥).

لقد صحب ابن جنّي أستاذه أبا عليّ أربعين سنة، إذ كانت البدء بعد أن اجتاز أبوعلي بالموصل فمرّ بالجامع وابن جنّيّ، وقد كان شابّاً، في حلقة يعلّم النحو، فسأله أبوعليّ عن مسألة في التصريف قصّر فيها، فقال له أبوعلي " زبّبْت(٦٤٦) وأنت حصرم". ولما عرف أنه أبوعلي لزمه" من يومئذ، واعتنى بالتصريف فما أحد أعلم منه به ولا أقوم بأصوله وفروعه، ولا أحسن أحد إحسانه في تصنيفه. فلمّا مات أبو عليّ تصّدر أبوالفتح في مجلسه ببغداد" (٦٤٧).

واللافت أنه قدّر للأستاذ والتلميذ أن يكونا ممن ضمّهم بلاط سيف الدولة الحمداني بحلب، اذ اتصل به الأول عام ٣٤١هـ وجرت بينه وبين المتنبي مجالس(٦٤٨)، ولما رجع إلى بغداد كانت بينه وبين سيف الدولة بعض مراسلات يدافع فيها أبوعلي عن أشياء ادّعى ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) عليه الخطأ فيها لسيف الدولة الذي كتب إلى أبي علي يستفسره عنها(٦٤٩) وقد كان لابن خالويه مع أبي الطيب مجالس ومباحث عند سيف الدولة(٦٥٠). أمّا ابن جني فقد انعقدت الآصرة بحلب بينه وبين المتنبي، إذ كان

يحضر عنده كثيراً ويناظره في شيء من النحو دون أن يقرأ عليه شيئاً من شعره. وكان المتنبي يقول عنه: " هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس" [٦٥١] ولمّا مات المتنبي رثاه ابن جني في قصيدة أولها[٦٥٢]:

غــاض الــقــريض وأذوتْ نــضْــرة الأدبِ

وصــوّحتْ بــعــد ريّ دوحــة الــكُــتُبِ

وشرح ديوانه الشرح الذي سمّاه " الفَسْر" وكان قد قرأه عليه[٦٥٣]، وكان أحد النقاد الذين دافعوا عنه في المعركة النقدية التي نشبت حوله في القرن الرابع الهجري. وكان فشوّ" اللحن " مظهراً آخر من المظاهر اللغوية في هذا العصر، وقد ساعد عليه انقسام الدولة الإسلامية إلى دول عدة، وشيوع اللحن في لغة العامة والخاصة ولغة الأدب شعره ونثره، مما حمل أهل اللغة على العناية بالموضوع والتصدي له والتأليف فيه، فكان أن وضع أبوبكر الزبيدي(ت ٣٧٩هـ)، مثلاً، كتاب " لحن العامة"[٦٥٤]، وألف ابن خالويه «ليس في كلام العرب»[٦٥٥].

تلك كانت السمات الكُبَر، لكنّ ما أُلِّف في علوم العربية في هذا العصر كان كثيراً، والأهم أنه ظل للمدارس النحوية المختلفة رجالها وامتدادها، فضلاً عما أُبرز من جهود بعضهم في تلك السمات. فمن المدرسة البصرية: أبوإسحق إبراهيم الزجّاج (ت٣١٠ هـ)، ومحمد أبوبكر السرّاج (ت ٣١٦ هـ)، وأبوسعيد السيرافي الحسن بن عبدالله (٢٨٠ - ٣٦٨هـ). ومن أتباع مدرسة الكوفة كان تلاميذ ثعلب: أبوموسى الحامض (ت ٣٠٥ هـ)، وغلام ثعلب أبوعمر الزاهد(ت ٣٤٥هـ)، وابن مقْسم أبوبكر العطّار (ت ٣٥٤ هـ)، وكان أشهرهم أبا بكر الأنباري محمد بن القاسم(٢٧١ - ٣٢٨هـ)، وأحمد بن فارس (٣٠٦ أو٣٠٨ - ٣٧٥ أو٣٩٠هـ)[٦٥٦] مؤلف " المجمل في اللغة " و" مقاييس اللغة " و" الصاحبي في فقه اللغة "، الذي ألّفه لخزانة الصاحب بن عبّاد، و"متخيّر الألفاظ ".

أمّا المدرسة البغدادية، فكان من أتباعها: أبوالقاسم الزجّاجي(ت ٣٣٧هـ أو ٣٤٠هـ)، وأبوعلي الفارسي، وابن جنّي. [٦٥٧]

هـ - البلاغة والنقد:

يكاد ينعقد الإجماع على أن هذا العصر كان عصر انفصال البلاغة عن النقد بدءاً من كتاب " الصناعتين " لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ). أمّا التأليف فيهما فجعل يزداد ويتطور، وينحو نحو المنهجية، وتتضح فيه الأفكار والمفاهيم والقضايا، فمن المؤلفات مثلاً:

"عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) و«أخبار أبي تمام» و«أخبار البحتري» لأبي بكر الصولي (ت ٣٣٥ أو٣٣٦ هـ)، "ونقد الشعر" لقدامة بن جعفر(ت ٣٣٧ هـ)، و"البرهان في وجوه البيان" لابن وهب الكاتب البغدادي، و"الموازنة بين الطائيين" للآمدي (ت ٣٧٢هـ) و"المصون في الأدب" لأبي أحمد العسكري (٣٨٢هـ)، و"الموشح" للمرزباني(ت ٣٨٤ هـ)، و"النكت في إعجاز القرآن" للرمّاني(ت ٣٨٦هـ)، و" الموضحة " و" حلية المحاضرة " و" الرسالة الحاتميّة " للحاتمي محمد بن المظفر(ت ٣٨٨هـ)، و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي عبدالعزيز الجرجاني(ت ٣٩٢)، وكتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، "وإعجاز القرآن" لأبي بكر الباقلاني(ت ٤٠٣هـ).

واستقرت مسارات النقد في هذا القرن فيما يأتي: [٦٥٨]

(١) اعتماد الذوق الفني في إنشاء نظرية الشعر(ابن طباطبا العلوي).

(٢) الصراع النقدي في أبي تمّام.

(٣) النقد والأثر اليوناني(قدامة بن جعفر، والفارابي، وأبوحيان التوحيدي).

(٤) المعركة النقدية حول المتنبي(الحاتمي، وأبوالعباس النامي، والصاحب بن

عبّاد، وابن جنّي والردود عليه، وابن وكيع التنِّيسي، والقاضي الجرجاني).
(٥) النقد وفكرة الإعجاز(الرمّاني، والخطّابي، والباقلاني، وأبوهلال العسكري).

و - التاريخ والجغرافية:

كان القرن الرابع ثريّاً بكثيرين من المؤرخين. ويعدّ تاريخ الطبري، الذي سلفت الإشارة إليه في التفسير، من أمهات الكتب التاريخية الموثوق بصحتها، فهو" أكثر تحقيقاً ممن سبقه من المؤرخين، فضلاً عن أنه انفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله"[٦٥٩]. وقد بدأ حوادثه، حسب السنوات، منذ الخليقة حتى عام ٣٠٢ هـ، ثم جاء عريب بن سعد القرطبي(ت ٣٦٦هـ) ليصل ما انقطع فألّف " صلة تاريخ الطبري " من عام ٢٩١هـ حتى عام ٣٢٠هـ نهاية عهد الخليفة المقتدر.

يقول أحمد أمين عن الكتاب: " وكتابه هذا مع أنه تاريخي في أصله، فالقارىء له يقف على ثروة كبيرة في الأدب، لأنه في حكايته للروايات المختلفة يقصّها في لغة رصينة بليغة، غاية في القوة. وهوجريء في قول الحق، يتعرض لذكر أشياء قد لا يرضى عنها العباسيون أنفسهم، وهم الخلفاء ذووالسلطة. وإن أخذنا عليه شيئاً، فهو أنه يكثر من ذكر الحروب والوقائع الحربيّة، وسيَر الخلفاء؛ ولا يعرض إلاّ لماماً لذكر الأحداث الاجتماعية، والمسائل الاقتصادية[٦٦٠]

وألف سعيد بن البطريق المشهور بـ" أوتيخا "(ت ٣١٧ هـ)، الذي كان أحد بطارقة الإسكندرية، كتاب: " التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق "، وهوالذي ذيّله يحيى بن سعيد الأنطاكي(ت ٤٥٨هـ) بكتابه: " صلة كتاب أوتيخا"[٦٦١]

وللجهشياري أبي عبدالله محمد بن عبدوس(ت ٣٣١هـ) كتاب " الوزراء والكتّاب"[٦٦٢] وهومن أقدم المصادر التاريخية، وأشهرها ذكراً. فصّل فيه صاحبه تاريخ

كتابة الإنشاء منذ تأسيس الدولة الإسلامية في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم، وتاريخ الوزارة والوزراء في الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجري"[٦٦٣]. ويعدّ الكتاب " أول ما ألف من نوعه في تاريخ الوزراء"، وقد حذا المؤرخون حذوه، إذ ألف هلال بن المحسن الصابي(ت ٣٥٩هـ) " تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء"، وأفاد منه ابن الأثير في "كامله" وابن الطقطقا في " الفخري في الآداب السلطانية" [٦٦٤].

كان ابن عبدوس ووالده من رجالات الدولة العباسية في خلافة المقتدر، يذكر المسعودي أن غير واحد من أهل الدراية أخبره أن الجهشياري " صنّف أخبار المقتدر في ألف ورقة"، أمّا هو نفسه فيقول: " وقد صنّف أبوعبدالله بن عبدوس الجهشياري أخبار المقتدر باللّه في ألوف من الأوراق، ووقع لي أجزاء يسيرة منها" [٦٦٥].

وألف أبوبكر الصولي كتاب " الأوراق"، وهومطبوع في ثلاثة أجزاء: [٦٦٦] و"أخبار الراضي باللّه والمتّقي للّه" أو" تاريخ الدولة العباسيّة من سنة ٣٣٢ إلى ٣٣٣هـ"، و«أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم»، و" أخبار الشعراء المحدثين".

ومن أهم مصادر هذا العصر التاريخية كتاب " مروج الذهب ومعادن الجوهر" لأبي الحسين علي المسعودي(ت ٣٤٦ هـ)[٦٦٧] الذي لقّبه ابن خلدون قديماً بـ" إمام المؤرخين" وفون كريمر حديثاً بـ «هيرودوتس العرب»[٦٦٨]. لم يكن المسعودي مؤرخاً فحسب، إنما كان جغرافياً رحّالة كذلك، وهذا يفسّر التفاتاته الكثيرة إلى القضايا الاجتماعية في كتابه هذا الذي عرض فيه للأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى زمانه هو. ومن كتبه المطبوعه كذلك " التنبيه والإشراف"، وهومن الكتب المهمة في تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالعباسيين[٦٦٩]. وللمسعودي كتب أخرى ذكرها هو في مقدمة "التنبيه" وعرض لمحتويات بعضها[٦٧٠].

ومن المصادر التاريخية المهمة أيضاً كتاب " تجارب الأمم" لمسكويه أحمد بن محمد

ابن يعقوب(٣٢٥ - ٤٢١هـ) الذي عاصر الدولة البويهية وخدم عدداً من أمرائها ووزرائهم. والمهم في كتابه أنه عني، إلى جانب التاريخ، بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، وأنه اعتمد المشاهدة والعيان، لقوله: " أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة(٣٤٠ هـ) فهومن مشاهدة وعيان وخبر محصّل يجري عندي خبره مجرى ما عاينته"[٦٧١]. وقد كان يلتفت إلى الأمور الصغيرة التي تهدي إلى العبرة والاتعاظ[٦٧٢] ليتدبر أولوالألباب. ومن يدري، فلربما كان كتابه " تهذيب الأخلاق " مولوداً شرعياً لذاك التوجه، وردّة فعل لسيرة صاحبه الأولى[٦٧٣]. وألف وزير المقتدي بالله أبوشجاع محمد بن الحسين الروذراوري " ذيل تجارب الأمم " أرّخ فيه لحوادث خمس وعشرين سنة(٣٦٩ - ٣٩٣ هـ) أي من حيث انتهى مسكويه الذي أرّخ للأحداث بدءاً من عام ٢٩٥هـ حتى عام ٣٦٩هـ.

ومن مؤرخي هذا العصر في غير ناحية: الشابشتي صاحب " الديارات "؛ والحسن بن زولاق(٣٠٦ - ٣٨٧ هـ)، الذي عاش في العهدين الإخشيدي والفاطمي، وكان " فاضلاً في التاريخ وله فيه مصنف جيد، وله كتاب في خطط مصر"[٦٧٤].

أمّا في الجغرافية وتقويم البلدان، فازدهر أمرهما ازدهاراً بيّناً وإن كان البحث في أحوال الأقاليم وليد النهضة العلمية في القرن الثالث الهجري[٦٧٥] كما يبدو من كتاب "المسالك والممالك" لابن خُرداذبه(ت ٣٠٠هـ)، و" البلدان " لليعقوبي(ت ٢٩٢هـ)، وغيرهما، على الرغم من الانتقادات التي وجهها المقدسي إلى عدد منها[٦٧٦].

من أشهر بلدانيي هذا العصر:

(١) لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني(٢٨٠ - ٣٣٤هـ أوبعدها)[٦٧٧] صاحب " صفة جزيرة العرب " وأشهر مؤلفاته " الإكليل ".

(٢) قدامة بن جعفر في كتابه " الخراج وصناعة الكتابة" [٦٧٨].

(٣) المسعودي في " مروج الذهب " ، وقد مرّ الكلام عنه .

(٤ و٥) ابن حوقل أبوالقاسم النصيبي(ت ٣٨٠ هـ) ، والمقدسي البشّاري أبوعبدالله محمد بن أحمد(ت ٣٨٧هـ) . وقد وصفت كتبهما معاً بأنها كانت " الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان ؛ وكلاهما قد سافر حتى دوّخ الممالك ، وحمله تيار الأسفار ، واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين[٦٧٩] . وممّا يجمعهما ، كذلك ، أنهما اقتصرا على وصف مملكة الإسلام فحسب . فأمّا ابن حوقل ، فراجع كتاب "المسالك والممالك" للإصطخري وزاد عليه وأخرجه بالعنوان نفسه "المسالك والممالك"[٦٨٠] .

يقول ابن حوقل[٦٨١] : " . . . سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها ، ووصفت رجالات أهل البلدان وأعيان ملوكها . . . ولم أستقصِ ذلك كراهية الإطالة . . . ، ولأن الغرض في كتابي هذا تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمتُه ممن شاهدها " .

أمّا المقدسي ، فيقول : . . . فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه(العلماء) وأنفرد بفنٍّ لم يذكروه إلاّ على الإخلال ، وهوذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها[٦٨٢] .

(٥) العلوم العقلية:

وتصل النوبة ، بعد العلوم النقلية ، إلى العلوم العقلية ، وهي كثيرة في أنواعها وعلمائها ومؤلفاتهم وإن كانت العناية بها أقل من الاهتمام بالنقلية لعوامل دينية وذاتية[٦٨٣] .

أ - الفلسفة:

ليس من شأن هذا الكتاب أن يستقصي ويتتبع ويفصّل ويحلّل ، بيد أنه تحسن الإشارة إلى أن العلماء العرب والمسلمين لم يكتف أكثرهم ، وفقاً لروح العصر ، بعلم واحد ينقطع إليه ، بل كانوا موسوعيين اشتهر كثيرون منهم بغير علم وأجادوه وكانت

لهم فيها أعمال ومؤلفات من الصعب، لهذا، أن يصنفوا في علم واحد.

فالفلسفة ازدهرت في هذا العصر، وكان من أشهر فلاسفة المشرق: الفارابي، وإخوان الصفا، وابن سينا.

فأمّا الفارابي، فكان واحداً ممن ضمهم بلاط سيف الدولة كما تقدم، وكان عالماً وموسيقياً. أخذ صناعة المنطق عن متّى بن يونس ببغداد، وعن يوحنا بن حيلان في حرّان. درس كتب أرسطو ووقف على ما فيها؛ يقال إنه وجد بخطّه على "كتاب النفس" لأرسطو: "إني قرأت هذا الكتاب مائتي مرّة"، ونقل عنه: "قرأت(السماع الطبيعي) لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرّة"[٦٨٤]، وكان قد بدأ بفلسفة أفلاطون. ولقد ترك اشتغاله بهما(أفلاطون وأرسطو) وبشروح كتب أرسطو تحديداً آثاراً في تآليفه التي أهمها[٦٨٥]: البرهان، وآراء أهل المدينة الفاضلة، وإحصاء العلوم، والنواميس، والسياسة المدنية. ليس كثيراً عليه، إذاً، أن يلقب بـ"المعلم الثاني"، وأن يوصف بـ "فيلسوف المسلمين على الحقيقة"[٦٨٦].

أمّا "إخوان الصّفا"، فكانوا جمعية سرّية بالبصرة وبغداد، يجتمعون سرّاً ويتباحثون بالفلسفة على أنواعها، وقد دوّنوا آراءَهم في خمسين رسالة عرفت بـ"رسائل إخوان الصّفا"، تضم عصارة فلسفتهم، وهي "خلاصةأبحاث الفلاسفة بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند، وتعديلها على ما يقتضيه الإسلام"[٦٨٧].

وكان ثمة جماعة أخرى، هي جماعة الفيلسوف المعروف أبي سليمان السجستاني المنطقي، التي "لم يكن منهجها كمنهج إخوان الصّفا، فلم يكونوا رجال دعوة وتبشير، ولا ذوي مطامع ومطامح، وإن لم يكونوا يؤلفون رسائل أو كتباً، إنما كان همهم أن يجتمعوا في بيت رئيسهم للمتعة العقلية وكفى"[٦٨٨]، وقد سبق الكلام عن بعض أتباعها، على أن التوحيدي سجّل عدداً من مجالسها في "المقابسات".

وأمّا الشيخ الرئيس أبوعلي الحسين بن عبدالله بن سينا[٦٨٩] (٣٧٠ - ٤٢٨هـ)، فبرع، إلى جانب الفلسفة في "علم المنطق والطبيعي والرياضي"، وفي الطب الذي له فيه "القانون". تربو مؤلفاته على المئة في الفلسفة وغيرها، منها: الشفاء، والنجاة، والإشارات، وحي بن يقظان، وسلامان وأبسال، ورسالة الطير. وقصيدته العينيّة في النفس معروفة، مطلعها:

هـــــبـــــطتْ إلــــيكَ من المحلّ الأرفعِ

ورقـــاءُ ذات تــــعـــزّزٍ وتـــمـــنُّعِ

وعرفت الأندلس الفلسفة، إذ دخلتها مذ عهد عبد الرحمن الأوسط، ومن فلاسفتها، مثلاً: المجريطي مسلمة بن أحمد(ت ٣٩٨هـ) وتلامذته الكثر، وقد عُني أولئك بعلوم الأوائل كالرياضيات والنجوم والهندسة التي كانت تعد آنذاك في الفلسفة[٦٩٠]، أمّا الفلسفة بالمعنى الاصطلاحي فلم يعن الأندلسيون بها إلاّ بعد دخول رسائل إخوان الصفا إليها[٦٩١].

ب - الطب:

وعني العرب والمسلمون في هذا العصر بالطبّ عناية قصوى[٦٩٢]، وهو وإن كان منذ اهتمامهم به منبجساً عن حركة الترجمة في بداياتها الأولى، يعدّ خلاصة ما وصل إليه هذا العلم عند الآخر المتمدن قبل الإسلام وبعده من يونانيين وفرس وهنود، فضلاً عما أضافوه هم.

لقد كان عدد الأطباء، بعد ترجمة الكتب الطبيّة، في أربعة القرون الهجرية الأولى يقدّر بالمئات كما يظهر من مطالعة "فهرست" ابن النديم، و"تاريخ حكماء الإسلام" للبيهقي، و"إخبار العلماء" للقفطي، و"طبقات الأطباء" لابن أبي أُصيبعة، و"نزهة الأرواح" أو"تاريخ الحكماء" للشهرزوري، وغيرها من كتب التراجم من مثل "وفيات الأعيان" و"معجم الأدباء". يقال إن عدد أطباء بغداد وحدها في عهد الخليفة المقتدر

وصل إلى(٨٦٠) طبيباً، ويقال إن سيف الدولة الحمداني، كما تقدم، كان إذا أكل الطعام حضر إلى مائدته أربعة وعشرون طبيباً، وكان فيهم الطبيب عيسى الرقّي المعروف بالتفليسي، الذي كان طبيباً مشهوراً في أيامه، عارفاً بالصناعة الطبيّة حقّ معرفتها، وله أعمال فاضلة ومعالجات بديعة "، وكان ينقل من السريانية، ويأخذ أربعة أرزاق: رزقاً بسبب الطبّ، ورزقاً بسبب النقل، ورزقين بسبب علمين آخرين. أمّا الأطباء الآخرون فكان فيهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم[٦٩٣].

ولقد ركز الأطباء في القرنين الثالث والرابع الهجريين في العناصر الأساسية في الطبّ من غذاء، ودواء، وشراب، واعتماد التجربة في البحث والعلاج، والتفات إلى نفسية المريض، وربط الغذاء بالرياضة البدنية، والاهتمام بالحميّات، والجراحة كما في " قانون " ابن سينا الذي جمع ما كتبه جالينوس في التشريح وقرّبه إلى الأفهام، وطب العيون كما عند علي بن عيسى الكحّال صاحب " تذكرة الكحّالين[٦٩٤] وابن سينا الذي عني بموضوع الرّمد كثيراً.

من أشهر الأطباء، غير من أشير إليه، أبو بكر الرازي محمد بن زكريا[٦٩٥] (ت٣١١هـ) صاحب " الحاوي " و" الجامع " و" الأعصاب " و" المنصوري " الذي ألّفه لمنصور بن نوح السّاماني. والرازي هوالذي دبّر مارستان الري ومارستان بغداد في أيام المكتفي ". من أقواله الطبيّة، مثلاً:

- " مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية ".
- " مهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركّب ".
- " إذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقلّ لبث العلّة ".

ومنهم، علي بن العباس المجوسي(ت ٣٨٤ هـ) المشهور بكتابه " الملكي " الذي صنّفه لعضد الدولة البويهي، وهو" كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبيّة علمها وعملها"[٦٩٦].

ج - الكيمياء والصيدلة:

وقاد الاهتمام بالطب إلى الاهتمام بالكيمياء والصيدلة والنبات كما كان الشأن في الأعصر السابقة، فكان الكندي وأبوبكر الرازي، امتداداً لجابر بن حيّان في الكيمياء، إذ اكتشفوا عدداً من المركبات الكيماوية. وكما صنّف الرازي "المنصوري" في الطب لمنصور بن نوح، كما تقدم، صنّف له كتاباً في إثبات صناعة الكيمياء كافأه عليه بألف دينار، وطلب إليه أن يخرج ما فيه إلى الفعل بعد أن تكفل له بكل الآلات التي طلبها، لكنه عجز، فأمر بأن يعاقب، وهكذا كان[٦٩٧].

وأفاد علماء هذا العصر من مؤلفات «جالينوس»[٦٩٨] و"ديسقوريدس" الذي ترجم أصطفان بن باسيل كتابه عن اليونانية مباشرة، وحمل الكتاب إلى الأندلس، فانتفع الناس به إلى أيام الناصر عبدالرحمن بن محمد[٦٩٩].

وعُرف في عهد هشام المؤيد بالله داود بن سليمان بن حسّان المعروف بابن جلجل، الذي كان طبيباً خبيراً بالمعالجات، جيد التصرف بصناعة الطب. فسّر أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس، وله من الكتب: "كتاب تفسير الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس" ألّفه بقرطبة عام ٣٧٢هـ، وله مقال في الأدوية التي لم يذكرها العالم اليوناني ذاك، الذي ظلّ نفر من الأطباء المعاصرين لابن جلجل يعملون على تصحيح أسماء عقاقير كتابه [٧٠٠].

د - الرياضيات والفلك والنجوم:

وكانت للعلماء في هذا العصر جهود بارزة في الرياضيات عامة: الحساب والجبر والهندسة. ومما يحسب لهم نقلهم الحساب الهندي والأرقام الهندية، التي نستعملها نحن اليوم، واستعمالهم(الصفر) للغاية نفسها التي يستعمل فيها الآن[٧٠١].

ومن علماء الرياضيات، وإن جمعوا إليها علوماً أخرى، سنان بن ثابت صاحب

التآليف في الهندسة[٧٠٢]؛ وكان من أشهرهم الحسن بن الهيثم، أبوعلي الحسن بن الحسن(٣٥٤ - ٤٣٠هـ) الذي لقّب بـ"بطليموس الثاني" لأنه "كان تلو بطليموس في العلوم الرياضية والمعقولات، وتصانيفه أكثر من أن تُحصى[٧٠٣] لا سيما في الهندسة إذ "كان علماً بهذا الشأن متقناً له متفنناً فيه، قيّماً بغوامضه ومعانيه" [٧٠٤]. ومن مؤلفاته: تهذيب المجسطي، ومصادرات إقليدس، وتربيع الدائرة، وعلل الحساب الهندي، وغيرها[٧٠٥].

وكان للعرب والمسلمين اهتمام بالفلك والنجوم قبل هذا العصر، الذي تواصلت فيه جهودهم، وهم عموماً "قالوا بإبطال صناعة التنجيم المبنيّة على الوهم، ولعلهم أول من فعل ذلك، وإن كانوا لم يستطيعوا إبطالها، ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنيّة على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء. وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الأفلاك، ويؤلفون الأزياج، ويقيسون العُروض، ويراقبون السيّارات". . . .

واهتموا بالرصد والمراصد[٧٠٦]، اهتماماً وصل إلى مداه في هذا القرن، لأن شرف الدولة بن عضد الدولة أمر برصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها في بروجها كما كان يفعل الخليفة المأمون[٧٠٧]. كان من مشاهير هذين العلمين، مثلاً: أبوالريحان البيروني؛ وأبوالحسن علي بن يونس المنجم المصري(ت ٣٩٩ هـ) الذي استعان به الخليفة الفاطمي الحاكم صاحب "الرصد الحاكمي" بسفح جبل المقطّم، وأبوالحسن علي بن هارون بن أبي منصور(٢٧٧ - ٣٥٢هـ)؛ وأبوالوفاء البوزجاني المهندس(٣٢٨ - ٣٨٧هـ) الذي "بلغ المحلّ الأعلى في الرياضيات. . . ، وكفى بذلك شاهداً تصنيفه المعنون بالمنازل ثم زيجه، ثم سائر تصانيفه"[٧٠٨].

(٦) الإبداع الأدبي:

الإبداع الأدبي، نثراً وشعراً، في هذا العصر كثير متعدد المنازع والاتجاهات، والمبدعون كثر كذلك لا تمكن الإحاطة بهم ولا بكل نتاجاتهم الإبداعية، وهوأمر غير

ممكن وغير متوقع في مبحث من فصل روعي فيه ـ وفي غيره من الفصول – إبراز أظهر الأطر والسمات والميزات التي من بينها أن جلّ كتّاب هذا العصر كانوا يقرضون الشعر، وأن بعض الشعراء كانوا يكتبون النثر، بيد أن هذا لا يعني أن نثر هؤلاء وشعر أولئك كانا من الشعر والنثر الجيدين، فأبوالقاسم عبد العزيز بن يوسف أحد كتاب آل بويه وصاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة كان من المعدودين في الرسائل الإخوانية بحيث وصفه الثعالبي بأنه " أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق . . . ، وأعيان الممدّحين المقدمين في الآداب والكتابة " لكن شعره لم يكن، فيما وصل إلينا منه، من الشعر الجيد، وإن قال عنه الثعالبي إنه : " أحسن من زهر الرياض "(٧٠٩)، وكذا كان أبوحيان التوحيدي. غير أن ثمة كتّاباً غلب عليهم النثر ولا تخلو أشعارهم من جودة من مثل : القاضي الجرجاني، وأبي بكر الخوارزمي، وابن العميد، وأبي إسحق الصابي، وبديع الزمان الهمذاني(٧١٠)، وثمة من برز في الصناعتين معاً كالشريف الرضي وأبي العلاء المعري.

وقد تعهد الثعالبي التأريخ لمبدعي القرن الرابع كتّاباً وشعراء في " يتيمة الدهر " و"تتمتها " في أمصار الدولة الإسلامية كافة، مشترطاً أن يورد من إبداعاتهم " لبّ اللّب وحبّة القلب، وناظر العين، ونكتة الكلمة، وواسطة العقد، ونقش الفص "(٧١١)، غير أنه لم يلتزم بشرطه التزاماً كاملاً(٧١٢)، إنّما خالفه بعض المخالفة معتذراً بقوله : " فإن وقع في خلال ما أكتبه البيت والبيتان ـ مما ليس من أبيات القصائد، ووسائط القلائد ـ فلأن الكلام معقود به والمعنى لا يتمّ دونه، ولأن ما يتقدمه أويليه مفتقر إليه، أولأنه شعر ملك أوأمير أو وزير أو رئيس خطير، أوإمام من أهل الأدب والعلم كبير، وإنّما ينفق مثل ذلك بالانتساب إلى قائله، لا بكثرة طائله :

وخير الشعر أكرمه رجالاً
وشرّ الشعر ما قال العبيدُ (٧١٣ – ٧١٤)

وسوّغ له القسم الأخير من عذره أن يكتب عن سيف الدولة الشاعر، وأن يعقد باباً(الرابع من الجزء الأول) لـ " مُلَح شعر آل حمدان أمراء الشام، وقضاتهم، وكتّابهم "، وأن يفرد مكاناً لعدد من الوزراء في الأندلس في بدايات الجزء الثاني، ويخصّص الباب الأول من القسم الثاني للملوك الشعراء من آل بويه الذين أردفهم ببعض وزرائهم.

وتكفّل الدكتور نبيل أبو حاتم بدراسة المبدعين في " اليتيمة " في كتابه " اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري"[٧١٥] (من خلال يتيمة الدهر) – وكان في أصله رسالته للدكتوراه – وجعله في أبواب ثلاثة من فصلين لكلّ منها، والأبواب، هي: بيئات الشعر في القرن الرابع، والموضوعات التقليدية، والاتجاهات الشعرية الجديدة.

وألحق المؤلف بكتابه " ثَبَتاً " بأسماء شعراء اليتيمة دون " التتمة " في أربعة أقسام: الأول للشعراء فقط، والثاني للكتّاب الذين لهم شعر، والثالث لمن لهم شعر من اللغويين، والأخير لمن ذكرهم الثعالبي ولهم شعر قليل. وقد جهد في الأقسام الثلاثة الأولى بتتبع مصادر أعلامها في غير " اليتيمة " وتقييدها، أمّا القسم الأخير فلم يجد لهم ذكراً في غير اليتيمة(ص ٤٣١)، ولعله يكمل صنيعه هذا فيرصد المبدعين في "التتمة " أيضاً.

أمّا الدكتور شوقي ضيف، فهوالمؤرخ الأدبي الأكبر لإبداع الدول والإمارات في سلسلة كتبه بعد كتاب " العصر العباسي الثاني " التي أصدرها تباعاً بعنوان " عصر الدول والإمارات " في خمسة أجزاء إلى الآن: الأول للجزيرة العربية والعراق وإيران، والثاني للشام، والثالث لمصر، والرابع للأندلس، والأخير لليبيا وتونس وصقلية. وللقرن الرابع حظٌ وفير فيها من حيث التأريخ السياسي والاجتماعي والعلمي المكثّف، ومن حيث الترجمة والدراسة الموجزة الوافية والنماذج في كلّ جزء لبعض المبدعين في الاتجاهات النثرية والشعرية المختلفة فحسب.

أ - النثر:

تعددت الأجناس الأدبية النثرية في هذا العصر، فكان جنس " الرسالة " في الطليعة، وهوقسمان: الرسائل السلطانيّة / الديوانية، والرسائل الإخوانية. فمن كتاب الضرب الأول، هؤلاء الوزراء الأدباء: الصاحب بن عبّاد، وابن العميد، وابن مقلة، والمهلبي، أبومحمد الحسن بن محمد(٢٩١ - ٣٥٢هـ)، والخصيبي[٧١٦]، وأبوالقاسم علي بن محمد الإسكافي النيسابوري وزير السامانيين الذين كان " أكتب الناس في السلطانيات، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعي قصير الباع "[٧١٧] والذي تقلّد ديوان الرسائل لأبي علي الصاغاني[٧١٨].

وكان من غير الوزراء: أبوإسحق إبراهيم بن هلال الصابي(٣١٠ - ٣٨٤هـ) الذي " خنق التسعين في خدمة الخلفاء، وخلافة الوزراء، وتقلّد الأعمال الجلائل، مع ديوان الرسائل"[٧١٩]، والذي كان الصاحب بن عباد " يتمنّى انحيازه إلى جنبته، وقدومه إلى حضرته "، وهوالذي كثيراً ما كان يقول: " كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة:

الأستاذ ابن العميد، وأبوالقاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبوإسحق الصابي، ولوشئت ذكرت الرابع، يعني نفسه"[٧٢٠]. كان أوحد الدنيا في إنشاء الرسائل[٧٢١]، وكانت بينه وبين الشريف الرّضي نقيب الطالبيين، مع اختلاف الملّة، مودّة ومكاتبات، ولما مات رثاه الشريف بالداليّة المشهورة التي أوّلها:

أعلمتَ من حملوا على الأعوادِ
أرأيتَ كيف خبا ضياء النادي ؟
ما كنتُ أعلم قبل دفنكَ في الثّرى
أنّ الثرى يعلوعلى الأطوادِ !

فعاتبه الناس لأنه رثى " صابئاً "، فقال " إنّما رثيت فضله»[٧٢٢]

أمّا كتّاب الضرب الآخر / الرسائل الإخوانية، فمنهم: أبوحيان التوحيدي، وعبدالعزيز بن يوسف الذي سبقت الإشارة إليه، والببغاء الأديب وإن لم تصل إلينا من رسائل هذين الأخيرين أشياء كثيرة[٧٢٣]، وأبوبكر الخوارزمي(ت ٣٨٣هـ) الذي كان "باقعة الدهر، وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم"[٧٢٤].

ويمكن أن يعدّ أبوحيان التوحيدي صاحب مدرسة نثرية كعبدالحميد الكاتب، والجاحظ، وابن العميد، وغيرهم.

لقد صنّف التوحيدي في الجاحظ كتاباً عنوانه " تقريظ الجاحظ"[٧٢٥] وقال عن كتبه: "هي الدرّ النثير، والنّور المطير، وكلامه الخمر الصرْف، والسحر الحلال"[٧٢٦].

لا أحسب أن المجال مناسب للتوسع في الذي طرحت، لكنّ، ما يقوّيه ويعضده أن روح العصر وآفاقه ومعطياته العلمية اختلفت عما كان عليه الأمر في عصر الجاحظ(القرن الثالث الهجري)، وهو إن كان أسلوبه يمثل " الطريقة التي جرى عليها المترسلون منذ القرن الثاني الهجري حتى القرن الرابع، وذلك قبل أن طغى السجع على أقلام الكتّاب. . . "، وإن كان " من خصائصه احتذاء الجاحظ في التفنن في كلّ شيء مطبوعاً على ذلك إلى الحدّ الأقصى "، فإنه " أولع بوضع الأحاديث والأسماء ووقائع التاريخ في الصورة الروائية"[٧٢٧]، وإنه لم يلجأ إلى السجع في كتبه إلاّ في "الإشارات الإلهية"[٧٢٨] حيث يمزج بين السجع والمزاوجة[٧٢٩]. يقول آدم متز: " ربما كان أعظم كتّاب النثر العرب على الإطلاق"[٧٣٠]، ويقول: " وأول ما نلاحظه أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع، وقادراً عليه، غير أننا نكاد لا(كذا) نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء. ولم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هوأبسط وأقوى وأشد تعبيراً عن مزاج صاحبه مما كتب أبوحيّان، ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع، فيجري عليها ويعظّم أصحابها، ولقد كان أبوحيان فنّاناً

غريباً بين أهل عصره»[٧٣١]. أمّا في العصر الحديث، فقد " تحول النظر عن الصناعة اللفظيّة إلى جلال العبارة القائمة على سموّ المعاني، وعمق التفكير وحسن التسلسل الفكري، فزالت عنه الحجب، وأخذ النقاد ينظرون إليه بعين غير عين أهل الصنعة اللفظية" [٧٣٢].

ومهما يكن الأمر، فإنّه إذا ما استثنينا ابن العميد من الكتّاب الديوانيين والتوحيدي من غيرهم في " الإشارات الإلهية "، فإن السيادة الأسلوبية أضحت، آنذاك، لالتزام السجع والبديع والتأنق بتزويقه بالشعر والأمثال[٧٣٣].

صفوة القول في رسائل القرن الرابع الهجري " إنها أدقّ آية من ازدهار الفن الإسلامي، ومادتها هي أنفس ما عالجته يد الفنّان، وهي اللغة؛ ولولم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للرشاقة الرقيقة، وامتلاكهم لناصية البيان في صورته الصعبة، وتلاعبهم بذلك تلاعباً" [٧٣٤]

ومن الأجناس الأدبية النثرية التي عرفها هذا العصر، بقطع النظر عن الإرهاصات والأصول، جنس " المقامة " عند بديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسين (ت٣٩٨ هـ) الذي أرى أن نحتفظ به جنساً أدبياً مستقلاً دون أن نحاول إلحاقه أو إلصاقه بأي جنس من الأجناس النثرية الحديثة كالقصة والرواية ! فلم لا تكون لنا أجناس أدبية ذات سمات نسيج وحدها خاصة بنا كغيرنا من الأمم مثل " التوقيعات " و"المقامات " و"الموشحات " ؟!.

لقد نادى زكي مبارك منذ عام ١٩٣١ م بشيء قريب من هذا حين قال: " . . . إن القرن الرابع دان اللغة العربية بفنّ من فنون القصص هو فن المقامات، وذيوع هذا الفن يرجع إلى أنه وافق السليقة العربية التي تميل إلى القصص القصيرة، والتي تميل إلى

الزخرف في الإنشاء.

وقد ظن ناس أن فنّ المقامة هوفنّ القصة، وكذلك نراهم يذكرون المقامات كلّما أثير موضوع القصة في اللغة العربية، والواقع أن العرب، بفطرتهم، لم يكونوا يميلون إلى القصص المعقّد الذي وُجد كثير منه فيما أثر عن اليونان القدماء، والذي ذاع عند الإنجليز والروس والفرنسيس والألمان.

ولا عيب في أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل، فإن الفن الصحيح يرتكز أولاً على الفطرة، ولم يكن العرب مفطورين على القصة التي تقرأ في أيام أو أسابيع، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الأقاصيص التي وجدت عند معاصريهم في الشرق والغرب"[٧٣٥].

وكان لعدد من كتّاب هذا العصر إسهامهم في فن الفكاهة النثرية الذي لم يكن من مبتكراته، بل ظهر فيه ظهوراً واضحاً. فضلاً عمّا في مقامات البديع، كما في "المقامة الشاميّة" و" المضيرية" مثلاً. وثمّة ألوان أخرى عند " أبي الخطّاب الصابي" (صفة حَمَل) و" أبي إسحق الصابي" (التعزية في ثور، وعهد التطفل)[٧٣٦].

كما كان لعدد آخر سهمة في التأليف في قصص السمر بنحو ليس عربياً خالصاً، وهي القصص التي جعلت تتسرب إلى الأدب العربي منذ القرن الثالث الهجري[٧٣٧]، إذ شرع الجهشياري بتأليف كتاب على غرار " ألف ليلة وليلة " بجمع «ألف» سمر من أسمار العرب وغيرهم، وكتب(٤٨٠) منها، لكن حمامه عاجله قبل أن يتمّها[٧٣٨]. أمّا مسكويه فألّف كتاب " أنْس الفريد "، وهو" أحسن كَتاب صنّف في الحكايات القصار والفوائد اللّطاف»[٧٣٩].

ب. الشعر:

إن عدد الشعراء فقط في " اليتيمة " وحدها دون " التتمّة " - كما يؤخذ من " ثبت

نبيل أبوحاتم" - مئتان وخمسة وأربعون(٢٤٥) شاعراً بين مشهور ومغمور ومكثر ومقلّ وملك وأمير ووزير، ناهيك عن الشعراء الكتّاب والشعراء اللغويين، وعن الشعراء الذين انفرد الثعالبي بذكرهم وعددهم تسعة وستون(٦٩). إنه عدد كبير، وليس من المعقول أن يكون صاحب اليتيمة قد استقصى كل شعراء هذا القرن حتى بعد الاستدراك بـ" تتمة اليتيمة".

لقد كان أولئك الشعراء، وغيرهم ممن فات الثعالبي أن يستوعبهم وذكروا في مصادر أخرى، موزعين على أمصار الدولة الإسلامية الواحدة وإماراتها ودولها التي انقسمت عنها، إمّا من أهلها الأصليين وإمّا من الوافدين عليها كأولئك الذين أمّوا بلاط الحمدانيين وسيف الدولة تحديداً، والذين رحلوا إلى البويهيين ووزرائهم، وإلى مصر والأندلس لأسباب شتّى منها المال والجاه والمنصب والرحلة واستدعاء الملوك والأمراء والوزراء والعمّال - باصطلاح ذلك الزمان - أنفسهم لهم. كما كانوا موزعي الموضوعات والاتجاهات الشعرية والفنيّة والميول السياسية والمذهبية والعرقيّة، حتى إننا نجد، مثلاً "الصنوبري والمتنبي وابن الحجّاج والشريف الرّضي جنباً لجنب...، وكلّ واحد منهم يشبه في الناحية التي نبغ فيها قمّة تشرف على كل القرون التالية للأدب العربي"[٧٤٠].

وإذا ما أردنا أن نلمّ بما كانت عليه حال الأدب عامة والشعر خاصة في أمصار الدولة الإسلامية كافة، نلحظ أن النهضة الأدبية في الشام هي التي ازدهرت في الدولة الحمدانية في حلب وفي عهد سيف الدولة تحديداً[٧٤١]، وهو ما سنفرده بمبحث مستقل.

وفي مصر، نهض الشعر في عهد الفاطميين لأنهم كانوا في حاجة إلى من يحمل لواء الدعوة والدعاية معاً كالذي فعله في المغرب ابن هانىءالأندلسي(متنبي المغرب) شاعر المعزّ لدين الله الذي أكرمه كثيراً وبنى له قصراً، ولما مات عام ٣٦٢هـ قال فيه:

" هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك "[٧٤٢]، ولأنهم كانوا أسخياء مع من يمدحهم ويدعو لهم. ومن الشعراء غير ابن هانىء: أبو الرّقعمق. أبوحامد أحمد بن محمد الأنطاكي(ت ٣٩٩ هـ) من الشعراء الذين وفدوا من الشام، ثمّ أقام بمصر مدة ومدح المعزّ؛ والقائد جوهراً؛ والوزير ابن كلّس وغيرهم[٧٤٣].

قال الثعالبي عنه: " نادرة الزمان. . . ، وممن تصرّف بالشعر الجزل في أنواع الجد والهزل. . . ، وهوأحد المدّاحين المجيدين. . . ، وهوبالشام كابن حجّاج بالعراق" [٧٤٤]. ومنهم تميم بن المعزّ الفاطمي(ت ٣٧٤ أو٣٧٥ هـ)، وهومن شعراء اليتيمة أيضاً[٧٤٥]. أمّا العراق، فكان فيه عدد وفير من الشعراء من مثل: ابن نباتة السعدي، مادح سيف الدولة في حلب وعضد الدولة، والوزير المهلبي بالعراق، وابن العميد بالريّ؛ وأبي الحسن السّلامي[٧٤٦] محمد بن عبدالله (٣٣٦ - ٣٩٣ هـ) الذي وصفه الثعالبي بأنه" من أشعر أهل العراق، قولاً بالإطلاق، وشهادة بالاستحقاق". لقي بالموصل، حين خرج إليها صبيّاً، أبا الفرج الببغاء، وأبا عثمان الخالدي، وأبا الحسن التلعفري، وشيوخ الشعراء، فأعجبوا به لكنهم شكّوا في شعره وشاعريته، ولما اختبره الخالدي ونجح في الاختبار زال شكهم. مدح الصاحب بن عبّاد وابن العميد. وكان منهم، كذلك، ابن سكّرة الهاشمي البغدادي أبوالحسن محمد بن عبدالله (ت ٣٨٥ هـ)، وابن الحجّاج أبوعبدالله الحسين بن أحمد(ت ٣٩١ هـ)، والاثنان من شعراء مدرسة الهزل واللهو والمجون. يقول الثعالبي في الأول: " شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع، فائق في قول المُلح والظرف، أحد فحول الأفراد، جارٍ في ميدان المجون والسخف ما أراد"[٧٤٧]، ويقول في الآخر: "هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف[٧٤٨]، ولا يبني جلّ قوله إلا على سخف، فإنه من سحرة الشعر، وعجائب العصر. . . ، فرد زمانه في فنه الذي شهر به، وأنه لم يسبق إلى طريقته، ولم يلحق شأوه في نمطه. . . ، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها، وانتظامها في سلك الملاحة

والبلاغة، وإن كانت مفصحة عن السخافة، مشوبة بلغات الخلديين والمكدين وأهل الشّطارة. ولولا أن جدّ الأدب جدّ وهزله هزل. . . . ، لصنت كتابي هذا عن كثير من كلام من يمدّ يد المجون فيعرك بها أذن الحرم، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل"[٧٤٩].

وينقل عن البغداديين فيهما معاً: " إن زماناً جاد بابن سكّرة وابن الحجّاج لسخيّ جداً. وما أشبههما إلاّ بجرير والفرزدق في عصريهما" [٧٥٠].

وكان الأخوان الشريف الرضي(٣٥٩ - ٤٠٦هـ) والشريف المرتضى(٣٥٥ - ٤٣٦هـ) ناهيك عن المتنبي، أشهر شعراء العراق، وهما خير ممثلين لشعر الطالبيين. فقد وصف الأول بأنه أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المفلقين[٧٥١]، بل وصف بأنه " أشعر قريش[٧٥٢]. أما أخوه المرتضى علي بن الطاهر فقد كان " إماماً في علم الكلام والأدب والشعر " واشتهر بوصف «الطيف»[٧٥٣]، والتأليف فيه، إذ ألّف " طيف الخيال" [٧٥٤]. وهومشهور في النثر بأماليه وقد سلفت الإشارة إليه في الكلام عن مبحث " التفسير ".

وأمّا خراسان وما وراء النهر حيث كانت الدولتان السامانيّة (٢٦١ - ٣٨٩هـ) والبويهية، فكان فيها نشاط علمي وأدبي وتأليفي مهم في مجالات شتّى كابن سينا، في الفلسفة، والخوارزمي في الآداب، والجوهري في اللغة. أمّا في الشعر، فأنجب عدداً كبيراً من الشعراء الذين أثبتهم الثعالبي في اليتيمة وأورد نماذج من أشعارهم، فهويقول عن " بخارى "، مثلاً: " كانت بخارى في الدولة السامانيّة مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر "[٧٥٥].

وكان ثمة أدباء في رحاب الدولة الغزنوية في عهد محمود خاصة، كأبي الفتح البستي الشاعر(ت ٤٠٠ أو٤٠١) [٧٥٦] كاتب محمود الغزنوي إلى جانب أبي القاسم

الميمندي وزيره.

وكان في الأندلس، غير ابن هانىء، ابن درّاج القسطلي(٣٤٧ - ٤٢١ هـ) الذي قال عنه الثعالبي: " كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام "[٧٥٧]، والذي كان من مدّاح المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر من بعده.

المهم في أمر الأندلس الشعري اختراع " الموشح "، الذي يرجّح أنه كان مولود هذا العصر بغض النظر عن الخلاف في بداياته ومخترعه الأول وأصوله[٧٥٨]. إنه جنس أدبي جديد يختلف عن " قصيدة الشطرين " المعهودة ذات الوزن الواحد والقافية الموحدة، وهو جنس معروف من " قالب " خاص في التركيب والإيقاع.

٧ - موقع الحمدانيين في العصر العلمي والأدبي:

حرصت أن يكون من منهج هذا الكتاب المخصص لعصر أبي فراس الحمداني أن يركز على نصيب الحمدانيين في كل مبحث من فصوله الثلاثة إن كان لهم فيه علقة، وأحسب أن الإشارات إليهم تعددت في مباحث هذا الفصل والفصل الثاني، أمّا الفصل الأول فكان لهم القدح المعلّى فيه. وآثرت أن أخصهم وحدهم بهذا المبحث، ما دام الكتاب معقوداً على عصر شاعرهم الأكبر، لكي يبرز دورهم وسهمتهم في النهضة العلمية والأدبية في القرن الرابع.

فعلى الرغم من عدم الاستقرار الذي كتب عليهم سواء في علاقاتهم مع بعضهم أم في الأحداث الداخلية والخارجية التي تصدوا لها لا سيما سيف الدولة، فإن ذلك كلّه لم يصرفهم عن أن يهتموا بالأدب والعلم، وعن أن يكون لهم إسهامهم فيهما، فكان أن جمعوا " بين أدوات السيف والقلم " كما يقول الثعالبي[٧٥٩].

ليس من شكّ في أن نهضة بني حمدان الثقافية تجلت أكثر ما تجلّت في حلب سيف الدولة، لكن لم تعدم ولايات آل حمدان الأخرى أن يكون لها نصيب فيها.

ففي أنطاكية كان أول اتصال للمتنبي بالحمدانيين، حيث اتصل عام ٣٣٦ هـ بأبي العشائر(الحسن بن علي بن الحسن) ابن عمّ سيف الدولة وواليها له، ومدحه بعدة قصائد[٧٦٠] أولها " القافيّة " التي مطلعها: [٧٦١]

أتــــراهــــا لـــكــــثــــرة الـــعـــشّـــاقِ
تحــسب الـــدمع خـــلْـــقـــةً في المـــآقي

فأكرمه أبوالعشائر، وعرف منزلته، وهوالذي قدّمه إلى سيف الدولة أول مرّة عام ٣٣٧ هـ، وأثنى عليه وعرّفه منزلته من الشعر والأدب، مذ ذلك التاريخ نشأت الصلة بين الأمير والشاعر الذي اشترط عليه ألاّ ينشده مديحه إلاّ وهو قاعد، فقبل سيف الدولة الشرط، وهكذا كان[٧٦٢].

غير أنّ المتنبي، كما يقول طه حسين، لم يكن " حسن الوفاء لأبي العشائر، فهو لم يكد يتصل بسيف الدولة حتى أعرض عن غيره من الناس، ونسي أبا العشائر نسياناً تاماً، فلم يذكره ولم يشر إليه. وكان الرجل خليقاً أن يلقى من صنيعته بعض الشكر على ما قدم إليه من إحسان ". ويرى طه حسين، أيضاً، أنّ هذا كلّه ربما كان ميسّراً لشيءمن(الحلف) بين أبي العشائر وأبي فراس وأصحابه على قتل المتنبي غيلة، لا سيما أن إحدى أختي أبي فراس كانت زوج أبي العشائر الذي حمى المتنبي حين جاءه لاجئاً إليه عائذاً به والذي قدّمه إلى سيف الدولة[٧٦٣].

إذا ما أضفنا إلى هذا ما كان بين أبي فراس والمتنبي وبين هذا الأخير وابن خالويه والحاتمي والسّلامي وغيرهم ممن كانوا لا يرغبون فيه في بلاط سيف الدولة من خصومات ترتد إلى الحسد والغيرة من تقريب سيف الدولة للمتنبي واهتمامه الكبير به والإحسان إليه، وأضفنا إليه، كذلك، ما ذهب إليه محمود شاكر من أنه كان ثمة علاقة تربط المتنبي بخولة أخت سيف الدولة استنتجها من رثاء الشاعر لها بالبائية المشهورة التي مطلعها[٧٦٤]:

يـــا أختَ خـــيـــر أخٍ، يـــا بـــنتَ خـــيـــر أبٍ

كـنـايـة بـهـمـا عن أشـرفِ الـنـسبِ

والتي منها هذان البيتان السائران :

طـوى الجـزيـرة حـتى جـاءني خـبـرٌ
فـزِعتُ فـيه بـآمـالي إلى الـكـذبِ
حـتى إذا لـم يـدعْ لي صـدقه أمـلاً
شـرقتُ بـالـدّمع حـتى كـاد يـشـرق بي

إذا ما أضفنا هذه الأسباب إلى بعضها ، فإنها قد تفسّر جوانب مهمة من ترك المتنبي سيف الدولة إلى كافور .

وكان في الموصل ، إبّان إمرة ناصر الدولة ، شعراء كثيرون سواء من أهلها الأصليين أم من الوافدين عليها . فمن أهل الموصل ، مثلاً ، كان :

الخبّاز البلدي[٧٦٥] (أبوبكر محمد بن أحمد بن حمدان) ، والسريّ الرّفاء ، والخالديان ، وقد أوردهم الثعالبي جميعاً في اليتيمة وذكر أطرافاً من أخبارهم ونماذج من أشعارهم . وكان من أشهر الوافدين أبوالحسن السّلامي الذي وفد على الموصل "وهوصبي حين راهق " ، وشك شيوخ شعرائها في شعره إلى أن اختبره أبوعثمان الخالدي كما تقدم .

وكان آل حمدان من الأسر الشاعرة كما يبدو من " الباب " الذي عقده الثعالبي لهم في " اليتيمة " بصرف النظر عن القيم الفنيّة لشعر أكثرهم . وإذا ما استثنينا سيف الدولة وأبا فراس مؤقتاً تطالعنا أسماء أبي زهير مهلهل بن نصر بن حمدان ، وأبي العشائر وأبي وائل تغلب بن داود بن حمدان ، وأبي المطاع بن ناصر الدولة ، ، والحسين بن ناصر الدولة[٧٦٦] . ولما عوتب المتنبي في آخر أيامه ، على تراجع شعره ، قال : "قد تجوزت في قولي ، وأعفيت طبعي ، واغتنمت الراحة مذ فارقت آل حمدان ، وفيهم من

يقول" : [٧٦٧] ويذكر الثعالبي عدداً من الشعراء المقلين من الأمراء والقضاة والكتاب الذين أدرج شعرهم في عنوانه الكبير : " في ملح شعر آل حمدان أمراء الشّام وقضاتهم وكتّابهم " ، هم :

(١) منصور وأحمد ابنا كيغلغ الأديبان الشاعران من أولاد أمراء الشام[٧٦٨] .

(٢) أبومحمد جعفر وأبوأحمد عبدالله ابنا ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوّادها المختصين بسيف الدولة ، وكانت بينهما وبين أبي فراس مكاتبات ومجاوبات ، إذ أرسل إليهما من قصيدة يقول :

أتـــــانـي عن بــــــني ورقـــــاء قـــــولٌ
ألـــــذّ جـــــنًى من المـــــاء الـــــقـــــراحِ

فأجابه أبوأحمد بقصيدة أوّلها :

أصـــاحٍ قـــلـــبه أم غـــيـــر صـــاحِ
وقـــد عَـــنَّتْ له عُـــفْـــر الـــبـــطـــاحِ

وله ولأخيه " معارضات " أخرى لبعض قصائد أبي فراس ، وله هوقصيدة "يائيّة"عرض فيها لبني كعب وضرب سيف الدولة لهم . وكانت بينهما وبين أبي إسحق الصابي مكاتبات شعرية بعد وفاة سيف الدولة[٧٦٩] .

(٣) أبوحصين علي بن عبدالملك الرّقي القاضي بحلب[٧٧٠] ، الذي قال فيه السريّ الرفّاء :

لـــقـــد أضـــحتْ خِلال أبـــوحـــصـــينٍ
حـــصـــونـــاً في المـــلـــمّـــات الـــصّـــعـــابِ

وكانت بينه وبين أبي فراس مودة تبدو مما كان بينهما من مكاتبات / معارضات شعرية . فلمّا كتب إليه أبوفراس ، وقد عزم المسير إلى الرقّة ، قصيدة مطلعها :

يـــا طـــول شـــوقي إنْ كـــان الـــرحـــيل غـــدا

لا فـرّق الـلـه فـيـمـا بـيـنـنـا أبـدا

أجابه القاضي بقصيدة أوّلها :

الحـمـد لـلـه حـمـداً دائـمـاً أبـدا

أعـطـاني الـدهـر مـا لـم يُـعـطه أحـدا

هي التي ذكر فيها سيف الدولة ، فقال منها :

لـولا الأمـيـر وأنّ الـفـضل مـبـدؤُهُ

مـنه لـقـلـتُ بـأنّ الـفـضل مـنك بـدا

(٤) أبوالفرج سلامة بن بحر أحد قضاة سيف الدولة ، الذي كان ينظم شعراً "يكاد يمتزج بأجزاء الهواء رقةً وخفّة ، ويجري مع الماء لطافة وسلاسة" [٧٧١] .

(٥) أبومحمد عبدالله بن عمرو بن محمد الفياض كاتب سيف الدولة ونديمه . وقد مضى الكلام عنه[٧٧٢] .

(٦) أبوالقاسم الشيظمي . لم يذكر له الثعالبي سوى مقطوعة من ثلاثة أبيات في وصف " نمرقة " رآها بجنب سيف الدولة[٧٧٣] . ويبدو أن " الشيظمي " لقبه ، فابن النديم يقول : " واسمه . . . .[٧٧٤] ، وكان يجول ، ثمّ انقطع إلى سيف الدولة . وقد عمل شعره قبل موته ، ومقداره نحوخمسمائة ورقة" [٧٧٥] .

(٧) أبوذر أستاذ سيف الدولة ، وقد مرّ ذكره .

(٨) أبوالفتح البكتمري المعروف بابن الكاتب الشاميّ [٧٧٦] .

(٩) أبوالفرج العجلي الكاتب[٧٧٧] .

(١٠) ابن خالويه أستاذ بني حمدان[٧٧٨] ، وقد سلف الحديث عنه .

(١١) ابن جنّي[٧٧٩]، وقد مضى الكلام عنه.

(١٢) الشمشاطي، أبوالفتح الحسن بن علي بن محمد، ولم يقع للثعالبي من شعره سوى بيتين في البنفسج ومثلهما في "الجلّنار" [٧٨٠] وهوالذي اختار مع كاتب سيف الدولة محمد الفيّاض عشرة آلاف بيت من مدائح الشعراء في أميرهم[٧٨١].

أمّا سيف الدولة، فكان شاعراً وناقداً(بالمفهوم السائد آنذاك) في آن، وقد ألمعت إلى شيء من شعره في فصل "العصر الاجتماعي"، وإلى شيء من نقده في فصل "العصر العلمي والأدبي" واستشهدت عليهما ببعض المُثُل، وها أنذا أستكمل الموضوع.

يستفاد من المُلح / النماذج التي أثبتها الثعالبي[٧٨٢] أن الرجل كان ينظم الشعر في الوصف، والغزل، فمن وصفه قوله في قوس قزح:

وقد نشرتْ أيدي الجنوب مطارفاً
على الجوّ دُكناً والحواشي على الأرضِ
يطرّزها قوس الغمام بأصفرٍ
على أحمرٍ في أخضرٍ تحت مبيضِّ
كأذيال خَوْدٍ أقبلتْ في غلائلٍ
مُصَبّغةٍ والبعضُ أقصر من بعضِ

الذي يقول فيه الثعالبي "وهذا من التشبيهات الملوكيّة التي لا يكاد يحضر مثلها السوقة".

ومن غزله، غير الذي ذكرته له في جاريته الروميّة، قوله:

تجـــنّى عـــليّ الـــذنب والـــذنب ذنـــبُهُ
وعـاتــبـني ظـلـمـاً وفي شـقّه الـعـتْبُ
وأعــرض لمــا صــار قــلــبي بــكــفّهِ
فـهلا جـفـاني حـين كـان ليَ الـقـلبُ ؟
إذا بَــرِم المــولى بــخــدمــة عــبــدهِ
تجــنّى له ذنــبـــاً وإنْ لم يــكن ذنـبُ

وأمّا سيف الدولة الناقد، فكان يطلب إلى الشعراء في مجلسه، الذي سبق الكلام عنه، " إجازة " أبيات أوأنصاف أبيات كان ينظمها، كالذي جرى بينه وبين ابن عمّه أبي فراس فيما مضى من كلام. وكان ينقد عليهم بعض أشعارهم كنقده الذي ذكرته لبيتي المتنبي فيه من " ميميّة " معروفة. وأذكر، هنا، أن أحد الخالديين، وقد كان من خواص شعرائه، أنشده قصيدة طويلة منها هذا البيت :

فـغـدا لـنـا من جـودكِ المـأكـول والـ
ـمـشـروب والمـنـكـوح والمـلـبـوسُ

فقال له سيف الدولة " أحسنت إلاّ في لفظة(المنكوح)، فليست مما يخاطب بها الملوك[٧٨٣]. وهذا من النقد الاجتماعي الذي يندرج في مفهوم " اللياقة الاجتماعية "، وليس من النقد الأدبي، وهوكثير في نقدنا العربي القديم.

ليس من شك في أن ذلك كلّه ـ وثمة غيره ـ كان نتاجاً طبيعياً لاهتمامات الأمير الحمداني الأدبية والثقافية والعلمية المتنوعة كما يتجلى ممّا كان يدور في مجالسه، التي سلفت الإشارة إليها، ومما كان يفيده من مجالسيه المقيمين والوافدين في أوقات السلم. فثمة إشارة إلى أستاذ له اسمه «أبوذرّ»[٧٨٤]، وثمة خبر عن أن آل حمدان كانوا يدرسون على ابن خالويه[٧٨٥]. أمّا كاتبه ونديمه أبومحمد عبدالله بن

عمرو بن محمد الفياض، الذي كان معروفاً " ببعد المدى في مضمار الأدب وحلبة الكتابة "، فلم يكن "يؤثر عليه في السفارة إلى الحضرة أحداً لحسن عبارته وقوة بيانه، ونفاذه في استغراق الأغراض، وتحصيل المراد" (٧٨٦).

ذهب الدكتور طه حسين إلى أن ثقافة سيف الدولة كانت " واسعة عميقة فيما يظهر. . . ، وكانت بيئته الخاصة التي نشأ فيها تهيئه لحياة مثقفة لها حظٌ لا بأس به من المشاركة في العلم والأدب، والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهرة التي كانت مسيطرة ببغداد. . . . ، وثقافة سيف الدولة تظهر في أحاديثه ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن، وقدرته على التمييز الدقيق بين ما كان يقال في مجلسه من الصواب والخطأ ومن الجيد والرديء، ورغبته في أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء، وفي أن تتفرع فيها الثقافات، فتوجد الفلسفة إلى جانب العلم، وتوجد علوم الدين إلى جانب علوم اللغة والأدب.

وما كان الرجل يصنع هذا عن جهل، ولا عن غرور، ولا عن رغبة في المنافسة للمنافسة من حيث هي، بل عن بصيرة وحسن رأي، وعلم بما يأتي وما يدع، وتقدير صحيح لأثر الحياة العقلية المزدهرة في نشر الدعوة، وإعلان ما كان يريد لملكه ودولته من أُبّهة وجلال. . . وما أستبعد أن يكون سيف الدولة قد ألمّ شيئاً باليونانية وثقافة اليونانيين، لاتصاله اليومي أثناء حياته كلها باليونان وشئون اليونان"(٧٨٧).

إذا ما حاولنا أن نطبّق ما جاء في نص طه حسين الطويل هذا تطبيقاً واقعياً على ما يجري في جنبات بلاط سيف الدولة ومجالسه مبتدئين بالنص من آخره تبين لنا أن الرجل كانت له عناية ما بالأمور العلمية البحتة وبالطب تحديداً، وإن كان اهتمامه به خاصاً. فقد سلف الكلام عن أنه كان يحضر إلى مائدته، حين يأكل، أربعة وعشرون

طبيباً كان عيسى الرّقي أحدهم. وكان من أطبائه الفلاسفة أبوالحسين كشكرايا، الذي كان " طبيباً عالماً مشهوراً بالفضل والإتقان لصناعة الطب، وجودة المزاولة لأعمالها " والذي استخدمه، كذلك، عضد الدولة البويهي لمّا بنى البيمارستان المنسوب إليه ببغداد. وهو معروف بصاحب " الحقنة " وبكناشه " الحاوي "؛ وكان من أنجب تلاميذ سنان بن ثابت بن قرّة[٧٨٨].

وكان الفارابي، أشهر العلماء الذين عرفهم بلاط سيف الدولة في الطب والفلسفة والموسيقى. ولقد مضى الكلام عنه مرتين: الأولى في فصل العصر الاجتماعي في الحديث عن الموسيقى وما كان لها من شأن في بلاط سيف الدولة حيث نقلت شيئاً من الحوار الذي دار بينه وبين الأمير في الموسيقى والذي عاب فيه مهرة هذه الصنعة في بلاطه؛ وقد قيل إنه هومخترع آلة " القانون "، وإنه كان " مطرب " الأمير. والأخرى، في موضوع " الفلسفة " من مبحث العلوم العقلية في هذا الفصل.

بقي أن يشار إليه هنا طبيباً، إذ قيل: " كانت له قوة في صناعة الطبّ، وعلم بالأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها ولا حاول جزئياتها"[٧٨٩]، وقيل: " صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم[٧٩٠].

من المهم أن يشار، في الفارابي، إلى ما يذهب إليه مصطفى الشكعة من أنه " كان عمدة للحياة العقلية عند بني حمدان "، وأن فلسفته " كان لها أثرها في الشعر الحمداني، وعند المتنبي على وجه الخصوص ". ففي حين يجعل الفارابي، في الأخلاق، للعقل والمعرفة المقام الأول، يقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ

هو أوّل، وهي المحلّ الثاني

وفي حين يُرجع الفارابي كلّ شيء إلى الأخلاق في مدينته الفاضلة، ويرى أن

أهل المدينة الجاهلة بلا عقل وفي مرتبة البهائم، يقول أبوالطيب:

لولا العقول لكان أدنى ضيغمٍ[٧٩١]

أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ

ويزيد الدارس نفسه: " ولعل الحكم الكثيرة التي شاعت في شعر الحمدانيين لم تكن هي الأخرى إلاّ صدىً لآثار الفارابي الفيلسوف وأفكاره التي نثرها في حلب ودمشق في ظلّ حكم الحمدانيين[٧٩٢].

ويذكر ابن النديم، في أسماء "الصنّاع"، اثنين كانا مع سيف الدولة، الأول شجاع ابن . . . . . .[٧٩٣] غلام بيطولس، والأخرى العجليّة ابنة العجلي الإسطرلابي غلام بيطولس أيضاً[٧٩٤].

وعاش في العهد الحمداني أبوالقاسم المجتبي عليّ بن أحمد الأنطاكي (ت ٣٧٦هـ) الذي استوطن بغداد إلى أن مات فيها، وكان من أصحاب عضد الدولة بن بويه المقدّمين عنده. اشتهر بعلم العدد والهندسة، وله فيهما تصانيف كثيرة، منها: التخت الكبير في الحساب الهندي، وكتاب الحساب على التخت بلا محو، وكتاب الموازين العددية، وكتاب الحساب بلا تخت بل باليد، وكتاب شرح إقليدس، وغيرها[٧٩٥].

وديونيسيوس المهندس الرياضي، والمنجّم الصابي البعلبكي[٧٩٦]، وأبوالقاسم الرقّي المنجّم الفلكي الذي كان ممن صحبوا سيف الدولة، وخدموه، واختصوا به، وحضروا مجالسه[٧٩٧]. وقمين بالإشارة أن سيف الدولة نفسه كان يؤمن بالتنجيم ويعمل به، إذ كتب إلى ابنه أبي المعالي، بعد أن قضى على ثورة رشيق النسيمي من وجوه طرسوس ودِزْبر الديلمي في أنطاكية عام ٣٥٤هـ ما يأتي: " . . . ، ثم عبرت الفرات، ونظرت في التقويم فوجدت الكسوف، فتأملته على حسب ما أوجبه علم النجوم والمولد، فكان غشاءً على أعدائنا فقصدتهم، وهم على مرحلة من حلب

بالناعورة"[٧٩٨].

وأورد محمد كرد علي قائمة كبيرة بعلماء الشام في الحديث والفقه والجغرافية والطب والنجوم والرياضيات والأدب شعره ونثره[٧٩٩]، منهم: إبراهيم بن عبدالرزاق الأنطاكي مقرىء أهل الشام، وعمر الأنطاكي وعبدالوهاب الكلابي من أهل الحديث، والمقدسي صاحب " أحسن التقاسيم ". في الجغرافية وقد سبق الكلام عنه، وغيرهم. وكان من مشاهير هؤلاء ابن نباتة الفارقي عبدالرحيم بن محمد(٣٣٥ - ٣٧٤هـ) في الخطابة والوعظ. كان خطيب حلب وواعظها في بلاط سيف الدولة[٨٠٠]، وبها اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة، وقيل إنه سمع عليه بعض ديوانه. وقد أكثر من خطب الجهاد ليحضّ الناس عليه ويحثُّهم على نصرة سيف الدولة في غزواته الكثيرة[٨٠١]. وقد كان يعمل خطب الجهاد ويحسن في تصنيفها حتى إنه صعد في إحدى السنوات، المنبر وخطب الناس الذين كانوا يملؤون الجامع، فخرج أكثرهم من الجامع إلى الغزاة رأساً[٨٠٢]. ولا يقل عنه شهرة في الكتابة أبوالفرج عبدالواحد بن نصر المعروف بالببغاء(ت ٣٩٨هـ) الشاعر الكاتب، الذي كان " في عنفوان أمره وريعان شبابه متصلاً بسيف الدولة، مقيماً في جملته، ثم تنقلت به، بعد وفاة صاحبه، الأحوال في وروده الموصل وبغداد ومنادمته بهما الملوك والرؤساء، وإخفاقه مرّة وإنجاحه أخرى"[٨٠٣]. وصفه الثعالبي بأنه " واحد أفراد الدهر في النظم والنثر"[٨٠٤]، ويقول شوقي ضيف: "ولعل كاتباً في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبوالفرج"[٨٠٥].

ولمعت في بلاط سيف الدولة ومجالسه أسماء معروفة في اللغة والأدب أمثال أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني اللذين سبق الحديث عنهما، علمياً، في مبحث " علوم اللغة " من هذا الفصل، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي الطيب اللغوي.

فأمّا أبوبكر الخوارزمي، وقد تقدم شيء عنه، فيقال إنه كان "يقيم في شبيبته بحلب في بلاط سيف الدولة. ثم توجه إلى بخارى قاصداً أبا علي البلعمي وزير آل سامان، ولكنه فارقه سريعاً فقصد نيسابور وسجستان[٨٠٦] وأنه أقام بالشام مدة، وسكن بنواحي حلب، وكان مشاراً إليه في عصره" [٨٠٧].

أمّا أبوالطيب اللغوي الحلبي، عبد الواحد بن عليّ، فأصله من عسكر مُكْرم في خوزستان. قدم إلى حلب ليكون في رحاب سيف الدولة. كان من العلماء المبرّزين في اللغة وصاحب تصانيف ضاع أكثرها، ومما وصل إلينا منها وطبع: كتابا "الإبدال" و"الإتباع"[٨٠٨]، و«شجر الدرّ»، و«مراتب النحويين». ظلّ في حلب إلى أن قتله الدّمستق مع من قتل حين دخلها عام ٣٥١هـ، كانت بينه وبين ابن خالويه منافسات ومنازعات ومحاسدة[٨٠٩]، ربما كان سببها أن سيف الدولة أرسل إليه منْ يسأله عن مسائل في اللغة فلم يستطع أن يجيب عنها فوراً فاضطرب ودخل خزانته، وأخرج كتب اللغة، وفرّقها على أصحابه يفتشونها ليجيب عنها، في حين أن أبا الطيب اللغوي، الذي كان في المجلس، أجاب عنها فوراً[٨١٠]. وثمة رواية أخرى مفادها أن المتنبي وأبا الطيب اللغوي وابن خالويه كانوا ثلاثتهم بحضرة سيف الدولة، وقد جرت مسألة في اللغة بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه والمتنبي ساكت، غير أن الأمير دعاه للكلام، فتكلّم بما قوّى حجة أبي الطيب اللغوي وضعّف حجة الآخر، فما كان منه إلاّ ضرب المتنبي بمفتاح كان في كمّه، فغضب المتنبي لأن سيف الدولة لم ينتصر له، وكان ذلك أحد أسباب فراقه له[٨١١]. وكان ابن خالويه يلقّب أبا الطيب اللغوي بـِ" قرموطة الكبرتل "أي "دحروجة الجُعل" [٨١٢].

وحُكي عن أبي إسحق الصابي أن رسولاً لسيف الدولة أمّ بغداد وطلب إليه، بتكليف من الأمير، شعراً، فأعطاه ـ بعد مدافعة ـ هذه الأبيات الثلاثة:

إن كـنتُ خـنـتكَ في المـودّة سـاعـةً

فـــذممتُ ســـيف الـــدولـــة المحـــمـــودا

وزعـــمـتُ أنّ لـه شـــريـــكـــاً في الـــعلا

وجـــحـــدتُه في فـضـــلـه الـــتـــوحـــيـــدا

قـسـمـاً لـو انّي حـالف بـغـمـوسـهـا[٨١٣]

لـــغـــريـم ديْـنٍ مـــا أراد مـــزيـــدا

ولما عاد الرسول، ودخل عليه الصابي مسلّماً أعطاه كيساً بختم الأمير مكتوباً عليه اسمه وفيه ثلاثمائة دينار[٨١٤]. ويقال إنه راسل المتنبي ليمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم، فامتنع خشية أن يتغيّر عليه الوزير المهلبي - لأن المتنبي رفض أن يمدحه – وقال له: " فإن كنت لا تبالي هذه الحال، فأنا أُجيبك إلى ما التمست، وما أريد منك مالاً، ولا عن شعري عوضاً "، فقال الصابي: " فتنبّهت على موضع الغلط، وعلمت أنه قد نصح، فلم أعاوده" [٨١٥].

ويُروى أن أبا الفرج الأصفهاني علي بن الحسين(٢٨٤ – ٣٥٦هـ) ألّف "الأغاني" في خمسين سنة، وكتبه مرة واحدة في عمره، هي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة[٨١٦]. ولما انتخب الوزير أبوالقاسم الحسن بن الحسن المغربيّ لسيف الدولة ما انتخب من "الأغاني" أعطاه ألف دينار[٨١٧]، فلما علم الصاحب بن عبّاد بذلك، قال: "لقد قصّر سيف الدولة، وإنه يستأهل أضعافها"، وقال عن الكتاب: " لقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره، ولا راقني منها سواه" [٨١٨].

أمّا الكتابة، فكان من كتاب الأمير الخاصين، كما تقدّم، أبومحمد الفيّاض، وجعفر بن ورقاء الشيباني، وأبوالفرج الببغاء، ووزيره ونديمه أبوعلي أحمد بن الحسين ابن منصور البازيار.

وأمّا الشعراء مقيمين كانوا أم وافدين، فما كان أكثرهم. ولقد قيل: " فلم يجتمع قطّ بباب أحد الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر"[819]. وقد شجعهم غير عامل على هذا، فالأمير نفسه وابن عمّه أبوفراس ونفر من آل حمدان كانوا شعراء، وكان سيف الدولة مثقّفاً محباً للعلم والأدب ذا صلة بهما مقدّراً لأهليهما، وكريماً يغدق الأموال على الأدباء بسخاء في مجالسه وغير مجالسه، وقد ضرب لهذه الغاية نقوداً خاصة، فضلاً عن أنه كاد يكون الوحيد الذي دافع عن ثغور الإسلام، وعن التنافس العلمي والأدبي بين أمراء الدول آنذاك.

عرف بلاط سيف الدولة من شيوخ الشعراء، غير المتنبي وأبي فراس، السريّ الرفّاء والخالديين، وأبا بكر الصنوبري، وأبا الفرج الببغاء الذي مرّ الكلام عنه، والنامي، والزاهي، والناشىء الأصغر؛ وكشاجم، والوأواء الدمشقي، وغيرهم.

حسبي أن أقف على أهم أخبار كلّ منهم ممّن له علاقة باتصاله بسيف الدولة:

فأمّا السريّ (ت ٣٦٢ أو٣٦٤هـ)[820]، فموصليّ لحّاً، أُسلم صبيّاً في الرفائين بالموصل، فكان يرفو ويطرز إلى أن قضى باكورة شبابه، وظلّ في ضنك من العيش إلى أن خرج إلى حلب واتصل بسيف الدولة ومدحه كثيراً[821]. " فطلع سعده بعد الأفول، وبَعُد صيته بعد الخمول، وحسن موقع شعره عند الأمراء من بني حمدان ورؤساء الشام والعراق"، إذ مدح المهلبي الوزير وغيره. ونابذ الخالديين الموصليين، كذلك، وناصبهما العداوة، وادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره، ودسّ في شعر كشاجم، الذي كان ينسخه، أحسن شعرهما، ليزيد في حجم ما ينسخ ويشنّع عليهما.

أمّا الخالديان، فكانا من قرية " الخالدية " بالموصل[822]، وكانا " يشتركان في قرض الشعر وينفردان[823]. التحقا بخدمة سيف الدولة، وأصبحا من خواص شعرائه، وفي مقدمة ندمائه، ومن خزنة كتبه كما تقدم. وقد مدحاه فكان لهما نصيب في عطاياه

وهداياه[٨٢٤]، لكنهما انصرفا من عنده " على حدّ مغاضبة " كما يقول أبوالعلاء المعري[٨٢٥]. وكانت لهما مع السريّ الرّفاء ما مضى الكلام عنه قبل قليل .

وأمّا أبوبكر الصنوبري شاعر الطبيعة المعروف، فهوأنطاكي أصلاً، توفي عام ٣٣٤هـ أي بعد إمرة سيف الدولة على حلب بسنة واحدة، فقط[٨٢٦]. معنى هذا أنه لم يبق في خدمة الأمير سوى سنة واحدة كان فيها أحد خزنة كتبه . غير أن صلته بسيف الدولة كانت أقدم من توليه إمارة حلب، وله فيه قصائد تمدحه في غزوه الروم[٨٢٧].

وكان أبوالعبّاس الناميّ أحمد بن محمد الدّارمي المصيصي المختلف في وفاته[٨٢٨] من فحول شعراء العصر، وخواص شعراء سيف الدولة، إذ كان عنده تلوالمتنبي في المنزلة والرتبة[٨٢٩]؛ وكانت له مع المتنبي وقائع ومعارضات[٨٣٠]. أورد له الثعالبي شعراً في سيف الدولة وناصر الدولة[٨٣١].

أمّا أبوالقاسم الزّاهي عليّ بن إسحق بن خلف البغدادي (٣١٨ - ٣٥٢هـ)، فكان وصّافاً محسناً، كثير المدح والظّرْف[٨٣٢]. مدح سيف الدولة والوزير المهلبيّ وغيرهما من رؤساء وقته[٨٣٣]، وقال الشعر في جميع الفنون وإن لم يقع شعره إلى الثعالبي آنذاك[٨٣٤].

وأمّا الناشيء الأصغر عليّ بن عبدالله بن وصيف (٢٧١ - ٣٦٥ أو٣٦٦ هـ)، فقد مضى إلى الكوفة عام ٣٢٥هـ وأملى شعره في مسجدها الجامع والناس يكتبون عنه، وكان المتنبي أحدهم وهو لم يعرف بعد ولم يلقب بهذا اللقب[٨٣٥]. كان قد قصد سيف الدولة بحلب ومدحه، ولما عزم على مفارقته وقد غمره بإحسانه، قال:[٨٣٦]

أودّع لا أنّي أودّع طائعا

وأُعطي بكرهي الدهر ما كنتُ مانعا

تَحمَّلتَ عنّا بالصنائع والعلا

فـنـسـتـودع الـلـه الـعلا والـصـنـائـعـا
رعـــاكَ الـــذي يـــرعى بـــســـيـــفكَ ديـــنَهُ
ولـــقّـــاكَ روض الـــعـــيش أخــضــرَ يــانــعــا

وكان كشاجم[٨٣٧] أبوالفتح محمود بن الحسن المختلف في أصله وتاريخ وفاته ممن عملوا في خدمة سيف الدولة منجّماً ورئيساً للطبّاخين، ومن شعراء والده أبي الهيجاء عبدالله الحمداني[٨٣٨]، وكان صديقاً للصنوبري[٨٣٩].

كما كان الوأواء الدمشقي أبوالفرج محمد بن أحمد(وقيل محمد) الغسّاني[٨٤٠] (ت حوالي ٣٩٠هـ) ممن نال رضا سيف الدولة وحظوته بمدحه له في دمشق بين عام ٣٣٣ وعام ٣٣٥هـ.

وكان لابن نباتة السعدي(٣٢٧ - ٤٠٥هـ) في سيف الدولة " غرّ القصائد، ونخب المدائح، وكان قد أعطاه فرساً أدهم أغرّ محجّلاً" [٨٤١].

بقي غير هؤلاء عدد آخر من شعراء سيف الدولة كأبي عبدالله الخليع الشامي الذي " أدرك زمان البحتري، وبقي إلى أيام سيف الدولة فانخرط في سلك شعرائه"[٨٤٢]؛ والمغنم المصري، الذي قال عنه ابن النديم: " من شعراء سيف الدولة"[٨٤٣]؛ وعبدالله بن أبي الجوع[٨٤٤]؛ وأبي علي صالح بن رشدين الكاتب[٨٤٥].

إن أخبار سيف الدولة، كما يقول ابن خلّكان: " كثيرة مع الشعراء. . . ، وفي تعدادهم طول[٨٤٦] " حسبنا من ذكرنا، فليس المقام مقام استقصاء.

بيد أنه تحسن الإشارة إلى ما كان بين بعض من ضمّهم بلاط سيف الدولة من العلماء والأدباء من خصومات ومنازعات ألمعت إلى بعضها، لعل أكبرها ما كان بين قطبي الرحى أبي فراس والمتنبي وأنصار كلّ منهما. فالمتنبي يشهد لأبي فراس "بالتقدم

والتبريز، ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته، ولا يجترىء على مجاراته"، لكنه "لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان"؛ وقد فُسِّر هذا بالتهيب والإجلال، لا الإغفال والإخلال[٨٤٧]، وهوتفسير غريب! أما أبوفراس، فيروى عنه أنه قال لسيف الدولة: "إن هذا المتمشدق كثير الإدلال عليك، وأنت تعطيه كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرّق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خيرمن شعره". ويقال إن الأمير تأثر بهذا الكلام وعمل به، وكان المتنبي غائباً. ولما بلغته القصة دخل على سيف الدولة وأنشده أبياتاً معاتباً:

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً

فداه الورى أمضى السيوف مضاربا...

فأطرق سيف الدولة ولم ينظر إليه كعادته، فخرج المتنبي متغيّراً، وحضر أبوفراس وعدد من الشعراء، فبالغوا في الوقيعة في حق المتنبي الذي انقطع ونظم القصيدة التي مطلعها:

واحرَّ قلباه مِمَّن قلبه شبمُ

ومَن بجسمي وحالي عنده سقمُ

وجاء فأنشدها، وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقّه:

مالي أُكتّم حبّاً قد برى جسدي

وتدّعي حبّ سيف الدولة الأممُ ؟!

فهمّ جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة، لشدة إدلاله وإعراض سيف الدولة عنه. وبدءاً من قوله:

يا أعدلَ الناس إلاّ في مُعاملتي

فيكَ الخصام وأنتَ الخصمُ والحكمُ

أخذ أبوفراس يتدخل مدّعياً سرقة المتنبي لبعض أبياته في القصيدة من غيره من الشعراء وينقد بعضها، لكن سيف الدولة غضب من كثرة مناقشة هذه القصيدة وكثرة دعاوي الشاعر فيها، وضَربه بالدواة التي بين يديه، فقال في الحال:

إنْ كـــان ســـرَّكم مـــا قـــال حـــاســـدنـــا

فـــــمـــــا لجـــــرحٍ إذا أرضـــــاكُمُ ألـمُ

فأُعجب الأمير بهذا البيت ولم يلتفت إلى ما قال أبوفراس فيه، بل رضي عن المتنبي في الحال، وأدناه إليه، وقبّل رأسه، وأجازه بألف دينار، ثم أردفه بألف أخرى، فقال المتنبي:

جـــاءتْ دنـــانـــيـــركَ مـــخـــتـــومـــةً

عـــاجـــلـــةً ألـــفـــاً عـــلـى ألـفِ

أشـــبـــهـــهـــا فـــعـــلكَ في فـــيـــلقٍ

قـــلـــبـــتَه صـــفّـــاً عـــلـى صفِّ

وقال في آخرها:

شـــرّ الـــبلاد مـــكـــان لا صـــديق بِهِ

وشـرّ مـا يـكـسب الإنـسـان مـا يـصمُ (٨٤٨)

وكان من أعداء المتنبي وحسّاده الآخرين أبوالعباس النامي الذي ظل سيف الدولة يميل إليه ميلاً شديداً إلى أن جاءه المتنبي، فمال عنه، فغاظه ذلك، واهتبل الفرصة مرّة، فسأله عن سرّ تفضيله " ابن عيدان السقا"(المتنبي) عليه، فأجابه بعد إلحاح: لأنّك لا تحسن أن تقول كقوله:

يـــعـــود مِنْ كل فـــتحٍ غـــيـــرَ مُـــفـــتـــخـــرٍ

وقـــد أغـــذّ إلـــيه غـــيـــر مُـــحـــتـــفلِ

فنهض من بين يديه مغضباً، وهوالقائل : " كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي ، وكنت أشتهي أن أكون سبقته إلى معنيين قالهما ما سُبق إليهما" [٨٤٩].

وحُكي عن أبي الفرج الببغاء : " كان أبوالطيب يأنس بي ، ويشكو من سيف الدولة ، ويأمنني على غيبته له ، وكانت الحال بيني وبينه عامرة دون باقي الشعراء ، وكان سيف الدولة يغتاظ من تعاظمه ، ويجفو عليه إذا كلّمه ، والمتنبي يجيبه في أكثر الأوقات ، ويتغاضى في بعضها" [٨٥٠].

ورُوي عن ابن جني ، الذي قرأ ديوان المتنبي عليه ، أنه قرأ عليه قصيدته في كافور التي أوّلها :

أُغالب فيكَ الشوق والشوق أغلبُ

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجبُ

فلما بلغ إلى قوله :

ألا ليتَ شعري هل أقول قصيدةً

ولا أشتكي فيها ولا أتعتّبُ

وبي ما يذود الشعر عنّي أقلُّهُ

ولكنّ قلبي يا ابنة القوم قُلّبُ

قال للمتنبي : " يعزّ عليّ ، كيف يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة ؟ " ، فقال : " حذّرناه وأنذرناه فما نفع ، ألست القائل فيه :

أخا الجود، أعطِ الناس ما أنتَ مالكٌ

ولا تُعطينْ للناس ما أنا قائلُ

فهو الذي أعطاني كافوراً بسوء تدبيره وقلة تمييزه[٨٥١] وترك الشاعرالأمير بعد تسع سنوات(٣٣٧ - ٣٤٦ هـ) بعد أن قال فيه نحو ثلث ديوانه ، أوكما يقول طه

الفصل الأخير

العصر العلمي والأدبي

الازدهار: أسبابه ومظاهره

الأسباب:

فليس الهدف من هذا الفصل، كما هو شأن الفصلين الأولين، التأريخ الدقيق والشامل للحياة العلمية والأدبية في عصر أبي فراس الأكبر والأشمل القرن الرابع الهجري، فذا موضوع طويل كبير ممتد تتسع جلّ موضوعاته لأن يكتب في كلّ واحد منها كتاب أو أكثر، فضلاً عن الدراسات غير القليلة التي خصه المعاصرون بها من مثل: «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» لآدم متز، و«ظهر الإسلام» لأحمد أمين، و«تاريخ الإسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي»، (الجزء الثالث) لحسن إبراهيم حسن، و«النثر الفني في القرن الرابع الهجري»، لزكي مبارك؛ وعن الدراسات التي وقفها أصحابها على أدب دولة من الدول التي استقلت فيه - لا سيما الدولة البويهية ودولة بني حمدان - أو على أديب أو عالم من علمائها وما أكثرهم وأكثر ما كتب فيهم، الهدف، إذاً، هو عرض الملامح الكبر والسمات العامة والمفاصل المركزية والتنبيه عليها دون تفصيل إلا ما يقتضيه الموقع أحياناً.

قد يكون من المفارقة وغير المألوف أن يؤلف العصر السياسي والعصر العلمي والأدبي ثنائية عكسية، وأن يسيرا في خطين متوازيين: انقسام وضعف سياسي، وازدهار علمي. لقد كانت المملكة الإسلامية في هذا العصر «أعلى شأناً في العلم من القرون التي كانت قبلها. ولئن كانت الثمار السياسية قد تساقطت. . فالثمار العلمية قد نضجت[٥٠٠].

إذا ما تحرينا الأسباب نجد أن الانقسام نفسه جعل تلك الدول تتنافس تنافساً كبيراً في العلم والأدب وتشجع عليهما وتستقطب العلماء والأدباء من كل ناحية وصوب تكرمهم وتغدق عليهم وتفاخر بهم، ويفتح أمراؤها وقادتها ووزراؤها لهم أبواب قصورهم لتضمهم مجالسها العلمية والأدبية لا سيما أن عدداً من الخلفاء والأمراء والوزراء وأفراد الأسر الحاكمة كانوا أدباء. فالخليفة الراضي (ت ٣٢٩ هـ)، مثلاً، كان أديباً، شاعراً، فصيحاً، محباً للعلماء، وقد عُدَّ من فضائله أنه آخر خليفة له شعر مدوّن[٥٠١] ونقل عنه قوله: «فما أجد في زماني مياسير من الكتاب والتجار يجمل بمثلهم الملك ويلجأ المهم إليهم»[٥٠٢]

ومن مظاهر التنافس المشوب بالمفاخرة والمباهاة والنقد ما كان يتباهى به ابن سعدان (الحسين بن أحمد) وزير صمصام الدولة البويهي من أن جلساءه من العلماء والأدباء لا يناظرهم أحد ممن كانت تضمهم مجالس الوزير المهلبي والوزير ابن العميد والصاحب بن عباد. يقول: «ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير.. أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحد من هؤلاء؟... أوأن جميع أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون، وهو فيما بينهم يصيح ويقول: قال شيخنا أبوعلي وأبوهاشم؟».

وكان التنافس بين وزراء الدولة الواحدة في أقاليمهم سبباً من أسباب ازدهار العلم والأدب ورواجهما، كذاك الذي بين وزراء آل بويه في العراق: الوزير المهلبي وابن سعدان وسابور بن أردشير أنفسهم، والذي كان بين هؤلاء وزملائهم في فارس الصاحب بن عباد وابن العميد، فضلاً عن اختلاف ميولهم ونزعاتهم الفكرية والأدبية.

ففي حين كان ميل ابن سعدان مع الفلسفة، كان هوى ابن العميد مع العلم

والأدب معاً وهوى الصاحب بن عباد والوزير المهلبي مع الأدب فقط ، أما سابور بن أردشير فكان شغوفاً بالكتب جداً إذ أنشأ ببغداد عام ٣٨١ هـ مكتبة تحوي أكثر من عشرة آلاف مجلد ظلت قائمة إلى أن احترقت عام ٤٥٠ هـ في عهد طغرل بك[٥٠٣]

ومن الأسباب أن انفصال الدول عن جسم الدولة العباسية الكبرى الواحدة أدّى إلى أن تستقل في أموالها لا ترسله إلى بغداد بل تتصرف فيه كما تشاء وتنفقه على شؤونها الخاصة ، وقد نال العلم والأدب وأهلوهما فيها أكثر مما كانوا ينالونه تحت راية الدولة الأم الواحدة[٥٠٤]

وكان لا تخاذ بعض الفرق كالمعتزلة والإسماعيلية مثلاً ، الثقافة والعلم وسائل لتحقيق أهدافها السياسية والدينية وللجدل الذي احتدم بينها وبين علماء أهل السنة آثار بعيدة كذلك[٥٠٥] .

وساعد على الازدهار ، أيضاً ، رحلات العلماء والأدباء وتنقلاتهم في الأمصار على الرغم من مشاق السفر والرحلة وفقر كثيرين منهم ، يستوي في هذا أهل الحديث وعلماء النحو واللغة والشعراء ، كأولئك الذين كانوا يقصدون بلاط سيف الدولة مثلاً ، والوراقون وتجار الكتب لا سيما من كانوا يحملون كتب المشرق إلى المغرب[٥٠٦] .

ومن الطبيعي أن يكون الازدهار نسبياً بين هاتيك الدول ومراكز العلم المختلفة ، وإن كان نصيب بعضها من الاهتمام بالعلوم والآداب ونشرهما قليلاً . فدولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ) بالمغرب الذين كانت عاصمتهم فاس ، ثم «البصرة» بأقصى المغرب التي قضت حوالي نصف عمرها في هذا العصر ولم تتح لحكامها فرصة توجيه الجهود لنشر العلوم والفنون والأخذ بأسباب الحضارة ، لأنه لم يكتب لها الاستقرار الذي يمكنها من ذلك[٥٠٧] . ولو وازنا بين هذا وشيء مما كان في الدولة الأموية بالأندلس

(١٣٨-٣٩٧هـ) لوجدنا أن الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) الذي خلف أباه عبدالرحمن الناصر، قد نعم بالهدوء والاستقرار من جراء فتوحات أبيه وانتصاراته وتوطيده أركان الدولة. وتمكن لشغفه بالعلم والاطلاع والقراءة، أن يجمع كثيراً من الكتب التي كان يرسل في طلبها من الأمصار المعروفة بها كافة حتى وصل عدد الكتب في خزانة كتبه بقرطبة إلى أربعمائة (٤٠٠) ألف كتاب. ويقال إنه قرأ كثيراً منها وعلق عليها. وبلغ من شغفه بالكتب أنه طلب إلى أبي الفرج الأصفهاني صاحب «الأغاني» أن يبيعه إياه حين علم بظهوره ودفع له ثمنه ألف دينار ذهباً. ويقال إن الأصفهاني بعث إليه بالكتاب قبل أن يرسله إلى العراق(٥٠٨).

أما جزيرة العرب، فقد تعاورت عليها أسباب وأحداث كثيرة أهمها زحف القرامطة على مكة وعيثهم فساداً في البلاد، ومنع الحجاج من زيارة البيت الحرام أونهبهم أوالتنكيل بهم، مما أضعف شأنها وجعلها في شبه عزلة وأخرها مادياً وعلمياً(٥٠٩). وقد أسهب المقدسي في الكلام عنها في ذلك العصر، ومما قال: «والحجاز بلد فقير قحط»(٥١٠)، ومنه "ومذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء وقرْح سنّة، وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عُمان شراة غالية، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وهجر وصعدة شيعة، وشيعة عمان وصعدة. . وسواحل الحرمين معتزلة إلا عمان، والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبي حنيفة والجوامع بأيديهم. . والعمل بهجر على مذهب القرامطة.

أهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلاّ بصحار فإن نداهم وكلامهم بالفارسية، وأكثر أهل عدن وجُدّة فرس إلاّ أن اللغة عربية. . . وجميع لغات(لهجات) العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة. القراءات بمكّة على حرف ابن كثير، وباليمن قراءة عاصم ثم

قراءة أبي عمرومستعملة في جميع الإقليم . . . "[٥١١].

المظاهر:

كثيرة هي مظاهر الازدهار العلمي والأدبي بضروبها المختلفة في هذا العصر، أهمها باختصار:

(١) استمرار حركة الترجمة:

لقد تراجعت حركة الترجمة، بعد نهضتها الكبرى في عهد الخليفة المأمون مباشرة، لا سيما في عهدي المعتصم والواثق حتى عهد المتوكل الذي أعاد إليها بعض ما كانت عليه، لكنها ضعفت بعده وظل الضعف يلازمها حتى مطالع القرن الرابع الذي يمثل نصفه الأول مرحلة جديدة من مراحل تطورها في العلوم التي كانت عليها في عهد المأمون، وإن كانت حركة التدوين والتأليف أوسع منها ونتيجة مباشرة لها كما يظهر، مثلاً، في أعمال أبي بكر الرازي وأبي نصر الفارابي والشيخ الرئيس ابن سينا[٥١٢]. وعلى الرغم مما واجه « بيت الحكمة» من ظروف مختلفة من الرعاية أوعدمها بعد عهد المأمون، فإنه ظلّ له دوره في الترجمة التي ظل رعاة حركتها مستمرين في فاعليتها، وظل بيت الحكمة مركزاً مهماً من مراكز الترجمة في الدولة العباسية إلى أن استولى المغول على بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ)، وخربوا ذلك المركز ودمروا ما فيه[٥١٣].

من أشهر المترجمين والنقلة في هذا العصر:

١ - أبوبشر متّى بن يونس(ت ٣٢٨ هـ) الذي كان يترجم من السريانيّة إلى العربية، لأنه لم يكن يعرف اليونانية، ممّا خلفته مدرسة حنين بن إسحق وتلامذته من ترجمات يونانية إلى السريانية. ومن ترجماته: كتاب " الشعر"، ومقالة " اللام " المقالة

الحادية عشرة بتفسير الإسكندر من كتاب " الحروف "(الإلهيات)، وكتاب " الحس والمحسوس "، وكتاب " الكون والفساد "، وكلها لأرسطو[٥١٤].

٢ - سنان بن ثابت بن قرّة(ت ٣٣١هـ)، كان معروفاً بغير علم أهمها علم الهيئة والحساب والطب إذ كان طبيب المقتدر والقاهر وبجكم التركي، وقد صار رئيساً للأطباء في عهد المقتدر الذي كلفه امتحان جميع الأطباء قبل ممارسة المهنة، وهوصاحب فكرة إنشاء "البيمارستان المقتدري ". نقل إلى العربية " نواميس هرمس "، والسور والصلوات التي يصلي بها الصابئة، وكتباً أخرى[٥١٥].

٣ - يحيى بن عديّ(ت ٣٦٣ أو٣٦٤ هـ). آلت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه، وقرأ على متّى بن يونس والفارابي وجماعة في وقتهم. كان جيد المعرفة بالنقل وقد نقل من السريانية إلى العربية، وكان من النسّاخ المشهورين إذ كان يكتب في اليوم والليلة في حدود مئة ورقة. وهوصاحب هذين البيتين:

ربّ ميْتٍ قد صار بالعلم حيّاً
ومُبَقّى قد مات جهلاً وعيّا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً
لا تعدّوا الحياة في الجهل شيّا

اشتهر الرجل بترجمة الآثار اليونانية الفلسفية عن السريانية لا سيما أعمال أرسطو، وبمراجعة عدد من ترجمات غيره، فضلاً عن مؤلفاته هو التي أفاد فيها مما كان يترجم ويراجع. ومن أهم ترجماته: " طوبيقا"، و" السماء والعالم "، و" الآثار العلوية»، و" الإلهيات "(الحروف)، و" سوفسطيقا "[٥١٦]. على الرغم من كل ذلك، فقد قال فيه أبوحيان التوحيدي:[٥١٧] " . . . كان شيخاً ليّن العريكة، فروقة[٥١٨]، مشوّه الترجمة، رديء العبارة، لكنه كان متأنّياً في تخريج المختلفة"[٥١٩].

٤ - عيسى بن زرعة(ت ٣٩٨هـ). وصفه ابن النديم بأنه «أحد المتقدمين في علم المنطق وعلم الفلسفة، والنقلة (المجودين)»[٥٢٠]، كان من الملازمين ليحيى بن عديّ،

ومن المفتونين بالتجارة إلى بلاد الروم. كان الناس يعظمونه للعلم وبراعته في علم المنطق والفلسفة اللذين له مصنفات معروفة فيهما.

كان على معرفة تامة بالعربية والسريانية التي ترجم منها. من أهم ترجماته: كتاب الحيوان لأرسطو، وكتاب منافع أعضاء الحيوان بتفسير يحيى النحوي، وكتاب «خمس مقالات من كتاب نيقولاس في فلسفة أرسطاليس"، وكتاب "سوفسطيقا النص»(٥٢١) لأرسطاليس(٥٢٢).

أثنى عليه التوحيدي وانتقده، فقال:(٥٢٣) "... حسن الترجمة، صحيح النقل، كثير الرجوع إلى الكتب، محمود النقل إلى العربية، جيد الوفاء بكلّ ما جلّ من الفلسفة؛ ليس له في دقيقها منفذ، ولا له من لغزها مأخذ. ولولا توزّع فكره في التجارة، ومحبته في الربح، وحرصه على الجمع، وشدّته على المنع، لكانت قريحته تستجيب له، وغائمته(٥٢٤) تدر عليه؛ لكنه مبدّد مندّد، وحبّ الدنيا يعمي ويصم».

(٢) مجالس العلم والأدب:

كثرت في هذا العصر المجالس التي كان يعقدها الأمراء والوزراء للتباحث في شؤون العلم والأدب المختلفة. فعضد الدولة البويهي(٣٣٨ - ٣٧٢هـ) "كان - على ما مُكّن له في الأرض، وجُعل له من أزمّة البسط والقبض، وخُصّ به من رفعة الشان، وأُوتي من سعة السلطان - يتفرغ للأدب، ويتشاغل بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء»(٥٢٥). وكان "ينادم بعض الأدباء الظرفاء، ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات"(٥٢٦).

وكان الوزير المهلبي (٢٩١ - ٣٥٢هـ) وزير معزّ الدولة البويهي يسأل، في مجالسه، جلساءه وندماءه عن بعض الألفاظ والقضايا والمسائل الأدبية، وقد أُثني على "حسن مجلسه، وخفة روح أدبه، وإنشاده للصنوبري وطبقته ما طاب به الوقت، وهشت له النفس"(٥٢٧). ورُوي أنه كان "يكثر الحديث على طعامه وكان طيب

الحديث، وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتّاب والندماء" [٥٢٨].

أمّا أبوالفضل بن العميد(ت ٣٥٩ أو٣٦٠ هـ) وزير ركن الدولة البويهي، فقد كان يختص به، وينادمه حاضراً عدد من الشعراء والكتّاب والعلماء كأبي العلاء السروي، وأبي الحسين بن فارس، فكان يقارضهم[٥٢٩]. وكان يخدمه الكبراء، وينتجعه الشعراء، وهوالذي قال فيه المتنبي عند صدوره عن كافور الإخشيدي[٥٣٠]:

مَنْ مبلغ الأعراب أنّي بعدها[٥٣١]

شاهدتُ رِسْطاليسَ والإسكندرا

وسمعتُ بطليموس دارس كتْبِهِ

مُتملّكاً مُتبدّياً مُتحضّرا[٥٣٢]

وحكى الصاحب بن عباد أنه كان يحضر بعض مجالسه في رمضان وقد حضر الفقهاء والمتكلمون للمناظرة[٥٣٣].

وأمّا الصاحب (٣٢٦ - ٣٨٥هـ) نفسه، بقطع النظر عمّا شنّعه التوحيدي عليه وعلى أستاذه ابن العميد. فقال عنه الثعالبي: "وكانت أيامه للعَلويّة والعلماء، والأدباء والشعراء. وحضرته محطّ رحالهم، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله مصروفة إليهم، وصنائعه مقصورة عليهم" [٥٣٤]. وذكر أن مجلسه صار " مجمعاً لصوْب العقول، وذوب العلوم، ودرر القرائح. . . واحتف به من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من يربى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني. . . ". وذَكَر كثيرين ممن جمعتهم حضرته بأصبهان والري وجرجان، منهم: أبوالحسن السلامي، وأبوبكر الخوارزمي، والقاضي الجرجاني، وأبوالقاسم الزعفراني، وأبوالحسن الجوهري، وأبودلف الخزرجي»[٥٣٥].

وكان يعقوب بن كِلّس (٣١٨ - ٣٨٠ هـ) وزير العزيز بن المعزّ صاحب مصر «يحب أهل العلم، ويجمع عنده العلماء، ورتّب لنفسه مجلساً في كلّ ليلة جمعة يقرأ فيه بنفسه مصنفاته على الناس، وتحضره القضاة والفقهاء والقرّاء والنحاة وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث. فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح[٥٣٦]، وكان من جلسائه الحسين بن عبدالرحيم الزلزالي صاحب كتاب "الأسجاع". كان ينصب كلّ يوم خِواناً[٥٣٧] لخاصته من أهل العلم والكتّاب وخواص أتباعه ومن يستدعيه، وكان في داره قوم يكتبون القرآن، وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب، حتى الطبّ، ويعارضون ويشكّلون المصاحف وينقطونها" [٥٣٨].

صنف ذلك الوزير كتاباً في الفقه مما سمعه من المعزّ وولده العزيز، وجلس في رمضان عام ٣٦٩هـ مجلساً حضره العام والخاص، وقرأ فيه الكتاب بنفسه على الناس، وكان الوزير ابن الفرات أحد من حضروا ذلك المجلس[٥٣٩].

امّا سيف الدولة الحمداني(٣٠٣ - ٣٥٦ هـ) "فلم يجتمع قطّ بباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر". كان خطيبه ابن نباتة الفارقي، ومعلمه ابن خالويه، ومطربه الفارابي، وطبّاخه كشاجم، وخزّان كتبه الخالديين والصنوبري، ومُدّاحه المتنبي والسلامي والوأواء الدمشقي والرّفّاء والناميّ وابن نباتة السعدي والصنوبري، وغيرهم" [٥٤٠]. لا غرو في هذا، فقد كان أديباً شاعراً محبّاً لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به. يُحكى أن عليّ بن محمد الشمشاطي اختار من مدائح الشعراء له عشرة آلاف بيت[٥٤١]، وأنه، لكثرة مُدّاحه "كان قد أمر بضرب دنانير للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل، وعليه اسمه وصورته» [٥٤٢].

كان مجلسه، كما يقول ابن خلكان "مجمع الفضلاء في جميع المعارف" [٥٤٣]،

وكان ينظم فيه، أحياناً، شعراً ويطلب إلى جلاسه من الشعراء أن يجيزوه[٥٤٤] كالذي جرى بينه وبين أبي فراس، وأن ينشدوه القصائد التي كان معجباً بها كطلبه إلى المتنبي أن ينشده الميمية التي مطلعها:

علـى قَـدْرِ أهل العـزم تـأتي العـزائمُ
وتـأتي عـلى قـدر الكـرام المكـارمُ

وكان ذا ذائقة نقدية ينقد بها شعر مادحيه، فقد انتقد على أبي الطيب، على قري النقد الذي وجّه إلى بيتين لامرئ القيس، ترتيب شطور هذين البيتين من القصيدة نفسها:

وقـفتَ ومـا في المـوت شكٌ لـواقفٍ
كـأنّكَ في جـفن الـردى وهـو نـائمُ
تـمـرّ بك الأبـطـال كَـلْـمى هـزيمـةً
ووجـهكَ وضّـاحٌ وثـغـركَ بـاسمُ

ووجّهه إلى أن يجعل عجز الثاني عجزاً للأول ويحل هذا مكانه، فانصاع المتنبي، وقال: " أيّد اللّه مولانا، إن صحّ الذي استدرك على امرئ القيس هذا كان أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا. ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك" [٥٤٥].

روي عن ابن خالويه الحسين بن أحمد(ت ٣٧٠هـ)، وقد كان آل حمدان «يكرمونه ويدرسون عليه ويقتبسون منه»، روي عنه: " دخلت يوماً على سيف الدولة ابن حمدان، فلمّا مثلت بين يديه، قال لي: اقعد، ولم يقل اجلس، فتبيّنت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب، واطلاعه على أسرار كلام العرب ". لقد ذكر ابن خالويه هذا، لأن المختار عند أهل اللغة والأدب أن يقال للقائم: اقعد، وللنائم والساجد: اجلس[٥٤٦]. وروي عنه، كذلك، أن سيف الدولة كان يسأل من بحضرته من العلماء،

أحياناً، أسئلة في النحو والفقه واللغة[٥٤٧].

وكان لوزير سيف الدولة أبي أحمد بن نصر البازيار (ت ٣٥٢ هـ) مجلس أيضاً كان يتحاور فيه ابن خالويه والمتنبي عن بعض الشعراء كأشجع السلمي وأبي نواس.[٥٤٨] ومن مجالس ذلك العصر مجلس الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (ت ٣٩٤هـ)، الذي انتزع الملك من هشام بن الحكم في الأندلس[٥٤٩] والذي كان يحب العلوم والأدب ويشجع أهليهما. قيل إنه: "كان يعقد طول أيام مملكته في كل أسبوع مجلساً يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة[٥٥٠]"، وإنه "خطّ بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره يدرس فيه، ويتبرك به[٥٥١]". وفي أخباره ما يُنبي عن وجوه من الشبه بينه وبين سيف الدولة الحمداني، فقد كان المنصور كثير الغزوات حتى إنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرّة ضخمة، عهد بتصييره في حَنُوطه[٥٥٢]. وكان يحملها حيث سار مع أكفانه توقعاً لحلول منيته[٥٥٣]. وكان يسأل، في مجالسه، بعض جلسائه لا سيما الوافدين منهم، كأبي العلاء صاعد البغدادي اللغوي (ت ٤١٧هـ)، عن بعض المسائل الأدبية اختباراً لهم وتأكداً من معارفهم، كما كانت تُتناول فيها مسائل علمية وأدبية شتّى بين الجلوس، فضلاً عن المناظرات[٥٥٤].

ومن علماء هذا العصر من جعل من بيته مقيلاً لأهل العلم، كأبي سليمان السجستاني المنطقي (محمد بن طاهر بن بهرام) المتوفى في حدود عام ٣٨٠ هـ. يقول القفطي: "قرأ على متّى بن يونس وأمثاله، وتصدَّر لإفادة هذا الشأن، وقصده الرؤساء والأجلاء. وكان منزله مقيلاً لأهل العلوم القديمة، وله أخبار وحكايات وسؤالات وأجوبة في هذا الشأن. وكان عضد الدولة... يكرمه ويفخمه...، وكان أبوحيّان التوحيدي من بعض أصحابه المعتصمين به...، ولأجله صنّف كتاب الإمتاع والمؤانسة نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبدالله بن العارض الشيرازي عندما

تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة" [٥٥٥].

وحين سئل أبوحيان التوحيدي عن درجته في العلم والحكمة وعن محلّه بين علماء عصره من مثل: ابن زرعة، وابن الخمّار (الحسن بن سوار الطبيب الفيلسوف)، وابن السّمح (من مناطقة بغداد)، والقومسي (أبي بكر الفيلسوف)، ومسكويه، ويحيى بن عدي، و. . . .، قال: " فإنه أدقّهم نظراً، وأقعرهم غوصاً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدّرر، وأوقعهم على الغُرر، مع تقطع في العبارة، ولُكنة ناشئة من العجمة وقلّة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكنز»[٥٥٦]. وذكر التوحيدي كثيراً من مقابسات أبي سليمان مع علماء عصره مما كان يدور في مجالسه عن المنطق[٥٥٧] والنجوم مثلاً[٥٥٨]، فضلاً عن مقابسات بعض من ذكروا من أعلام عصره[٥٥٩].

ولم يكن بلاط السامانيين ببخارى يخلو من تلك المجالس، بل ربما كان يعقد فيها ما قد يناظر ما ندعوه الآن " الندوات " و" المهرجانات " و" المؤتمرات ". يقول الثعالبي: «كانت بخارى في الدولة السامانيّة(٢٦٦ – ٣٣٩هـ) مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر" [٥٦٠]، ويُروى عن ابن أبي الحسن موسى الموسوي أنّ والده قد اتخذ في عهد الأمير نصر الثاني بن أحمد الساماني(٣٠١ – ٣٣٠هـ) دعوةً جمع فيها أفاضل غرباء بخارى من العلماء والأدباء من مثل أبي علي الزوزني، وأبي إسحق الفارسي، وأبي القاسم الدينوري، وعلي بن هارون الشيباني " فلما استقرّ بهم مجلس الأنس أقبل بعضهم على بعض يتجاذبون أهداب المذاكرة، ويتهادون رياحين المحاضرة، ويقتفون نوافج الأدب، ويتساقطون عقود الدرّ، وينفثون في عقد السحر ". وقد أوصى الموسوي ابنه بأن يجعل من ذلك

اليوم المشهود المشهور " تاريخاً لاجتماع أعلام الفضل وأفراد الوقت " ، وأن يذكره بعده «في أعياد الدهر ، وأعيان العمر ، فما أراك ترى على السنين أمثال هؤلاء مجتمعين " ؛ وصدق حدسه بقول الابن : " فكان الأمر على ما قال ، ولم تكتحل عيني بمثل ذلك المجمع " [٥٦١] .

وكان إلى جانب كل ذلك مجالس أدبية كثيرة غير رسمية تعقد في منازل الأصدقاء والأغنياء والأدباء والعلماء يتداولون فيها العلوم ، ويتجاذبون المُلح والنوادر ، ويصفون ما يعرض من أمور ومسائل اجتماعية شعراً[٥٦٢] . ومن تلك المجالس ، مثلاً ، مجلس أبي سعيد السيرافي الحسن بن عبدالله(٢٨٠ - ٣٦٨ هـ) الذي كان يحضره أبوحيان التوحيدي وغيره[٥٦٣] .

(٣) الكتب ودور العلم:

كان هذا العصر ، كما يقول آدم متز عصر " تنظيم المعارف[٥٦٤] " ، وكانت العناية بالمكتبات وجمع الكتب وإنشاء المعاهد ودور العلم وحلقات الدرس كبيرة يتبارى فيها الملوك والأمراء والوزراء والعلماء والأدباء .

لم تكن المساجد الكبرى لتخلومن الكتب والمكتبات ، إذ كان من ديدن العلماء وغير العلماء أن يقفوها عليها . فأبونصر المنازي (نسبة إلى منازِجرد)[٥٦٥] أحمد بن يوسف السّليكي المتوفى عام ٤٣٧هـ وزير أبي نصر أحمد بن مروان الكردي صاحب ميّافارقين وديار بكر ، وقد كان فاضلاً شاعراً واجتمع بالمعري في معرّة النعمان ، " جمع كتباً كثيرة ، ثم وقفها على جامع ميّافارقين وجامع آمد " وعرفت بـِ " كتب المنازي»[٥٦٦] .

وكانت لعدد من حكّام هذا العصر في مختلف مراكزه السياسية والعلمية والثقافية

خزائن كتبهم التي يعنون بها ويفاخرون. فقد كانت للخليفة العزيز باللّه (ت٣٨٦ هـ) خزانة كتب كبيرة تضم ما يزيد على مئتي ألف كتاب في إحدى الروايات؛ منها عدد من نسخ كتاب " العين " للخليل بن أحمد وتاريخ الطبري، وكان من بين تلك النسخ ما هو بخط الخليل والطبري نفسيهما، كما كان فيها نسخ من " جمهرة " ابن دريد[٥٦٧]. وكان يتولى أمرها أبوالحسن علي بن محمد الشّابشتي (ت ٣٨٨ أو ٣٩٠هـ) المعروف بكتابه «الديارات»، الذي كان أثيراً عند العزيز إذ جعله أيضاً " دفتر خوان يقرأ له الكتب ويجلسه وينادمه. وكان حلوالمحاورة، لطيف المعاشرة" [٥٦٨].

أمّا في زمن الدولة الأموية بالأندلس، فقد مضى الكلام في مطالع هذا الفصل عمّا كان من أمر شغف الحكم الثاني المستنصر بالكتب، وأمر خزانة كتبه بقرطبة.

وأمّا البويهيون، فقد اطلع المقدسي على خزانة كتب عضد الدولة، ووصفها بأنها "حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلّها إلاّ وحصّله فيها ". وقد كان فيها فهارس لأسامي الكتب[٥٦٩].

وكانت للأمير نوح بن نصر الساماني (ت ٣٤٣هـ) مكتبة كبيرة " عديمة المثل، فيها من كل فنّ من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته " هي التي دخلها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـ) حين استدعاه الأمير لمعالجته من مرضٍ أصابه، حتى قيل: " فظفر أبو علي فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها وحصّل نُخب فوائدها واطلع على أكثر علومها. وكان يقال: إن أبا عليّ توصّل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ما حصّله منها وينسبه إلى نفسه»[٥٧٠].

وكانت لوزرائهم مكتبات أيضاً، فقد مضى الحديث - في بدايات هذا الفصل

كذلك ـ عن شغف سابور بن أردشير ومكتبته . أمّا الصاحب بن عبّاد ، فيحكى أنه لمّا كتب إليه الأمير الساماني نوح بن منصور سرّاً ليستوزره ويفوّض إليه أمور مملكته ، كان مما اعتذر به أنه " يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل ، فما الظن بما يليق بها من التجمل ؟[٥٧١] . وقد دعّم أبوالحسن البيهقي هذا بقوله : " بيت الكتب الذي بالرّي دليل على ذلك ، بعدما أحرقه السلطان محمود بن سُبُكتكين . فإنّي طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك الكتب عشرة مجلّدات ، فإن السلطان محموداً لما ورد إلى الريّ ، قيل له : إنّ هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع ، فاستخرج منها كلّ ما كان في علم الكلام ، وأمر بحرقه»[٥٧٢] .

قد تكون هذه الفعلة ، وغيرها كذلك ، مما حدا بالمستشرق إدوارد براون أن يقول عن السلطان محمود : «وطالما وصف الكتّاب محموداً الغزنوي بأنه كان نصيراً للأدب والفنون ، ولكنه في رأيي أقرب إلى أن يوصف بأنه من كبار " الخاطفين " لرجال الآداب والفنون ؛ وكثيراً ما كان يعاملهم في النهاية معاملة تنطوي على كثير من الازدراء والامتهان " . واستشهد بعدم مكافأته الفردوسي صاحب " الشاهنامة " الذي عانى في نظمها ثلاثين سنة ، ومعاملته السيئة لأبي الريحان البيروني ، وملاحقته الشيخ الرئيس ابن سينا لرفضه التوجه إليه حين طلبه فيمن طلب من العلماء والأدباء من " مأمون بن مأمون " أمير خوارزم[٥٧٣] .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كان السلطان محمود الغزنوي (٣٦١ – ٤٢٢ هـ) ، الذي حكم من عام ٣٨٨هـ إلى قبل وفاته بسنة ، ذا علم ومعرفة ، وصاحب كثير من الكتب والفنون ، وقد قصده العلماء من أقطار البلاد فكان يقبل عليهم ويكرمهم ، ويحسن إليهم[٥٧٤] .

وأمّا ابن العميد ، فكان مسكويه المؤرخ خازن كتبه التي " كانت كثيرة ، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب " . ولمّا نهبت الخراسانيّة داره بالريّ عام ٣٥٥

هـ، عزّت عليه الكتب، لأنها " هي التي لا عوض عنها " أمّا سائر الخزائن " فيوجد منها عوض "، لكنها سلمت بأجمعها من بين جميع ما له، فكان هذا سبب فرحته وحبوره واسفرار وجهه"(٥٧٥).

وسلف الكلام عن أنه كانت لسيف الدولة الحمداني خزانة كتب، وكان خزنتها الخالديين(٥٧٦)، والصنوبري الذي كان جدّه الحسن صاحب بيت الحكمة للمأمون(٥٧٧).

وثمة أخبار عمن كانوا يقتنون أعداداً كثيرة من الكتب من مثل أبي بكر الصولي محمد بن يحيى(ت ٣٣٥ هـ) الذي كان صاحب " خزانة أفردها لما جمع من الكتب المختلفة، ورتبها أجمل ترتيب؛ وكان يقول لأصحابه:

كل ما في هذه الخزانة سماعي». وإذا ما أراد مراجعة كتاب منها، قال: يا غلام هات الكتاب الفلاني، فسمعه يوماً أبوسعيد العُقيلي يقول ذلك، فأنشد:

إنمّا الصوليّ شيخٌ
أعلم الناس خزانهْ
إنْ سألناه بعلمٍ
نبتغي عنه الإبانهْ
قال: يا غلمةُ، هاتوا
رزمة العلم فلانهْ(٥٧٨)

ومن مثل، محمد بن نصر الحاجب، وحبشي بن معز الدولة، والقاضي أبي المطرف قاضي الجماعة بقرطبة، الذي جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس. وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً، وكان لا يتردد في شراء أيّ كتاب حسن مهما غلا ثمنه، ولم يكن يعير كتاباً قط، بل كان يطلب إلى النسّاخ لينسخوا نسخة من أي كتاب يلحف طالبه باستعارته. وقيل إن أهل قرطبة قضوا عاماً كاملاً في بيع كتبه بمسجده، وكان ثمنها أربعين ألف دينار(٥٧٩).

وقد وازن آدم متز بين أعداد الكتب في الدولة الإسلامية آنذاك وأعدادها في خزائن كتب الغرب في المدة ذاتها، فوجد أن البون شاسع لقلة الأعداد في مكتبات الغرب[٥٨٠].

وكان يرفد في نشر العلم، خزائن الكتب والمكتبات تلك، معاهد علمية أخرى تزيد عليها في أنها كانت تُعنى بالتعليم إلى جوار ما فيها من كتب، وتجري الأرزاق على من يلتحق بها، وكأنها كانت تمهيداً للمدارس التي أنشئت في القرون اللاحقة، لا سيما القرن الخامس الهجري، كالمدارس النظامية التي أنشأها نظام الملك الطوسي في بغداد ونيسابور وأصفهان وهراة وغيرها من المدن التي كانت خاضعة لسلطانه.

كان أبوالقاسم الفقيه الشافعي جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي (٢٤٠ - ٣٢٠ هـ) شاعراً أديباً فاضلاً ناقداً للشعر كثير الرواية، وكان " يفْضُل في العلوم سواه، متقدماً في الفقه معروفاً به، قويّاً في النحو فيما يكتبه، عارفاً بالكلام والجدل مبرّزاً فيه، حافظاً لكتب اللغة، راوية للأخبار، بصيراً بالنجوم، عالماً مطّلعاً على علوم الأوائل"[٥٨١]، وكانت لذلك الفقيه ببلده الموصل " دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كلّ طالب للعلم، لا يُمنع أحد من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب، وإن كان معسراً أعطاه ورَقاً وورِقاً[٥٨٢]. تُفتح كلّ يوم، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه، ويجتمع إليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته. . . ، ثم يملي ما حفظه من الحكايات المستطابة، وشيئاً من النوادر المؤلفة، وطَرَفاً من الفقه وما يتعلق به»[٥٨٣].

ويذكر المقدسيّ أن أبا عليّ بن سوّار الكاتب (ت ٣٥٤ هـ) أحد رجالات عضد الدولة أنشأ في (رام هرمز) " دار كتب، كالتي بالبصرة، والداران جميعاً اتّخذهما. . . وفيهما أجراء على من قصدهما، ولزم القراءة والنسخ، إلاّ أن خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتباً. وفي هذه أبداً شيخ يُدْرس عليه الكلام على مذاهب المعتزلة»[٥٨٤].

واتخذ الشريف الرضي الموسوي (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) الشاعر المعروف ونقيب الطالبيين داراً لطلبة العلم سمّاها " دار العلم " ، وعيّن لهم فيها جميع ما يحتاجون إليه ، وجعل لكل واحد منهم مفتاحاً بحيث يتناول ما يريده منها دون الرجوع إلى خازن(٥٨٥) .

وأنشئت في مصر دور للعلم أيضاً ، كالدار التي اشتراها العزيز باللّه الفاطمي عام ٣٧٨هـ قرب الأزهر وجعلها لخمسة وثلاثين عالماً كانوا يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد بعد صلاة كلّ يوم جمعة حتى صلاة العصر ، والدار التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٣٩٥هـ بالقاهرة وسميت " دار العلم " أو " دار الحكمة " ، وقد حُملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ووُظّف لها خزّان وبوّابون ، وعُيّن فيها من يُدرّسون الناس العلم ، وكان يدخلها سائر الناس يقرأون وينسخون(٥٨٦) .

كانت تلك أمثلة ليس غير ، لكن المسجد ، في أي مركز ، كان ـ كما في العصور السابقة ـ المدرسة الكبرى التي تُعطى فيها أكثر الدروس لا سيما دروس الفقه والكلام . يقول المقدسي عن إقليم مصر : " والرسوم بجوامع هذا الإقليم إذا سلّم الإمام كلّ يوم صلاة الغداة وضع بين يديه مصحفاً يقرأ فيه ، ويجتمع الناس عليه كما يجتمع على المذكّرين . . . وبين العشاءين جامعهم مغتصّ بحَلَق الفقهاء وأئمة القرّاء وأهل الأدب والحكمة . ودخلتها مع جماعة من المقادسة ، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين : دوّروا وجوهكم إلى المجلس . فننظر فإذا نحن بين مجلسين . على هذا جميع المساجد ، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس . . . ولا ترى أجلّ من مجالس القرّاء به »(٥٨٧) .

وكان جامع المنصور ببغداد ، من أشهر مراكز التعليم آنذاك ، فقد جلس إبراهيم بن محمد المعروف بـِ " نفطويه "(٢٤٤ - ٣٢٣ هـ) ، مثلاً ، خمسين سنة في مكانه فيه

للتدريس والإقراء. كان حسن الحفظ للقرآن وكان " أول ما يبتدىء به في مجلسه . . . أن يُقرىء القرآن على قراءة عاصم، ثم الكتب بعده. وكان فقيهاً، عالماً بمذهب داود الأصبهاني[٥٨٨]، رأساً فيه، يسلّم له ذلك جميع أصحابه؛ وكان مُسْنداً في الحديث من أهل طبقته، ثقةً، صدوقاً»[٥٨٩]

ولقد كانت " نيسابور " أكبر مراكز العلم بخراسان، ومهد تلك المعاهد والمدارس. ففيها بنيت مدرسة لأبي إسحق الإسفراييني إبراهيم بن محمد(ت ٤١٨هـ) كانت مشهورة، وكان هو فقيهاً شافعياً متكلماً أصولياً. وممن اختلفوا إلى مجلسه أبوالقاسم القشيري[٥٩٠]. وبنى أبوبكر ابن فَوْرك محمد بن الحسن(ت ٤٠٦هـ) له بها " مدرسة وداراً، وأحيا الله تعالى به أنواعاً من العلوم "، وكان متكلماً أصولياً وأديباً نحوياً[٥٩١]. وقد تكون هذه الصفة وصفة الإسفراييني السالفة مبعث ما ذهب إليه آدم متز من أنهما ربما آثرا البحث في المسائل الكلامية أوالتدريس على مجرد رواية الأحاديث[٥٩٢].

وبنى أبوبكر البستي(ت ٤٢٩ هـ)، بنيسابور أيضاً، مدرسة على باب داره لأهل العلم، وقد كان من كبار المدرسين والمناظرين في نيسابور[٥٩٣].

ويشير أحمد أمين إلى ضرب من العلم يناظر ما نسميه اليوم " العلم بالمراسلة"[٥٩٤] إذ كان يكتب أحدهم إلى عالم أوأديب ما يسأله عن أمور عامة أوخاصة. فمن النوع الأول ما كان يصل إلى أبي سعيد السيرافي من رسائل يستفسر أصحابها عن مسائل شتّى. فقد كتب إليه نوح بن نصر الساماني عام ٣٤٠هـ يسأله ـ بعد أن خاطبه بالإمام – عمّا يزيد على أربعمائة مسألة معظمها في «الحِران»[٥٩٥] وما أشبهه وسائرها عن أمثال مصنوعة على العرب شكّ فيها. وكان مع ذلك الكتاب كتاب من الوزير البلعمي خاطبه فيه بإمام المسلمين، وسأله عن بعض المسائل القرآنية وأمثال للعرب مشكلة.

وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتاباً خاطبه فيه بشيخ

الإسلام، وسأله عن مائة وعشرين مسألة أكثرها في القرآن وسائرها عن روايات عن النبي(ص) وعن الصحابة. كما كتب إليه أبوجعفر ملك سجستان، بإيعاز من أبي سلمان المنطقي، كما يقول التوحيدي، كتاباً خاطبه فيه بالشيخ الفرد، وسأله عن سبعين مسألة في القرآن ومائة كلمة في العربية وثلاثمائة بيت من الشعر وأربعين مسألة في الأحكام وثلاثين في الأصول على طريق المتكلمين. وكتب إليه، كذلك، الوزير ابن حِنزابة[٥٩٦] من مصر، وخاطبه بالشيخ الجليل، وسأله عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المروي عن الرسول(ص) وعن السلف[٥٩٧].

ومن النوع الآخر، المكاتبات التي كانت بين داعي الدّعاة بمصر وأبي العلاء المعري (٣٦١ - ٤٤٩هـ) والتي بدأها الأول بسؤال الآخر عن "العلة في تحريمه على نفسه اللحم واللّبن، وكل ما يصدر إلى الوجود من منافع الحيوان»[٥٩٨].

وقمين أن يشار في نهاية هذا المبحث إلى هذه الأمور: [٥٩٩]

١ - ترك اللغويون، في التدريس، طريقة المتكلّمين والمحدّثين في "الإملاء"، مستعيضين عنها بتدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة والمدرّس يشرح. يقال إن أبا القاسم الزجّاجي(ت ٣٣٩هـ) كان آخر المملين من أهل اللغة، أمّا إملاء الحديث فاستمر على ما كان عليه[٦٠٠].

٢ - ظل أمر التهيّب الشديد للحديث مستمراً كما كان عليه من قبل، لأن التحديث كان يعدّ نوعاً من العبادة ذا آداب خاصة. شاهد هذا أنه لّما عزم الصاحب بن عبّاد، وهو وزير، على إملاء الحديث "خرج يوماً متطلّساً[٦٠١] متحنّكاً بزي أهل العلم، فقال: قد علمتم قدمي في العلم، فأقرّوا له بذلك. فقال: وانا متلبّسٌ بهذا الأمر؛ وجميع ما أنفقته، من صغري إلى وقتي هذا، من مال أبي وجدّي، ومع

هذا فلا أخلو من تَبِعات[٦٠٢]. أشهد الله وأشهدكم أنّي تائب إلى الله من ذنب أذنبته. واتخذ لنفسه بيتاً وسمّاه بيت التوبة، ولبث أسبوعاً على ذلك، ثمّ أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته، ثمّ خرج فقعد للإملاء؛ وحضر الخلق الكثير، وكان المستملي الواحد ينضم إليه ستة، كلّ يبلّغ صاحبه، فكتب الناس حتى القاضي عبدالجبّار»[٦٠٣].

٣ - لم تكن مهنة التعليم تدرّ شيئاً كثيراً لا سيما إذا لم يكن صاحبها فقيهاً ذا منصب، فيحيى بن عدي، كما تقدّم، كان من أكبر فلاسفة القرن الرابع، لكنه كان يعيش من النسخ. أمّا الفقهاء فاختلفوا في تجويز أخذ الأجر على تعليم القرآن والحديث بين مجوّز وغير مجوّز، فأبوالعباس الأصم (ت ٣٤٦ هـ) الذي كان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم، وأبوبكر الجوزقي(ت ٣٨٨ هـ) محدّث نيسابور، مثلاً، ما كانا يأخذان على التحديث شيئاً. ومثل هذين كان أبوسعيد السيرافي صاحب المناظرة المعروفة مع متّى بن يونس[٦٠٤]، فلم يكن، وقد كان قاضياً أيضاً، «يأخذ على الحكم أجراً، إنّما يأكل من كتْب يمينه، فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس، حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون بقدر مئونته، ثم يخرج إلى مجلسه» [٦٠٥].

أمّا بعض العلماء الكبار، فكانوا يأخذون أرزاقاً من السلطان، وكانوا ثلاثة أقسام: فقهاء، وعلماء، وندماء وهم الذين كانوا أكثر رزقاً. فقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دُريد محمد بن الحسن اللغوي المعروف، الذي مات هو وأبوهاشم الجُبّائي عام ٣٢١هـ، فقيل "مات علما اللغة والكلام»[٦٠٦]، أجرى عليه خمسين ديناراً شهريّاً، وأجرى سيف الدولة الحمداني على الفارابي الفيلسوف(ت ٣٣٩هـ) أربعة دراهم يوميّاً اقتصر عليها لقناعته[٦٠٧]. أمّا أبوإسحق إبراهيم بن محمد الزجّاج (ت ٣١٠ أو ٣١١

أو٣١٦هـ)[٦٠٨] ، فقد " جُعل له رزق في الندماء، ورزق في الفقهاء، ورزق في العلماء نحوثلثمائة دينار " ، وكان يعلّم أولاد المعتضد أيضاً[٦٠٩] .

وكان ابن الفرات (قتل عام ٣١٢هـ) وزير المقتدر " يجري الأرزاق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء، أكثرهم مائة درهم[٦١٠] في الشهر، وأقلهم خمسة دراهم، وما بين ذلك»[٦١١] .

(٤) العلوم النقلية:

فقد استمر، في هذا العصر، التأليف في العلوم النقلية والعقلية، وازدهر ازدهاراً كبيراً يصعب حصره في مبحث نموذج كهذا المبحث الذي لا يعنى بالرصد ولا بالتفصيل والشرح والتقويم، بل حسبه أن ينبّه على الأهم والأبرز، وأن يضع الصّوى والإمارات، فالكلام عن علوم عصر بكامله بضربيها النقلي والعقلي غيره في الكلام عن أحدهما، على كبره وامتداده، أو عن علم واحد منهما .

ففي العلوم النقلية، أقف عند التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة والتاريخ والجغرافيا، وأترك الإبداع الأدبي شعراً ونثراً إلى مبحث مستقل .

أ- التفسير:

على الرغم من أن جواز التفسير لم يكن، منذ القدم، أمراً مسلّماً به إلاّ بعد استيفاء شروطه، باستشهاد الطبري نفسه بقول الشعبي قديماً للسّدي حين مر به وهويفسّر القرآن: " لئن يضرب على استك بالطبل خير لك من مجلسك هذا " على الرغم من هذا فإن الجهود في التفسير استمرت وكانت شتّى تبعاً لانتماء المفسرين أنفسهم ومواقفهم، وقد بلغت أوجها في تفسير محمد بن جرير الطبري(ت ٣١٠ هـ) في بدايات القرن الرابع، وهوصاحب كتاب " تاريخ الرسل والملوك " المعروف بتاريخ

الطبري كما هوشأن تفسيره تفسير الطبري " جامع البيان عن تأويل القرآن " الذي قال فيه أبوحامد الإسفراييني " لوسافر رجل إلى الصين حتى يحصّل كتاب تفسير محمد بن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيراً[٦١٢]، وقال فيه أبوبكر بن بَالوَيْه : " ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة»[٦١٣].

وأسهم المعتزلة في هذا العصر بجهود في التفسير، ومن مفسريهم، محمد بن بحر الأصفهاني (ت ٣٣٢هـ)، وأبوعبيدالله الأسدي(ت ٣٨٧هـ) الذي كتب في تفسير البسملة وحدها مئة وعشرين وجهاً، وأبوبكر النقّاش(٢٦٥ أو٢٦٦ - ٣٥١ هـ)، وعنوان تفسيره " شفاء الصدور» [٦١٤]، والشريف المرتضى(٣٥٥ - ٤٣٦هـ) في " الأمالي "، وأبوالحسن علي بن عيسى الرمّاني[٦١٥] (٢٩٦ - ٣٨٤هـ). يقال إن الصاحب بن عبّاد سئل عن عدم تصنيفه في التفسير، فأجاب: " وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً»؟!.

ب - الحديث:

الاهتمام بالحديث قديم، لكنّ الذي جدّ في هذا العصر، هو أنه يجوز الاكتفاء برواية الحديث بما في الكتب دون لقاء رجاله والرحلة في طلبه ودون إجازة مكتوبة تبيح للمحدّث الحق في الرواية[٦١٦]. فقد استطاع ابن يونس الصّدفي(٢٨١ - ٣٤٧هـ) صاحب تاريخ مصر أن يكون محدّثاً دون أن يغادر مصر[٦١٧].

إذا ما جزنا، مثلاً، حفّاظ الأحاديث في هذا العصر كعبدالله بن سليمان الأشعث(ت ٣١٦هـ)، محدّث العراق الذي كان يحدّث في دار الوزير علي بن عيسى، وابن عقدة(ت ٣٣٢ هـ) الذي كان يحفظ مائتين وخمسين ألف حديث بأسانيدها، والحافظ ميسر الذي توفي بمصر عام ٤٠١هـ والذي كان عنده درج طوله سبعة وثمانون ذراعاً مملوءة الوجهين فيه أوائل ما يحفظه[٦١٨]، إذا ما جزناهم إلى كبار

محدّثي القرن الرابع لا مندوحة عن ذكر اثنين :

الأول ، الدارقطني أبوالحسن علي بن عمر (٣٠٦ - ٣٨٥ هـ) الحافظ المشهور ، الذي قيل فيه : " وانفرد بالإمامة في علم الحديث في دهره ، ولم ينازعه في ذلك أحد من نظرائه »[٦١٩] و" أحسن الناس كلاماً عن حديث رسول الله ، صلّى عليه وسلّم ثلاثة : علي بن المديني في وقته[٦٢٠] ، وموسى بن هارون في وقته[٦٢١] ، والدارقطني في وقته »[٦٢٢] . ولمّا ذهب إلى مصر عند أبي الفضل جعفر بن الفضل المعروف بابن حِنْزابة وزير كافور الإخشيدي ساعده في تأليف " مسند" كان يؤلفه ، بالغ الوزير " في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئًا كثيراً ، وحصل له بسببه مال جزيل " وظلّ عنده إلى أن أنهى المسند[٦٢٣] .

والآخر ، أبوعبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري[٦٢٤] (٣٢١ - ٤٠٥هـ) الحافظ المعروف بابن البيّع " إمام أهل الحديث في عصره ، والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبق إلى مثلها " . طلب الحديث ، وغلب عليه فاشتهر به ، وسمعه من كثيرين حتى وصل معجم شيوخه إلى حوالي مئتين ، وصنّف في علومه أعمالاً كثيرة ، وقد تقلّد القضاء بنيسابور عام ٣٥٩هـ في أيام الدولة السامانيّة .

ج - الفقه وعلم الكلام:

لعل من أكبر سمات هذا العصر بالنسبة إلى الفقه ثنتين : الأولى ، سدّ باب الاجتهاد في التشريع الإسلامي لا لشيء إلا للاقتداء بالعلماء الأولين وإضفاء كثير من القداسة عليهم ، حتى أضحى فقيه هذا العصر ، في الأكثر ، لا يستطيع أن يصدر حكمه الخاص إلاّ في المسائل الجزئية الصغيرة .

والأخرى ، الخلاف الشديد بين طوائف الفقهاء المختلفة أنفسهم ، وبين السنّة والشيعة ، كما تقدّم في فصل العصر الاجتماعي ، وليس ثمة من حاجة إلى الاستشهاد

وضرب مُثُل أخرى[٦٢٥].

ولقد نتج عن ذلك ظاهرتان متغايرتان[٦٢٦]: إحداهما، انحصار فقهاء هذا الزمان، في الأغلب، في النقل عن السلف وشرح كتبهم واختصارها والتحشية عليها. فقد صنّف أبوالحسن عبيد الله بن الحسن الكرخي(ت ٣٤٠ هـ) الفقيه العراقي، الذي كان " ممن يشار إليه ويؤخذ عنه، وعليه قرأ المبرّزون من فقهاء الزمان، وكان واحد عصره غير مدافع ولا منازع "، صنّف كتاب " المختصر " في الفقه، وغيره[٦٢٧]. وصنّف أبوالحسين القُدوري[٦٢٨] أحمد بن محمد(٣٦٢ - ٤٢٨هـ) الفقيه الحنفي، الذي انتهت إليه رئاسة الحنفيّة بالعراق، كتاب " المختصر " المشهور وغيره[٦٢٩].

والأخرى، تعزيز ما يسمّى " آداب البحث والمناظرة "، فالقدوري، مثلاً، كان يناظر الفقيه الشافعي أبا حامد الإسفراييني[٦٣٠] أحمد بن أبي طاهر(٣٤٤ - ٤٠٦هـ)، وكان "يعظمّه، ويفضّله على كلّ أحد". لقد كان أبوحامد فقيهاً شافعياً " انتهت إليه رياسة الدنيا والدين ببغداد، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه "، وكان الناس يقولون: "لورآه الشافعي لفرح به". وله من الكتب في المذهب: «التعليقة الكبرى» و«البستان»[٦٣١].

أمّا علم الكلام، الذي نشأ بدءاً للدفاع عن الإسلام دفاعاً مسلّحاً بالفلسفة ومستنداً إلى المنطق والجدل، فإنّما قرنته هنا بالفقه لأنه كان مرتبطاً به في نشأته، وكان ثمة مسائل فقهية في ثناياه، بيد أنه استقلّ عنه بجهود المعتزلة، ولا أرغب في أن أدخل في بداياته وأهدافه وتفصيلاته وتأثراته ورجالاته السابقين[٦٣٢]، بل أشير إلى بعض أعلامه في هذا العصر فحسب، واشهرهم الجُبّائيان[٦٣٣]: أبوعلي محمد بن عبدالوهاب (٢٣٥ - ٣٠٣هـ)، وابنه أبو هاشم عبدالسلام (٢٤٧ - ٣٢١هـ).

فأمّا الأول، فكان أحد أئمة المعتزلة وإماماً في علم الكلام الذي لقفه عن أبي

يوسف يعقوب بن عبدالله الشحّام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره، له في الاعتزال مقالات مشهورة. أخذ أبوالحسن الأشعري علم الكلام عنه، وكانت له معه مناظرات واعتراضات على أقاويله آلت جميعاً إلى تركه مجلس أستاذه وإلى الوحشة بينهما[٦٣٤].

وأمّا الآخر الابن، فكان رأس فرقة "البهشمية" [٦٣٥]، ويبدو أن تأثيره في المعتزلة كان كبيراً، إذ كان "المتكلم المشهور والعالم ابن العالم"، وكانت له، كأبيه، مقالات على مذهب الاعتزال[٦٣٦]، قال عنه أبومنصور البغدادي(ت ٤٢٩ هـ): "أكبر معتزلة عصرنا على مذهبه"، وقد توسع في الكلام عن فضائح فرقته كما سمّاها[٦٣٧].

د - علوم اللغة:

المقصود بعلوم اللغة هنا المعنى الخاص لا المعنى العام الأوسع، أي اللغة والنحو والصرف تحديداً وليس علوم العربية عامة.

ليس من شكّ أن هذا العصر يعدّ من العصور الزاهرة في علوم اللغة من حيث كثرة التأليف فيها، وما طرأ عليها من تطوير وتحديث في عدد من الأمور.

لقد تخلّص علم اللغة، بدءاً، من طرائق الفقهاء، لا سيما في الإملاء، التي تكلم عنها السيوطي وذهب إلى أن أبا القاسم الزجاجي كان آخر من أملى على طرائق أولئك اللغويين، وهو ما سبقت الإشارة إليه في مبحث "الفقه وعلم الكلام" من هذا الفصل. ففي حين كان العلماء المتقدمون كالمبرّد(ت ٢٨٥ هـ)، مثلاً، وبعض علماء هذا العصر كغلام ثعلب أبي عمر محمد بن عبدالواحد(ت ٣٤٥هـ) وأبي عليّ القالي (ت٣٥٦هـ)، يرصفون معارفهم رصفاً حتى لا رابط يربطها في كثير من الأحايين ويُعنون بالجزئيات، نحا السواد الأعظم من علماء هذا العصر نحواً آخر غايته تناول مواد البحث تناولاً منظّماً ربما كان لمعرفة العرب بالتراث اليوناني أثر في ذلك[٦٣٨]. سئل

أبوسليمان المنطقي السجستاني محمد بن طاهر عن النحوالعربي والنحواليوناني، فقال: " نحوالعرب فطرة، ونحونا فطنة" [٦٣٩].

من ميزات هذا العصر التوسع في تأليف المعجمات المختلفة، لأسباب أهمها أن أصحاب المعاجم لم يكتفوا بتقييد لهجة واحدة، إنما امتد تقييدهم إلى غير لهجة كما دوّن بعضهم أصول الكلمات وتصحيفاتها، وأن بعض الأعراب توسّعوا في المجاز إذ سمّوا الثياب القصيرة مثلاً مقطّعات، فضلاً عن انتقال اللغة من البداوة إلى الحضارة[٦٤٠]. ومن أهم معجمات هذا العصر معجم " الصحاح " للجوهري(ت ٣٩٢) الذي أضحى صاحب مدرسة في المعجمات، ففي حين رتّب الخليل بن أحمد معجمه "العين " ومن سار على نهجه في معجماتهم حسب مخارج الحروف مبتدئين بحروف الحلق، اعتمد الجوهري التقسيم إلى أبواب وفق الحرف الأخير للكلمة، وجعل كلّ باب فصولاً وفق الحرف الأول. وقد حذا حذوه أصحاب أشهر المعجمات المعروفة كابن منظور صاحب " اللسان " والفيروزآبادي مؤلف " القاموس المحيط" والزبيدي صاحب "تاج العروس " .

ومن معجميي هذا العصر من صنع معجمه وفقاً للترتيب " الهجائي " كابن دريد(ت ٣٢١هـ) في " جمهرة اللغة " ، وابن فارس في " المقاييس " و" المجمل " .

ومنهم من ألّف في " معجمات المعاني"[٦٤١]، كقدامة بن جعفر في "جواهر الألفاظ" والثعالبي في " فقه اللغة " وابن فارس في " متخير الألفاظ " .

ومن السمات اللغوية المهمة في هذا العصر الالتفات إلى مسألة " الاشتقاق الأكبر" التي انتثرت بذورها، بدءاً، عند أبي علي الفارسي(٢٨٨ - ٣٧٧هـ)، ثم تلقّفها تلميذه عثمان بن جنّي(ت ٣٩٢هـ) الذي يقول: " هذا موضوع لم يسمّه أحد من أصحابنا؛ غير أن أبا علي ـ رحمه الله ـ كان يستعين به، ويُخْلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر؛

لكنه مع هذا لم يسمّه، وإنّما كان يعتاده عند الضرورة، ويستريح إليه، ويتعلّل به. وإنما هذا التلقيب لنا نحن.... الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير. فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم....، وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثيّة، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً" [٦٤٢].

لقد كان أبوعلي "أوحد زمانه في علم العربية... وكان كثير من تلامذته يقول: هو فوق المبرّد"[٦٤٣]. أمّا ابن جنّي، فكان "من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، وصنّف في ذلك كتباً أبرّ[٦٤٤] بها على المتقدمين، وأعجز المتأخرين، ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف، ولم يتكلم أحد في التصريف أدقّ كلاماً منه»[٦٤٥].

لقد صحب ابن جنّي أستاذه أبا عليّ أربعين سنة، إذ كانت البدء بعد أن اجتاز أبوعلي بالموصل فمرّ بالجامع وابن جنّيّ، وقد كان شابّاً، في حلقة يعلّم النحو، فسأله أبوعليّ عن مسألة في التصريف قصّر فيها، فقال له أبوعلي "زبّبْت[٦٤٦] وأنت حصرم". ولما عرف أنه أبوعلي لزمه "من يومئذ، واعتنى بالتصريف فما أحد أعلم منه به ولا أقوم بأصوله وفروعه، ولا أحسن أحد إحساناً في تصنيفه. فلمّا مات أبو عليّ تصدّر أبوالفتح في مجلسه ببغداد" [٦٤٧].

واللافت أنه قدّر للأستاذ والتلميذ أن يكونا ممن ضمّهم بلاط سيف الدولة الحمداني بحلب، اذ اتصل به الأول عام ٣٤١هـ وجرت بينه وبين المتنبي مجالس[٦٤٨]، ولما رجع إلى بغداد كانت بينه وبين سيف الدولة بعض مراسلات يدافع فيها أبوعلي عن أشياء ادّعى ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) عليه الخطأ فيها لسيف الدولة الذي كتب إلى أبي علي يستفسره عنها[٦٤٩] وقد كان لابن خالويه مع أبي الطيب مجالس ومباحث عند سيف الدولة[٦٥٠]. أمّا ابن جني فقد انعقدت الآصرة بحلب بينه وبين المتنبي، إذ كان

يحضر عنده كثيراً ويناظره في شيء من النحو دون أن يقرأ عليه شيئاً من شعره. وكان المتنبي يقول عنه: "هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس" [٦٥١] ولمّا مات المتنبي رثاه ابن جني في قصيدة أولها[٦٥٢]:

غـاض الـقـريض وأذوتْ نـضْـرة الأدبِ
وصـوّحتْ بـعـد ريّ دوحـة الـكُـتُبِ

وشرح ديوانه الشرح الذي سمّاه "الفَسْر" وكان قد قرأه عليه[٦٥٣]، وكان أحد النقاد الذين دافعوا عنه في المعركة النقدية التي نشبت حوله في القرن الرابع الهجري. وكان فشوّ "اللحن" مظهراً آخر من المظاهر اللغوية في هذا العصر، وقد ساعد عليه انقسام الدولة الإسلامية إلى دول عدة، وشيوع اللحن في لغة العامة والخاصة ولغة الأدب شعره ونثره، مما حمل أهل اللغة على العناية بالموضوع والتصدي له والتأليف فيه، فكان أن وضع أبوبكر الزبيدي(ت ٣٧٩هـ)، مثلاً، كتاب "لحن العامة"[٦٥٤]، وألف ابن خالويه «ليس في كلام العرب»[٦٥٥].

تلك كانت السمات الكُبَر، لكنّ ما أُلِّف في علوم العربية في هذا العصر كان كثيراً، والأهم أنه ظل للمدارس النحوية المختلفة رجالها وامتدادها، فضلاً عما أُبرز من جهود بعضهم في تلك السمات. فمن المدرسة البصرية: أبوإسحق إبراهيم الزجّاج (ت٣١٠ هـ)، ومحمد أبوبكر السرّاج (ت ٣١٦ هـ)، وأبوسعيد السيرافي الحسن بن عبدالله (٢٨٠ – ٣٦٨هـ). ومن أتباع مدرسة الكوفة كان تلاميذ ثعلب: أبوموسى الحامض (ت ٣٠٥ هـ)، وغلام ثعلب أبوعمر الزاهد(ت ٣٤٥هـ)، وابن مقْسم أبوبكر العطّار (ت ٣٥٤ هـ)، وكان أشهرهم أبا بكر الأنباري محمد بن القاسم(٢٧١ – ٣٢٨هـ)، وأحمد بن فارس (٣٠٦ أو٣٠٨ – ٣٧٥ أو٣٩٠هـ)[٦٥٦] مؤلف "المجمل في اللغة" و"مقاييس اللغة" و"الصاحبي في فقه اللغة"، الذي ألّفه لخزانة الصاحب بن عبّاد، و"متخيّر الألفاظ".

أمّا المدرسة البغدادية، فكان من أتباعها: أبوالقاسم الزجّاجي(ت ٣٣٧هـ أو ٣٤٠هـ)، وأبوعلي الفارسي، وابن جنّي. [٦٥٧]

هـ - البلاغة والنقد:

يكاد ينعقد الإجماع على أن هذا العصر كان عصر انفصال البلاغة عن النقد بدءاً من كتاب " الصناعتين " لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ). أمّا التأليف فيهما فجعل يزداد ويتطور، وينحو نحو المنهجية، وتتضح فيه الأفكار والمفاهيم والقضايا، فمن المؤلفات مثلاً:

"عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) و«أخبار أبي تمام» و«أخبار البحتري» لأبي بكر الصولي (ت ٣٣٥ أو٣٣٦ هـ)، "ونقد الشعر" لقدامة بن جعفر(ت ٣٣٧ هـ)، و"البرهان في وجوه البيان" لابن وهب الكاتب البغدادي، و"الموازنة بين الطائيين" للآمدي (ت ٣٧٢هـ) و"المصون في الأدب" لأبي أحمد العسكري (٣٨٢هـ)، و"الموشح" للمرزباني(ت ٣٨٤ هـ)، و"النكت في إعجاز القرآن" للرمّاني(ت ٣٨٦هـ)، و" الموضحة " و" حلية المحاضرة " و" الرسالة الحاتميّة " للحاتمي محمد بن المظفر(ت ٣٨٨هـ)، و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي عبدالعزيز الجرجاني(ت ٣٩٢)، وكتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، "وإعجاز القرآن" لأبي بكر الباقلاني(ت ٤٠٣هـ).

واستقرت مسارات النقد في هذا القرن فيما يأتي: [٦٥٨]

(١) اعتماد الذوق الفني في إنشاء نظرية الشعر(ابن طباطبا العلوي).

(٢) الصراع النقدي في أبي تمّام.

(٣) النقد والأثر اليوناني(قدامة بن جعفر، والفارابي، وأبوحيان التوحيدي).

(٤) المعركة النقدية حول المتنبي(الحاتمي، وأبوالعباس النامي، والصاحب بن

عبّاد، وابن جنّي والردود عليه، وابن وكيع التنّيسي، والقاضي الجرجاني).
(٥) النقد وفكرة الإعجاز(الرمّاني، والخطّابي، والباقلاني، وأبوهلال العسكري).

و - التاريخ والجغرافية:

كان القرن الرابع ثريّاً بكثيرين من المؤرخين. ويعدّ تاريخ الطبري، الذي سلفت الإشارة إليه في التفسير، من أمهات الكتب التاريخية الموثوق بصحتها، فهو" أكثر تحقيقاً ممن سبقه من المؤرخين، فضلاً عن أنه انفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله"[٦٥٩]. وقد بدأ حوادثه، حسب السنوات، منذ الخليقة حتى عام ٣٠٢ هـ، ثم جاء عريب بن سعد القرطبي(ت ٣٦٦هـ) ليصل ما انقطع فألّف " صلة تاريخ الطبري " من عام ٢٩١هـ حتى عام ٣٢٠هـ نهاية عهد الخليفة المقتدر.

يقول أحمد أمين عن الكتاب: " وكتابه هذا مع أنه تاريخي في أصله، فالقارىء له يقف على ثروة كبيرة في الأدب، لأنه في حكايته للروايات المختلفة يقصّها في لغة رصينة بليغة، غاية في القوة. وهوجريء في قول الحق، يتعرض لذكر أشياء قد لا يرضى عنها العباسيون أنفسهم، وهم الخلفاء ذووالسلطة. وإن أخذنا عليه شيئاً، فهو أنه يكثر من ذكر الحروب والوقائع الحربيّة، وسيَر الخلفاء؛ ولا يعرض إلاّ لماماً لذكر الأحداث الاجتماعية، والمسائل الاقتصادية[٦٦٠]

وألف سعيد بن البطريق المشهور بـ" أوتيخا "(ت ٣١٧ هـ)، الذي كان أحد بطارقة الإسكندرية، كتاب: " التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق "، وهوالذي ذيّله يحيى بن سعيد الأنطاكي(ت ٤٥٨هـ) بكتابه: " صلة كتاب أوتيخا"[٦٦١]

وللجهشياري أبي عبدالله محمد بن عبدوس(ت ٣٣١هـ) كتاب " الوزراء والكتّاب"[٦٦٢] وهومن أقدم المصادر التاريخية، وأشهرها ذكراً. فصّل فيه صاحبه تاريخ

كتابة الإنشاء منذ تأسيس الدولة الإسلامية في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم، وتاريخ الوزارة والوزراء في الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجري"[٦٦٣]. ويعدّ الكتاب " أول ما ألف من نوعه في تاريخ الوزراء "، وقد حذا المؤرخون حذوه، إذ ألف هلال بن المحسن الصابي(ت ٣٥٩هـ) " تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء "، وأفاد منه ابن الأثير في "كامله" وابن الطقطقا في " الفخري في الآداب السلطانية" [٦٦٤].

كان ابن عبدوس ووالده من رجالات الدولة العباسية في خلافة المقتدر، يذكر المسعودي أن غير واحد من أهل الدراية أخبره أن الجهشياري " صنّف أخبار المقتدر في ألف ورقة "، أمّا هو نفسه فيقول: " وقد صنّف أبوعبدالله بن عبدوس الجهشياري أخبار المقتدر باللّه في ألوف من الأوراق، ووقع لي أجزاء يسيرة منها" [٦٦٥].

وألف أبوبكر الصولي كتاب " الأوراق "، وهومطبوع في ثلاثة أجزاء: [٦٦٦] و"أخبار الراضي باللّه والمتّقي للّه " أو" تاريخ الدولة العباسيّة من سنة ٣٣٢ إلى ٣٣٣هـ"، و«أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم»، و" أخبار الشعراء المحدثين ".

ومن أهم مصادر هذا العصر التاريخية كتاب " مروج الذهب ومعادن الجوهر " لأبي الحسين علي المسعودي(ت ٣٤٦ هـ)[٦٦٧] الذي لقّبه ابن خلدون قديماً بـ" إمام المؤرخين " وفون كريمر حديثاً بـ«هيرودوتس العرب»[٦٦٨]. لم يكن المسعودي مؤرخاً فحسب، إنما كان جغرافياً رحّالة كذلك، وهذا يفسّر التفاتاته الكثيرة إلى القضايا الاجتماعية في كتابه هذا الذي عرض فيه للأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى زمانه هو. ومن كتبه المطبوعه كذلك " التنبيه والإشراف "، وهومن الكتب المهمة في تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالعباسيين[٦٦٩]. وللمسعودي كتب أخرى ذكرها هو في مقدمة "التنبيه " وعرض لمحتويات بعضها[٦٧٠].

ومن المصادر التاريخية المهمة أيضاً كتاب " تجارب الأمم " لمسكويه أحمد بن محمد

ابن يعقوب(٣٢٥ – ٤٢١هـ) الذي عاصر الدولة البويهية وخدم عدداً من أمرائها ووزرائهم. والمهم في كتابه أنه عني، إلى جانب التاريخ، بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، وأنه اعتمد المشاهدة والعيان، لقوله: " أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة(٣٤٠ هـ) فهومن مشاهدة وعيان وخبر محصّل يجري عندي خبره مجرى ما عاينته"[٦٧١]. وقد كان يلتفت إلى الأمور الصغيرة التي تهدي إلى العبرة والاتعاظ[٦٧٢] ليتدبر أولوالألباب. ومن يدري، فلربما كان كتابه " تهذيب الأخلاق " مولوداً شرعياً لذاك التوجه، وردّة فعل لسيرة صاحبه الأولى[٦٧٣]. وألف وزير المقتدي بالله أبوشجاع محمد بن الحسين الروذراوري " ذيل تجارب الأمم " أرّخ فيه لحوادث خمس وعشرين سنة(٣٦٩ – ٣٩٣ هـ) أي من حيث انتهى مسكويه الذي أرّخ للأحداث بدءاً من عام ٢٩٥هـ حتى عام ٣٦٩هـ.

ومن مؤرخي هذا العصر في غير ناحية: الشابشتي صاحب " الديارات "؛ والحسن بن زولاق(٣٠٦ – ٣٨٧ هـ)، الذي عاش في العهدين الإخشيدي والفاطمي، وكان " فاضلاً في التاريخ وله فيه مصنف جيد، وله كتاب في خطط مصر"[٦٧٤].

أمّا في الجغرافية وتقويم البلدان، فازدهر أمرهما ازدهاراً بيّناً وإن كان البحث في أحوال الأقاليم وليد النهضة العلمية في القرن الثالث الهجري[٦٧٥] كما يبدو من كتاب "المسالك والممالك" لابن خُرداذبه(ت ٣٠٠هـ)، و" البلدان " لليعقوبي(ت ٢٩٢هـ)، وغيرهما، على الرغم من الانتقادات التي وجهها المقدسي إلى عدد منها[٦٧٦].

من أشهر بلدانيي هذا العصر:

(١) لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني(٢٨٠ – ٣٣٤هـ أوبعدها)[٦٧٧] صاحب " صفة جزيرة العرب " وأشهر مؤلفاته " الإكليل ".

(٢) قدامة بن جعفر في كتابه " الخراج وصناعة الكتابة" [٦٧٨].

(٣) المسعودي في " مروج الذهب " ، وقد مرّ الكلام عنه .

(٤ و٥) ابن حوقل أبوالقاسم النصيبي(ت ٣٨٠ هـ) ، والمقدسي البشّاري أبوعبدالله محمد بن أحمد(ت ٣٨٧هـ) . وقد وصفت كتبهما معاً بأنها كانت " الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان ؛ وكلاهما قد سافر حتى دوّخ الممالك ، وحمله تيار الأسفار ، واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين[٦٧٩] . وممّا يجمعهما ، كذلك ، أنهما اقتصرا على وصف مملكة الإسلام فحسب . فأمّا ابن حوقل ، فراجع كتاب "المسالك والممالك" للإصطخري وزاد عليه وأخرجه بالعنوان نفسه "المسالك والممالك"[٦٨٠] .

يقول ابن حوقل[٦٨١] : " . . . سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها ، ووصفت رجالات أهل البلدان وأعيان ملوكها . . . ولم أستقصِ ذلك كراهية الإطالة . . . ، ولأن الغرض في كتابي هذا تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمتُه ممن شاهدها " .

أمّا المقدسي ، فيقول : . . . فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه(العلماء) وأنفرد بفنٍّ لم يذكروه إلاّ على الإخلال ، وهوذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها[٦٨٢] .

(٥) العلوم العقلية:

وتصل النوبة ، بعد العلوم النقلية ، إلى العلوم العقلية ، وهي كثيرة في أنواعها وعلمائها ومؤلفاتهم وإن كانت العناية بها أقل من الاهتمام بالنقلية لعوامل دينية وذاتية[٦٨٣] .

أ - الفلسفة:

ليس من شأن هذا الكتاب أن يستقصي ويتتبع ويفصّل ويحلّل ، بيد أنه تحسن الإشارة إلى أن العلماء العرب والمسلمين لم يكتف أكثرهم ، وفقاً لروح العصر ، بعلم واحد ينقطع إليه ، بل كانوا موسوعيين اشتهر كثيرون منهم بغير علم وأجادوه وكانت

لهم فيها أعمال ومؤلفات من الصعب، لهذا، أن يصنفوا في علم واحد.

فالفلسفة ازدهرت في هذا العصر، وكان من أشهر فلاسفة المشرق: الفارابي، وإخوان الصفا، وابن سينا.

فأمّا الفارابي، فكان واحداً ممن ضمهم بلاط سيف الدولة كما تقدم، وكان عالماً وموسيقياً. أخذ صناعة المنطق عن متّى بن يونس ببغداد، وعن يوحنا بن حيلان في حرّان. درس كتب أرسطو ووقف على ما فيها؛ يقال إنه وجد بخطّه على "كتاب النفس" لأرسطو: "إني قرأت هذا الكتاب مائتي مرّة"، ونقل عنه: "قرأت(السماع الطبيعي) لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرّة" [٦٨٤]، وكان قد بدأ بفلسفة أفلاطون. ولقد ترك اشتغاله بهما(أفلاطون وأرسطو) وبشروح كتب أرسطو تحديداً آثاراً في تآليفه التي أهمها[٦٨٥]: البرهان، وآراء أهل المدينة الفاضلة، وإحصاء العلوم، والنواميس، والسياسة المدنية. ليس كثيراً عليه، إذاً، أن يلقب بـ"المعلم الثاني"، وأن يوصف بـ "فيلسوف المسلمين على الحقيقة"[٦٨٦].

أمّا "إخوان الصّفا"، فكانوا جمعية سرّية بالبصرة وبغداد، يجتمعون سرّاً ويتباحثون بالفلسفة على أنواعها، وقد دوّنوا آراءَهم في خمسين رسالة عرفت بـ"رسائل إخوان الصّفا"، تضم عصارة فلسفتهم، وهي "خلاصةأبحاث الفلاسفة بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند، وتعديلها على ما يقتضيه الإسلام"[٦٨٧].

وكان ثمة جماعة أخرى، هي جماعة الفيلسوف المعروف أبي سليمان السجستاني المنطقي، التي "لم يكن منهجها كمنهج إخوان الصّفا، فلم يكونوا رجال دعوة وتبشير، ولا ذوي مطامع ومطامح، وإن لم يكونوا يؤلفون رسائل أو كتباً، إنما كان همهم أن يجتمعوا في بيت رئيسهم للمتعة العقلية وكفى"[٦٨٨]، وقد سبق الكلام عن بعض أتباعها، على أن التوحيدي سجّل عدداً من مجالسها في "المقابسات".

وأمّا الشيخ الرئيس أبوعلي الحسين بن عبدالله بن سينا[٦٨٩] (٣٧٠ - ٤٢٨هـ)، فبرع، إلى جانب الفلسفة في "علم المنطق والطبيعي والرياضي"، وفي الطب الذي له فيه "القانون". تربو مؤلفاته على المئة في الفلسفة وغيرها، منها: الشفاء، والنجاة، والإشارات، وحي بن يقظان، وسلامان وأبسال، ورسالة الطير. وقصيدته العينيّة في النفس معروفة، مطلعها:

هبطتْ إليكَ من المحلّ الأرفعِ
ورقاءُ ذات تعزّزٍ وتمنُّعِ

وعرفت الأندلس الفلسفة، إذ دخلتها مذ عهد عبد الرحمن الأوسط، ومن فلاسفتها، مثلاً: المجريطي مسلمة بن أحمد(ت ٣٩٨هـ) وتلامذته الكثر، وقد عُني أولئك بعلوم الأوائل كالرياضيات والنجوم والهندسة التي كانت تعد آنذاك في الفلسفة[٦٩٠]، أمّا الفلسفة بالمعنى الاصطلاحي فلم يعن الأندلسيون بها إلاّ بعد دخول رسائل إخوان الصفا إليها[٦٩١].

ب - الطب:

وعني العرب والمسلمون في هذا العصر بالطبّ عناية قصوى[٦٩٢]، وهو وإن كان منذ اهتمامهم به منبجساً عن حركة الترجمة في بداياتها الأولى، يعدّ خلاصة ما وصل إليه هذا العلم عند الآخر المتمدن قبل الإسلام وبعده من يونانيين وفرس وهنود، فضلاً عما أضافوه هم.

لقد كان عدد الأطباء، بعد ترجمة الكتب الطبيّة، في أربعة القرون الهجرية الأولى يقدّر بالمئات كما يظهر من مطالعة "فهرست" ابن النديم، و"تاريخ حكماء الإسلام" للبيهقي، و"إخبار العلماء" للقفطي، و"طبقات الأطباء" لابن أبي أُصيبعة، و"نزهة الأرواح" أو"تاريخ الحكماء" للشهرزوري، وغيرها من كتب التراجم من مثل "وفيات الأعيان" و"معجم الأدباء". يقال إن عدد أطباء بغداد وحدها في عهد الخليفة المقتدر

وصل إلى(٨٦٠) طبيباً، ويقال إن سيف الدولة الحمداني، كما تقدم، كان إذا أكل الطعام حضر إلى مائدته أربعة وعشرون طبيباً، وكان فيهم الطبيب عيسى الرقّي المعروف بالتفليسي، الذي كان طبيباً مشهوراً في أيامه، عارفاً بالصناعة الطبيّة حقّ معرفتها، وله أعمال فاضلة ومعالجات بديعة "، وكان ينقل من السريانية، ويأخذ أربعة أرزاق: رزقاً بسبب الطبّ، ورزقاً بسبب النقل، ورزقين بسبب علمين آخرين. أمّا الأطباء الآخرون فكان فيهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم(٦٩٣).

ولقد ركز الأطباء في القرنين الثالث والرابع الهجريين في العناصر الأساسية في الطبّ من غذاء، ودواء، وشراب، واعتماد التجربة في البحث والعلاج، والتفات إلى نفسية المريض، وربط الغذاء بالرياضة البدنية، والاهتمام بالحميّات، والجراحة كما في " قانون " ابن سينا الذي جمع ما كتبه جالينوس في التشريح وقرّبه إلى الأفهام، وطب العيون كما عند علي بن عيسى الكحّال صاحب " تذكرة الكحّالين(٦٩٤) وابن سينا الذي عني بموضوع الرّمد كثيراً.

من أشهر الأطباء، غير من أشير إليه، أبو بكر الرازي محمد بن زكريا(٦٩٥) (ت٣١١هـ) صاحب " الحاوي " و" الجامع " و" الأعصاب " و" المنصوري " الذي ألّفه لمنصور بن نوح السّاماني. والرازي هوالذي دبّر مارستان الري ومارستان بغداد في أيام المكتفي ". من أقواله الطبيّة، مثلاً:

- " مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية ".
- " مهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركّب ".
- " إذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقلّ لبث العلّة ".

ومنهم، علي بن العباس المجوسي(ت ٣٨٤ هـ) المشهور بكتابه " الملكي " الذي صنّفه لعضد الدولة البويهي، وهو" كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبيّة علمها وعملها"(٦٩٦).

ج - الكيمياء والصيدلة:

وقاد الاهتمام بالطب إلى الاهتمام بالكيمياء والصيدلة والنبات كما كان الشأن في الأعصر السابقة، فكان الكندي وأبوبكر الرازي، امتداداً لجابر بن حيّان في الكيمياء، إذ اكتشفوا عدداً من المركبات الكيماوية. وكما صنّف الرازي " المنصوري " في الطب لمنصور بن نوح، كما تقدم، صنّف له كتاباً في إثبات صناعة الكيمياء كافأه عليه بألف دينار، وطلب إليه أن يخرج ما فيه إلى الفعل بعد أن تكفل له بكل الآلات التي طلبها، لكنه عجز، فأمر بأن يعاقب، وهكذا كان[٦٩٧].

وأفاد علماء هذا العصر من مؤلفات «جالينوس»[٦٩٨] و" ديسقوريدس " الذي ترجم أصطفان بن باسيل كتابه عن اليونانية مباشرة، وحمل الكتاب إلى الأندلس، فانتفع الناس به إلى أيام الناصر عبدالرحمن بن محمد[٦٩٩].

وعُرف في عهد هشام المؤيد بالله داود بن سليمان بن حسّان المعروف بابن جلجل، الذي كان طبيباً خبيراً بالمعالجات، جيد التصرف بصناعة الطب. فسّر أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس، وله من الكتب: " كتاب تفسير الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس " ألّفه بقرطبة عام ٣٧٢هـ، وله مقال في الأدوية التي لم يذكرها العالم اليوناني ذاك، الذي ظلّ نفر من الأطباء المعاصرين لابن جلجل يعملون على تصحيح أسماء عقاقير كتابه[٧٠٠].

د - الرياضيات والفلك والنجوم:

وكانت للعلماء في هذا العصر جهود بارزة في الرياضيات عامة: الحساب والجبر والهندسة. ومما يحسب لهم نقلهم الحساب الهندي والأرقام الهندية، التي نستعملها نحن اليوم، واستعمالهم (الصفر) للغاية نفسها التي يستعمل فيها الآن[٧٠١].

ومن علماء الرياضيات، وإن جمعوا إليها علوماً أخرى، سنان بن ثابت صاحب

التآليف في الهندسة[٧٠٢]؛ وكان من أشهرهم الحسن بن الهيثم، أبوعلي الحسن بن الحسن(٣٥٤ - ٤٣٠هـ) الذي لقّب بـ"بطليموس الثاني" لأنه "كان تلو بطليموس في العلوم الرياضية والمعقولات، وتصانيفه أكثر من أن تُحصى[٧٠٣] لا سيما في الهندسة إذ "كان علماً بهذا الشأن متقناً له متفنناً فيه، قيّماً بغوامضه ومعانيه" [٧٠٤]. ومن مؤلفاته: تهذيب المجسطي، ومصادرات إقليدس، وتربيع الدائرة، وعلل الحساب الهندي، وغيرها[٧٠٥].

وكان للعرب والمسلمين اهتمام بالفلك والنجوم قبل هذا العصر، الذي تواصلت فيه جهودهم، وهم عموماً "قالوا بإبطال صناعة التنجيم المبنيّة على الوهم، ولعلهم أول من فعل ذلك، وإن كانوا لم يستطيعوا إبطالها، ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحوالحقائق المبنيّة على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء. وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الأفلاك، ويؤلفون الأزياج، ويقيسون العُروض، ويراقبون السيّارات". . . .

واهتموا بالرصد والمراصد[٧٠٦]، اهتماماً وصل إلى مداه في هذا القرن، لأن شرف الدولة بن عضد الدولة أمر برصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها في بروجها كما كان يفعل الخليفة المأمون[٧٠٧]. كان من مشاهير هذين العلمين، مثلاً: أبوالريحان البيروني؛ وأبوالحسن علي بن يونس المنجم المصري(ت ٣٩٩ هـ) الذي استعان به الخليفة الحاكم الفاطمي صاحب "الرصد الحاكمي" بسفح جبل المقطّم، وأبوالحسن علي بن هارون بن أبي منصور(٢٧٧ - ٣٥٢هـ)؛ وأبوالوفاء البوزجاني المهندس(٣٢٨ - ٣٨٧هـ) الذي "بلغ المحلّ الأعلى في الرياضيات. . . ، وكفى بذلك شاهداً تصنيفه المعنون بالمنازل ثم زيجه، ثم سائر تصانيفه"[٧٠٨].

(٦) الإبداع الأدبي:

الإبداع الأدبي، نثراً وشعراً، في هذا العصر كثير متعدد المنازع والاتجاهات، والمبدعون كثر كذلك لا تمكن الإحاطة بهم ولا بكل نتاجاتهم الإبداعية، وهوأمر غير

ممكن وغير متوقع في مبحث من فصل روعي فيه ـ وفي غيره من الفصول – إبراز أظهر الأطر والسمات والميزات التي من بينها أن جلّ كتّاب هذا العصر كانوا يقرضون الشعر، وأن بعض الشعراء كانوا يكتبون النثر، بيد أن هذا لا يعني أن نثر هؤلاء وشعر أولئك كانا من الشعر والنثر الجيدين، فأبوالقاسم عبد العزيز بن يوسف أحد كتاب آل بويه وصاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة كان من المعدودين في الرسائل الإخوانية بحيث وصفه الثعالبي بأنه "أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق. . . ، وأعيان الممدّحين المقدمين في الآداب والكتابة" لكن شعره لم يكن، فيما وصل إلينا منه، من الشعر الجيد، وإن قال عنه الثعالبي إنه: "أحسن من زهر الرياض"[٧٠٩]، وكذا كان أبوحيان التوحيدي. غير أن ثمة كتّاباً غلب عليهم النثر ولا تخلو أشعارهم من جودة من مثل: القاضي الجرجاني، وأبي بكر الخوارزمي، وابن العميد، وأبي إسحق الصابي، وبديع الزمان الهمذاني[٧١٠]، وثمة من برز في الصناعتين معاً كالشريف الرضي وأبي العلاء المعري.

وقد تعهد الثعالبي التأريخ لمبدعي القرن الرابع كتّاباً وشعراء في "يتيمة الدهر" و"تتمتها" في أمصار الدولة الإسلامية كافة، مشترطاً أن يورد من إبداعاتهم "لبّ اللّب وحبّة القلب، وناظر العين، ونكتة الكلمة، وواسطة العقد، ونقش الفص"[٧١١]، غير أنه لم يلتزم بشرطه التزاماً كاملاً[٧١٢]، إنّما خالفه بعض المخالفة معتذراً بقوله: "فإن وقع في خلال ما أكتبه البيت والبيتان ـ مما ليس من أبيات القصائد، ووسائط القلائد ـ فلأن الكلام معقود به والمعنى لا يتمّ دونه، ولأن ما يتقدمه أويليه مفتقر إليه، أولأنه شعر ملك أوأمير أو وزير أو رئيس خطير، أوإمام من أهل الأدب والعلم كبير، وإنّما ينفق مثل ذلك بالانتساب إلى قائله، لا بكثرة طائله:

وخير الشعر أكرمه رجالاً

وشرّ الشعر ما قال العبيدُ [٧١٣ - ٧١٤]

وسوّغ له القسم الأخير من عذره أن يكتب عن سيف الدولة الشاعر، وأن يعقد باباً(الرابع من الجزء الأول) لـ " مُلَح شعر آل حمدان أمراء الشام، وقضاتهم، وكتّابهم "، وأن يفرد مكاناً لعدد من الوزراء في الأندلس في بدايات الجزء الثاني، ويخصّص الباب الأول من القسم الثاني للملوك الشعراء من آل بويه الذين أردفهم ببعض وزرائهم.

وتكفّل الدكتور نبيل أبو حاتم بدراسة المبدعين في " اليتيمة " في كتابه " اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري"[٧١٥] (من خلال يتيمة الدهر) - وكان في أصله رسالته للدكتوراه - وجعله في أبواب ثلاثة من فصلين لكلّ منها، والأبواب، هي: بيئات الشعر في القرن الرابع، والموضوعات التقليدية، والاتجاهات الشعرية الجديدة.

وألحق المؤلف بكتابه " ثَبَتاً" بأسماء شعراء اليتيمة دون " التتمة " في أربعة أقسام: الأول للشعراء فقط، والثاني للكتّاب الذين لهم شعر، والثالث لمن لهم شعر من اللغويين، والأخير لمن ذكرهم الثعالبي ولهم شعر قليل. وقد جهد في الأقسام الثلاثة الأولى بتتبع مصادر أعلامها في غير " اليتيمة " وتقييدها، أمّا القسم الأخير فلم يجد لهم ذكراً في غير اليتيمة(ص ٤٣١)، ولعله يكمل صنيعه هذا فيرصد المبدعين في "التتمة " أيضاً.

أمّا الدكتور شوقي ضيف، فهوالمؤرخ الأدبي الأكبر لإبداع الدول والإمارات في سلسلة كتبه بعد كتاب " العصر العباسي الثاني " التي أصدرها تباعاً بعنوان " عصر الدول والإمارات " في خمسة أجزاء إلى الآن: الأول للجزيرة العربية والعراق وإيران، والثاني للشام، والثالث لمصر، والرابع للأندلس، والأخير لليبيا وتونس وصقلية. وللقرن الرابع حظٌ وفير فيها من حيث التأريخ السياسي والاجتماعي والعلمي المكثّف، ومن حيث الترجمة والدراسة الموجزة الوافية والنماذج في كلّ جزء لبعض المبدعين في الاتجاهات النثرية والشعرية المختلفة فحسب.

أ - النثر:

تعددت الأجناس الأدبية النثرية في هذا العصر، فكان جنس " الرسالة " في الطليعة، وهوقسمان: الرسائل السلطانيّة / الديوانية، والرسائل الإخوانية. فمن كتاب الضرب الأول، هؤلاء الوزراء الأدباء: الصاحب بن عبّاد، وابن العميد، وابن مقلة، والمهلبي، أبومحمد الحسن بن محمد(٢٩١ - ٣٥٢هـ)، والخصيبي[٧١٦]، وأبوالقاسم علي بن محمد الإسكافي النيسابوري وزير السامانيين الذين كان " أكتب الناس في السلطانيات، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعي قصير الباع "[٧١٧] والذي تقلّد ديوان الرسائل لأبي علي الصاغاني[٧١٨].

وكان من غير الوزراء: أبوإسحق إبراهيم بن هلال الصابي(٣١٠ - ٣٨٤هـ) الذي " خنق التسعين في خدمة الخلفاء، وخلافة الوزراء، وتقلّد الأعمال الجلائل، مع ديوان الرسائل "[٧١٩]، والذي كان الصاحب بن عباد " يتمنّى انحيازه إلى جنبته، وقدومه إلى حضرته "، وهوالذي كثيراً ما كان يقول: " كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة:

الأستاذ ابن العميد، وأبوالقاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبوإسحق الصابي، ولوشئت ذكرت الرابع، يعني نفسه"[٧٢٠]. كان أوحد الدنيا في إنشاء الرسائل[٧٢١]، وكانت بينه وبين الشريف الرّضي نقيب الطالبيين، مع اختلاف الملّة، مودّة ومكاتبات، ولما مات رثاه الشريف بالداليّة المشهورة التي أوّلها:

أعلمتَ من حملوا على الأعوادِ
أرأيتَ كيف خبا ضياء النادي ؟
ما كنتُ أعلم قبل دفنكَ في الثّرى
أنّ الثرى يعلوعلى الأطوادِ !

فعاتبه الناس لأنه رثى " صابئاً "، فقال " إنّما رثيت فضله»[٧٢٢]

أمّا كتّاب الضرب الآخر / الرسائل الإخوانية، فمنهم: أبوحيان التوحيدي، وعبدالعزيز بن يوسف الذي سبقت الإشارة إليه، والببغاء الأديب وإن لم تصل إلينا من رسائل هذين الأخيرين أشياء كثيرة[٧٢٣]، وأبوبكر الخوارزمي(ت ٣٨٣هـ) الذي كان "باقعة الدهر، وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم"[٧٢٤].

ويمكن أن يعدّ أبوحيان التوحيدي صاحب مدرسة نثرية كعبدالحميد الكاتب، والجاحظ، وابن العميد، وغيرهم.

لقد صنّف التوحيدي في الجاحظ كتاباً عنوانه " تقريظ الجاحظ"[٧٢٥] وقال عن كتبه: "هي الدرّ النثير، والنّور المطير، وكلامه الخمر الصرْف، والسحر الحلال"[٧٢٦].

لا أحسب أن المجال مناسب للتوسع في الذي طرحت، لكنّ، ما يقوّيه ويعضده أن روح العصر وآفاقه ومعطياته العلمية اختلفت عما كان عليه الأمر في عصر الجاحظ(القرن الثالث الهجري)، وهو إن كان أسلوبه يمثل " الطريقة التي جرى عليها المترسلون منذ القرن الثاني الهجري حتى القرن الرابع، وذلك قبل أن طغى السجع على أقلام الكتّاب. . . "، وإن كان " من خصائصه احتذاء الجاحظ في التفنن في كلّ شيء مطبوعاً على ذلك إلى الحدّ الأقصى "، فإنه " أولع بوضع الأحاديث والأسماء ووقائع التاريخ في الصورة الروائية"[٧٢٧]، وإنه لم يلجأ إلى السجع في كتبه إلاّ في "الإشارات الإلهية"[٧٢٨] حيث يمزج بين السجع والمزاوجة[٧٢٩]. يقول آدم متز: " ربما كان أعظم كتّاب النثر العرب على الإطلاق"[٧٣٠]، ويقول: " وأول ما نلاحظه أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع، وقادراً عليه، غير أننا نكاد لا(كذا) نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء. ولم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هوأبسط وأقوى وأشد تعبيراً عن مزاج صاحبه مما كتب أبوحيّان، ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع، فيجري عليها ويعظّم أصحابها، ولقد كان أبوحيان فنّاناً

غريباً بين أهل عصره»[٧٣١] . أمّا في العصر الحديث ، فقد " تحول النظر عن الصناعة اللفظيّة إلى جلال العبارة القائمة على سموّ المعاني ، وعمق التفكير وحسن التسلسل الفكري ، فزالت عنه الحجب ، وأخذ النقاد ينظرون إليه بعين غير عين أهل الصنعة اللفظية" [٧٣٢] .

ومهما يكن الأمر ، فإنّه إذا ما استثنينا ابن العميد من الكتّاب الديوانيين والتوحيدي من غيرهم في " الإشارات الإلهية " ، فإن السيادة الأسلوبية أضحت ، آنذاك ، لالتزام السجع والبديع والتأنق بتزويقه بالشعر والأمثال[٧٣٣] .

صفوة القول في رسائل القرن الرابع الهجري " إنها أدقّ آية من ازدهار الفن الإسلامي ، ومادتها هي أنفس ما عالجته يد الفنّان ، وهي اللغة ؛ ولولم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للرشاقة الرقيقة ، وامتلاكهم لناصية البيان في صورته الصعبة ، وتلاعبهم بذلك تلاعباً" [٧٣٤]

ومن الأجناس الأدبية النثرية التي عرفها هذا العصر ، بقطع النظر عن الإرهاصات والأصول ، جنس " المقامة " عند بديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسين (ت٣٩٨ هـ) الذي أرى أن نحتفظ به جنساً أدبياً مستقلاً دون أن نحاول إلحاقه أو إلصاقه بأي جنس من الأجناس النثرية الحديثة كالقصة والرواية ! فلم لا تكون لنا أجناس أدبية ذات سمات نسيج وحدها خاصة بنا كغيرنا من الأمم مثل " التوقيعات " و"المقامات " و"الموشحات " ؟! .

لقد نادى زكي مبارك منذ عام ١٩٣١ م بشيء قريب من هذا حين قال : " . . . إن القرن الرابع دان اللغة العربية بفنّ من فنون القصص هو فن المقامات ، وذيوع هذا الفن يرجع إلى أنه وافق السليقة العربية التي تميل إلى القصص القصيرة ، والتي تميل إلى

الزخرف في الإنشاء.

وقد ظن ناس أن فنّ المقامة هوفنّ القصة، وكذلك نراهم يذكرون المقامات كلّما أثير موضوع القصة في اللغة العربية، والواقع أن العرب، بفطرتهم، لم يكونوا يميلون إلى القصص المعقّد الذي وُجد كثير منه فيما أثر عن اليونان القدماء، والذي ذاع عند الإنجليز والروس والفرنسيس والألمان.

ولا عيب في أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل، فإن الفن الصحيح يرتكز أولاً على الفطرة، ولم يكن العرب مفطورين على القصة التي تقرأ في أيام أو أسابيع، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الأقاصيص التي وجدت عند معاصريهم في الشرق والغرب"[٧٣٥].

وكان لعدد من كتّاب هذا العصر إسهامهم في فن الفكاهة النثرية الذي لم يكن من مبتكراته، بل ظهر فيه ظهوراً واضحاً. فضلاً عمّا في مقامات البديع، كما في "المقامة الشاميّة" و"المضيرية" مثلاً. وثمّة ألوان أخرى عند "أبي الخطّاب الصابي" (صفة حَمَل) و"أبي إسحق الصابي" (التعزية في ثور، وعهد التطفل)[٧٣٦].

كما كان لعدد آخر سهمة في التأليف في قصص السمر بنحو ليس عربياً خالصاً، وهي القصص التي جعلت تتسرب إلى الأدب العربي منذ القرن الثالث الهجري[٧٣٧]، إذ شرع الجهشياري بتأليف كتاب على غرار "ألف ليلة وليلة" بجمع «ألف» سمر من أسمار العرب وغيرهم، وكتب(٤٨٠) منها، لكن حمامه عاجله قبل أن يتمّها[٧٣٨]. أمّا مسكويه فألّف كتاب "أنْس الفريد"، وهو "أحسن كَتاب صنّف في الحكايات القصار والفوائد اللّطاف»[٧٣٩].

ب. الشعر:

إن عدد الشعراء فقط في "اليتيمة" وحدها دون "التتمّة" - كما يؤخذ من "ثبت

نبيل أبوحاتم" - مئتان وخمسة وأربعون(٢٤٥) شاعراً بين مشهور ومغمور ومكثر ومقلّ وملك وأمير ووزير، ناهيك عن الشعراء الكتّاب والشعراء اللغويين، وعن الشعراء الذين انفرد الثعالبي بذكرهم وعددهم تسعة وستون(٦٩). إنه عدد كبير، وليس من المعقول أن يكون صاحب اليتيمة قد استقصى كل شعراء هذا القرن حتى بعد الاستدراك بِـ" تتمة اليتيمة ".

لقد كان أولئك الشعراء، وغيرهم ممن فات الثعالبي أن يستوعبهم وذكروا في مصادر أخرى، موزعين على أمصار الدولة الإسلامية الواحدة وإماراتها ودولها التي انقسمت عنها، إمّا من أهلها الأصليين وإمّا من الوافدين عليها كأولئك الذين أمّوا بلاط الحمدانيين وسيف الدولة تحديداً، والذين رحلوا إلى البويهيين ووزرائهم، وإلى مصر والأندلس لأسباب شتّى منها المال والجاه والمنصب والرحلة واستدعاء الملوك والأمراء والوزراء والعمّال - باصطلاح ذلك الزمان - أنفسهم لهم. كما كانوا موزعي الموضوعات والاتجاهات الشعرية والفنيّة والميول السياسية والمذهبية والعرقيّة، حتى إننا نجد، مثلاً "الصنوبري والمتنبي وابن الحجّاج والشريف الرّضي جنباً لجنب. . . ، وكلّ واحد منهم يشبه في الناحية التي نبغ فيها قمّة تشرف على كل القرون التالية للأدب العربي"[٧٤٠].

وإذا ما أردنا أن نلمّ بما كانت عليه حال الأدب عامة والشعر خاصة في أمصار الدولة الإسلامية كافة، نلحظ أن النهضة الأدبية في الشام هي التي ازدهرت في الدولة الحمدانية في حلب وفي عهد سيف الدولة تحديداً[٧٤١]، وهو ما سنفرده بمبحث مستقل.

وفي مصر، نهض الشعر في عهد الفاطميين لأنهم كانوا في حاجة إلى من يحمل لواء الدعوة والدعاية معاً كالذي فعله في المغرب ابن هانىءالأندلسي(متنبي المغرب) شاعر المعزّ لدين الله الذي أكرمه كثيراً وبنى له قصراً، ولما مات عام ٣٦٢هـ قال فيه:

" هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك "[٧٤٢]، ولأنهم كانوا أسخياء مع من يمدحهم ويدعو لهم. ومن الشعراء غير ابن هانيء: أبو الرّقعمق. أبوحامد أحمد بن محمد الأنطاكي(ت ٣٩٩ هـ) من الشعراء الذين وفدوا من الشام، ثمّ أقام بمصر مدة ومدح المعزّ؛ والقائد جوهراً؛ والوزير ابن كلّس وغيرهم[٧٤٣].

قال الثعالبي عنه: " نادرة الزمان. . . ، وممن تصرّف بالشعر الجزل في أنواع الجد والهزل. . . ، وهوأحد المدّاحين المجيدين. . . ، وهوبالشام كابن حجّاج بالعراق" [٧٤٤]. ومنهم تميم بن المعزّ الفاطمي(ت ٣٧٤ أو٣٧٥ هـ)، وهومن شعراء اليتيمة أيضاً[٧٤٥]. أمّا العراق، فكان فيه عدد وفير من الشعراء من مثل: ابن نباتة السعدي، مادح سيف الدولة في حلب وعضد الدولة، والوزير المهلبي بالعراق، وابن العميد بالريّ؛ وأبي الحسن السّلامي[٧٤٦] محمد بن عبدالله (٣٣٦ - ٣٩٣ هـ) الذي وصفه الثعالبي بأنه" من أشعر أهل العراق، قولاً بالإطلاق، وشهادة بالاستحقاق ". لقي بالموصل، حين خرج إليها صبيّاً، أبا الفرج الببغاء، وأبا عثمان الخالدي، وأبا الحسن التلعفري، وشيوخ الشعراء، فأعجبوا به لكنهم شكّوا في شعره وشاعريته، ولما اختبره الخالدي ونجح في الاختبار زال شكهم. مدح الصاحب بن عبّاد وابن العميد. وكان منهم، كذلك، ابن سكّرة الهاشمي البغدادي أبوالحسن محمد بن عبدالله (ت ٣٨٥ هـ)، وابن الحجّاج أبوعبدالله الحسين بن أحمد(ت ٣٩١ هـ)، والاثنان من شعراء مدرسة الهزل واللهو والمجون. يقول الثعالبي في الأول: " شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع، فائق في قول المُلح والظرف، أحد فحول الأفراد، جارٍ في ميدان المجون والسخف ما أراد"[٧٤٧]، ويقول في الآخر: "هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف[٧٤٨]، ولا يبني جلّ قوله إلا على سخف، فإنه من سحرة الشعر، وعجائب العصر. . . ، فرد زمانه في فنه الذي شهر به، وأنه لم يسبق إلى طريقته، ولم يلحق شأوه في نمطه. . . ، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها، وانتظامها في سلك الملاحة

والبلاغة، وإن كانت مفصحة عن السخافة، مشوبة بلغات الخلديين والمكدين وأهل الشّطارة. ولولا أن جدّ الأدب جدّ وهزله هزل. . . . ، لصنت كتابي هذا عن كثير من كلام من يمدّ يد المجون فيعرك بها أذن الحرم، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل"[٧٤٩].

وينقل عن البغداديين فيهما معاً: "إن زماناً جاد بابن سكّرة وابن الحجّاج لسخيّ جداً. وما أشبههما إلاّ بجرير والفرزدق في عصريهما"[٧٥٠].

وكان الأخوان الشريف الرضي(٣٥٩ - ٤٠٦هـ) والشريف المرتضى(٣٥٥ - ٤٣٦هـ) ناهيك عن المتنبي، أشهر شعراء العراق، وهما خير ممثلين لشعر الطالبيين. فقد وصف الأول بأنه أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المفلقين[٧٥١]، بل وصف بأنه "أشعر قريش[٧٥٢]. أما أخوه المرتضى علي بن الطاهر فقد كان "إماماً في علم الكلام والأدب والشعر" واشتهر بوصف «الطيف»[٧٥٣]، والتأليف فيه، إذ ألّف "طيف الخيال"[٧٥٤]. وهومشهور في النثر بأماليه وقد سلفت الإشارة إليه في الكلام عن مبحث "التفسير".

وأمّا خراسان وما وراء النهر حيث كانت الدولتان السامانيّة (٢٦١ - ٣٨٩هـ) والبويهية، فكان فيها نشاط علمي وأدبي وتأليفي مهم في مجالات شتّى كابن سينا، في الفلسفة، والخوارزمي في الآداب، والجوهري في اللغة. أمّا في الشعر، فأنجب عدداً كبيراً من الشعراء الذين أثبتهم الثعالبي في اليتيمة وأورد نماذج من أشعارهم، فهويقول عن "بخارى"، مثلاً: "كانت بخارى في الدولة السامانيّة مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر"[٧٥٥].

وكان ثمة أدباء في رحاب الدولة الغزنوية في عهد محمود خاصة، كأبي الفتح البستي الشاعر(ت ٤٠٠ أو٤٠١)[٧٥٦] كاتب محمود الغزنوي إلى جانب أبي القاسم

الميمندي وزيره .

وكان في الأندلس ، غير ابن هانىء ، ابن درّاج القسطلي(٣٤٧ - ٤٢١ هـ) الذي قال عنه الثعالبي : " كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام "[٧٥٧] ، والذي كان من مدّاح المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر من بعده .

المهم في أمر الأندلس الشعري اختراع " الموشح " ، الذي يرجّح أنه كان مولود هذا العصر بغض النظر عن الخلاف في بداياته ومخترعه الأول وأصوله[٧٥٨] . إنه جنس أدبي جديد يختلف عن " قصيدة الشطرين " المعهودة ذات الوزن الواحد والقافية الموحدة ، وهو جنس معروف من " قالب " خاص في التركيب والإيقاع .

٧ - موقع الحمدانيين في العصر العلمي والأدبي:

حرصت أن يكون من منهج هذا الكتاب المخصص لعصر أبي فراس الحمداني أن يركز على نصيب الحمدانيين في كل مبحث من فصوله الثلاثة إن كان لهم فيه علقة ، وأحسب أن الإشارات إليهم تعددت في مباحث هذا الفصل والفصل الثاني ، أمّا الفصل الأول فكان لهم القدح المعلّى فيه . وآثرت أن أخصهم وحدهم بهذا المبحث ، ما دام الكتاب معقوداً على عصر شاعرهم الأكبر ، لكي يبرز دورهم وسهمتهم في النهضة العلمية والأدبية في القرن الرابع .

فعلى الرغم من عدم الاستقرار الذي كتب عليهم سواء في علاقاتهم مع بعضهم أم في الأحداث الداخلية والخارجية التي تصدوا لها لا سيما سيف الدولة ، فإن ذلك كلّه لم يصرفهم عن أن يهتموا بالأدب والعلم ، وعن أن يكون لهم إسهامهم فيهما ، فكان أن جمعوا " بين أدوات السيف والقلم " كما يقول الثعالبي[٧٥٩] .

ليس من شكّ في أن نهضة بني حمدان الثقافية تجلت أكثر ما تجلّت في حلب سيف الدولة ، لكن لم تعدم ولايات آل حمدان الأخرى أن يكون لها نصيب فيها .

ففي أنطاكية كان أول اتصال للمتنبي بالحمدانيين، حيث اتصل عام ٣٣٦ هـ بأبي العشائر (الحسن بن علي بن الحسن) ابن عمّ سيف الدولة وواليها له، ومدحه بعدة قصائد[٧٦٠] أولها " القافيّة " التي مطلعها : [٧٦١]

أتــــراهــــا لــــكــــثــــرة الــــعــــشّــــاقِ

تحــــسب الــــدمع خــــلْــــقــــةً في المــــآقي

فأكرمه أبوالعشائر، وعرف منزلته، وهوالذي قدّمه إلى سيف الدولة أول مرّة عام ٣٣٧ هـ، وأثنى عليه وعرّفه منزلته من الشعر والأدب، مذ ذلك التاريخ نشأت الصلة بين الأمير والشاعر الذي اشترط عليه ألاّ ينشده مديحه إلاّ وهو قاعد، فقبل سيف الدولة الشرط، وهكذا كان[٧٦٢].

غير أنّ المتنبي، كما يقول طه حسين، لم يكن " حسن الوفاء لأبي العشائر، فهو لم يكد يتصل بسيف الدولة حتى أعرض عن غيره من الناس، ونسي أبا العشائر نسياناً تاماً، فلم يذكره ولم يشر إليه. وكان الرجل خليقاً أن يلقى من صنيعته بعض الشكر على ما قدم إليه من إحسان ". ويرى طه حسين، أيضاً، أنّ هذا كلّه ربما كان ميسّراً لشيءمن (الحلف) بين أبي العشائر وأبي فراس وأصحابه على قتل المتنبي غيلة، لا سيما أن إحدى أختي أبي فراس كانت زوج أبي العشائر الذي حمى المتنبي حين جاءه لاجئاً إليه عائذاً به والذي قدّمه إلى سيف الدولة[٧٦٣].

إذا ما أضفنا إلى هذا ما كان بين أبي فراس والمتنبي وبين هذا الأخير وابن خالويه والحاتمي والسّلامي وغيرهم ممن كانوا لا يرغبون فيه في بلاط سيف الدولة من خصومات ترتد إلى الحسد والغيرة من تقريب سيف الدولة للمتنبي واهتمامه الكبير به والإحسان إليه، وأضفنا إليه، كذلك، ما ذهب إليه محمود شاكر من أنه كان ثمة علاقة تربط المتنبي بخولة أخت سيف الدولة استنتجها من رثاء الشاعر لها بالبائية المشهورة التي مطلعها[٧٦٤]:

يــــا أختَ خــــيــــر أخٍ، يــــا بــــنتَ خــــيــــر أبٍ

كـنـايـة بـهـمـا عن أشـرفِ الـنـسبِ

والتي منها هذان البيتان السائران:

طـوى الجـزيـرة حـتى جـاءني خـبـرٌ

فـزِعتُ فـيه بـآمـالي إلى الـكـذبِ

حـتى إذا لـم يـدعْ لي صـدقه أمـلاً

شـرقتُ بـالـدّمع حـتى كـاد يـشـرق بي

إذا ما أضفنا هذه الأسباب إلى بعضها، فإنها قد تفسّر جوانب مهمة من ترك المتنبي سيف الدولة إلى كافور.

وكان في الموصل، إبّان إمرة ناصر الدولة، شعراء كثيرون سواء من أهلها الأصليين أم من الوافدين عليها. فمن أهل الموصل، مثلاً، كان:

الخبّاز البلدي[٧٦٥] (أبوبكر محمد بن أحمد بن حمدان)، والسريّ الرّفاء، والخالديان، وقد أوردهم الثعالبي جميعاً في اليتيمة وذكر أطرافاً من أخبارهم ونماذج من أشعارهم. وكان من أشهر الوافدين أبوالحسن السّلامي الذي وفد على الموصل "وهوصبي حين راهق"، وشك شيوخ شعرائها في شعره إلى أن اختبره أبوعثمان الخالدي كما تقدم.

وكان آل حمدان من الأسر الشاعرة كما يبدو من "الباب" الذي عقده الثعالبي لهم في "اليتيمة" بصرف النظر عن القيم الفنيّة لشعر أكثرهم. وإذا ما استثنينا سيف الدولة وأبا فراس مؤقتاً تطالعنا أسماء أبي زهير مهلهل بن نصر بن حمدان، وأبي العشائر وأبي وائل تغلب بن داود بن حمدان، وأبي المطاع بن ناصر الدولة، ، والحسين بن ناصر الدولة[٧٦٦]. ولما عوتب المتنبي في آخر أيامه، على تراجع شعره، قال: "قد تجوزت في قولي، وأعفيت طبعي، واغتنمت الراحة مذ فارقت آل حمدان، وفيهم من

يقول" : [٧٦٧] ويذكر الثعالبي عدداً من الشعراء المقلين من الأمراء والقضاة والكتاب الذين أدرج شعرهم في عنوانه الكبير : " في ملح شعر آل حمدان أمراء الشّام وقضاتهم وكتّابهم " ، هم :

(١) منصور وأحمد ابنا كيغلغ الأديبان الشاعران من أولاد أمراء الشام[٧٦٨] .

(٢) أبومحمد جعفر وأبوأحمد عبدالله ابنا ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوّادها المختصين بسيف الدولة ، وكانت بينهما وبين أبي فراس مكاتبات ومجاوبات ، إذ أرسل إليهما من قصيدة يقول :

أتـــــانـي عن بـــــــني ورقــــــاء قــــــولٌ

ألــــذّ جــــنًى من المــــاء الــــقــــراحِ

فأجابه أبوأحمد بقصيدة أولّها :

أصـــاحٍ قـــلــــبه أم غـــيـــر صـــاحِ

وقــــد عَـــنَّتْ له عُـــفْـــر الـــبــطـــاحِ

وله ولأخيه " معارضات " أخرى لبعض قصائد أبي فراس ، وله هوقصيدة "يائيّة"عرض فيها لبني كعب وضرب سيف الدولة لهم . وكانت بينهما وبين أبي إسحق الصابي مكاتبات شعرية بعد وفاة سيف الدولة[٧٦٩] .

(٣) أبوحصين علي بن عبدالملك الرّقي القاضي بحلب[٧٧٠] ، الذي قال فيه السريّ الرفّاء :

لــــقــــد أضـــحتْ خِلال أبـــوحـــصـــينٍ

حـــصـــونـــاً في المــلــمّــات الــصّــعــابِ

وكانت بينه وبين أبي فراس مودة تبدو مما كان بينهما من مكاتبات / معارضات شعرية . فلمّا كتب إليه أبوفراس ، وقد عزم المسير إلى الرقّة ، قصيدة مطلعها :

يــا طــول شــوقي إنْ كــان الــرحــيل غــدا

لا فـرّق الـلـه فـيـمـا بـيـنـنـا أبـدا

أجابه القاضي بقصيدة أوّلها :

الحـمـد لـلـه حـمـداً دائـمـاً أبـدا

أعـطـاني الـدهـر مـا لم يُـعـطه أحـدا

هي التي ذكر فيها سيف الدولة ، فقال منها :

لـولا الأمـيـر وأنّ الـفـضل مـبـدؤُهُ

مـنه لـقـلـتُ بـأنّ الـفـضل مـنك بـدا

(٤) أبوالفرج سلامة بن بحر أحد قضاة سيف الدولة ، الذي كان ينظم شعراً "يكاد يمتزج بأجزاء الهواء رقةً وخفّة ، ويجري مع الماء لطافة وسلاسة" [٧٧١] .

(٥) أبومحمد عبدالله بن عمرو بن محمد الفياض كاتب سيف الدولة ونديمه . وقد مضى الكلام عنه[٧٧٢] .

(٦) أبوالقاسم الشيظمي . لم يذكر له الثعالبي سوى مقطوعة من ثلاثة أبيات في وصف " نمرقة " رآها بجنب سيف الدولة[٧٧٣] . ويبدو أن " الشيظمي " لقبه ، فابن النديم يقول : " واسمه . . . .[٧٧٤] ، وكان يجول ، ثمّ انقطع إلى سيف الدولة . وقد عمل شعره قبل موته ، ومقداره نحوخمسمائة ورقة" [٧٧٥] .

(٧) أبوذر أستاذ سيف الدولة ، وقد مرّ ذكره .

(٨) أبوالفتح البكتمري المعروف بابن الكاتب الشاميّ [٧٧٦] .

(٩) أبوالفرج العجلي الكاتب[٧٧٧] .

(١٠) ابن خالويه أستاذ بني حمدان[٧٧٨] ، وقد سلف الحديث عنه .

(١١) ابن جنّي[٧٧٩]، وقد مضى الكلام عنه.

(١٢) الشمشاطي، أبوالفتح الحسن بن علي بن محمد، ولم يقع للثعالبي من شعره سوى بيتين في البنفسج ومثلهما في "الجلّنار" [٧٨٠] وهوالذي اختار مع كاتب سيف الدولة محمد الفيّاض عشرة آلاف بيت من مدائح الشعراء في أميرهم[٧٨١].

أمّا سيف الدولة، فكان شاعراً وناقداً(بالمفهوم السائد آنذاك) في آن، وقد ألمعت إلى شيء من شعره في فصل "العصر الاجتماعي"، وإلى شيء من نقده في فصل "العصر العلمي والأدبي" واستشهدت عليهما ببعض المُثُل، وها أنذا أستكمل الموضوع.

يستفاد من المُلح / النماذج التي أثبتها الثعالبي[٧٨٢] أن الرجل كان ينظم الشعر في الوصف، والغزل، فمن وصفه قوله في قوس قزح:

وقد نشرتْ أيدي الجنوب مطارفاً
على الجوّ دُكناً والحواشي على الأرضِ
يطرّزها قوس الغمام بأصفرٍ
على أحمرٍ في أخضرٍ تحت مبيضٍّ
كأذيال خَوْدٍ أقبلتْ في غلائلٍ
مُصَبّغةٍ والبعضُ أقصر من بعضِ

الذي يقول فيه الثعالبي "وهذا من التشبيهات الملوكيّة التي لا يكاد يحضر مثلها السوقة".

ومن غزله، غير الذي ذكرته له في جاريته الروميّة، قوله:

تجــــنّى عـــليّ الـــذنب والـــذنب ذنــــبُهُ
وعــاتــبــني ظــلــمــاً وفي شـِـقّه الــعــتْبُ
وأعـــرض لمـــا صـــار قـــلــبي بــكــفّـهِ
فــهلا جــفــاني حــين كــان ليَ الــقــلبُ ؟
إذا بَــــرِم المـــولى بــــخــــدمــــة عــــبــــدهِ
تجــــنّى له ذنــــبــــاً وإنْ لم يــــكن ذنــبُ

وأمّا سيف الدولة الناقد، فكان يطلب إلى الشعراء في مجلسه، الذي سبق الكلام عنه، " إجازة " أبيات أوأنصاف أبيات كان ينظمها، كالذي جرى بينه وبين ابن عمّه أبي فراس فيما مضى من كلام. وكان ينقد عليهم بعض أشعارهم كنقده الذي ذكرته لبيتي المتنبي فيه من " ميميّة " معروفة. وأذكر، هنا، أن أحد الخالديين، وقد كان من خواص شعرائه، أنشده قصيدة طويلة منها هذا البيت :

فــغــدا لــنــا من جــودكِ المــأكــول والـ
ـــمــشــروب والمــنــكــوح والمــلــبــوسُ

فقال له سيف الدولة " أحسنت إلاّ في لفظة(المنكوح)، فليست مما يخاطب بها الملوك[٧٨٣]. وهذا من النقد الاجتماعي الذي يندرج في مفهوم " اللياقة الاجتماعية "، وليس من النقد الأدبي، وهوكثير في نقدنا العربي القديم.

ليس من شك في أن ذلك كلّه ـ وثمة غيره ـ كان نتاجاً طبيعياً لاهتمامات الأمير الحمداني الأدبية والثقافية والعلمية المتنوعة كما يتجلى ممّا كان يدور في مجالسه، التي سلفت الإشارة إليها، ومما كان يفيده من مجالسيه المقيمين والوافدين في أوقات السلم. فثمة إشارة إلى أستاذ له اسمه «أبوذرّ»[٧٨٤]، وثمة خبر عن أن آل حمدان كانوا يدرسون على ابن خالويه[٧٨٥]. أمّا كاتبه ونديمه أبومحمد عبدالله بن

عمرو بن محمد الفياض، الذي كان معروفاً "ببعد المدى في مضمار الأدب وحلبة الكتابة"، فلم يكن "يؤثر عليه في السفارة إلى الحضرة أحداً لحسن عبارته وقوة بيانه، ونفاذه في استغراق الأغراض، وتحصيل المراد" (٧٨٦).

ذهب الدكتور طه حسين إلى أن ثقافة سيف الدولة كانت "واسعة عميقة فيما يظهر . . . ، وكانت بيئته الخاصة التي نشأ فيها تهيئه لحياة مثقفة لها حظٌّ لا بأس به من المشاركة في العلم والأدب، والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهرة التي كانت مسيطرة ببغداد . . . . ، وثقافة سيف الدولة تظهر في أحاديثه ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن، وقدرته على التمييز الدقيق بين ما كان يقال في مجلسه من الصواب والخطأ ومن الجيد والرديء، ورغبته في أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء، وفي أن تتفرع فيها الثقافات، فتوجد الفلسفة إلى جانب العلم، وتوجد علوم الدين إلى جانب علوم اللغة والأدب.

وما كان الرجل يصنع هذا عن جهل، ولا عن غرور، ولا عن رغبة في المنافسة للمنافسة من حيث هي، بل عن بصيرة وحسن رأي، وعلم بما يأتي وما يدع، وتقدير صحيح لأثر الحياة العقلية المزدهرة في نشر الدعوة، وإعلان ما كان يريد لملكه ودولته من أُبّهة وجلال . . . وما أستبعد أن يكون سيف الدولة قد ألمّ شيئاً باليونانية وثقافة اليونانيين، لاتصاله اليومي أثناء حياته كلها باليونان وشئون اليونان"(٧٨٧).

إذا ما حاولنا أن نطبّق ما جاء في نص طه حسين الطويل هذا تطبيقاً واقعياً على ما يجري في جنبات بلاط سيف الدولة ومجالسه مبتدئين بالنص من آخره تبين لنا أن الرجل كانت له عناية ما بالأمور العلمية البحتة وبالطب تحديداً، وإن كان اهتمامه به خاصاً. فقد سلف الكلام عن أنه كان يحضر إلى مائدته، حين يأكل، أربعة وعشرون

طبيباً كان عيسى الرّقي أحدهم. وكان من أطبائه الفلاسفة أبوالحسين كشكرايا، الذي كان " طبيباً عالماً مشهوراً بالفضل والإتقان لصناعة الطب، وجودة المزاولة لأعمالها " والذي استخدمه، كذلك، عضد الدولة البويهي لمّا بنى البيمارستان المنسوب إليه ببغداد. وهو معروف بصاحب " الحقنة " وبكناشه " الحاوي "؛ وكان من أنجب تلاميذ سنان بن ثابت بن قرّة[٧٨٨].

وكان الفارابي، أشهر العلماء الذين عرفهم بلاط سيف الدولة في الطب والفلسفة والموسيقى. ولقد مضى الكلام عنه مرتين: الأولى في فصل العصر الاجتماعي في الحديث عن الموسيقى وما كان لها من شأن في بلاط سيف الدولة حيث نقلت شيئاً من الحوار الذي دار بينه وبين الأمير في الموسيقى والذي عاب فيه مهرة هذه الصنعة في بلاطه؛ وقد قيل إنه هومخترع آلة " القانون "، وإنه كان " مطرب " الأمير. والأخرى، في موضوع " الفلسفة " من مبحث العلوم العقلية في هذا الفصل.

بقي أن يشار إليه هنا طبيباً، إذ قيل: " كانت له قوة في صناعة الطبّ، وعلم بالأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها ولا حاول جزئياتها"[٧٨٩]، وقيل: " صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم[٧٩٠].

من المهم أن يشار، في الفارابي، إلى ما يذهب إليه مصطفى الشكعة من أنه " كان عمدة للحياة العقلية عند بني حمدان "، وأن فلسفته " كان لها أثرها في الشعر الحمداني، وعند المتنبي على وجه الخصوص ". ففي حين يجعل الفارابي، في الأخلاق، للعقل والمعرفة المقام الأول، يقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ
هو أوّل، وهي المحلّ الثاني

وفي حين يُرجع الفارابي كلّ شيء إلى الأخلاق في مدينته الفاضلة، ويرى أن

أهل المدينة الجاهلة بلا عقل وفي مرتبة البهائم، يقول أبوالطيب:

لولا العقول لكان أدنى ضيغمٍ[٧٩١]

أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ

ويزيد الدارس نفسه: " ولعل الحكم الكثيرة التي شاعت في شعر الحمدانيين لم تكن هي الأخرى إلاّ صدىً لآثار الفارابي الفيلسوف وأفكاره التي نثرها في حلب ودمشق في ظلّ حكم الحمدانيين[٧٩٢].

ويذكر ابن النديم، في أسماء "الصنّاع"، اثنين كانا مع سيف الدولة، الأول شجاع ابن . . . . . .[٧٩٣] غلام بيطولس، والأخرى العجليّة ابنة العجلي الإسطرلابي غلام بيطولس أيضاً[٧٩٤].

وعاش في العهد الحمداني أبوالقاسم المجتبي عليّ بن أحمد الأنطاكي (ت ٣٧٦هـ) الذي استوطن بغداد إلى أن مات فيها، وكان من أصحاب عضد الدولة بن بويه المقدّمين عنده. اشتهر بعلم العدد والهندسة، وله فيهما تصانيف كثيرة، منها: التخت الكبير في الحساب الهندي، وكتاب الحساب على التخت بلا محو، وكتاب الموازين العددية، وكتاب الحساب بلا تخت بل باليد، وكتاب شرح إقليدس، وغيرها[٧٩٥].

وديونيسيوس المهندس الرياضي، والمنجّم الصابي البعلبكي[٧٩٦]، وأبوالقاسم الرقّي المنجّم الفلكي الذي كان ممن صحبوا سيف الدولة، وخدموه، واختصوا به، وحضروا مجالسه[٧٩٧]. وقمين بالإشارة أن سيف الدولة نفسه كان يؤمن بالتنجيم ويعمل به، إذ كتب إلى ابنه أبي المعالي، بعد أن قضى على ثورة رشيق النسيمي من وجوه طرسوس ودزْبر الديلمي في أنطاكية عام ٣٥٤هـ ما يأتي: " . . . ، ثم عبرت الفرات، ونظرت في التقويم فوجدت الكسوف، فتأملته على حسب ما أوجبه علم النجوم والمولد، فكان غشاءً على أعدائنا فقصدتهم، وهم على مرحلة من حلب

بالناعورة"[٧٩٨].

وأورد محمد كرد علي قائمة كبيرة بعلماء الشام في الحديث والفقه والجغرافية والطب والنجوم والرياضيات والأدب شعره ونثره[٧٩٩]، منهم: إبراهيم بن عبدالرزاق الأنطاكي مقرىء أهل الشام، وعمر الأنطاكي وعبدالوهاب الكلابي من أهل الحديث، والمقدسي صاحب "أحسن التقاسيم". في الجغرافية وقد سبق الكلام عنه، وغيرهم. وكان من مشاهير هؤلاء ابن نباتة الفارقي عبدالرحيم بن محمد(٣٣٥ - ٣٧٤هـ) في الخطابة والوعظ. كان خطيب حلب وواعظها في بلاط سيف الدولة[٨٠٠]، وبها اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة، وقيل إنه سمع عليه بعض ديوانه. وقد أكثر من خطب الجهاد ليحضّ الناس عليه ويحثُّهم على نصرة سيف الدولة في غزواته الكثيرة[٨٠١]. وقد كان يعمل خطب الجهاد ويحسن في تصنيفها حتى إنه صعد في إحدى السنوات، المنبر وخطب الناس الذين كانوا يملؤون الجامع، فخرج أكثرهم من الجامع إلى الغزاة رأساً[٨٠٢]. ولا يقل عنه شهرة في الكتابة أبوالفرج عبدالواحد بن نصر المعروف بالببغاء(ت ٣٩٨هـ) الشاعر الكاتب، الذي كان "في عنفوان أمره وريعان شبابه متصلاً بسيف الدولة، مقيماً في جملته، ثم تنقلت به، بعد وفاة صاحبه، الأحوال في وروده الموصل وبغداد ومنادمته بهما الملوك والرؤساء، وإخفاقه مرّة وإنجاحه أخرى"[٨٠٣]. وصفه الثعالبي بأنه "واحد أفراد الدهر في النظم والنثر"[٨٠٤]، ويقول شوقي ضيف: "ولعل كاتباً في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبوالفرج"[٨٠٥].

ولمعت في بلاط سيف الدولة ومجالسه أسماء معروفة في اللغة والأدب أمثال أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني اللذين سبق الحديث عنهما، علمياً، في مبحث "علوم اللغة" من هذا الفصل، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي الطيب اللغوي.

فأمّا أبوبكر الخوارزمي، وقد تقدم شيء عنه، فيقال إنه كان " يقيم في شبيبته بحلب في بلاط سيف الدولة. ثم توجه إلى بخارى قاصداً أبا علي البلعمي وزير آل سامان، ولكنه فارقه سريعاً فقصد نيسابور وسجستان[٨٠٦] وأنه أقام بالشام مدة، وسكن بنواحي حلب، وكان مشاراً إليه في عصره" [٨٠٧].

أمّا أبوالطيب اللغوي الحلبي، عبد الواحد بن عليّ، فأصله من عسكر مُكْرَم في خوزستان. قدم إلى حلب ليكون في رحاب سيف الدولة. كان من العلماء المبرّزين في اللغة وصاحب تصانيف ضاع أكثرها، ومما وصل إلينا منها وطبع: كتابا " الإبدال " و"الإتباع"[٨٠٨]، و«شجر الدرّ»، و«مراتب النحويين». ظلّ في حلب إلى أن قتله الدّمستق مع من قتل حين دخلها عام ٣٥١هـ، كانت بينه وبين ابن خالويه منافسات ومنازعات ومحاسدة[٨٠٩]، ربما كان سببها أن سيف الدولة أرسل إليه منْ يسأله عن مسائل في اللغة فلم يستطع أن يجيب عنها فوراً فاضطرب ودخل خزانته، وأخرج كتب اللغة، وفرّقها على أصحابه يفتشونها ليجيب عنها، في حين أن أبا الطيب اللغوي، الذي كان في المجلس، أجاب عنها فوراً[٨١٠]. وثمة رواية أخرى مفادها أن المتنبي وأبا الطيب اللغوي وابن خالويه كانوا ثلاثتهم بحضرة سيف الدولة، وقد جرت مسألة في اللغة بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه والمتنبي ساكت، غير أن الأمير دعاه للكلام، فتكلّم بما قوّى حجة أبي الطيب اللغوي وضعّف حجة الآخر، فما كان منه إلاّ ضرب المتنبي بمفتاح كان في كمّه، فغضب المتنبي لأن سيف الدولة لم ينتصر له، وكان ذلك أحد أسباب فراقه له[٨١١]. وكان ابن خالويه يلقّب أبا الطيب اللغوي بـِ" قرموطة الكبرتل "أي "دحروجة الجُعل" [٨١٢].

وحُكي عن أبي إسحق الصابي أن رسولاً لسيف الدولة أمّ بغداد وطلب إليه، بتكليف من الأمير، شعراً، فأعطاه ـ بعد مدافعة ـ هذه الأبيات الثلاثة:

إن كــنتُ خــنــتكَ في المــودّة ســاعــةً

فـــذممتُ ســـيف الـــدولـــة المحـــمـــودا

وزعـــمـتُ أنّ لـه شـــريـــكـــاً في الـــعلا

وجـــحـــدتُه في فـضـــلـه الـتـــوحـــيـــدا

قـسـمـاً لـو انّي حـالف بـغـمـوسـهـا[٨١٣]

لـــــغــــــريم ديْنٍ مـــــا أراد مــــزيـــــدا

ولما عاد الرسول، ودخل عليه الصابي مسلّماً أعطاه كيساً بختم الأمير مكتوباً عليه اسمه وفيه ثلاثمائة دينار[٨١٤]. ويقال إنه راسل المتنبي ليمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم، فامتنع خشية أن يتغيّر عليه الوزير المهلبي ـ لأن المتنبي رفض أن يمدحه – وقال له: "فإن كنت لا تبالي هذه الحال، فأنا أُجيبك إلى ما التمست، وما أريد منك مالاً، ولا عن شعري عوضاً"، فقال الصابي: "فتنبّهت على موضع الغلط، وعلمت أنه قد نصح، فلم أعاوده" [٨١٥].

ويُروى أن أبا الفرج الأصفهاني علي بن الحسين(٢٨٤ – ٣٥٦هـ) ألّف "الأغاني" في خمسين سنة، وكتبه مرة واحدة في عمره، هي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة[٨١٦]. ولما انتخب الوزير أبوالقاسم الحسن بن الحسن المغربيّ لسيف الدولة ما انتخب من "الأغاني" أعطاه ألف دينار[٨١٧]، فلما علم الصاحب بن عبّاد بذلك، قال: "لقد قصّر سيف الدولة، وإنه يستأهل أضعافها"، وقال عن الكتاب: "لقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره، ولا راقني منها سواه" [٨١٨].

أمّا الكتابة، فكان من كتاب الأمير الخاصين، كما تقدّم، أبومحمد الفيّاض، وجعفر بن ورقاء الشيباني، وأبوالفرج الببغاء، ووزيره ونديمه أبوعلي أحمد بن الحسين ابن منصور البازيار.

وأمّا الشعراء مقيمين كانوا أم وافدين ، فما كان أكثرهم . ولقد قيل : " فلم يجتمع قطّ بباب أحد الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر"[819] . وقد شجعهم غير عامل على هذا ، فالأمير نفسه وابن عمّه أبوفراس ونفر من آل حمدان كانوا شعراء ، وكان سيف الدولة مثقّفاً محباً للعلم والأدب ذا صلة بهما مقدّراً لأهليهما ، وكريماً يغدق الأموال على الأدباء بسخاء في مجالسه وغير مجالسه ، وقد ضرب لهذه الغاية نقوداً خاصة ، فضلاً عن أنه كاد يكون الوحيد الذي دافع عن ثغور الإسلام ، وعن التنافس العلمي والأدبي بين أمراء الدول آنذاك .

عرف بلاط سيف الدولة من شيوخ الشعراء ، غير المتنبي وأبي فراس ، السريّ الرفّاء والخالديين ، وأبا بكر الصنوبري ، وأبا الفرج الببغاء الذي مرّ الكلام عنه ، والنامي ، والزاهي ، والناشىء الأصغر ؛ وكشاجم ، والوأواء الدمشقي ، وغيرهم .

حسبي أن أقف على أهم أخبار كلّ منهم ممّن له علاقة باتصاله بسيف الدولة :

فأمّا السريّ (ت ٣٦٢ أو٣٦٤هـ)[820] ، فموصليّ لحّاً ، أُسلم صبيّاً في الرفائين بالموصل ، فكان يرفو ويطرز إلى أن قضى باكورة شبابه ، وظلّ في ضنك من العيش إلى أن خرج إلى حلب واتصل بسيف الدولة ومدحه كثيراً[821] . " فطلع سعده بعد الأفول ، وبَعُد صيته بعد الخمول ، وحسن موقع شعره عند الأمراء من بني حمدان ورؤساء الشام والعراق " ، إذ مدح المهلبي الوزير وغيره . ونابذ الخالديين الموصليين ، كذلك ، وناصبهما العداوة ، وادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره ، ودسّ في شعر كشاجم ، الذي كان ينسخه ، أحسن شعرهما ، ليزيد في حجم ما ينسخ ويشنّع عليهما .

أمّا الخالديان ، فكانا من قرية " الخالدية " بالموصل[822] ، وكانا " يشتركان في قرض الشعر وينفردان[823] . التحقا بخدمة سيف الدولة ، وأصبحا من خواص شعرائه ، وفي مقدمة ندمائه ، ومن خزنة كتبه كما تقدم . وقد مدحاه فكان لهما نصيب في عطاياه

وهداياه[٨٢٤]، لكنهما انصرفا من عنده " على حدّ مغاضبة " كما يقول أبوالعلاء المعري[٨٢٥]. وكانت لهما مع السريّ الرّفاء ما مضى الكلام عنه قبل قليل.

وأمّا أبوبكر الصنوبري شاعر الطبيعة المعروف، فهوأنطاكي أصلاً، توفي عام ٣٣٤هـ أي بعد إمرة سيف الدولة على حلب بسنة واحدة، فقط[٨٢٦]. معنى هذا أنه لم يبق في خدمة الأمير سوى سنة واحدة كان فيها أحد خزنة كتبه. غير أن صلته بسيف الدولة كانت أقدم من توليه إمارة حلب، وله فيه قصائد تمدحه في غزوه الروم[٨٢٧].

وكان أبوالعبّاس الناميّ أحمد بن محمد الدّارمي المصيصي المختلف في وفاته[٨٢٨] من فحول شعراء العصر، وخواص شعراء سيف الدولة، إذ كان عنده تلوالمتنبي في المنزلة والرتبة[٨٢٩]؛ وكانت له مع المتنبي وقائع ومعارضات[٨٣٠]. أورد له الثعالبي شعراً في سيف الدولة وناصر الدولة[٨٣١].

أمّا أبوالقاسم الزّاهي عليّ بن إسحق بن خلف البغدادي (٣١٨ - ٣٥٢هـ)، فكان وصّافاً محسناً، كثير المدح والظّرْف[٨٣٢]. مدح سيف الدولة والوزير المهلبيّ وغيرهما من رؤساء وقته[٨٣٣]، وقال الشعر في جميع الفنون وإن لم يقع شعره إلى الثعالبي آنذاك[٨٣٤].

وأمّا الناشيء الأصغر عليّ بن عبدالله بن وصيف (٢٧١ - ٣٦٥ أو٣٦٦ هـ)، فقد مضى إلى الكوفة عام ٣٢٥هـ وأملى شعره في مسجدها الجامع والناس يكتبون عنه، وكان المتنبي أحدهم وهو لم يعرف بعد ولم يلقب بهذا اللقب[٨٣٥]. كان قد قصد سيف الدولة بحلب ومدحه، ولما عزم على مفارقته وقد غمره بإحسانه، قال: [٨٣٦]

أودّع لا أنّي أودّع طـــائـــعـــا

وأُعطي بكرهي الدهر ما كنتُ مانعا

تَحمَّلتَ عنّا بالصنائع والعلا

فـنـسـتـودع الـلـه الـعلا والـصـنـائـعـا

رعـــاكَ الـــذي يـــرعى بـــســـيـــفكَ ديـــنَهُ

ولـــقّـــاكَ روض الـــعـيش أخـــضـرَ يـــانـعـا

وكان كشاجم(٨٣٧) أبوالفتح محمود بن الحسن المختلف في أصله وتاريخ وفاته ممن عملوا في خدمة سيف الدولة منجّماً ورئيساً للطبّاخين، ومن شعراء والده أبي الهيجاء عبدالله الحمداني(٨٣٨)، وكان صديقاً للصنوبري(٨٣٩).

كما كان الوأواء الدمشقي أبوالفرج محمد بن أحمد(وقيل محمد) الغسّاني(٨٤٠) (ت حوالي ٣٩٠هـ) ممن نال رضا سيف الدولة وحظوته بمدحه له في دمشق بين عام ٣٣٣ وعام ٣٣٥هـ.

وكان لابن نباتة السعدي(٣٢٧ - ٤٠٥هـ) في سيف الدولة " غرّ القصائد، ونخب المدائح، وكان قد أعطاه فرساً أدهم أغرّ محجّلاً" (٨٤١).

بقي غير هؤلاء عدد آخر من شعراء سيف الدولة كأبي عبدالله الخليع الشامي الذي " أدرك زمان البحتري، وبقي إلى أيام سيف الدولة فانخرط في سلك شعرائه"(٨٤٢)؛ والمغنم المصري، الذي قال عنه ابن النديم: " من شعراء سيف الدولة"(٨٤٣)؛ وعبدالله بن أبي الجوع(٨٤٤)؛ وأبي علي صالح بن رشدين الكاتب(٨٤٥).

إن أخبار سيف الدولة، كما يقول ابن خلّكان: " كثيرة مع الشعراء. . . ، وفي تعدادهم طول(٨٤٦) " حسبنا من ذكرنا، فليس المقام مقام استقصاء.

بيد أنه تحسن الإشارة إلى ما كان بين بعض من ضمّهم بلاط سيف الدولة من العلماء والأدباء من خصومات ومنازعات ألمعت إلى بعضها، لعل أكبرها ما كان بين قطبي الرحى أبي فراس والمتنبي وأنصار كلّ منهما. فالمتنبي يشهد لأبي فراس "بالتقدم

والتبريز، ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته، ولا يجترىء على مجاراته"، لكنه "لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان"؛ وقد فُسِّر هذا بالتهيب والإجلال، لا الإغفال والإخلال[٨٤٧]، وهوتفسير غريب! أما أبوفراس، فيروى عنه أنه قال لسيف الدولة: "إن هذا المتمشدق كثير الإدلال عليك، وأنت تعطيه كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرّق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خيرمن شعره". ويقال إن الأمير تأثر بهذا الكلام وعمل به، وكان المتنبي غائباً. ولما بلغته القصة دخل على سيف الدولة وأنشده أبياتاً معاتباً:

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً

فداه الورى أمضى السيوف مضاربا...

فأطرق سيف الدولة ولم ينظر إليه كعادته، فخرج المتنبي متغيّراً، وحضر أبوفراس وعدد من الشعراء، فبالغوا في الوقيعة في حق المتنبي الذي انقطع ونظم القصيدة التي مطلعها:

واحرَّ قلباه مِمَّن قلبه شبمُ

ومَن بجسمي وحالي عنده سقمُ

وجاء فأنشدها، وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقّه:

مالي أُكتّم حبّاً قد برى جسدي

وتدّعي حبّ سيف الدولة الأممُ؟!

فهمّ جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة، لشدة إدلاله وإعراض سيف الدولة عنه. وبدءاً من قوله:

يا أعدلَ الناس إلاّ في مُعاملتي

فيكَ الخصام وأنتَ الخصمُ والحكمُ

أخذ أبوفراس يتدخل مدّعياً سرقة المتنبي لبعض أبياته في القصيدة من غيره من الشعراء وينقد بعضها ، لكن سيف الدولة غضب من كثرة مناقشة هذه القصيدة وكثرة دعاوي الشاعر فيها ، وضَربه بالدواة التي بين يديه ، فقال في الحال :

إنْ كان سرَّكم ما قال حاسدنا

فما لجرحٍ إذا أرضاكُمُ ألمُ

فأُعجب الأمير بهذا البيت ولم يلتفت إلى ما قال أبوفراس فيه ، بل رضي عن المتنبي في الحال ، وأدناه إليه ، وقبّل رأسه ، وأجازه بألف دينار ، ثم أردفه بألف أخرى ، فقال المتنبي :

جاءتْ دنانيركَ مختومةً

عاجلةً ألفاً على ألفِ

أشبهها فعلكَ في فيلقٍ

قلبته صفّاً على صفٍّ

وقال في آخرها :

شرّ البلاد مكان لا صديق بِهِ

وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصمُ (٨٤٨)

وكان من أعداء المتنبي وحسّاده الآخرين أبوالعباس النامي الذي ظل سيف الدولة يميل إليه ميلاً شديداً إلى أن جاءه المتنبي ، فمال عنه ، فغاظه ذلك ، واهتبل الفرصة مرّة ، فسأله عن سرّ تفضيله " ابن عيدان السقا"(المتنبي) عليه ، فأجابه بعد إلحاح : لأنّك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعود مِنْ كل فتحٍ غيرَ مُفتخرٍ

وقد أغذّ إليه غير مُحتفلِ

فنهض من بين يديه مغضباً، وهوالقائل: " كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي، وكنت أشتهي أن أكون سبقته إلى معنيين قالهما ما سُبق إليهما" (٨٤٩).

وحُكي عن أبي الفرج الببغاء: " كان أبوالطيب يأنس بي، ويشكو من سيف الدولة، ويأمنني على غيبته له، وكانت الحال بيني وبينه عامرة دون باقي الشعراء، وكان سيف الدولة يغتاظ من تعاظمه، ويجفو عليه إذا كلّمه، والمتنبي يجيبه في أكثر الأوقات، ويتغاضى في بعضها" (٨٥٠).

ورُوي عن ابن جني، الذي قرأ ديوان المتنبي عليه، أنه قرأ عليه قصيدته في كافور التي أوّلها:

أُغالب فيكَ الشوق والشوق أغلبُ

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجبُ

فلما بلغ إلى قوله:

ألا ليتَ شعري هل أقول قصيدةً

ولا أشتكي فيها ولا أتعتّبُ

وبي ما يذود الشعر عنّي أقلُّهُ

ولكنّ قلبي يا ابنة القوم قُلّبُ

قال للمتنبي: " يعزّ عليّ، كيف يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة ؟ "، فقال: " حذّرناه وأنذرناه فما نفع، ألست القائل فيه:

أخا الجود، أعطِ الناس ما أنتَ مالكٌ

ولا تُعطينْ للناس ما أنا قائلُ

فهو الذي أعطاني كافوراً بسوء تدبيره وقلة تمييزه(٨٥١) وترك الشاعرالأمير بعد تسع سنوات(٣٣٧ - ٣٤٦ هـ) بعد أن قال فيه نحو ثلث ديوانه، أوكما يقول طه

المصادر والمراجـــع

- **آدم متز:** الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. ط ٣: ١٩٥٧.

- **ابن الأثير، عزالدين:**
الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٧٩.

- **ابن أبي أصيبعة:**
عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت – ط ٤: ١٩٨٧.

- **إحسان عباس (الدكتور):**
١ – تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت. ط١: ١٩٦٢.
٢ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان ١٩٩٣.

- **أحمد أمين:** ظهر الإسلام، النهضة المصرية، القاهرة، ط ٣: ١٩٦٢.

- **أحمد أحمد بدوي (الدكتور):**
شاعر بني حمدان، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٢: ١٩٥٢.

- **أحمد أبو حاقة (الدكتور):**
أبو فراس الحمداني، دار الشرق الجديد، بيروت ١٩٦٠.

- **أحمد الدُّلجي:**
الفلاكة والمفلوكون، مكتبة الأندلس، بغداد ١٣٨٥هـ.

- **أنيس المقدسي (الدكتور):**
تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٠.

- **الببّغاء، عبدالواحد المخزومي:**
شعر الببّغاء، تحقيق الدكتور سعود عبدالجابر، مؤسسة الشرق الأوسط، الدوحة وعمان ١٩٨٣.

- **براون، إدوار:** تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة الدكتور إبراهيم الشواربي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٤.

- **بروكلمان، كارل:**

تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجّار، دار المعارف، القاهرة، ط٤: ١٩٧٧.

- **التنوخي:** الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت ١٩٧٨.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر بيروت، ط ٢: ١٩٩٥.

- **التوحيدي، أبو حيان:**

١ – الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ت).

٢ – البصائر والذخائر، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس ومطبعة دمشق الإنشاء، دمشق ١٩٦٤.

٣ – الصداقة والصديق، شرح وتعليق علي متولي صلاح، مكتبة الآداب، ومطبعتها، القاهرة ١٩٧٢.

٤ – مثالب الوزيرين، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق ط٢: ١٩٩٧.

٥ – المقابسات، تحقيق حسن السندوبي، دار المعارف، سوسة، تونس ١٩٩١.

- **الثعالبي، عبدالملك أبو منصور:**

يتيمة الدهر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٩.

- **الجاحظ، عمرو بن بحر:**

مناقب الترك (في رسائل الجاحظ)، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة (د – ت).

- **جرجي زيدان:**

تاريخ التمدن الإسلامي، طبعة دار الهلال (مراجعة الدكتور حسين مؤنس)، القاهرة (د – ت).

- **ابن جنّي، أبو الفتح عثمان:**

الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، ط ٢ (د – ت).

- **البستاني، فؤاد أفرام (الدكتور):**

أبو فراس الحمداني (سلسلة الروائع)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط٥: ١٩٦٥.

- **البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر:**

الفرق بين الفرق ، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي، القاهرة (د. ت).

- **بلاشير، ريجيس (الدكتور):**

أبو الطيب المتنبي ، ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر، دمشق، ط ٢: ١٩٨٥.

- **البيروني، أبو الريحان:**

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، حيدر آباد، الدكن ١٩٥٨.

- **البيهقي، ظهير الدين:**

تاريخ حكماء الإسلام ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ، مصورة الطبعة الأولى ١٩٨٨.

- **ابن تغري بردي الأتابكي، أبو المحاسن جمال الدين:**

النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١: ١٩٩٢.

- **الجهشياري، محمد بن عبدوس:**

كتاب الوزراء والكتّاب ، تحقيق مصطفى السقا وزملائه ، البابي الحلبي، القاهرة. ط٢: ١٩٨٠.

- **حتّي، فيليب (الدكتور) وزميلاه:**

تاريخ العرب ، دار غندور، بيروت. ط٧: ١٩٨٦.

- **ابن أبو حجلة التلمساني، أحمد بن يحيى:**

سكردان السلطان (منشور مع كتاب «المخلاة» لبهاء الدين العاملي). دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩.

- **حسن إبراهيم حسن (الدكتور):**

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (الجزء الثالث). دار الجيل ، بيروت، ومكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١٤: ١٩٩٦.

- **حسن أحمد محمود (الدكتور)، وأحمد إبراهيم الشريف (الدكتور):**

العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٥ (د.ت).

- **ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي:**

صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت).

- **الخطيب البغدادي، الحافظ أحمد بن علي:**

تاريخ بغداد، طبعة الخانجي (القاهرة) والمكتبة العربية (بغداد) ومكتبة السعادة (القاهرة)، ١٩٣١.

- **ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد:**

وفيات الأعيان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ١٩٧٨.

- **خليل شرف الدين:**

أبو فراس الحمداني: فتوة رومانسية ، دار الهلال، بيروت ١٩٨٢.

- **الخوانساري، محمد باقر الموسوي:**

روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، تحقيق أسد الله إسماعيليان، قم ، إيران (د.ت).

- **درويش الجندي (الدكتور):**

الشعر في ظل سيف الدولة ، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٩.

- **دوزي، رينهارت:**

تكملة المعاجم العربية ، الجزء السادس ، ترجمة الدكتور محمد سليم النعيمي، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٠.

- **دي بور، ت، ج:**

تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ط٤: ١٩٥٧.

- **رشيد حميد حسن الجميلي:**

حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، ليبيا ١٩٨٢.

- **الزركلي، خير الدين:**

الأعلام ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥: ١٩٨٠.

- **زكي المحاسني (الدكتور):**

شعر الحرب في أدب العرب ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧.

- **زكي مبارك (الدكتور):**

النثر الفني في القرن الرابع ، دار الجيل، بيروت (د.ت).

- **سامي الكيالي (الدكتور):**

سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩.

- **السريّ الرفّاء:**

ديوان السريّ الرفّاء ، نشر مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٥هـ.

- **سعود محمود عبدالجابر (الدكتور):**

الشعر في رحاب سيف الدولة ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط ٢: ١٩٩٤.

- **السيد الباز العريني (الدكتور):**

الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٢.

- **السيوطي، جلال الدين:**

١ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، دار المعرفة، بيروت (د.ت).

٢ - تاريخ الخلفاء. دار الفكر بيروت (د.ت).

٣ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وزملائه. دار الفكر، بيروت (د.ت).

- **ابن شاكر الكتبي، محمد:**

فوات الوفيات ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ١٩٧٣.

- **شحاتة قنواتي (الأب الدكتور):**

تاريخ الصيدلة والعقاقير (في العهد القديم والعصر الوسيط) ، أوراق شرقية، بيروت ، ط٢: ١٩٩٦.

- **ابن الشحنة، محمد:**

الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، دار الكتاب العربي وعالم التراث، دمشق ١٩٨٤.

- **ابن شداد، عزالدين محمد:**

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى عبادة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٨.

- **الشهرزوري، شمس الدين:**

تاريخ الحكماء أو نزهة الأرواح وروضة الأفراح ، تحقيق الدكتور عبدالكريم أبوشويرب، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا ، ط١: ١٩٨٨.

- **شوقي ضيف (الدكتور):**

١ – عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ، دار المعارف، القاهرة ، ط١: ١٩٨٠.

٢ – عصر الدول والإمارات (مصر – الشام) ، دار المعارف، القاهرة. ط١: ١٩٨٤.

٣ – المدارس النحوية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤: ١٩٧٩.

- **الصولي، أبو بكر:**

أخبار الراضي بالله والمتقي لله من «كتاب الأوراق» ، نشرة ج. هيورث. دن، دار المسيرة، بيروت ، ط ٢: ١٩٧٩.

- **ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا:**

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر، بيروت (د.ت).

- **طه حسين (الدكتور):**

١ – تجديد ذكرى أبي العلاء ، دار المعارف، القاهرة. ط٩: ١٩٨٢.

٢ – مع المتنبي ، دار المعارف، القاهرة ، ط١٢: ١٩٨٠.

- **عبدالجليل عبدالمهدي (الدكتور):**

أبو فراس الحمداني: حياته وشعره ، مكتبة الأقصى، عمان ، ط١: ١٩٨١.

- **عبدالمجيد الحر (الدكتور):**

أبو فراس الحمداني (شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية)، دار الفكر العربي، بيروت ، ط١: ١٩٩٦.

- **عبدالواحد المراكشي:**

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، دار الكتاب، الدار البيضاء ، المغرب ، ط٧: ١٩٧٨.

- **عدنان صالح مصطفى (الدكتور):**
الجديد في فن التوشيح ، دار الثقافة، الدوحة ، قطر ١٩٨٦.
- **ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد:**
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، المعهد الفرنسي، دمشق ١٩٥١.
- **عمر فروخ (الدكتور):**
أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم ، مكتبة منيمنة، بيروت ، ط ١: ١٩٥٤.
- **فالتر هنس** Walther Hinz:
المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمه عن الألمانية الدكتور كامل العسلي ، منشورات الجامعة الأردنية، عمان ١٩٧٠.
- **أبو الفداء، عماد الدين:**
تاريخ أبي الفداء ، علق عليه ووضع حواشيه محمود ديوب ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١: ١٩٩٧.
- **أبو فراس الحمداني:**
ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، بيروت ١٩٤٤.
- **ابن القارح:** رسالة ابن القارح ، منشورة مع رسالة الغفران ، تحقيق الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) ، دار المعارف، القاهرة ، ط٣: ١٩٦٣.
- **القاسم بن علي الحريري:**
درة الغواص في أوهام الخواص ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٥؟.
- **القفطي، يوسف:**
إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، دار الآثار، بيروت (د.ت).
- **القلقشندي، أبو العباس:**
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مصورة الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة (د.ت).

- **كانار، ماريوس:**

نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني ، الجزائر ١٩٣٤ .

- **كشاجم، أبو الفتح محمود بن الحسين الرملي:**

١ – أدب النديم ، تحقيق نبيل العطية ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠ .

٢ – ديوان كشاجم، نشرة مجيد طراد ، دار صادر، بيروت، ط١: ١٩٩٧ .

- **لسترنج، كي:**

بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت. ط٢: ١٩٨٥ .

- **المتنبي، أبو الطيب:**

شرح ديوان المتنبي ، وضع عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).

- **محمد أبو الفضل إبراهيم:**

مقدمته على كتاب «مراتب النحويين» لأبي الطيب اللغوي. دار نهضة مصر، القاهرة (د.ت).

محمد راغب الطباخ:

إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تصحيح محمد كمال ، دار القلم العربي، حلب ، ط٢: ١٩٨٨ .

- **محمد رجب النجار (الدكتور):**

حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨١ .

- **محمد عبدالجواد (الدكتور):**

مقدمته على كتاب «شجر الدر» لأبي الطيب اللغوي. دار المعارف، القاهرة ١٩٥٧ .

- **محمد كرد علي:**

خطط الشام ، دار العلم للملايين، بيروت ط٢: ١٩٧٠ .

- **محمد معين (الدكتور):**

فرهنگ فارسي، أمير كبير، طهران، ط٣: ١٩٧٧

- **محمد غناوي الزهيري (الدكتور):**

الأدب في ظل بني بويه، مطبعة الأمانة، القاهرة ١٩٤٩.

- **محمود محمد شاكر (الأستاذ)**

المتنبي، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٦.

- **المسعودي ، أبوالحسن علي بن الحسن:**

١ – التنبيه والإشراف، دار صعب، بيروت (د.ت).

٢ – مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، ط٣: ١٩٧٨.

- **مسكويه، أبوعلي أحمد بن محمد:**

١ – تجارب الأمم، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د.ت).

٢ – تهذيب الأخلاق، مقدمة الشيخ حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط: (د.ت).

- **مصطفى الشكعة (الدكتور):**

فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، الأنجلو المصرية، القاهرة (د.ت).

- **مصطفى عوض الكريم (الدكتور):**

فن التوشيح، دار الثقافة، بيروت ط٢: ١٩٧٤.

- **المعري، أبوالعلاء:**

رسالة الغفران، تحقيق الدكتور عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط٣: ١٩٦٣.

- **المقدسي البشاري، شمس الدين:**

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ، ط٢: ١٩٦٧.

- **المقري التلمساني، أحمد بن محمد:**

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.

- **المقريزي:** خطط المقريزي، طبعة بولاق، ١٢٧٠ هـ.

- **ابن منظور، محمد بن مكرم:**

لسان العرب (مصورة بولاق) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (د.ت).

- **مهيار الديلمي:**

ديوان مهيار الديلمي، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى (د.ت).

- **ميخائيل عواد:**

صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨١.

نبيل أبوحاتم (الدكتور)

اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري (من خلال يتيمة الدهر)، دار الثقافة، الدوحة، قطر ١٩٨٥

- **نصرت عبدالرحمن (الدكتور):** شعر الصراع مع الروم، مكتبة الأقصى، عمان، ط١: ١٩٧٧.

- **النعمان القاضي (الدكتور):**

أبوفراس الحمداني: الموقف والتشكيل الجمالي، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٢.

- **ابن النديم، أبوالفرج محمد بن أبي يعقوب:** الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٩٧١.

- **الهمداني، الحسن بن أحمد:**

صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩.

- **هلال ناجي:** مقدمة كتاب «متخير الألفاظ» لابن فارس، مطبعة المعارف، بغداد ط١:١٩٧٠.

- **وداد القاضي (الدكتورة):**

مجتمع القرن الرابع في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأمريكية، بيروت ١٩٦٩.

- **الوشاء، محمد بن إسحق:** الموشى أو الظرف والظرفاء، دار صادر، بيروت (د.ت).

- **ياقوت الحموي:**

١ – معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).

٢ – معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).

- **يوسف بكار (الدكتور)**

١ – اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، بيروت، ط٣: ١٩٨٦

٢ – قراءات نقدية، دار الأندلس، بيروت، ط٣: ١٩٨٦.

٣ – الوجه الآخر: دراسات نقدية، دار الثقافة، الدوحة – قطر ١٩٨٦.

- **يوهان فك:** العربية:دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٥١.

- **يوسف البديعي :**

الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣. .

****

الهوامـــش

١ - ديوان أبي فراس ١: ١٠٩ .

٢ - تجديد ذكرى أبي العلاء، ص ٥٦ (الطبعة التاسعة) .

٣ - درويش الجندي: الشعر في ظل سيف الدولة،

٤ - صفة جزيرة العرب، ص٢٤٦.

٥ - أبو فراس الحمداني ١٩ .

٦ - هي التي نظمها في فضل "قحطان، ومطلعها:

ألا يـــا دار لـــولا تـــنـــطـــقـــيـــنـــا

فـــإنّـــا ســـائـــلـــوك فـــخـــبّـــريـــنـــا

وله كذلك كتاب " الإكليل " في مفاخر قحطان .

٧ - انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٧: ٢٣٠ - ٢٣١ .

٨ - كان يلقب " مكابد المحل "، لأنه عمر بلاد الموصل وديار ربيعة بالمير ثلاثة أعوام تواترت بالمحل "(ديوان أبي فراس ١٢٥:١ - شرح ابن خالويه).

٩ - مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ٢٥ .

١٠ - ديوان أبي فراس ١: ١٢٥ - ١٢٦ (شرح ابن خالويه) .

١١ - ديوان أبي فراس ١: ١١٠ .

١٢ - المسعودي: مروج الذهب ٤: ١٦٦، وديوان أبي فراس ١٢٨:١ (شرح ابن خالويه)

١٣ - الديوان ١: ١١١ .

١٤ - المصدر نفسه ١: ١١١ وانظر ١٢٩ (شرح ابن خالويه).

١٥ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٢١٥ -٢١٦ .

١٦ - لقب بهذا لشدته على الأعداء، ولأن السّهام لم يكن لها سبيل إليه. ولقب أبو الوليد بالحرون لعناده في القتال (ديوان أبي فراس ١: ١٣٢ و ١٣٤ . شرح ابن خالويه).

١٧ - الديوان ١: ١١٢، وانظر التفاصيل في ١٢٩ - ١٣٠ .

١٨ – مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ٢٨ .

١٩ – الديوان، ١: ١١٢ .

٢٠ – مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ٢٩ وراجع: الكامل في التاريخ ٨: ٩٢ – ٩٤ و ١٠٧ .

٢١ – كامل ابن الأثير ٨: ٣٠٩ – ٣١٠ .

٢٢ – كان أشهرهم ثلاثة أخوة، هم: أبوعبدالله أحمد كبيرهم وربّ أسرتهم، وأبويوسف يعقوب، وأبوالحسين (كامل ابن الأثير٨: ٢١٩). وقد وصفوا بأنهم كانوا انتهازيين لا يبالون إلاّ بمصالحهم الخاصة، ولا يتحولون عن ظلم أو فتك في سبيل بلوغ مقاصدهم (عمر فروخ: أبوفراس، ص١١)

٢٣ – كامل ابن الأثير ٨: ٣٨٢ – ٣٨٣ .

٢٤ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري،١: ٣٠ .

٢٥ – كامل ابن الأثير ٨: ٣٨٠ – ٣٨٢ .

٢٦ – كتاب الأوراق – أخبار الراضي باللّه والمتقي لله ٢٣١ و ٢٣٥ .

٢٧ – انظر: بلدان الخلافة الشرقيّة، ص ١٢٠ .

٢٨ – كامل ابن الأثير ٨: ٤٠٦ – ٤٠٨ ؛ وابن العديم: زبدة الحلب ١: ١٠٤ .

٢٩ – كامل ابن الأثير ٨: ٤٥٣ – ٤٥٥ .

٣٠ – المصدر نفسه ٨: ٥٢٢ – ٥٢٤ .

٣١ – كامل ابن الأثير: ٨: ٥٧٩ ؛ وزبدة الحلب ١: ١٥٥ .

٣٢ – كامل ابن الأثير ٨: ٥٩٣ – ٥٩٦ .

٣٣ – سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٤٨ .

٣٤ – زبدة الحلب ١: ١٠٥ .

٣٥ – المصدر نفسه ١: ١٥٥ – ١٨١ .

٣٦ – وفيات الأعيان ٣: ٤٠٥ ؛ وزبدة الحلب ١: ١٨٥–١٩١ . راجع في المدة (٣٩٢ – ٤٠٦هـ): زبدة الحلب ١: ١٩٥ – ٢١٠ .

٣٧ - راجع: زبدة الحلب ١: ١٥٥ – ١٨١ .

٣٨ - راجع: المصدر نفسه ١: ١٨٥ – ١٩٢ .

٣٩ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٢٨ – ٢٩ .

٤٠ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢: ٦٠ – ٦١(نشرة إحسان عبّاس) . وفيه روايات أخرى عن قتل أبي فراس . وانظر: كامل ابن الأثير ٨: ٥٨٨ .

٤١ - وفيات الأعيان ٢: ٦٠ – ٦١، وانظر: كامل ابن الأثير ٨: ٥٨٨ .

٤٢ - تاريخ أبي الفداء ١: ٤٣٩، وكامل ابن الأثير ٨: ٥٣٢ .

٤٣ - يتيمة الدهر ١: ١٥ .

٤٤ - المصدر نفسه ١: ٣٥ .

٤٥ - أحمد أمين: ظهر الإسلام ١: ٥٩ و ٥٧ – ٥٨ .

٤٦ - الديوان ١: ١٠٣ .

٤٧ - المصدر نفسه ١: ١٠٢ .

٤٨ - المصدر نفسه ١: ١٢٤ – ١٥٣ .

٤٩ - ديوان أبي فراس، توطئة الناشر، ص ٩ – ١٠، وانظر، أحمد أبوحاقّة: أبو فراس الحمداني، ص ٨ – ٩ .

٥٠ - عمر فروخ: أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم، ص ٨ و ٩ .

٥١ - راجع التفاصيل في: عمر فروخ، أبو فراس، ص ٧ – ١٠ .

٥٢ - آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ١٦ .

٥٣ - كامل ابن الأثير ٨: ٦١٨ – ٦١٩ .

٥٤ - آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢٢:١ .

٥٥ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٩٩ – ١٠٥ ؛ وفيليب حتّي وزميلاه: تاريخ العرب ٥٣٠ – ٥٣١ .

٥٦ - نشأت في نهاية القرن الرابع الهجري الدولة العقيلية (نسبة إلى بني عقيل) في الموصل وعمرت قرناً من الزمان (٣٨٦ – ٤٨٩ هـ) .

٥٧ - أحمد أمين: ظهر الإسلام ٢: ١ .

٥٨ – سامي الكيالي: سيف الدولة وعصر الحمدانيين، ص ٦٣ .
٥٩ – المرجع نفسه ٢٩ – ٣٠ .
٦٠ – المرجع نفسه، ص ٤٠ .
٦١ – أبو الطيب المتنبي، ص ٧ – ١٤ .
٦٢ – كامل ابن الأثير ٨: ٨٣ – ٨٤ .
٦٣ – المصدر نفسه ٨: ١٤٣ – ١٤٤ .
٦٤ – المصدر نفسه ٨: ١٥٥ – ١٥٦ .
٦٥ – المصدر نفسه ٨: ١٧٠ – ١٧٥ .
٦٦ – المصدر نفسه ٨: ١٨١ – ١٨٢ .
٦٧ – المصدر نفسه ٨: ١٨٦ – ١٨٧ .
٦٨ – المصدر نفسه ٨: ٢٠٧ – ٢٠٨ .
٦٩ – المصدر نفسه ٨: ٤٨٦ .
٧٠ – المصدر نفسه ٨: ٣١١ .
٧١ – المصدر نفسه ٨: ٣١١ .
٧٢ – المصدر نفسه ٨: ٣٥١ – ٣٥٢ .
٧٣ – المصدر نفسه ٨: ٦٠٠ .
٧٤ – المصدر نفسه ٨: ٦١٤ – ٦١٦ .
٧٥ – المصدر نفسه ٨: ٦٣٨ – ٦٣٩ .
٧٦ – راجع تفاصيل أكثر في: عبدالمجيد الحر، أبو فراس الحمداني، ص ٧ – ١٢ .
٧٧ – كامل ابن الأثير ٨: ٤١٩ .
٧٨ – المصدر نفسه ٨: ٤٥١
٧٩ – شرح ديوان المتنبي ٣: ٢٧٧ .
٨٠ – نصول: جمع نصل .
٨١ – كامل ابن الأثير ٨: ١٦٣ .
٨٢ – ديوان أبي فراس ١: ١١ – ١٦ .

٨٣ - هو أول اثنين كانا يقودان تلك القبائل .

٨٤ - إشارة إلى " محمد بن قريع " العقيلي، ثاني الاثنين اللذين كانا يقودان القبائل تلك.

٨٥ - ديوان أبي فراس ١: ١٦ - ١٧ .

٨٦ - المصدر نفسه ١: ١٧ - ١٨ .

٨٧ - شعر الببغاء، ص ١٤٧ .

٨٨ - شرح ديوان المتنبي ١: ٢٠٤، ويتيمة الدهر ١: ٢٥ - ٢٨ .

٨٩ - ديوان أبي فراس ٢: ١١٩ .

٩٠ - المصدر نفسه ٢: ١٤٧ .

٩١ - كامل ابن الأثير ٨: ٥٤٧ .

٩٢ - المصدر نفسه ٨: ٥٤٨ و ٥٥١ - ٥٥٢ .

٩٣ - زبدة الحلب ١: ١٦٠ - ١٦١ .

٩٤ - تاريخ الإسلام السياسي ٣: ١٣١ .

٩٥ - زبدة الحلب ١: ١٨٥، وتاريخ الإسلام السياسي ٣: ١٣٢ .

٩٦ - كامل ابن الأثير ٨: ٥٤٦ .

٩٧ - المصدر نفسه ٨: ٥٦١ - ٥٦٢

٩٨ - المصدر نفسه ٨: ٦٠٨ - ٦٠٩

٩٩ - مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ٢٧ .

١٠٠ - كامل ابن الأثير ٨: ٢١٤ .

١٠١ - يتيمة الدهر ١: ٢٤ .

١٠٢ - ديوان أبي فراس ١: ١١٩ و١٤٧ .

١٠٣ - شرح ديوان المتنبي ٣: ١٥٤ .

١٠٤ - زبدة الحلب ١: ١٤٧ - ١٤٨ .

١٠٥ - ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ٢٧٧ .

١٠٦ - راجع، للتوسع: محمود غناوي الزهيري، الأدب في ظل بني بويه ١٥ - ٣٥ .

١٠٧ - كامل ابن الأثير ٨: ٢٦٤ ٢٧٨ و ٢٩٨ - ٣٠٢ .

١٠٨ - المصدر نفسه ٨: ٤٤٩ - ٤٥٢ .

١٠٩ - المصدر نفسه ٨: ٤٥٢ - ٤٥٣ .

١١٠ - الأدب في ظل بني بويه، ص ٣ .

١١١ - كامل ابن الأثير ٨: ٤٥٣ - ٤٥٥ .

١١٢ - المصدر نفسه ٨: ٤٧٨: ٤٨٠

١١٣ - المصدر نفسه ٨: ٤٧٧ . ومات عماد الدولة عام ٣٣٨هـ .

١١٤ - المصدر نفسه ٨: ٥٢٢ - ٥٢٤، و ٥٢٧، وزبدة الحلب ١: ١٢٨ - ١٢٩ .

١١٥ - كامل ابن الأثير ٨: ٥٥٣ - ٥٥٤ .

١١٦ - المصدر نفسه ٨: ٦٩٢ - ٦٩٣ .

١١٧ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣: ١٤٢ - ١٤٥ .

١١٨ - زبدة الحلب ١: ١١١ - ١١٢، وكامل ابن الأثير ٨: ٤٤٥ - ٤٤٦ .

١١٩ - سيف الدولة وعصر الحمدانيين، ص ٦٧ .

١٢٠ - زبدة الحلب ١: ١١٣ - ١١٥ ؛ وكامل ابن الأثير ٨: ٤٤٥ ٤٤٦ . يذكر محقق زبدة الحلب أن ابن العديم تفرد بتفصيل هذه الحوادث التي جاءت موجزة في تاريخ أبي الفداء وتاريخ ابن الوردي (زبدة الحلب ١: ١١٥ - هامش ١). وقد جاءت موجزة كذلك في كامل ابن الأثير ٨: ٤٤٥ - ٤٤٦ .

١٢١ - ديوان أبي فراس ٢: ١١٧ .

١٢٢ - زبدة الحلب ١: ١١٣ - ١٢٠، وكامل ابن الأثير ٨: ٤٥٧ - ٤٥٨ .

١٢٣ - كامل ابن الأثير ٨: ٥٩٠ .

١٢٤ - راجع: عمر فروخ، أبو فراس ١٧ ؛ وحسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣: ١٤٩ - ١٦٢ .

١٢٥ - كامل ابن الأثير ٨: ٥٩١ ٥٩٢ ؛ وتاريخ الإسلام السياسي ٣: ١٥٦ .

١٢٦ - في مصادر أخرى: بنجتوكين

١٢٧ - زبدة الحلب ١: ١٨٥ - ١٨٨ .

١٢٨ - المصدر نفسه ١: ١٨٨ .

١٢٩ - المصدر نفسه ١: ١٨٨ - ١٩٢ .

١٣٠ - المصدر نفسه ١: ١٩٢ .

١٣١ - المصدر نفسه ١: ١٩٢ .

١٣٢ - المصدر نفسه ١: ١٩٥ - ١٩٧، والدولة البيزنطية ٦٧٧ .

١٣٣ - زبدة الحلب ١: ١٩٨ - ٢٠٠، والدولة البيزنطية ٦٨١ - ٦٨٢ .

١٣٤ - راجع: نصرت عبد الرحمن، شعر الصراع مع الروم ١١ - ٢٣ .

١٣٥ - المرجع نفسه ٢٣ - ٢٦ .

١٣٦ - كامل ابن الأثير ٨: ١٦٠

١٣٧ - المصدر نفسه ٨: ١٦٠ و ١٦٧ .

١٣٨ - المصدر نفسه ٨: ١٦٩ .

١٣٩ - المصدر نفسه ٨: ١٧٧ - ١٧٨ .

١٤٠ - المصدر نفسه ٨: ١٩٨ - ١٩٩

١٤١ - اسمها الآن " سيرت تج وتتبع تركية . ١٤٢

- تتبع الآن تركية .

١٤٣ - كامل ابن الأثير ٨: ٢١٣ .

١٤٤ - المصدر نفسه ٨: ٢٣٣ - ٢٣٤ .

١٤٥ - الثعالبي: يتيمة الدهر ١: ٢٨ .

١٤٦ - السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٤٠٥ نقلاً عن " كانار".

١٤٧ - سامي الكيالي: سيف الدولة وعصر الحمدانيين، ص ٨٨ .

١٤٨ - زبدة الحلب ١: ١٤٣ .

١٤٩ - كامل ابن الأثير ٨: ٥٦٠ و ٥٦١ .

١٥٠ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣: ٢٩٦ .

١٥١ - هو في تركية اليوم، واسمه " خربوط (بلدان الخلافة الشرقية ١٤٩) .

١٥٢ - ديوان أبي فراس ١: ١٤١ (شرح ابن خالويه)، وسامي الكيالي: سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٢٠٥ - ٢٠٦ (نصوص ابن ظافر وابن الأزرق) .

١٥٣ - المصدر نفسه ٢٠٧ - ٢٠٩ .

١٥٤ - سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٢٠٧ - ٢٠٩ (نقلاً عن يحيى بن سعيد) .

١٥٥ - كامل ابن الأثير ٨: ٤٤٦، وانظر: سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٢٠٩، (نقلاً عن الذهبي ١: ١٦٠) .

١٥٦ - زبدة الحلب ١: ١١٣ .

١٥٧ - كامل ابن الأثير ٨: ٤٨٠ .

١٥٨ - زبدة الحلب ١: ١٢٠ - ١٢١ .

١٥٩ - شرح ديوان المتنبي ٤: ٤٣ .

١٦٠ - الطاسم: الطامس، الدارس .

١٦١ - كامل ابن الأثير ٨: ٤٨٥ - ٤٨٦ ؛ وزبدة الحلب ١: ١٢١ .

١٦٢ - ديوان أبي فراس ١: ١٣٩ - ١٤٠ (شرح ابن خالويه).

١٦٣ - زبدة الحلب ١: ١٢٢ . يقول ابن الشحنة: وجاء الدمستق ليمنع من بنائها، فقصده سيف الدولة، فولّى هارباً، وتمّم سيف الدولة عمارتها (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ١٩٢)، (وانظر، أيضاً: ديوان أبي فراس ١: ١٢٦ شرح ابن خالويه)

١٦٤ - شرح ديوان المتنبي ١: ١٨٨ و١٩٣

١٦٥ - زبدة الحلب ١: ١٢٣ - ١٢٥

١٦٦ - شرح ديوان المتنبي ٢: ٧ . الأملاك هنا: الملوك . والبيت من قصيدته المشهورة:

لكل امرئٍ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا.

١٦٧ - ديوان أبي فراس ١:١١٨.

١٦٨ - الزراور: جمع زروار، وهو البطريق أيضاً.

١٦٩ - ديوان أبي فراس١: ١٤٤ - ١٤٥ (شرح ابن خالويه) ؛ ويتيمة الدهر ١: ٢٩ ؛ وكامل ابن الأثير ٨: ٥٠٨، وزبدة الحلب ١: ١٢٥ .

١٧٠ - ديوان أبي فراس ١: ١١٨ .

١٧١ - الأحيدب: جبل مطلّ على " الحدث " .

١٧٢ - سيف الدولة وعصر الحمدانيين، ص ٢١٦ .

١٧٣ – شرح ديوان المتنبي ٤: ٩٤ .

١٧٤ – وصفها بالحمراء لأنها احمرّت بدماء الأعداء .

١٧٥ – سيف الدولة وعصر الحمدانيين، ص ٢١٧ .

١٧٦ – شرح ديوان المتنبي ٣: ٢٥٣ .

١٧٧ – زبدة الحلب ١:١٢٥–١٢٧ ؛ وسيف الدولة وعصرالحمدانيين ٢١٨ (نقلاً عن ابن ظافر ١: ٨) ؛ وديوان المتنبي ٤: ٣٠٧ .

١٧٨ – كامل ابن الأثير ٨: ٥١٧، وزبدة الحلب ١: ١٢٧ ؛ وسيف الدولة وعصر الحمدانيين ٢١٨(عن يحيى بن سعيد) .

١٧٩ – زبدة الحلب ١: ١٢٧ .

١٨٠ – سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٢٢٠ (عن يحيى بن سعيد) .

١٨١ – زبدة الحلب ١: ١٢٧ – ١٢٨ ؛ وسيف الدولة وعصر الحمدانيين ٢٢٠ – ٢٢١ (عن يحيى بن سعيد) .

١٨٢ – زبدة الحلب ١: ١٢٩ – ١٣٠ .

١٨٣ – كامل ابن الأثير ٨: ٥٣١: ٥٣٢ ؛ وزبدة الحلب ١: ١٣٠ – ١٣٣ .

١٨٤ – زبدة الحلب ١: ١٣١ .

١٨٥ – شعر الصراع مع الروم، ص ٣٤ .

١٨٦ – كامل ابن الأثير ٨: ٥٣٦ .

١٨٧ – سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٢٢٢ (عن ابن ظافر ١: ٩) .

١٨٨ – راجع التفاصيل في: كامل ابن الأثير ٨: ٥٣٨ – ٥٣٩، وزبدة الحلب ١: ١٣٢ .

١٨٩ – راجع التفاصيل في: كامل ابن الأثير ٨: ٥٤٠ – ٥٤٢، وزبدة الحلب١: ١٣٢–١٤١ .

١٩٠ – كامل ابن الأثير ٨: ٥٤٧ .

١٩١ – كامل ابن الأثير ٨: ٥٥٢ – ٥٥٣ ؛ وزبدة الحلب ١: ١٤٢ .

١٩٢ – كامل ابن الأثير ٨: ٥٥٥ .

١٩٣ – كامل ابن الأثير ٨: ٥٦٠ – ٥٦١ ؛ وزبدة الحلب ١: ١٤٢ – ١٤٣ .

١٩٤ – كامل ابن الأثير ٨: ٥٧٢ – ٥٧٣ .

١٩٥ - وفيات الأعيان ٣: ٤٠٥ .

١٩٦ - سيف الدولة وعصر الحمدانيين ١٢٥(ومصادره) .

١٩٧ - المرجع نفسه ٢٧ .

١٩٨ - المرجع نفسه ١١٢ .

١٩٩ - شعر الصراع مع الروم، ص ٣٤ .

٢٠٠ - زبدة الحلب ١: ١٤٤

٢٠١ - كامل ابن الأثير ٨: ٥٩٦ - ٥٩٧ ؛ وزبدة الحلب ١: ١٥٧ - ١٦٠ .

٢٠٢ - كامل ابن الأثير ٨: ٥٩٧ - ٥٩٨ .

٢٠٣ - المصدر نفسه ٨: ٦٠٣ .

٢٠٤ - كامل ابن الأثير ٨: ٦٠٤ - ٦٠٥، وزبدة الحلب ١: ١٦٣ - ١٦٩ .

٢٠٥ - كامل ابن الأثير ٨: ٦١٨ - ٦١٩ .

٢٠٦ - المصدر نفسه ٨: ٦٢٧ .

٢٠٧ - الدولة البيزنطية ٤٨٠ - ٤٨١ نقلاً عن كانار .

٢٠٨ - أبو فراس في الأصل كنية الأسد .

٢٠٩ - ديوان أبي فراس توطئة الناشر، ص ١٠ .

٢١٠ - ديوان أبي فراس ١: ١٨٣ - ١٨٤ .

٢١١ - المصدر نفسه ١: ٣٢ .

٢١٢ - المصدر نفسه ٢: ٣٦٦ - ٣٦٧ .

٢١٣ - المصدر نفسه ٣: ٤١٧ (الحاشية) .

٢١٤ - المصدر نفسه ٢: ١٣٧ (شرح ابن خالويه) .

٢١٥ - المصدر نفسه ٢: ١١٤ .

٢١٦ - المصدر نفسه ٢: ١١٤ .

٢١٧ - يتيمة الدهر ١: ٣٥ .

٢١٨ - نشوار المحاضرة ١: ٢٢٥ .

٢١٩ - يتيمة الدهر ١: ٢١ ؛ ووفيات الأعيان ٣: ٤٠٣ .

٢٢٠ - زبدة الحلب ١: ١١٩ - ١٢٠ .

٢٢١ - عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني، ص ٩١ .

٢٢٢ - يتيمة الدهر ١: ٣٥ .

٢٢٣ - سواهم: جمع ساهمة، وهي الضامرة التي غيّرها السفر . الشازب: الضامر من الخيل . قب البطون: من القبب، وهو دقة الخصر (لسان العرب: سهم، وشزب، وقبب) .

٢٢٤ - ديوان أبي فراس ١: ١٤٢ (شرح ابن خالويه) .

٢٢٥ - شعر الصراع مع الروم ٢٠٩ .

٢٢٦ - ديوان أبي فراس ١: ١٤٣ (شرح ابن خالويه) .

٢٢٧ - انظر، فضلاً عما سلف: ديوان أبي فراس ١: ١٤٤(شرح ابن خالويه).

٢٢٨ - ديوان أبي فراس ١: ٣٠٥ - ٣٠٧، ويتيمة الدهر ١: ٤٥ .

٢٢٩ - ديوان أبي فراس ١: ٦٨ .

٢٣٠ - المصدر نفسه ١: ٢٠٠ - ٢٠١ .

٢٣١ - ديوان أبي فراس ٢: ٣٥٦ - ٣٥٩، ويتيمة الدهر ١: ٣٨ .

٢٣٢ - الاصطلام: الإبادة (لسان العرب صلم) .

٢٣٣ - ديوان أبي فراس ١: ١٨٧ - ١٨٩ .

٢٣٤ - زبدة الحلب ١: ١٣١(حاشية ١) .

٢٣٥ - التفت إليها المرحوم النعمان القاضي (أبو فراس الحمداني: الموقف والتشكيل الجمالي، ص ٩٩) .

٢٣٦ - ديوان أبي فراس ١: ١٤٥(شرح ابن خالويه).

٢٣٧ - زبدة الحلب ١: ١٣١ .

٢٣٨ - ديوان أبي فراس ١: ١٤٥ - ١٤٧ (هامش ٢) .

٢٣٩ - في " الوافي بالوفيات " .

٢٤٠ - في " تاريخ المسلمين " . وذكر أن الأسر استمر سبع سنوات .

٢٤١ - في " التعليقة " .

٢٤٢ - في " تاريخ الإسلام " .

٢٤٣ - في " أخبار الزمان " .

٢٤٤ - في " المختصر من أخبار البشر " .

٢٤٥ - وفيات الأعيان ٢: ٥٩ .

٢٤٦ - قال الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩هـ)، كذلك " ...، أسرته الروم في بعض وقائعها وهو جريح . وقد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، وحُمل مثخناً بخرشنة، ثم بقسطنطينة ..." (يتيمة الدهر ١: ٦٠ - ٦١). وذهب إلى مثل هذا دون تحديد القاضي التنوخي (نشوار المحاضرة ١: ٢٢٨)

٢٤٧ - انظر: عبدالجليل عبدالمهدي: أبو فراس الحمداني، ص ١٠٠ (الحاشيتان ٩٨ و ٩٩)، والنعمان القاضي: أبو فراس الحمداني ١٠٣ - ١٠٤ . وثمة دراسات أخرى غير هاتين الدراستين، من مثل دراسة خليل شرف الدين، ودراسة عبدالمجيد الحر، وغيرها ...

٢٤٨ - النعمان القاضي: أبو فراس الحمداني ٩٥ .

٢٤٩ - وفيات الأعيان ٢: ٥٩ .

٢٥٠ - زبدة الحلب ١: ١٤٦ . وقد جعل الفداء عام ٣٥٤هـ.

٢٥١ - ديوان أبي فراس ١: ٣٦ .

٢٥٢ - راجع، مثلاً: خليل شرف الدين، أبو فراس الحمداني (فتوة رومانسية)، ص ٣٦ - ٤٠ .

٢٥٣ - صدرت الطبعة الأولى من كتابه " أبو فراس الحمداني " في سلسلة " الروائع " عام ١٩٢٨م .

٢٥٤ - أبو فراس الحمداني (الروائع)، ص هـ و .

٢٥٥ - النعمان القاضي: أبو فراس الحمداني ١٣١ - ١٣٢ (ومصادره) .

٢٥٦ - زبدة الحلب ١: ١٥٦

٢٥٧ - ديوان أبي فراس ٢: ٣٧٠ - ٣٧١ .

٢٥٨ - انظر، مثلاً: وفيات الأعيان ٢: ٦٠ - ٦١ ؛ وزبدة الحلب ١:١٥٧ .

٢٥٩ - ديوان أبي فراس ١: ٢٩٣ -٢٩٥ .

٢٦٠ - راجع كتابي: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ١٣ -٤٣ . دار الأندلس، بيروت ط ٣: ١٩٨٦ .

٢٦١ - أي بلية على أخرى (لسان العرب أبل) .

٢٦٢ - ظهر الإسلام ١: ٥ - ٦ .

٢٦٣ - المرجع نفسه ١: ٩ - ١٢ .

٢٦٤ - تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٣٠ .

٢٦٥ - ظهر الإسلام ١: ٤٤ .

٢٦٦ - مناقب الترك في: رسائل الجاحظ ١: ٧١ .

٢٦٧ - ظهر الإسلام ١: ٣٢ - ٣٨ .

٢٦٨ - خركاه(بالكاف الفارسية): فارسي دخيل، معناه الخيمة الكبيرة (محمد معين: فرهنك فارسي).

٢٦٩ - يتيمة الدهر ٢:٢٢٥.

٢٧٠ - كتاب الأوراق أخبار الراضي بالله والمتقي لله ٢٥٣ .

٢٧١ - شرح ديوان المتنبي ١: ١٧٤ .

٢٧٢ - لأبقى: أي والله لقد أبقى، فحذف القسم . جليب: مجلوب

٢٧٣ - الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله٦٢، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ٣٦١ .

٢٧٤ - أخبار الراضي بالله والمتقي لله ٦٢ .

٢٧٥ - ظهر الإسلام ١: ٥٠ - ٥٤، وتاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٣٠ - ٤٣١ .

٢٧٦ - ديوان مهيار الديلمي ١: ٦٤ .

٢٧٧ - تاريخ الإسلام السياسي: ٣: ١٠٣ .

٢٧٨ - نقلاً عن: تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٣٨ .

٢٧٩ - حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ٤٤٥ .

٢٨٠ - راجع التفاصيل في: كتاب الأوراق - أخبار الراضي بالله والمتقي لله ٢٣٥ - ٢٣٦.

٢٨١ - المصدر نفسه ٢٣٩ .

٢٨٢ - المصدر نفسه ٢٤٢ .

٢٨٣ - المصدر نفسه ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٢٨٤ - مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ٨٣ .

٢٨٥ - ديوان أبي فراس ١: ١٣ .

٢٨٦ - ظهر الإسلام ١: ٦١ - ٦٣ .

٢٨٧ - ظهر الإسلام ١: ٧٥ - ٧٦ .

٢٨٨ - الدبادب: الطبول

٢٨٩ - تاريخ الخلفاء ٣٧٠- ٣٧١ .

٢٩٠ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ١١٣ .

٢٩١ - كامل ابن الأثير ٨: ١٣٤ .

٢٩٢ - الإسراء، آية ٧٩ .

٢٩٣ - تاريخ الخلفاء ٣٥٥ .

٢٩٤ - كامل ابن الأثير ٨: ٣٠٧ - ٣٠٨ .

٢٩٥ - كامل ابن الأثير ٨: ١٤ - ١٥ .

٢٩٦ - درويش الجندي: الشعر في ظل سيف الدولة ٨٢ .

٢٩٧ - شعر الحرب في أدب العرب ٢٢١ .

٢٩٨ - كامل ابن الأثير ٨: ٥٥٦ - ٥٥٨ .

٢٩٩ - تاريخ الخلفاء ٣٥٠ . وقيل كانت تركية .

٣٠٠ - المصدر نفسه ٣٥٦ .

٣٠١ - ديوان أبي فراس ١: ٦٥ .

٣٠٢ - تجفاف (بكسر التاء): آلة للحرب يلبسه الفرس والإنسان ليقيه في الحرب .

٣٠٣ - راجع: العالم الاسلامي في العصر العباسي ٣٤٨ - ٣٥٧ .

٣٠٤ - تاريخ الخلفاء ٣٣٧ .

٣٠٥ - المصدر نفسه ٣٤٢ .

٣٠٦ - ظهر الإسلام ١: ٧٠ - ٧٤ .

٣٠٧ - كتاب الأوراق - أخبار الراضي بالله والمتقي لله١٠١ .

٣٠٨ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٥٧ .

٣٠٩ - المرجع نفسه ١: ٦٠ .

٣١٠ - أحسن التقاسيم ١٢٦ و٣٢٣ و٣٩٤ و٤٣٩، راجع تفاصيل أكثر في: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٦٣ - ٦٧ .

٣١١ - كامل ابن الأثير ٨: ٧١٠ .

٣١٢ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٩٠ .

٣١٣ - أحسن التقاسيم ١٨٣ .

٣١٤ - كتاب الأوراق - أخبار الراضي بالله والمتقي لله ٧١ .

٣١٥ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٩١ - ٩٤ .

٣١٦ - تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٣٥ . وانظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٩٤ - ١٠٠، وظهر الإسلام ١: ٨٤ - ٨٧

٣١٧ - ظهر الإسلام ١: ٨٧: ٨٩ .

٣١٨ - ظهر الإسلام ١: ٩٧ .

٣١٩ - تاريخ بغداد ١: ١٠٠ - ١٠٥ .

٣٢٠ - الطرد: ما يطرد من الكواسر .

٣٢١ - كذا، ولعلها الصنعانية .

٣٢٢ - القلع: نوع من المعدن ينسب إلى الرصاص .

٣٢٣ - السيوطي: تاريخ الخلفاء ٣٥٦ .

٣٢٤ - نشوار المحاضرة ١: ٢٩٥ .

٣٢٥ - المصدر نفسه ١: ٢٩٦ - ٢٩٧ . وضرائب: جمع ضريب، وهو الصقيع .

٣٢٦ - المصدر نفسه ١: ٢٩٨ - ٢٩٩ .

٣٢٧ - المصدر نفسه ١: ٣٠٤ .

٣٢٨ - المصدر نفسه ١: ٣٠٣ .

٣٢٩ - ضحى الإسلام ١: ١٠٣ - ١٠٧ .

٣٣٠ - الأدب في ظل بني بويه ٤١ - ٤٥ .

٣٣١ - أحسن التقاسيم ٤٤٩ .

٣٣٢ – في الأصل: وأحاط .

٣٣٣ – وفيات الأعيان ٣: ٤٢٢ .

٣٣٤ – تاريخ الإسلام السياسي ٣:٤٤٤ – ٤٤٦.

٣٣٥ – فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ٨٥ – ٨٦ .

٣٣٦ – ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ٦٠ – ٦١ .

٣٣٧ – سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٢٧ .

٣٣٨ – سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٧١ –٧٣، وفنون الشعر في عصر الحمدانيين ٨٦ – ٨٧ .

٣٣٩ – سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٧٣ .

٣٤٠ – يتيمة الدهر ١: ٣٢ .

٣٤١ – المصدر نفسه ١: ٣٦ .

٣٤٢ – محمد كرد علي: خطط الشام ٤: ٩٥ .

٣٤٣ – يتيمة الدهر ١: ٣٦ – ٣٧، وديوان أبي فراس ١: ٢٤٣ .

٣٤٤ – صحراء الدّهناء.

٣٤٥ – يتيمة الدهر ٣: ٤٧ – ٤٩ .

٣٤٦ – سيف الدولة وعصر الحمدانيين ٥٨ – ٥٩ .

٣٤٧ – ديوان السريّ الرّفاء ٣٤ – ٣٦ (نشرة مكتبة القدسي – ١٣٥٥هـ).

٣٤٨ – ديوان أبي فراس ٢: ٣٢٦ – ٣٢٩ .

٣٤٩ – ديوان السريّ الرّفاء٢٤٠ .

٣٥٠ – التنوخي: نشوار المحاضرة ١: ٢٩٦، والفرج بعد الشدّة ٢: ١٩٣ .

٣٥١ – القفطي: أخبار الحكماء ٢١٧ .

٣٥٢ – الموشّى ١٩١ – ١٩٥ .

٣٥٣ – ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣: ٢٣٣ .

٣٥٤ – تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٤٩ .

٣٥٥ – وفيات الأعيان ٤: ٩٩ .

٣٥٦ – الأدب في ظل بني بويه ٤٤، وظهر الإسلام ٢: ٢٢ .

٣٥٧ - معجم الأدباء ٩: ١٣٥ .

٣٥٨ - المصدر نفسه ٩: ١٤٣ .

٣٥٩ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢: ٢٣٠ .

٣٦٠ - معجم الأدباء ٩: ١٣٨ .

٣٦١ - الموشّى ١٩٦ - ١٩٧ .

٣٦٢ - كامل ابن الأثير ٨: ٢٧٣، وتاريخ الخلفاء ٣٥٨ .

٣٦٣ - أخبار الراضي بالله والمتقي لله ٤٧ .

٣٦٤ - الجلاب: ماء الورد . معرّب كلاب (بالكاف الفارسية المضمومة) الفارسية المؤلفة من " كل " (بالكاف الفارسية): الورد، وآب: الماء .

٣٦٥ - مروج الذهب ٤: ٢٦٧ .

٣٦٦ - معجم الأدباء ١٨: ١٣١ .

٣٦٧ - المصدر نفسه١٨: ١٣٠ .

٣٦٨ - أحسن التقاسيم٢٠٠ .

٣٦٩ - قد يقصد بالشيخ والمشايخ في النص كبار السن والرؤساء .

٣٧٠ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢: ٢٤٣ .

٣٧١ - نشوار المحاضرة ٢: ١٧٢ - ١٨٣ .

٣٧٢ - وفيات الأعيان ٥: ١٥٥ - ١٥٦ .

٣٧٣ - الشهرزوري: تاريخ الحكماء (نزهة الأرواح وروضة الأفراح) ٣٠٠ - ٣٠١ .

٣٧٤ - وفيات الأعيان ٥: ١٥٦ .

٣٧٥ - الغزولي: مطالع البدور ٢: ١٧٦ نقلاً عن كانار:نخب تاريخية وأدبية ٢٨٣ .

٣٧٦ - وفيات الأعيان ٥: ١٥٦، وتاريخ الحكماء ٢٩٩ .

٣٧٧ - وفيات الأعيان ٥: ١٥٦ .

٣٧٨ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢: ٢٢٦ .

٣٧٩ - وفي رواية: ثماني مرات .

٣٨٠ - الدبيقي نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التي كانت تصنع في دبيق بمصر.

٣٨١ - ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة - الجزء الثالث، القسم الأول ٣١٣ - ٣١٥ نشرة يحيى عبّادة، وماريوس كانار: نخب تاريخية وأدبية ٢٧٦ - ٢٧٩ نقلاً عن ابن الأزرق.

٣٨٢ - وفيات الأعيان ٧: ٣٣ .

٣٨٣ - راجع في الموضوع كله: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢: ٢٥١ -٢٦١، وتاريخ التمدن الإسلامي٥: ١٧٧ - ١٨٣، وتاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٦٧- ٤٦٩ .

٣٨٤ - يقال أن صِصّه هو الذي وضعه وعرضه على الملك شهرام، وأن أردشير بن بابك هو الذي وضع" النرد " فقيل له " النردشير "(وفيات الأعيان٤:٣٥٧) .

٣٨٥ - وفيات الأعيان ٤: ٣٥٦ - ٣٦٠ .

٣٨٦ - تاريخ التمدن الإسلامي٥: ١٨١ .

٣٨٧ - كشاجم: أدب النديم٨١ - ٨٧ .

٣٨٨ - يتيمة الدهر ٢: ٢٢١ .

٣٨٩ - ديوان أبي فراس٢: ٤٣٥ .

٣٩٠ - تاريخ الخلفاء ٣٦٧ .

٣٩١ - أحسن التقاسيم ١٨٣ .

٣٩٢ - تاريخ الإسلام السياسي٣: ٤٦٢ .

٣٩٣ - راجع فصل الأعياد في: الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع ٢: ٢٧٦ - ٢٩٥ .

٣٩٤ - كامل ابن الأثير ٨: ١٠٧ .

٣٩٥ - تاريخ الخلفاء ٣٥٣ .

٣٩٦ - تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٦٤ .

٣٩٧ - راجع في احتفالات الزواج قبل هذا العصر: تاريخ التمدن الإسلامي ٥: ١٦٨ - ١٦٩ .

٣٩٨ - عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني٥٧ نقلاً عن " أخبار الدول المنقطعة "، وظهر الإسلام ١: ٧٥ .

٣٩٩ - تاريخ التمدن الإسلامي ٥: ١٦٥ - ١٦٧ .

٤٠٠ - الطبرزينات: جمع الطبرزين .ضرب من الفؤوس كانت من آلات القتال القديمة ويعرف عند أهل بغداد (وغيرهم) اليوم بِ " الطبر " (ميخائيل عواد: صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ٤٢ - هامش ٦)

٤٠١ – تاريخ التمدن الإسلامي٥: ١٦٧،وراجع مبحث " صور من العيد " في: صورمشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي٨٤ – ٨٦ .

٤٠٢ – تاريخ التمدن الإسلامي٥: ١٦٦ – ١٦٧ .

٤٠٣ – الجتر: لفظة فارسية معناها المظلّة أو ما يعرف في بلاد الشام بالشمسيّة .

٤٠٤ – تاريخ التمدن الإسلامي٥: ١٦٦ .

٤٠٥ – عبدالجليل عبد المهدي: أبوفراس الحمداني ٥١ نقلاً عن تاريخ الموصل ٢: ٣٥، وانظر: الشعر في مجتمع الحمدانيين ٨٩.

٤٠٦ – ظهر الإسلام ١: ١٠٨ .

٤٠٧ – الخير: الشرف والأصل الكريم .

٤٠٨ – أحمد الدلجي: الفلاكة والمفلوكون ٥٥ .

٤٠٩ – راجع " من صور ظاهرة الفقر في شعر القرن الثاني الهجري " في كتابي: الوجه الآخر: دراسات نقدية،ص ١١٧ – ١٢٥ ، دار الثقافة، الدوحة ١٩٨٦ .

٤١٠ – الفخري في الآداب السلطانية ٢٧٦ .

٤١١ – ظهر الإسلام ١: ١٣٤ .

٤١٢ – المرجع نفسه ١: ١١٤ .

٤١٣ – ظهر الإسلام ١: ١١٤ .

٤١٤ – المرجع نفسه ١: ١٢٠ – ١٢١ .

٤١٥ – راجع الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٢٢٣ – ٢٣٦، وأخبار الراضي بالله والمتقي لله ٢٥١

٤١٦ – ظهر الإسلام ٢: ١١٥ .

٤١٧ – أبو فراس الحمداني ٣٠ .

٤١٨ – الأدب في ظل بني بويه ٤٢ .

٤١٩ – سورة الحاقة، آية ٢٨ – ٢٩ .

٤٢٠ – وفيات الأعيان ٤: ٥٤،وكامل ابن الأثير ٩: ١٨ .

٤٢١ – وفيات الأعيان ٣: ٤٢٢ .

٤٢٢ - نخب تاريخية وأدبية ٢٦٣ (نقلاً عن ابن ظافر) .

٤٢٣ - كامل ابن الأثير ٨: ٤٦٥ .

٤٢٤ - المصدر نفسه ٩: ٣٧ .

٤٢٥ - المصدر نفسه ٩: ٥١ وانظر ٥٦ كذلك.

٤٢٦ - المصدر نفسه ٩: ٩٤ .

٤٢٧ - المصدر نفسه ٩: ١٠١

٤٢٨ - الكُرّ (بضم الكاف): مكيال بابلي الأصل كان يساوي آنذاك ٣٠ كارة (راجع التفاصيل في:المكاييل والأوزان الإسلامية ٦٩ - ٧٠) .

٤٢٩ - كامل ابن الأثير ٩: ١٠١ .

٤٣٠ - وفيات الأعيان ٣: ٢١٩ - ٢٢٢، والفلاكة والمفلوكون ٨٦ .

٤٣١ - معجم الأدباء ٢: ٢٤٢،ووفيات الأعيان ١: ١٣٤ .

٤٣٢ - البواري: جمع بوريّة، الحصير المنسوج من القصب .

٤٣٣ - معجم الأدباء ٢: ٢٥٨ - ٢٦٠ .

٤٣٤ - المصدر نفسه ٢: ٢٥٠ .

٤٣٥ - المصدر نفسه ٢: ٢٥٤ .

٤٣٦ - مثالب الوزيرين ٨١.

٤٣٧ - البصائر والذخائر ، المجلد الثاني (٢): ٤٨١ - ٤٨٢ (تحقيق إبراهيم الكيلاني).

٤٣٨ - الصداقة والصديق٧ - ٨ .

٤٣٩ - مثنى طِمْر، وهو الثوب الخَلَق .

٤٤٠ - الإمتاع والمؤانسة ٣: ٢٢٣ - ٢٢٤ .

٤٤١ - المصدر نفسه ٣: ٢٢٦ - ٢٢٨ .

٤٤٢ - الباقلّى: الفول .

٤٤٣ - سذاب (بالدال المعجمة والمهملة): جنس زهر من القرنيات الفراشيّة (دوزي: تكملة المعاجم العربية ٦: ٥٢) .

٤٤٤ - الإمتاع والمؤانسة ٣: ٢١١ - ٢١٢ .

٤٤٥ - معجم الأدباء ١٥ - ١٦ .

٤٤٦ - المصدر نفسه ١٥: ١٩ - ٢٠ .

٤٤٧ - المصدر نفسه ١٥: ١٠ .

٤٤٨ - في رسالتها المخطوطة للدكتوراه " مجتمع القرن الرابع في آثار أبي حيان التوحيدي " (الجامعة الأمريكية،بيروت . آذار ١٩٦٩) . راجع تحديداً الصفحات ١٤٣ - ١٥٠ .

٤٤٩ - راجع، لمزيد من الأمثلة: الفلاكة والمفلوكون٨٢ وما بعدها .

٤٥٠ - المقابسات، ص ١١١ .

٤٥١ - يتيمة الدهر ٤: ٦٨ - ٦٩ .

٤٥٢ - البقرة، آية ٥٤ .

٤٥٣ - يتيمة الدهر ٤: ١٥٧ (وفيه محمد بن أحمد)، ومعجم الأدباء ٤: ٢٤٥، وفوات الوفيات ١: ١٥١ .

٤٥٤ - وداد القاضي: مجتمع القرن الرابع في آثار أبي حيّان التوحيدي ١٤٩ - ١٥١، وظهر الإسلام ٢: ١٠ .

٤٥٥ - راجع التفاصيل في: محمد رجب النّجار: حكايات الشطّار والعيارين في التراث العربي (ومصادره)، ص ٧٩ - ١٠٥ . وانظر: ظهر الإسلام٢: ١٠ و٣٢ - ٣٣ .

٤٥٦ - الأدب في ظل بني بويه ٥١ .

٤٥٧ - ظهر الإسلام ١: ١٢١ و ٢: ٣١ .

٤٥٨ - أخبار الراضي بالله والمتقي لله ٢٣٥ - ٢٣٦ .

٤٥٩ - المصدر نفسه ٢٣٦ .

٤٦٠ - المصدر نفسه ٢٣٧ .

٤٦١ - المصدر نفسه ٢٣٧ .

٤٦٢ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١:٢٢٢ .

٤٦٣ - صورة الأرض ١٩٣ و ١٩٥ و١٩٨ و ٢٠٣ .

٤٦٤ - تجارب الأمم٢: ٣٨٤ .

٤٦٥ - الشعر في ظل سيف الدولة ٧٣.

٤٦٦ - صورة الأرض ١٩١ - ١٩٣ .

٤٦٧ - الشعر في ظل سيف الدولة ٧٤، ويتيمة الدهر ١: ٢٠ .

٤٦٨ - الشعر في ظل سيف الدولة ٧٥ - ٧٦ .

٤٦٩ - المرجع نفسه ٧٧، وانظر: أعلام النبلاء ١: ٢٨٧ .

٤٧٠ - صورة الأرض ١٦٦ .

٤٧١ - نخب تاريخية وأدبية ٣٦٧ .

٤٧٢ - المرجع نفسه ٣٨٢ .

٤٧٣ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢: ١٦٩ .

٤٧٤ - أحسن التقاسيم٤٠٤ .

٤٧٥ - المصدر نفسه ٤٤١ .

٤٧٦ - تحقيق ما للهند ٤٧١ - ٤٧٢ .

٤٧٧ - خطط المقريزي ١: ١٦٤ .

٤٧٨ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢: ١٦٨، ويقال إن عضد الدولة هو الذي ألقاها في دجلة بعد أن أركبها جملاً وشهّر بها إثر تغلبه على أخيها أبي تغلب أمير الموصل عام ٣٦٩ هـ (الزركلي:الأعلام ٢: ١٣٩).

٤٧٩ - وفيات الأعيان ٣: ٣٦٣ .

٤٨٠ - القلقشندي: صبح الأعشى ١: ٦٤ .

٤٨١ - أحسن التقاسيم ٣٥٦، والحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢: ٣٦٣ .

٤٨٢ - القهرمانة: مؤنث قهرمان، وهي فارسية دخيلة معناها: الممثل والوكيل .

٤٨٣ - المسعودي: التنبيه والإشراف ٣٢٨،وتاريخ الخلفاء٣٥٣ .

٤٨٤ - نشوار المحاضرة ١: ٢٩٢ و ٢٩٣ .

٤٨٥ - كامل ابن الأثير ٨: ٩٨ .

٤٨٦ - المصدر نفسه٨: ١٣٧ .

٤٨٧ - الفخري في الآداب السلطانية ٢٦٧ - ٢٦٨ .

٤٨٨ - تاريخ الإسلام السياسي٣: ٢٦٤ و ٤٥٦ .

٤٨٩ - الفخري في الآداب السلطانية٢٦٨ .

٤٩٠ - أخبار الراضي بالله والمتقي لله ٥ - ٦،وانظر: ٢٦ كذلك

٤٩١ - معرب " بيمارستان " الفارسيّة .

٤٩٢ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢: ٢٠٤،وتاريخ الخلفاء ٣٥٣ .وراجع، لمزيد من المعلومات عن مستشفيات ذلك العصر: صورة مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ١١٠ - ١١٦ .

٤٩٣ - كامل ابن الأثير ٨: ٢٤٤ - ٢٤٥ .

٤٩٤ - نشوار المحاضرة ٢: ٧٦ .

٤٩٥ - كامل ابن الأثير ٨: ٢٤٥،ونشوار المحاضرة ٢: ٧٧ - ٧٩ .

٤٩٦ - الفرج بعد الشدة ٢: ٤٥ - ٤٦،وانظر القصة رقم (٣٧٨) في المصدر نفسه ٤: ٢٨ - ٤٢ .

٤٩٧ - خطط المقريزي٢: ١٣٩ - ١٤٠ .

٤٩٨ - خطط المقريزي ٢: ١٣٩ .

٤٩٩ - المقري: نفح الطيب ١: ٣٩٩ و٦٠٣ و٢: ٣٠٤ و٣: ٧٨ و٨٨ و٩٢ و٩٣ (نشرة إحسان عبّاس) .راجع تفاصيل أكثر في: تاريخ الإسلام السياسي٣: ٤٥٧ - ٤٦٠ .

٥٠٠ - ظهر الإسلام ٢، ٢ .

٥٠١ - تاريخ الخلفاء ٣٦٣.

٥٠٢ - أخبار الراضي بالله والمتقي الله، ص١٦

٥٠٣ - راجع التفصيلات في: الأدب في ظل بني بويه - الفصل الثاني ١٢٦ - ١٣٦.

٥٠٤ - ظهر الإسلام ٢:٢

٥٠٥ - تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٣٣٩.

٥٠٦ - ظهر الإسلام١: ٣١٥ - ٣١٨.

٥٠٧ - تاريخ الإسلام السياسي: ١٧٤:٣

٥٠٨ - المرجع نفسه ٣: ١٨٥-١٨٦ (ومصادره كذلك).

٥٠٩ - ظهر الإسلام ١: ٣١١ - ٣١٥.

٥١٠ – أحسن التقاسيم ١٠٣.

٥١١ – أحسن التقاسيم ٩٦ – ٩٧ .

٥١٢ – رشيد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، ص٣٢ و ١٤٢ و١١٣ و١١٤ و١٢٥ .

٥١٣ – صبح الأعشى ١: ٤٦٦، وحركة الترجمة في المشرق الإسلامي ٢١٦ – ٢٢٠

٥١٤ – انظر: ابن النديم، الفهرست ٣٠٩ و٣١٠ و٣١١ و٣١٢ (تحقيق رضا تجدّد)، والقفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ٣٠ – ٣١، وطبقات الأطباء ٢: ٢٢٧ .

٥١٥ – إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٣٠ – ١٣٣، والفهرست ٣٥٩ – ٣٦٠، وطبقات الأطباء ٢: ٢٠٧، ومعجم الأدباء ١١: ٢٦٢ – ٢٦٣ .

٥١٦ – الفهرست ٣٢٢، وإخبار العلماء ٢٣٦ – ٢٣٨، وطبقات الأطباء ٢: ٢٢٧ – ٢٢٨، وراجع التفاصيل في: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي ٢٩٨ –٣٠٢ .

٥١٧ – الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٧ .

٥١٨ – فروقة: من الفرق (بفتح الفاء)، الشديد الفزع .

٥١٩ – المختلفة: أي المسائل المختلفة .

٥٢٠ – الفهرست ٣٢٣ . في الأصل (الموجودين)، والتصحيح من "إخبار العلماء " (ص ١٦٣).

٥٢١ – في الفهرست: " الفص "، وهو تحريف .

٥٢٢ – الفهرست ٣٢٣، وإخبار العلماء ١٦٣ – ١٦٤، وطبقات الأطباء ٢: ٢٢٨ –٢٣٠ .

٥٢٣ – الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٣ .

٥٢٤ – الغائمة: السحابة .

٥٢٥ – يتيمة الدهر ٢: ٢١٦ .

٥٢٦ – المصدر نفسه ٢: ٢١٧ .

٥٢٧ – المصدر نفسه ٢: ٢٢٦ – ٢٢٧ .

٥٢٨ – معجم الأدباء ٩: ١٤٣ .

٥٢٩ – يتيمة الدهر ٣: ١٦٠ و ١٧٥ – ١٧٨ .

٥٣٠ – يتيمة الدهر ٣: ١٥٦ ، وشرح ديوان المتنبي ٢: ٢٧٦ .

٥٣١ – في اليتيمة: بعدهم .

٥٣٢ – يعني سمعته يدرس كتبه هو، أي يتكلم بالعلوم التي فيها ؛ فضلاً عن جمعه بين جلال الملك، وفصاحة البدو، وظرف الحضر .

٥٣٣ – يتيمة الدهر ٣: ١٩٣ .

٥٣٤ – المصدر نفسه ٣: ١٨٨ .

٥٣٥ – المصدر نفسه ٣: ١٨٩، ووفيات الأعيان ١: ٢٢٩ .

٥٣٦ – وفيات الأعيان ٧: ٢٩ .

٥٣٧ – الخوان: فارسية دخيلة تعني المائدة، والفرس لا يلفظون " الواو " .

٥٣٨ – وفيات الأعيان ٧: ٢٩ .

٥٣٩ – المصدر نفسه ٧: ٣٠ .

٥٤٠ – يتيمة الدهر ١: ١٦، ونخب تاريخية وأدبية ٢٨٣ نقلاً عن مطالع البدور للغزولي. وترجم الثعالبي لهؤلاء وغيرهم في " اليتيمة "، ولا غرو فهو مؤرخ المئة الرابعة الهجرية أدبياً .

٥٤١ – يتيمة الدهر ١: ١٦ .

٥٤٢ – المصدر نفسه ١: ٢٠ .

٥٤٣ – وفيات الأعيان ٥: ١٥٥ .

٥٤٤ – الإجازة هنا أن ينظم شاعر شطر بيت ويطلب إلى آخر أن يكمل، وهكذا .

٥٤٥ – يتيمة الدهر ١: ٢٠ – ٢٢ . ووفيات الأعيان ٣: ٤٠٥ .

٥٤٦ – وفيات الأعيان ١: ١٩٧ – ١٩٨، ومعجم الأدباء ٩: ٢٠١ – ٢٠٢ .

٥٤٧ – معجم الأدباء ٩: ٢٠٣، وانظر: يوسف البديعي: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، ص ٨٧ .

٥٤٨ – الصبح المنبي ٨٦ .

٥٤٩ – نفح الطيب ١: ٣٩٦ – ٣٩٨ .

٥٥٠ – المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ٦٠ .

٥٥١ – نفح الطيب ١: ٤٠٩ .

٥٥٢ – الحنوط: طيب يخلط للميّت خاصة (اللسان – حنط) .

٥٥٣ – نفح الطيب ١: ٤٠٩ .

٥٥٤ – نفح الطيب ٣: ٧٦ – ٨٤ .

٥٥٥ – إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٨٦ .

٥٥٦ – الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٣ .

٥٥٧ – المقابسات ١١ .

٥٥٨ – المصدر نفسه ١٢، وانظر: ٣٧ و ٤١ و ٥٥ و ٦١ مثلاً .

٥٥٩ – المصدر نفسه ٣٤ و ٣٥ و ٤٣ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٨ و ٤٩و ٥٢ و ٥٣ مثلاً .

٥٦٠ – يتيمة الدهر ٤: ١٠١ .

٥٦١ – المصدر نفسه ٤: ١٠١ . وقد ذكر الثعالبي أقطاب ذلك المجمع وغيرهم، وأورد بعض أخبارهم وآثارهم وأشعارهم .

٥٦٢ – ظهر الإسلام ١: ١٣٥ – ١٣٦ .

٥٦٣ – معجم الأدباء ٨: ١٥٢ و ١٥٥ و ١٧٧ و ١٨٧ .

٥٦٤ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١:٣٠١ .

٥٦٥ – بلد مشهور في أرمينية، كان أهله من الأرمن والروم (معجم البلدان ٥: ٢٠٢).

٥٦٦ – وفيات الأعيان ١: ١٤٣ .

٥٦٧ – راجع التفاصيل في: تاريخ التمدن الإسلامي ٣: ٢٣٠ – ٢٣٢، والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٣٠٤ – ٣٠٥ .

٥٦٨ – وفيات الأعيان ٣: ٣١٩ .

٥٦٩ – أحسن التقاسيم ٤٤٩ .

٥٧٠ – وفيات الأعيان ٢: ١٥٨ .

٥٧١ – وفيات الأعيان ١: ٢٣١ .

٥٧٢ – معجم الأدباء ٦: ٢٥٩ .

٥٧٣ – تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ١٠٩ – ١١٥ (ترجمة الشواربي) .

٥٧٤ – كامل ابن الأثير ٩: ٤٠١ .

٥٧٥ – تجارب الأمم ٢: ٢٢٤ – ٢٢٥ .

٥٧٦ – انظر كذلك: فوات الوفيات ٤: ٥٢ . والخالديان، هما: أبو بكرمحمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم بن وعْلة الذي ينتهي نسبه إلى عبد القيس . توفي الأول عام ٣٨٠هـ، والآخر في حدود عام ٤٠٠ هـ .

٥٧٧ – ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ١: ١٢٢ (نشرة إحسان عباس) .

٥٧٨ – معجم الأدباء ١٩: ١١٠ – ١١١ .

٥٧٩ – راجع: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٣٠٧ – ٣٠٩ .

٥٨٠ – المرجع نفسه١: ٣٠٥ .

٥٨١ – معجم الأدباء ٧: ١٩١ – ١٩٢ .

٥٨٢ – الورق (بكسر الراء): الفضة .

٥٨٣ – معجم الأدباء ٧: ١٩٣ .

٥٨٤ – أحسن التقاسيم ٤١٣، والفهرست ١٥٤ .

٥٨٥ – الخوانساري: روضات الجنّات ٦: ١٩٦ .

٥٨٦ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٣١٢ – ٣١٤ نقلاً عن يحيى بن سعيد، وجرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٣: ٢٣٠ – ٢٣٢ .

٥٨٧ – أحسن التقاسيم ٢٠٥ .

٥٨٨ – إمام المذهب الظاهري في المشرق، وصاحب كتاب " الزّهرة " (بضم الزاي وفتح الهاء) .

٥٨٩ – معجم الأدباء ١: ٢٥٦ – ٢٥٧ .

٥٩٠ – وفيات الأعيان ١: ٢٨ .

٥٩١ – المصدر نفسه ٤: ٢٧٢ .

٥٩٢ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٣١٩ .

٥٩٣ – المصدر نفسه ٣١٩:١.

٥٩٤ – ظهر الإسلام ٢: ٢٢٦ – ٢٢٧ .

٥٩٥ – الحران في الأصل للدابة، وقد شبهت به هنا الكلمة التي تخرج عن إدراك العقل لصعوبة معالجتها .

٥٩٦ – ابن حنزابة: جعفر بن الفضل (٣٠٨ – ٣٩١ ه) وزير كافور الإخشيدي . كان عالماً محباً للعلماء (وفيات الأعيان ١: ٣٤٦ – ٣٥٠) .

٥٩٧ - معجم الأدباء ٨: ١٧٨ - ١٨٠ .

٥٩٨ - المصدر نفسه ٣: ١٧٦ - ٢١٨ .

٥٩٩ - راجع التفاصيل في: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٣١٧ -٣٣٢ .

٦٠٠ - السيوطي: المزهر ٢: ٣١٤ .

٦٠١ - تطلّس: لبس الطيلسان .

٦٠٢ - تبعات: جمع تبعة، وهي ما يعلق بالمرء من أشياء لا يرضى عنها الناس .

٦٠٣ - معجم الأدباء ٦: ٢٥٢ .

٦٠٤ - راجعها في: المصدر نفسه ٨: ١٩٠ وما بعدها .

٦٠٥ - المصدر نفسه ٨:١٤٦ - ١٤٧ .

٦٠٦ - المصدر نفسه ١٨: ١٢٧ .

٦٠٧ - وفيات الأعيان ٥: ١٥٦ .

٦٠٨ - المصدر نفسه ١: ٥٠ .

٦٠٩ - الفهرست ٦٦ .

٦١٠ - وفي رواية: دينار .

٦١١ - وفيات الأعيان ٣: ٤٢٣ .

٦١٢ - معجم الأدباء ١٨: ٤٢ .

٦١٣ - المصدر نفسه ١٨: ٤٣ .

٦١٤ - وفيات الأعيان ٤: ٢٩٨، والفهرست ٣٦ .

٦١٥ - وفيات الأعيان ٣: ٢٩٩، ومعجم الأدباء ١٤: ٧٥ .

٦١٦ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٣٣٦ .

٦١٧ - وفيات الأعيان ٣: ١٣٧ .

٦١٨ - أبو حجلة التلمساني: سكردان السلطان ٤٤٩ (منشور بضميمة كتاب " المخلاة " لبهاء الدين العاملي . دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩) .

٦١٩ - وفيات الأعيان ٣: ٢٩٧ .

٦٢٠ - عاش بين ١٦١ و ٢٣٤هـ .

٦٢١ - توفي عام ٢٩٤ هـ.

٦٢٢ - وفيات الأعيان ٣: ٢٩٨، ومعجم الأدباء ٧: ١٦٩ .

٦٢٣ - المصدر نفسه

٦٢٤ - وفيات الأعيان ٤: ٢٨٠ - ٢٨١ .

٦٢٥ - راجع: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٣٦٩ - ٣٧٧ .

٦٢٦ - ظهر الإسلام ٢: ٥٣ - ٥٥ .

٦٢٧ - الفهرست ٢٦١ .

٦٢٨ - القدوري (بضم القاف والدال): نسبة إلى " قدور " جمع " قدر " .

٦٢٩ - وفيات الأعيان ١: ٧٨ - ٧٩ .

٦٣٠ - المصدر نفسه ١: ٧٩ .

٦٣١ - المصدر نفسه ١: ٧٢ - ٧٤ .

٦٣٢ - راجع: ظهر الإسلام ٢: ٥٠ - ٥٢، وتاريخ الإسلام السياسي ٣: ٣٥٧ - ٣٦٠ .

٦٣٣ - نسبة إلى قرية " جُبّى " من أعمال خوزستان، والنسبة القياسيّة إليها " جبّوي " . أمّا " جبّائي " فعلى غير قياس (معجم البلدان ٢: ٩٧).

٦٣٤ - البغدادي: الفرق بين الفرق ١١٠ - ١١١، و وفيات الأعيان ٤: ٢٦٧ - ٢٦٨ .

٦٣٥ - نسبة منحوتة من " أبي هاشم " .

٦٣٦ - وفيات الأعيان ٣: ١٨٣ - ١٨٤ .

٦٣٧ - الفرق بين الفرق ١١١ - ١٢٢ .

٦٣٨ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٤١٦ - ٤١٧ .

٦٣٩ - أخبار الحكماء ١٨٦ .

٦٤٠ - راجع : ظهر الإسلام ٢: ٨٥ - ٨٩ .

٦٤١ - هلال ناجي: مقدمة " متخير الألفاظ " لابن فارس، ص ١٥ .

٦٤٢ - الخصائص ٢: ١٣٣ - ١٣٤ .

٦٤٣ - معجم الأدباء ٧: ٢٣٢ .

٦٤٤ - أبّر: زاد، فاق .

٦٤٥ - معجم الأدباء ١٢: ٨١ - ٨٣ .

٦٤٦ - زبَّبت: أصبحت زبيباً .

٦٤٧ - معجم الأدباء ١٢: ٩٠ - ٩١ .

٦٤٨ - وفيات الأعيان ٢: ٨٠ .

٦٤٩ - معجم الأدباء ٧: ٢٥٧ - ٢٦٠ .

٦٥٠ - وفيات الأعيان ٢: ١٧٨ .

٦٥١ - معجم الأدباء ١٢: ٨٩ و ١٠٢ .

٦٥٢ - المصدر نفسه ١٢: ٨٦ .

٦٥٣ - وفيات الأعيان ٣: ٢٤٨ .

٦٥٤ - وفيات الأعيان ٤: ٣٧٢ .

٦٥٥ - بحث يوهان فك هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه " العربية " ، ص ١٦٧ - ٢٠٧ (ترجمة عبدالحليم النّجار) .

٦٥٦ - راجع وفيات الأعيان ١: ١١٩ . وذكر ياقوت عن ابن الجوزي أن وفاته كانت عام ٣٦٩هـ، وقيل غير ذلك (معجم الأدباء ٤: ٨٠ و ٨٢) .

٦٥٧ - راجع: شوقي ضيف، المدارس النحوية ١٣٥ - ١٥٠ و ٢٣٧ - ٢٤٢ و ٢٥٢ - ٢٧٩ .

٦٥٨ - راجع التفصيلات في: إحسان عبّاس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ١١٣ - ٣٤٩ (طبعة دار الشروق، عمان ١٩٩٣) .

٦٥٩ - تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٠٦ .

٦٦٠ - ظهر الإسلام ٢: ٢٠٤ .

٦٦١ - تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٠٦ . وطبع كتاب أوتيخا ببيروت عام ١٩٠٩م.

٦٦٢ - أصدر ميخائيل عوّاد مستدركاً سمّاه " نصوص ضائعة من كتاب "الوزراء والكتّاب"، وهي نصوص جمعها من مصادر مخطوطة ومطبوعة، ثمّ علّق عليها (دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٦٤م) .

٦٦٣ - الوزراء والكتّاب، مقدمة المحققين، ص ع .

٦٦٤ - تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٠٧ .

٦٦٥ - مروج الذهب ٤: ٢٠٣ .

٦٦٦ - نشرة المستشرق ج . هيورث . د ن، وطبع أولاً بالقاهرة، ثمّ ببيروت (دار المسيرة . ط ٢: ١٩٧٩م) .

٦٦٧ - معجم الأدباء ١٣: ٩٠، وقيل إنه توفي عام ٣٤٥هـ .

٦٦٨ - مروج الذهب - المقدمة، ص ج .

٦٦٩ - راجع كذلك: تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٠٧ - ٤٠٨، وظهر الإسلام ٢: ٢٠٦ - ٢٠٧ .

٦٧٠ - التنبيه والإشراف ١ - ٦، وانظر: معجم الأدباء ١٣: ٩٣ - ٩٤ .

٦٧١ - تجارب الأمم ٢: ١٣٦ .

٦٧٢ - ظهر الإسلام ٢: ٢٠٨ .

٦٧٣ - راجع المقدمة الضافية التي كتبها الشيخ حسن تميم عن مسكويه على " تهذيب الأخلاق "، ص ٥ - ٢٥ .

٦٧٤ - وفيات الأعيان ٢: ٩١ .

٦٧٥ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢: ١، وحركة الترجمة في المشرق الإسلامي ٤٢١ - ٤٣٦ .

٦٧٦ - أحسن التقاسيم ٣- ٥ .

٦٧٧ - حمد الجاسر: مقدمة صفة جزيرة العرب، ص ٣٠ .

٦٧٨ - صدر عن دار الرشيد ببغداد عام ١٩٨١م من تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي.

٦٧٩ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢: ٤ .

٦٨٠ - طبع الكتاب بهذا العنوان أول مرّة في " ليدن "، ثم نشر بعنوان " صورة الأرض».

٦٨١ - صورة الأرض ١١ .

٦٨٢ - أحسن التقاسيم، ص١ .

٦٨٣ - ظهر الإسلام ٢: ١٦٨ - ١٦٩ .

٦٨٤ - راجع: وفيات الأعيان ٥: ١٥٣ - ١٥٧، وإخبار العلماء ١٨٢ - ١٨٤، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣: ٢٢٣ - ٢٣٣ .

٦٨٥ - راجع قائمة كتبه في: إخبار العلماء ١٨٣ - ١٨٤ .

٦٨٦ - وفيات الأعيان ٥: ١٥٤ .

٦٨٧ - تاريخ التمدن الإسلامي ٣: ١٩٩ ؛ وراجع أيضاً: دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٥٥ - ١٧٥ ؛ وظهر الإسلام ٢: ١٤٣ - ١٦٣ ؛ وتاريخ الإسلام السياسي ٣: ٣٨٩ - ٣٩١ .

٦٨٨ - ظهر الإسلام ٣: ١٦٣ - ١٦٩ .

٦٨٩ - راجع فيه، مثلاً: وفيات الأعيان ٢: ١٥٧ - ١٦٢، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣: ٣ - ٢٩، وتاريخ الفلسفة في الإسلام ٢٤٦ - ٢٧٣ .

٦٩٠ - ظهر الإسلام ٢: ١٢٧ .

٦٩١ - تاريخ التمدن الإسلامي ٣: ٢٠٠ - ٢٠١ .

٦٩٢ - راجع تفصيلات أكثر في: تاريخ التمدن الإسلامي ٣: ٢٠٢ - ٢٠٨، وتاريخ الإسلام السياسي ٣: ٣٩٣ - ٤٠١، وحركة الترجمة في المشرق الإسلامي ٣٣١ - ٣٥٨ .

٦٩٣ - عيون الأنباء ٢: ٢٤٩ .

٦٩٤ - عيون الأنباء ٢: ٢٤٩ .

٦٩٥ - راجع: وفيات الأعيان ٥: ١٥٧ - ١٦١ .

٦٩٦ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢: ٢٣٠ .

٦٩٧ - انظر تفاصيل الخبر في: وفيات الأعيان ٥: ١٦٠ .

٦٩٨ - راجع عن جالينوس: شحاتة قنواتي، تاريخ الصيدلة والعقاقير ١٢١ - ١٢٩ .

٦٩٩ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣: ٧٥ .

٧٠٠ - المصدر نفسه ٣: ٧٥ - ٧٧ .

٧٠١ - تاريخ التمدن الإسلامي ٣: ٢١٦ - ٢١٧، وحركة الترجمة في المشرق الإسلامي ٣٧٣ - ٣٨٧ .

٧٠٢ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢: ٢٠٧ .

٧٠٣ - تاريخ حكماء الإسلام ٨٥، وانظر: تاريخ الحكماء ٣١١ - ٣١٣ .

٧٠٤ - إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١١٤ .

٧٠٥ - المصدر نفسه ١١٦ .

٧٠٦ - تاريخ التمدن الإسلامي ٣: ٢١٢ - ٢١٤ .

٧٠٧ - تاريخ الإسلام السياسي ٣: ٤٠٣ .

٧٠٨ - تاريخ الحكماء ٣١١، وانظر: وفيات الأعيان ٥: ١٦٧ - ١٦٨ .

٧٠٩ - يتيمة الدهر ٢: ٣١٢ - ٣٢٥ .

٧١٠ - زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع ١: ٢٩ - ٣٠ .

٧١١ - يتيمة الدهر ١: ٧ .

٧١٢ - راجع: مبحث " يتيمة الدهر و خريدة القصر " (دراسة موازنة) في كتابي "قراءات نقدية " . دار الأندلس، بيروت . ط ٢: ١٩٢، ص ٩ - ١٦ .

٧١٣ - البيت للفرزدق .

٧١٤ - يتيمة الدهر ١: ٧ .

٧١٥ - منشورات دار الثقافة، الدوحة، قطر ١٩٨٥م.

٧١٦ - أبو العباس أحمد بن عبيد الله (ت ٣٢٨ هـ)، وزر للمقتدر فالقاهر، ثم عزل ونكب، ومات بالنوبة القلبية (الأعلام ١: ١٦٦) .

٧١٧ - يتيمة الدهر ٤: ٩٧ .

٧١٨ - المصدر نفسه ٢: ٢٤١ .

٧١٩ - المصدر نفسه ٢:٢٤٥.

٧٢٠ - المصدر نفسه ٢: ٢٤٥ .

٧٢١ - معجم الأدباء ٢: ٢٠ .

٧٢٢ - وفيات الأعيان ١: ٥٣ - ٤٥ .

٧٢٣ - راجع فيهما: النثر الفني في القرن الرابع ٢: ٤٣٥ - ٤٤٠ و ٢٨٤ - ٢٩٥ .

٧٢٤ - يتيمة الدهر ٤: ١٩٤ .

٧٢٥ - معجم الأدباء ١٥: ٧ .

٧٢٦ - البصائر والذخائر ١: ٤ (المقدمة) .

٧٢٧ - أنيس المقدسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ١٩٥ .

٧٢٨ – المرجع نفسه ١٩١ .

٧٢٩ – النثر الفني في القرن الرابع ١: ١٤٠ .

٧٣٠ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٤٢٤ .

٧٣١ – المرجع نفسه ١: ٤٤٧ .

٧٣٢ – تطور الأساليب النثرية ١٩١ .

٧٣٣ – المرجع نفسه ٢٥٠ – ٢٥١ و ٢٠٧، والحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١:٤٢٧ و ٤٢٩ .

٧٣٤ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٤٢٩ .

٧٣٥ – النثر الفني في القرن الرابع ١: ٢٤٩ .

٧٣٦ – راجع: المرجع نفسه ١: ١٦١ – ١٧٩ .

٧٣٧ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٤٤٨ ٤٥١ .

٧٣٨ – المرجع نفسه ١: ٤٥٠ .

٧٣٩ – إخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢١٧ .

٧٤٠ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٤٩١ .

٧٤١ – ظهر الإسلام ١: ١٧٧ .

٧٤٢ – وفيات الأعيان ٤: ٤٢٢ . وفي موت الشاعر غير رواية .

٧٤٣ – المصدر نفسه ١: ١٣١ – ١٣٢ .

٧٤٤ – يتيمة الدهر ١: ٣١٠ .

٧٤٥ – وفيات الأعيان ١: ٣٠١ – ٣٠٣ .

٧٤٦ – نسبة إلى " دار السلام " . راجع فيه: يتيمة الدهر ٢: ٣٩٥ وما بعدها، ووفيات الأعيان ٤: ٤٠٣ – ٤٠٩ .

٧٤٧ – يتيمة الدهر ٣: ٣ .

٧٤٨ – السِّجْف (بفتح السين وكسرها): الستر، الحجاب (اللسان – سجف) .

٧٤٩ – يتيمة الدهر ٣: ٣٠ .

٧٥٠ – المصدر نفسه ٣: ٣ . راجع فيهما كذلك: وفيات الأعيان ٤: ٤١٠ – ٤١٤ (ابن سكّرة) و ٢: ١٦٨ – ١٧٢ (ابن الحجّاج)، وشوقي ضيف : عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ص٤٠١ – ٤٠٥ .

٧٥١ - وفيات الأعيان ٤: ٤١٤ . وللدكتور إحسان عباس فيه كتاب قيم (بيروت ١٩٧٥م)، وقد نشرته دار صادر أخيراً.

٧٥٢ - المصدر نفسه ٤: ٤١٩ .

٧٥٣ - المصدر نفسه ٣: ٣١٣ .

٧٥٤ - حقّقه حسن كامل الصيرفي، ونشر عام ١٩٦٢م (البابي الحلبي، القاهرة).راجع فيه مقدمة المحقق الوافية عن صاحبه وعصره وأدبه (ص ٣ - ٤٧) .

٧٥٥ - يتيمة الدهر ٤: ١٠١ .

٧٥٦ - وفيات الأعيان ٣: ٣٧٦ - ٣٧٨، ويتيمة الدهر ٤: ٣٠٢ - ٣٠٤ .

٧٥٧ - يتيمة الدهر ٢: ١٠٣ .

٧٥٨ - راجع مثلاً: إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ٢٢٨ - ٢٢٩، ومصطفى عوض الكريم: فن التوشيح ٩٣ - ٩٩، وعدنان صالح مصطفى: الجديد في فن التوشيح ٥٥ - ٧٩ .

٧٥٩ - يتيمة الدهر ١: ١٣ .

٧٦٠ - الصبح المنبي ٦٨ - ٦٩ .

٧٦١ - الصبح المنبي ٦٨، وشرح ديوان المتنبي ٣: ١٠١ .

٧٦٢ - الصبح المنبي ٧١ .

٧٦٣ - مع المتنبي ٢٦٤ .

٧٦٤ - المتنبي ١: ٢٢٥ - ٢٥٠ .

٧٦٥ - الطريف في أمر هذا الشاعر أنه " كان أميّاً، وشعره كله ملح وتحف، وغرر وطرف ، ولا تخلو مقطوعة له من معنى حسن أو مثل سائر " (يتيمة الدهر٢: ٢٠٨ - ٢٠٩).

٧٦٦ - يتيمة الدهر ١: ٨٩ - ٩٣ .

٧٦٧ - المصدر نفسه ١: ٨٩ .

٧٦٨ - يتيمة الدهر ١: ٩٣ - ٩٥ .

٧٦٩ - المصدر نفسه ١: ٩٥ - ٩٨ .

٧٧٠ - المصدر نفسه ١: ٩٨ - ١٠٠ .

٧٧١ - المصدر نفسه ١: ١٠٠ - ١٠١ .

٧٧٢ - المصدر نفسه ١: ١٠١ - ١٠٣ .

٧٧٣ - المصدر نفسه ١: ١٠٤ .

٧٧٤ - بياض في الأصل .

٧٧٥ - الفهرست ١٩٥ .

٧٧٦ - يتيمة الدهر ١: ١٠٤ - ١٠٦ .

٧٧٧ - المصدر نفسه ١: ١٠٦ - ١٠٧ .

٧٧٨ - المصدر نفسه ١: ١٠٧ - ١٠٨ .

٧٧٩ - المصدر نفسه ١: ١٠٨ - ١٠٩ .

٧٨٠ - المصدر نفسه ١: ١٠٩ . والجلّنار: فارسي معرّب من: كل (بالكاف الفارسية المضمومة) . ومعناها الورد، ومن «آنار» ومعناها الرُّمان بحيث يكون «زهر الرمّان ».

٧٨١ - المصدر نفسه ١: ١٦ .

٧٨٢ - المصدر نفسه ١: ٣١ - ٣٤ .

٧٨٣ - المصدر نفسه ١: ٢٣ .

٧٨٤ - المصدر نفسه ١: ١٠٤ .

٧٨٥ - المصدر نفسه ١: ١٠٧ .

٧٨٦ - المصدر نفسه ١: ١٠١ - ١٠٢ .

٧٨٧ - مع المتنبي ١٨٣ - ١٨٤ .

٧٨٨ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢: ٣٣٢ - ٢٣٣ .

٧٨٩ - المصدر نفسه ٣: ٢٢٣ .

٧٩٠ - وفيات الأعيان ٥: ١٥٣ .

٧٩١ - الضيغم: الأسد الواسع الشّدق .

٧٩٢ - فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ١٠٣ - ١٠٤، وراجع عرضه الموجز لمجالات فلسفة الفارابي ١٠٠ - ١٠٣ .

٧٩٣ - فراغ في المصدر نفسه .

٧٩٤ - الفهرست ٣٤٣ .

٧٩٥ - إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٥٧ .

٧٩٦ - محمد كرد علي: خطط الشام ٤: ٣١ .

٧٩٧ - درويش الجندي: الشعر في ظلّ سيف الدولة ١٠٤ .

٧٩٨ - نخب أدبيّة وتاريخيّة ٢٦٨ .

٧٩٩ - خطط الشام ٤: ٣٠ - ٣١ .

٨٠٠ - بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٢: ١٠٨ (ترجمة عبدالحليم النجّار) .

٨٠١ - وفيات الأعيان ٣: ١٥٦ - ١٥٨، وراجع فيه: النثر الفني في القرن الرابع ٢: ١٩٢ - ١٩٩، وشوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (مصر - الشام) ٨١١ - ٨١٢ .

٨٠٢ - نخب تاريخية وأدبية ٢٨٥ .

٨٠٣ - يتيمة الدهر ١: ٢٣٦، ووفيات الأعيان ٣: ٢٠٢ .

٨٠٤ - يتيمة الدهر ٣: ٢٣٦، وراجع فيه نماذج من شعره وكتاباته إلى سيف الدولة وغيره ٣: ٢٣٧ - ٢٧٠ .

٨٠٥ - عصر الدول والإمارات (مصر - الشام) ٤٩٤ .

٨٠٦ - بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٢: ١١٠ .

٨٠٧ - وفيات الأعيان ٤: ٤٠١ .

٨٠٨ - حققهما عزالدين التنوخي، وطبعهما مجمع اللغة العربية بدمشق: الأول عام ١٩٦٠، والآخر ١٩٦١ م.

٨٠٩ - راجع: السيوطي، بغية الوعاة ٣١٧، ومقدمة محمد أبي الفضل إبراهيم محقق «مراتب النحويين»، ص ٦ - ١٠ .

٨١٠ - رسالة ابن القارح، ص ٦٣ (منشورة مع رسالة الغفران) .

٨١١ - الصبح المنبي ٨٧

٨١٢ - محمد عبدالجواد: مقدمته على " شجر الدر " من تحقيقه، ص ٢١ .

٨١٣ - اليمين الغموس: الكاذبة تعمّداً .

٨١٤ - معجم الأدباء ٢: ٣٣ .

٨١٥ - المصدر نفسه ٢: ٦٨ .

٨١٦ - المصدر نفسه ١٣ - ٩٨ .

٨١٧ - في ابن خلكان: " يقال إنه جمعه في خمسين سنة، وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه " (وفيات الأعيان ٣: ٣٠٧) .

٨١٨ - المصدر نفسه ١٣: ٩٧، وفيات الأعيان ٣: ٣٠٧ - ٣٠٨ .

٨١٩ - يتيمة الدهر ١: ١٦ .

٨٢٠ - وفيات الأعيان ٢: ٣٦٢ . راجع فيه كذلك: يتيمة الدهر ٢: ١١٧ - ١٨٢، ومعجم الأدباء ١١: ١٨٢ - ١٨٩ .

٨٢١ - ومدح ناصر الدولة وبعض أبنائه وآخرين من بني حمدان . انظر ديوانه، ٥٧ و٨٠ و ٨١ و١٠٢ و١٠٣ و١٠٥ و١٠٦ و١٠٨ و١٠٩ و١١١ و١١٢ و١١٤ ١١٧ و١١٩ و١٥٠ مثلاً.

٨٢٢ - الفهرست ١٩٥ .

٨٢٣ - يتيمة الدهر ٢: ١٨٣ - ٢٠٨ .

٨٢٤ - القاسم بن علي الحريري: درّة الغواص في أوهام الخواص ١٣٧ .

٨٢٥ - رسالة الغفران ٤٢٤ .

٨٢٦ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٤٦٣ .

٨٢٧ - الشعر في ظل سيف الدولة ١٤٨ .

٨٢٨ - قيل ٣٧٠ أو ٣٧١ أو ٣٧٩ أو ٣٩٩ هـ و(وفيات الأعيان ١: ١٢٧) .

٨٢٩ - يتيمة الدهر ١: ٢٢٥ .

٨٣٠ - وفيات الأعيان ١: ١٢٦ .

٨٣١ - يتيمة الدهر ١: ٢٣١ - ٢٣٢ .

٨٣٢ - المصدر نفسه ١: ٢٣٣ .

٨٣٣ - وفيات الأعيان ٣: ٣٧١ .

٨٣٤ - يتيمة الدهر ١: ٢٣٣ .

٨٣٥ - وفيات الأعيان ٣: ٣٦٩، ومعجم الأدباء ١٣: ٢٩٠ .

٨٣٦ - وفيات الأعيان ٣: ٣٧٠ .

٨٣٧ - كشاجم لقب منحوت كما يقول الشاعر من " الكاف من كاتب، والشين من شاعر، والألف من أديب، والجيم من جواد، والميم من منجّم " . وقيل غير ذلك (مقدمة الديوان، ص ٨) .

٨٣٨ - مقدمة ديوان كشاجم ٨ -٩ .

٨٣٩ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١: ٤٦٤ .

٨٤٠ - راجع: فوات الوفيات ٣: ٢٤٠ - ٢٤٥، وبروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٢: ٧٨، وسعود محمود عبدالجابر: الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ١٣٩ - ١٤٤ .

٨٤١ - وفيات الأعيان ٣: ١٩٠ .

٨٤٢ - يتيمة الدهر ١: ٢٧١ .

٨٤٣ - الفهرست ١٩٤ .

٨٤٤ - الشعر في ظل سيف الدولة ١٥٧ - ١٥٨ .

٨٤٥ - الشعر في ظل سيف الدولة ١٥٧-١٥٨.

٨٤٦ - وفيات الأعيان ٣:٤٠٥ .

٨٤٧ - يتيمة الدهر ١: ٣٥، ووفيات الأعيان ٢: ٥٩ .

٨٤٨ - راجع الموضوع مفصّلاً في: الصبح المنبي ٨٧ - ٩١ .

٨٤٩ - المصدر نفسه ٨١ .

٨٥٠ - المصدر نفسه ٩٢ .

٨٥١ - وفيات الأعيان ١: ١٢٢ .

٨٥٢ - مع المتنبي ١٦٩ .

٨٥٣ - المصدر نفسه ٢٤٧ .

****

فهرس

****